

فراعنة من؟

علم الآثار والمتاحف والهوية القومية المصرية من حملة نابليون حتى الحرب العالمية الأولى

تأليف: دونالد مالكولم ريد

ترجمة: رءوف عباس

هذه ترجمة كتاب:

Whose Pharaohs?

Archaeology, Museums and Egyptian National Identity from Napoleon to World War I

By: Donald Malcolm Reid

The Regents of the University of California, 2002

جميع الحقوق محفوظة لورثة المترجم. ولا يحق لأى طرف أن يعيد نشر هذه الترجمة العربية أو أى جزء منها بأى وسائل سمعية أو بصرية أو إلكترونية أو مطبوعة أو أى وسيلة نشر معروفة حالياً أو تستحدث مستقبلاً إلا بعد الحصول على موافقة كتابية منهم.
للاتصال: info@RaoufAbbas.org

المحتويات

إهداء 7
تقديم المترجم 8
عرفان وتقدير 19
مقدمة 21
الباب الأول البدايات الإمبريالية والوطنية 1798 – 1882 42
الفصل الأول إعادة إكتشاف مصر القديمة شامبليون والطهطاوى 42
رؤية الأوروبيين لمصر القديمة قبل شامبليون 44
إعادة إكتشاف الأوروبيين لآثار الصعيد 48
رؤية المسلمين لمصر القديمة قبل الطهطاوى 51
الحملة الفرنسية والمجمع العلمى المصرى 53
وصف مصر 57
الجبرتى والحملة الفرنسية 59
القناصل جامعى الآثار (سولت ودروفتى) والصراع الأنجلو – فرنسى 61
الجبرتى والآثاريون الفرنجة 65
التسابق الأنجلو – فرنسى لحل الهيروغليفية (يانج وشامبليون) 66
رسامو الآثار البريطانيين والفرنسيين 69
الظهور الأول للألمان، بعثة ليبسيوس 72
سباق المؤسسات، المتاحف والجمعيات العلمية الأوروبية 74
استلهام النموذج الأوروبى، الجمعية المصرية بالقاهرة 77
الطهطاوى يكتشف الفراعنة 79
دبلوماسية محمد على فى مجال الآثار 84
الوساطة الأرمينية، يوسف حككيان 90
الفصل الثانى توماس كوك من الاستكشاف إلى السياحة 98
المكتشف، والرحالة، والسائح 100

الباخرة والقطار وزمن الرحلة 101
المال، والمتعة، والطبقة الاجتماعية 104
مولد كتاب الدليل السياحى الحديث – موراى، بايدكر، جوان 106
فنادق القاهرة والإسكندرية 111
الفرامانات والزى، الأعلام والأسلحة النارية 112
مخالطة أهل الشرق 114
السياح والأوروبيون المقيمون، الجنسيات والأعداد 118
القراءات والأماكن الموصى بها 121
من بلد الأوبئة إلى منتجع صحى 122
الإتجاه إلى الصعيد – الدهبية، الباخرة، القطار 125
الرسم وقصص الرحالة، والصور، وبطاقات البريد 129
صناعة السياحة، توماس كوك وولده 133
الفصل الثالث علم المصريات فى عصر إسماعيل ماريت والطهطاوى وبروجش (1850 – 1882) 138
النهضة المبتسرة فى عهد إسماعيل 141
إعادة تأسيس مصلحة الآثار (الأنتكخانة) 145
المتحف المصرى – ماريت فى بولاق 151
تاريخ الطهطاوى عن مصر قبل الإسلام 157
التنافس فى حقل "المصريات" بالقاهرة – الفرنسيون، والألمان، وغيرهم 163
علم "المصريات" للمصريين – بروجش ومدرسة اللسان المصرى القديم 168
مصر القديمة والجمهور المصرى 172
علم "المصريات" فى المجمع العلمى المصرى والجمعية الجغرافية الخديوية 174
تمثيل مصر فى المعارض الدولية، روائع الفراعنة 181
تقديم "المصريات"، المؤتمر الدولى للمستشرقين 187
نذر العاصفة، إسماعيل وماريت فى السبعينات 192
الباب الثانى ظهور الإمبريالية وفجر الوطنية 1882 – 1914 195

الفصل الرابع كرومر والكلاسيكيات التوظيف الأيديولوجى للتاريخ اليونانى – الرومانى 195
الخطاب الكلاسيكى فى الهوية الغربية 196
مصر من خلال عدسات الأوروبيين الكلاسيكية..... 198
آراء المسلمين عن الإغريق والرومان قبل الطهطاوى 202
اليونان وروما القديمة عند الطهطاوى..... 203
اليونان والإيطاليون ونهضة الإسكندرية فى القرن التاسع عشر 208
محمود الفلكى، حفائر وخرائط الإسكندرية القديمة 213
جلادستون وكرومر والإمبريالية قديماً وحديثاً 215
المتحف اليونانى – الرومانى وجمعية آثار الإسكندرية 221
المهاجرون الشوام المسيحيون والكلاسيكيات اليونانية – الرومانية 226
التجريب المصرى للكلاسيكيات اليونانية الرومانية 231
المؤتمر الدولى للآثار الكلاسيكية فى القاهرة..... 233
التراث اليونانى – الرومانى عشية الحرب العالمية الأولى..... 235
الفصل الخامس علم المصريات فى عهد ماسبيرو وأحمد كمال..... 238
ماسبيرو والمعهد الفرنسى للآثار الشرقية، ومصلحة الآثار حتى 1886..... 239
عودة علماء المصريات البريطانيين – بترى وصندوق الكشوف المصرية..... 242
الأهرام والتقدم، مصر القديمة عند على مبارك 247
المناوشات فى حقل المصريات فى الطريق إلى فاشودة 1886 – 1899 249
البحث عن موضع قدم فى "المصريات"، أحمد كمال وجيله..... 255
علم المصريات والوجود المصرى فى "المجمع العلمى المصرى"..... 260
تمثيل مصر القديمة فى المعارض الدولية ومؤتمر المستشرقين الدولى 261
مارسيل دورنو وتصميم المتحف المصرى بالقاهرة 263
ماسبيرو والوفاق الودى 268
عودة الألمان والطليان 270
الظهور الأول للأمريكان 272

أعمال أحمد كمال 276
مصر القديمة فى مطلع القرن العشرين – الوعى الوطنى 281
الفصل السادس الفن الإسلامى والآثار والاستشراق لجنة حفظ الآثار وعلى بهجت.. 292
إرهاصات حفظ الآثار – القاهرة على طريقة هاوسمان 295
حفظ المواقع التاريخية فى أوروبا، وتقدير الفن العربى 298
الإمبريالية ومولد لجنة حفظ الآثار العربية 303
اللجنة فى عهد الإحتلال البريطانى 309
تكوين على بهجت 313
على مبارك وحفظة الآثار من الأوروبيين 314
التمثيل الوطنى الأوروبى فى اللجنة 318
متحف الفن العربى 322
العمارة الإسلامية الجديدة 325
مواقع المقاومة، موظفو الأوقاف والقصر 330
على بهجت، والوطنية، والمستشرقون 332
تمثيل مصر فى المؤتمرات الدولية للمستشرقين 338
تمثيل مصر، "شوارع القاهرة" فى المعارض الدولية 343
على بهجت وكشف الفسطاط ونشوب الحرب 346
الفصل السابع أحفاد الفراعنة مرقص سميكة والتاريخ القبطى 350
الأقباط حتى العام 1854 351
النهضة والنكوص – البطريرك كيرلس الرابع وما بعده 354
تربية مرقص سميكة 358
الإصلاح القبطى والإحتلال البريطانى 360
إعادة تقييم الماضى القبطى من منظور أوروبى 362
إعادة تقييم الماضى القبطى – سميكة ولجنة حفظ الآثار 365
من الأرمن إلى الأقباط 368
تأسيس المتحف القبطى 370

الأقباط بين الملة والأمة 373
أبناء الكنيسة القبطية أم أبناء الفراعنة 376
الخاتمة 380
ملحق بالجداول الإيضاحية 385
المؤلف فى سطور 394
المترجم فى سطور 394

إهداء

إلى

عبد المنعم إبراهيم الجميعى

صديقاً حميماً للمؤلف والمترجم

ومؤرخاً قديراً....

رءوف عباس

تقديم المترجم

يعد علم الآثار المصرية (المصريات Egyptology) من أحدث العلوم الإنسانية. إذ يرتبط بفك طلاسم الكتابة المصرية القديمة الذى تم عام 1822 بفضل جهود العالم الفرنسى شامبليون الذى عكف على دراسة حجر رشيد فى المتحف البريطانى، حيث أخذه الإنجليز معهم عندما جاءوا إلى مصر لإخراج الفرنسيين منها. وقد صدر هذا الكتاب الجديد من دار نشر جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة، وحمل عنوان "فراعنة من ؟ – الآثار والمتاحف والهوية الوطنية المصرية من نابليون حتى الحرب العالمية الأولى" ليسد فراغاً فى الدراسات التاريخية الخاصة بتاريخ العلوم، وتاريخ علم المصريات على وجه الخصوص، وهو مجال ندر التأليف فيه عموماً، وغاب التأليف فيه عندنا.

ومؤلف الكتاب هو الصديق دونالد مالكولم ريد Donald Malcolm Reid أستاذ التاريخ بجامعة ولاية جورجيا بالولايات المتحدة الأمريكية، الذى تخصص – منذ ما يزيد على ربع القرن– فى تاريخ الثقافة العربية الحديثة، وبدأه بكتاب عن فرح أنطون وريادته للعلمانية (نشر 1975)، وثنى بكتاب عن "المحامين والسياسة فى العالم العربى 1880 – 1960" (نشر عام 1981)، وكان كتابه الثالث عن "جامعة القاهرة وصناعة مصر الحديثة " (نشر عام 1990) وصدرت ترجمته العربية عن المجلس الأعلى للثقافة (المشروع القومى للترجمة) عام 2001، والكتاب الذى بين أيدينا هو عمله الرابع المهم الذى شغل بإعداده – فيما أعلم– فى السنوات العشر الأخيرة، وقضى بالقاهرة عامين متفرقين فى 1988 و1999. عكف خلالهما على جمع مادته العلمية، حتى استطاع أن يقدم للأوساط العلمية هذا الكتاب المهم الذى ينفرد به فى التأريخ لعلم المصريات. ولم يثبت دونالد ريد – بهذا الكتاب– تميزه بين المؤرخين الغربيين المتخصصين فى تاريخ مصر فحسب، بل أثبت تميزه كمصور ينافس المصورين المحترفين؛ فالكثير من الصور التى وردت بالكتاب كانت من عمله، وهى على درجة عالية من المستوى الحرفى.

لقد سار علم الآثار – كما يلاحظ المؤلف– مع الإمبريالية والهيمنة الغربية يداً بيد، فهناك من علماء الغرب، ورحالته وقناصله – فى مصر وغيرها من البلاد التى كانت تخضع

للدولة العثمانية– من كانوا يرون أن أهل البلاد لا حق لهم فى تلك الآثار التى يتم العثور عليها، فهم لا يقدرون قيمتها، ولا يعنيهم من أمرها إلا ما قد يدره عليهم بيعها من مال ، والأولى بها الأوروبيون الذين يفردون لها الأماكن اللائقة بها فى متاحفهم بإعتبارها تراث الإنسانية. فلا علاقة للمصريين أو العراقيين أو الفلسطينيين (المتخلفين) بما يتم العثور عليه من آثار فى بلادهم، فهى تخص حضارات أرقى لا يمت إليها أولئك (الهمج) بصلة.

من هذه المقولة التى رددها المؤلف غير مرة فى فصول كتابه القيم، كان إنطلاقه لتأليف الكتاب لدحضها، متخذاً من حالة مصر ومن علم المصريات مدخلاً للدراسة، فيبدأ – للوهلة الأولى– بنفى تلك الفرية التى كادت أن تصبح حقيقة مسلمة فى الثقافة الغربية، بل كانت كذلك (على أقل تقدير) فى القرن التاسع عشر، فيعدد دونالد مالكولم ريد كتاب الخطط الذين ذكروا الآثار المصرية وقدموا وصفاً لها فى العصر الذى كتبوا فيه قبل القرن التاسع عشر بعدة قرون، ولكنه يلقى المزيد من الضوء على إهتمام الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ورفاعة رافع الطهطاوى وعلى باشا مبارك لا بالآثار وحدها، ولكن بتاريخ مصر القديم، ويبين ما تدل عليه كتاباتهم من وعى بالقيمة التاريخية لما يقع على أرض مصر من شواهد أثرية تدل على تراثها الحضارى العريق ومن ثم يصبح إتهام المصريين خصوصاً والعرب عموماً، بعدم إدراك القيمة التاريخية للحضارات القديمة التى قامت فى بلادهم مجرد مبرر – من وجهة نظر المؤلف– لاستلاب المصريين آثارهم الثمينة لتعمر بها متاحف أوروبا، ولتزدان ميادينها بالمسلات المصرية.

وإذا كان النصف الثانى من القرن التاسع عشر يمثل عصر نضج الثورة الصناعية فى أوروبا، الذى يشهد هيمنة غرب أوروبا على الأسواق العالمية لتصريف بضاعتها واستثمار فائض رءوس أموالها، وضمان الحصول على المواد الخام اللازمة للصناعة بأبخس الأثمان، فهو العصر الذى لعب فيه الأوروبيون الدور الرئيسى فى وضع أسس "علم المصريات" وفى إرساء دعائم علم الآثار والعناية بها، وإقامة المتاحف فى مصر . ففيما بين عامى 1858 و1908 سيطر الأوروبيون على الإدارة التى عنيت بالآثار، وعلى المتاحف التاريخية الأربعة التى أقيمت خلال تلك الفترة: المتحف المصرى (الأنتكخانة) الخاص بتاريخ مصر فى العصر الفرعونى، والمتحف اليونانى – الرومانى بالإسكندرية،

والمتحف القبطى بمصر القديمة، ومتحف الفن العربى (الذى عرف بمتحف الفن الإسلامى فيما بعد)، وهكذا سيطر الأوروبيون على الآثار المصرية فى الوقت الذى كانوا يحكمون فيه السيطرة على مصر ذاتها من خلال الهيمنة على اقتصادها– ماليتها ثم إحتلالها.

لقد عرف المصريون علم الآثار عن طريق الأوروبيين، ولكنهم ما لبثوا أن عملوا على إمتلاك ناصيته، وتوظيفه لخدمة أمانيهم الوطنية. وإذا كان سعيد باشا هو أول من أنشأ متحفاً للآثار الفرعونية عام 1858، وإدارة للآثار، رأسهما معاً ماريت بك الفرنسى، فقد أسس الخديو إسماعيل عام 1869 أول مدرسة مصرية عليا لدراسة المصريات عرفت بإسم "مدرسة اللسان المصرى القديم" تولى (نظارتها) عالم الآثار الألمانى هنريش بروجش، وإلتحق بالمدرسة عشرة من الطلاب المصريين الذين اختيروا من بين المتفوقين فى اللغة الفرنسية، بإعتبارها لغة التدريس بالمدرسة، وقد درس أولئك التلاميذ الكتابة المصرية القديمة واللغة القبطية، إضافة إلى الألمانية والإنجليزية، وتاريخ مصر القديم ، وأصول علم الآثار. وإلى جانب إدارته لهذه المدرسة وتكوينه للطلاب المصريين، قام هنريش بروجش بإلقاء محاضرات فى تاريخ مصر القديم بدار العلوم، كان يلقيها بالفرنسية، ويترجمها أحد تلاميذه أو معاونيه إلى العربية، ونشر بعضها بمجلة "روضة المدارس المصرية" التى رأس رفاعة الطهطاوى تحريرها، كذلك نشر بروجش جدولاً بملوك مصر القدامى، ومقالات فى أصول الكتابة المصرية القديمة بالمجلة نفسها، مما أتاح فرصة نشر المعرفة بالمصريات وتاريخ مصر القديم لأول مرة باللغة العربية . وتدرب الطلاب بمدرسة اللسان المصرى القديم على الحفائر الأثرية فى الصعيد.

وفى عام 1872 تخرج فى أول مدرسة للآثار المصرية سبعة طلاب كان على رأسهم أحمد كمال (الذى أصبح أول عالم مصريات مصرى فيما بعد). ولكن ماريت باشا مدير الآثار رفض قبولهم للعمل بإدارة الآثار خشية أن يؤدى وجودهم فيها إلى إنهاء الوجود الأوروبى (وخاصة الفرنسى) بالإدارة. وكان قد بدأ يضايق الطلاب منذ إفتتاح المدرسة، فأصدر أوامره لموظفى المتحف بمنع الطلاب من نسخ النصوص المصرية القديمة، ولما لم يجد أولئك الخريجون مكاناً لهم فى مجال الآثار، عينوا مدرسين ومترجمين للغتين الفرنسية والألمانية. وهكذا بددت السيطرة الأوروبية على إدارة الآثار الجهود التى بذلها

إسماعيل لإعداد أول أثريين مصريين، فقد أغلقت "مدرسة اللسان المصرى القديم" فى نفس السنة التى تخرج فيها أولئك الطلاب السبعة.

ورغم ذلك أثمرت جهود المدرسة وناظرها، وما نشرته مجلة "روضة المدارس المصرية" من محاضرات الدكتور بروجش فى دار العلوم وغيرها من المقالات والدراسات التى نشرت مترجمة إلى العربية أو كتبها بعض طلاب المدرسة، أثمرت فى نشر الوعى بتاريخ مصر القديم بين المتعلمين ورجال السياسة، وتجلى ذلك فى الخطاب السياسى والثقافى الذى تغنى بمجد مصر القديم، سواء كان ذلك فى كتابات رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وميخائيل عبد السيد، أو فى أحاديث السيد جمال الدين الأفغانى وأحمد عرابى وعبد الله النديم، أو فى تصميم الجناح المصرى فى معارض لندن وباريس والولايات المتحدة على النسق الفرعونى، أو فى اتخاذ الأهرام وأبى الهول رمزاً لمصر على طوابع البريد وغيرها، واتخاذ "الأهرام" إسماً لأبرز الصحف التى صدرت فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر. هذا الوعى بالتراث المصرى القديم ما كان ليتحقق لولا ذلك الدور البارز الذى لعبته أول مدرسة للمصريات (مدرسة اللسان المصرى القديم) – رغم قصر عهدها– وأسهمت فى نشره أهم مجلة ثقافية مصرية (روضة المدارس) ظهرت فى القرن التاسع عشر.

وأسهم الأجانب المقيمون فى مصر – أيضاً– فى ذيوع الإهتمام بالتراث المصرى القديم ، ففى عام 1859 أسست مجموعة من نخبة الجاليات الأجنبية فى مصر "المجمع المصرى " بالإسكندرية، حيث كان الوجود الأجنبى كثيفاً، وجاء إنشاء "المجمع المصرى" مصاحباً للبدء فى أعمال حفر قناة السويس. وقد كانت ذكريات "المجمع العلمى المصرى" الذى أقامه نابليون بونابرت فى مصر أيام الحملة الفرنسية حاضرة فى أذهان مؤسسى المجمع المصرى، فأرادوا إحياءه تحت رعاية الوالى محمد سعيد باشا، ولكن ليصبح اهتمامه مركزاً على الآثار المصرية والتراث المصرى القديم. وتعاقب على رئاسته (فيما بين 1861 – 1917) أربعة فرنسيين ثم خلفهم يعقوب باشا أرتين وكيل نظارة المعارف، وضم المجمع فى عضويته بالإضافة إلى الفرنسيين، أعضاء من الإنجليز والإيطاليين والألمان ، وكانت اللغات الأربع لغات معتمدة لمنشورات ومحاضرات المجمع، بينما كانت الفرنسية

لغة مجلس الإدارة، وحدد المجمع هدفه بالعمل على "إحياء المعارف القديمة على ضفاف النيل، تلك المعارف التى تعود إليها عظمة مصر القديمة مهد الآداب والعلوم والفنون"، وقد انتقل "المجمع المصرى" إلى القاهرة عام 1880.

ورغم أن الأجانب كانوا يمثلون أغلبية أعضاء "المجمع المصرى" فقد وجدت نخبة من العلماء المصريين لنفسها مكاناً بين الأعضاء، وكان على رأس تلك النخبة رفاعة الطهطاوى وإلى جانبه على باشا مبارك ومحمود الفلكى (الذى كان العضو المصرى الوحيد بمجلس الإدارة).

وتجلى إهتمام "المجمع المصرى" بالآثار المصرية من إختيار ماريت نائباً للرئيس ، وغلبت الموضوعات الأثرية على محاضرات المجمع ومنشوراته، فألقى ماريت ومحمود الفلكى محاضرات حول تاريخ مصر القديم، وقدم الفلكى دراسة لفرع النيل الكانوبى الذى كان يصل فرع رشيد بالإسكندرية، وقد نشرت دراسات الفلكى بالفرنسية فى عدد من الدوريات العلمية الأوروبية الشهيرة عندئذ، وانضم أحمد كمال (أول عالم آثار مصرى) إلى المجمع عام 1904.

كذلك اهتمت الجمعية الجغرافية الخديوية، التى أسسها الخديو إسماعيل عام 1875 ، إهتماماً جزئياً بالآثار المصرية القديمة، وكانت تلك الجمعية تضم فى عضويتها أغلبية من الأجانب الممثلين للجاليات المختلفة الموجودة – عندئذ– بمصر، على نحو ما رأينا فى "المجمع المصرى"، ولكن تميزت "الجمعية الجغرافية الخديوية" بوجود أعضاء أمريكيين من الضباط الذين عملوا فى قيادة الجيش المصرى فى عهد الخديو إسماعيل.

ويربط المؤلف بين اشتراك مصر فى المعارض الدولية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ورواج حركة السياحة الأوروبية والأمريكية المتجهة إلى مصر لمشاهدة الآثار المصرية، ويلفت المؤلف الأنظار إلى مواكبة الإهتمام بزيارة مصر بدء حركة السياحة الأوروبية الخارجية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، حيث نضجت مرحلة الرأسمالية الصناعية، واتسع نطاق الطبقة الوسطى ذات الدخول الكبيرة، وزاد ميلها إلى الاستمتاع بجانب من فائض مدخراتها فى السياحة الخارجية، وخاصة زيارة

مصر وفلسطين؛ حيث مهد الحضارة القديمة ومسرح الأحداث التى سجلها الكتاب المقدس.

فقد جاء اشتراك مصر فى "المعرض الصناعى الدولى الكبير" الذى أقيم فى لندن عام 1851 بجناح صمم على الطراز الفرعونى، مثيراً لاهتمام الأوروبيين والأمريكيين الذين جاءوا لزيارة أول معرض دولى يقام فى العالم، وبهرتهم مظاهر الحضارة المصرية القديمة التى عبر عنها الجناح المصرى، وحدث نفس الأثر عندما اشتركت مصر فى "المعرض الدولى" الذى أقيم فى باريس عام 1855، وكذلك عام 1867، وخاصة أن المعرض الأخير شهد جناحاً مصرياً متميزاً، عبر عن التراث المصرى القديم ببعديه الفرعونى والإسلامى.

وبعد أن كان قدوم الأجانب إلى مصر قاصراً على الرحالة والمغامرين وأعضاء البعثات التى جابت إلى مصر بقصد جمع الآثار للإتجار بها فى أوروبا أو لحساب المتاحف الأوروبية، شهدت مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قدوم الأفواج السياحية التى نظمها بيت سياحى بريطانى؛ ما لبث أن اكتسب شهرة عالمية باعتباره مشروع يعرفه العالم فى هذا المجال، ونعنى به "توماس كوك وولده" الذى بدأ نشاطه عام 1841 بتنظيم رحلات داخلية بالقطار من وسط إنجلترا إلى لندن، واتسع نشاطه مع إقامة "المعرض الصناعى الكبير" عام 1851، فزادت رحلاته الداخلية إلى لندن لمشاهدة المعرض، ثم نظم رحلات خارجية – لأول مرة– لزيارة معرض باريس عام 1855 ، وكذلك رحلات لزيارة جبال الألب وإيطاليا. وجاء تنظيم توماس كوك للرحلات السياحية إلى مصر ليحول هذا البيت السياحى إلى مشروع دولى كبير يربط أوروبا وأمريكا بمصر من خلال الرحلات السياحية التى قام بتنظيمها مستخدماً السفن البخارية، ومبتدعاً خطوط البواخر النيلية، ومشجعاً ومشاركاً فى إقامة الفنادق لإقامة السياح بالأقصر وأسوان والقاهرة. ثم جاء إمتداد الخطوط الحديدية إلى أسون قبل نهاية القرن ليساعد على إختزال زمن الرحلة، ومن ثم تخفيض تكلفة الرحلة، وزيادة أعداد الرحلات السياحية المتجهة إلى مصر، وهكذا صنع "توماس كوك وولده" إمبراطورية سياحية كبرى ظلت

تسيطر على هذا المجال كبيت عائلى حتى تم بيعها لشركة "عربات النوم الدولية" لتتحول بذلك إلى شركة مساهمة عالمية (عام 1926).

ويرتبط بظاهرة السياحة الخارجية التى كان الإهتمام بالآثار المصرية وراء قيامها وتطورها، ظهور نوع من المطبوعات لم يكن معروفاً من قبل وهو "دليل السائح" الذى عرف بالإنجليزية إسم "كتاب اليد" Hand Book وبالفرنسية إسم "كتاب الجيب" Livre de Poche، ففى ثلاثينيات القرن التاسع عشر طبع أول دليل سائح لمصر باللغة الإنجليزية وآخر بالفرنسية، وازداد العدد فى الستينيات من نفس القرن ليصبح أربعة بالإنجليزية وثمانية بالفرنسية، وظهر أول دليل بالإيطالية فى الستينيات، وبالألمانية فى السبعينيات ، وعند نهاية القرن التاسع عشر، بلغ عدد أدلة السائح المنشورة بالإنجليزية 31 دليلاً، وبالفرنسية 15 دليلاً، وبالألمانية تسعة، وبالروسية دليلاً واحداً، وهكذا صاحب ظاهرة الإهتمام بالسياحة الخارجية التى استقطبتها مصر، ظهور وتطور صناعة الأدلة السياحية المطبوعة التى أصبحت عند نهاية القرن التاسع عشر تتنافس مع بعضها البعض، من حيث تنوع المعلومات التى تهم السائح لا عن الآثار المهمة وحدها وإنما عن مصر ذاتها: تاريخاً، ومناخاً، ومجتمعاً، إلى غير ذلك من معلومات، وكذلك بما تقدمه للسائح من خرائط ورسوم وصور إيضاحية.

كذلك إرتبط بظاهرة السياحة الخارجية رواج الوحات المرسومة باليد لمناظر من مصر كان يرسمها بعض السياح الأوروبيين، ثم يطبعونها ويبيعونها فى بلادهم أو يصدرونها إلى مصر لتباع للسياح. ومع ظهور التصوير الفوتوغرافى عند منتصف القرن التاسع عشر، بدأت تظهر صناعة طبع الصور التى تعبر عن الآثار المصرية ومظاهر الحياة فى مصر، وأتاح ذلك ظهور "البطاقات البريدية" Post – Card التى تحمل صوراً من مصر، ويرسلها السائح لأصدقائه من مصر بالبريد، وكان ذلك فى التسعينيات من القرن التاسع عشر.

ولم تكن زيارة المواقع الأثرية وحدها على جدول زيارات الأفواج السياحية الأوروبية والأمريكية التى كان يجلبها "توماس كوك وولده" إلى مصر، بل كانت زيارة المتحف المصرى بالقاهرة من أهم المواقع التى تتجه إليها أفواج السياح، وكان المتحف قد أقيم –

على نحو ما رأينا– عام 1858 فى عهد سعيد باشا على شاطئ النيل عند بولاق (وهو الموقع الذى يقع الآن بين مبنى التليفزيون ومبنى وزارة الخارجية على كورنيش النيل)، وكان اختيار الموقع يهدف إلى تيسير نقل الآثار التى ترد من الصعيد على المراكب النيلية. واشتمل المبنى على "مصلحة الأنتكخانة" (التى كانت تابعة لنظارة الأشغال العمومية)، وصالات عرض التحف الأثرية، ومقر إقامة مدير الآثار، ولكن ما لبث المكان أن ضاق بمقتنياته وزواره، فتم نقل المتحف فى أواخر عهد الخديو إسماعيل إلى قصر الحرملك بالجيزة. (وكان يقع على مشارف حديقة الأورمان)، واستمر هناك حتى أقيم له مبنى خاص بميدان الخديو إسماعيل (التحرير الآن) وهو المبنى الحالى الذى إفتتح فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى عام 1902، وينوء الآن بما يحتويه من آثار بعد قرن من الزمان، دون أن تسعى الحكومات المتعاقبة إلى التفكير فى إقامة متحف آخر إلا فى السنوات الأخيرة، ولم يتجاوز الأمر بعد حدود التفكير !!

وظلت الآثار الفرعونية وحدها موضع الإهتمام حتى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر عندما بدأ الإهتمام بالآثار اليونانية – الرومانية وكذلك الآثار العربية (الإسلامية) لتضاف بذلك نواة لمتحفين آخرين لهذين العصرين، وجاء الإهتمام بالعصر القبطى متأخراً (فى أوائل القرن العشرين)، وأسفر ذلك الإهتمام عن إقامة المتحف القبطى لتكتمل بذلك دور العرض المتحفى للآثار المصرية على مر العصور.

جاء الإهتمام بالعصر اليونانى – الرومانى من خلال البحث فى تاريخ مدينة الإسكندرية، ويعود إلى العالم المصرى محمود الفلكى فضل ريادة الحفائر الأثرية بالإسكندرية (عام 1865 – 1866) بهدف التحقق من بعض مواقع الإسكندرية القديمة، ونشر خريطة الإسكندرية القديمة محققة فى مجلة المجمع العلمى المصرى (1868 – 1869) مع تقرير بنتائج الحفائر، وقد نشرها أيضاً بكوبنهاجن، وقد استفاد محمود الفلكى من خبرته كمهندس فى تحديد مواقع الحفر وتنفيذه فى وقت لم يكن عرف فيه – بعد– الأصول العلمية والفنية لتنفيذ الحفائر الأثرية، ومن ثم كان عمل محمود الفلكى مبتكراً فى هذا المجال، ولم يتابع أحد بعده الحفر بلأسكندرية بشكل علمى منظم حتى نهاية القرن.

وفى 1891 أسس بعض الإيطاليين بالإسكندرية "الجمعية الأثينية" ونجحت الجمعية فى إقناع المجلس البلدى بالإسكندرية بـاتخاذ قرار بإنشاء المتحف اليونانى – الرومانى ومكتبة البلدية، ووافقت الحكومة على القرار بعد تردد لبعض الوقت، على أن يخضع المتحف لإشراف مصلحة الآثار المصرية، وتتحمل البلدية نفقات إقامته. وتأسست "جمعية آثار الإسكندرية" عام 1893 لترعى إقامة المتحف دون أن يكون بين أعضائها مصرى واحد، بل ضمت نخبة الجاليات الأجنبية بالمدينة من المثقفين ورجال الأعمال. ونجحت الجمعية فى إقامة المتحف اليونانى – الرومانى عام 1897. وظلت إدارة المتحف بيد الإيطاليين حتى مطلع النصف الثانى من القرن العشرين، على حين ظلت إدارة "المتحف المصرى" بيد الفرنسيين حتى ذلك التاريخ أيضاً.

واستطاعت "جمعية آثار الإسكندرية" أن تجمع أموالاً كونت "صندوق الإكتشافات المصرية"، تم الإنفاق منها على الحفائر الأثرية المتعلقة بالعصر اليونانى – الرومانى ، وشراء التحف لتعرضها بالمتحف، وكذلك أوراق البردى اليونانية التى تم جمعها من الحفائر.

أما عن الآثار الإسلامية، فيعود الإهتمام بها إلى "لجنة حفظ الآثار العربية" التى شكلها الخديو إسماعيل عام 1869 بناء على اقتراح من مهندس نمساوى (أوجست سالزمان) لترميم مسجد الظاهر بيبرس، ولكن الأمر لم يتجاوز حد صدور القرار بتشكيل اللجنة، ولم تتم دعوتها للإنعقاد حتى نهاية عهد إسماعيل. وفى ديسمبر 1881، أعاد الخديو توفيق تشكيل اللجنة من شخصيات أجنبية: إنجليز، وفرنسيين وإيطاليين وألمان، وكانت اللغة المستخدمة فى أعمال اللجنة هى اللغة الفرنسية. وقد عقدت اللجنة أول اجتماعاتها فى فبراير 1882، ثم تعطلت أعمالها بسبب حوادث الثورة المصرية ووقوع الإحتلال البريطانى لمصر، فإجتمعت فى ديسمبر 1882 برئاسة ناظر الأوقاف محمد زكى باشا الذى أصبحت اللجنة تتبع وزارته. وظل عمل اللجنة قاصراً على النظر فى ترميم المساجد القديمة التاريخية فى حدود الميزانية الفقيرة التى ظلت فى حدود ما يقل قليلاً عن أربعة آلاف جنيه سنوياً، حتى عام 1896 عندما قفزت الميزانية المخصصة لها إلى

عشرين ألفاً من الجنيهات، ولم يتجاوز ما تم إنفاقه على ترميم الآثار الإسلامية حتى عام 1906 (أى بعد ربع قرن من إنشاء اللجنة) 205 آلاف من الجنيهات.

وتولت "لجنة حفظ الآثار العربية" إقامة "متحف الفن العربى" عام 1884 فى فناء مسجد الحاكم بأمر الله، حيث تكدست التحف المجموعة من هنا وهناك دون إتباع لأساليب العرض المتحفى، بل لم يكن هناك خبراء بالفن العربى (الإسلامى) بذلك المتحف، ولم تهتم كتب "الدليل السياحى" الخاصة بمصر بذكر ذلك المتحف إلا نادراً. وفى عام 1898 تم رصد إعتماد لبناء مبنى بباب الخلق يضم دار الكتب الخديوية ومتحف الفن العربى معاً، حيث تم إفتتاح المتحف عام 1903 (ويعرف الآن بمتحف الفن الإسلامى).

وجاء الإهتمام بإقامة "المتحف القبطى" بمبادرة شخصية من مرقص سميكة – أحد أعيان الأقباط– الذى راعه ما تتعرض له التحف القبطية من ضياع، فأخذ على عاتقه مهمة جمعها والدعوة لإقامة متحف للفن القبطى للحفاظ عليها. وكان مرقص سميكة قد سعى لمد اختصاص "لجنة حفظ الآثار العربية" ليشمل ترميم الكنائس والأديرة التاريخية، وهو ما كان محل اعتراض البابا كيرلس الخامس. وفى عام 1896 تم تعديل تشكيل اللجنة لينضم إليها عضوان من الأقباط، وتم رصد إعتماد لترميم الكنيسة المعلقة. ولكن كيرلس الخامس ظل معترضاً على تدخل اللجنة فى أعمال ترميم الكنائس بـاعتباره أمراً يخص الكنيسة وحدها، وأخيراً وافق البابا على ترميم الكنيسة المعلقة عام 1906 (وهو العام الذى أصبح فيه مرقص سميكة عضواً باللجنة)، كما وافق على إقامة "متحف قبطى" عام 1908 مقابل مساندة مرقص سميكة له فى مواجهة دعاوى الإصلاح التى تبناها المجلس الملى للأقباط الأرثوذكس. واشترط أن يكون "المتحف القبطى" تابعاً للكنيسة. وتم إفتتاح المتحف القبطى عام 1914.

وقد حرص دونالد مالكولم ريد فى هذا الكتاب أن يؤرخ لرواد علم الآثار المصريين ، ممن مارسوا العمل الأثرى ليدحض مقولة إن علم الآثار علم غربى لا شأن لأهل الشرق به. وهكذا رأيناه يحرص على تسجيل اهتمام الكتاب المصريين بالآثار، وألقى الضوء على الوعى بتاريخ مصر القديم وتراثها الحضارى عند المصريين، كما سجل فضل محمود الفلكى فى ريادة الحفائر الأثرية فى الإسكندرية (على نحو ما رأينا)، ولكنه أفرد

مساحة أوسع من دراسته لثلاثة من رواد العمل الأثرى المصريين: أحمد كمال، وعلى بهجت، ومرقص سميكة (بإعتباره صاحب فكرة المتحف القبطى).

وخلال تتبعه لتاريخ علم الآثار المصرية والمتاحف من حملة نابليون بونابرت حتى عام 1914، لم يسقط المؤلف من اعتباره التطور العلمى والمعرفى والثقافى فى مصر القرن التاسع عشر، بل اتخذ منه إطاراً عاماً لدراسة موضوعه الأساسى، فرسم للقارئ معالم النهضة العلمية والثقافية التى صاحبت مشروع محمد على من إقامة نظام التعليم الحديث إلى حركة الترجمة، إلى الإتصال المعرفى بالحضارة الأوروبية الحديثة. كذلك وضع بين يدى القارئ العلاقة بين التطورات التى شهدتها مصر فى عهد الخديو إسماعيل ومشروعه الثقافى الشامل الذى تولى صياغته على مبارك بمساعدة رفاعة الطهطاوى. كما لم يفصل المؤلف بين الإهتمام بالآثار من جانب الأجانب، والموجة الإمبريالية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر التى استهدفت فتح الأسواق لاستثمار فائض رءوس الأموال وتصريف الإنتاج، وسعت إلى حماية مصالحها من خلال الهيمنة السياسية على مصر.

وهو إذ يتحدث عن محاولات الأجانب إبعاد المصريين عن ميدان الآثار، يضع أمام القارئ صورة الصراع الذى دار بين المصريين والأجانب من أجل تحرير بلادهم من الهيمنة الأجنبية، ويعالج العلاقة بين الرواد أحمد كمال وعلى بهجت والأجانب فى سياق العمل الوطنى الذى يهدف إلى الحفاظ على الهوية المصرية، ويحرص فى خاتمة الكتاب على أن يلقى الضوء على ما حدث لعلم الآثار من تطورات بعد ما ملكت مصر أمرها بيدها، وما تركته الكشوف الأثرية المهمة (قبل اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون) من آثار إيجابية على الحركة الوطنية المصرية.

لقد سبق للمؤلف أن قدم تاريخاً ثقافياً لمصر من خلال دراسته لجامعة القاهرة، وكتابه الذى بين أيدينا اليوم يقدم تاريخاً ثقافياً لمصر فى القرن التاسع عشر من خلال دراسته لتاريخ علم الآثار والمتاحف فى مصر، وهو ما يضفى على العمل أهمية خاصة، ويجعله مرجعاً أصيلاً لمن يريد الوقوف على تطور مصر الثقافى فى القرن الذى شهد التحولات الكبرى فى تاريخ مصر الحديثة.

عرفان وتقدير

ما كان باستطاعتى متابعة البحث فى موضوع هذا الكتاب بمصر لولا المنح التى حصلت عليها من "الوقف القومى للعلوم الإنسانية" (من خلال مركز البحوث الأمريكى بمصر)، ومن لجنة فولبرايت بمصر، وبرنامج فولبرايت – هايز لأبحاث أعضاء هيئة التدريس بالخارج، وجامعة ولاية جورجيا بالولايات المتحدة الأمريكية. وخلال عامين جامعيين قضيتهما فى مصر (87 – 1988، 98 – 1999)، كنت موضع رعاية د. جاب الله على جاب الله الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار بمصر، ود. حسنين ربيع نائب رئيس جامعة القاهرة، ود. رأفت النبراوى عميد كلية الآثار بجامعة القاهرة، ود. رءوف عباس حامد وكيل كلية الآداب بجامعة القاهرة، ومركز البحوث الأمريكى بمصر. كما لقيت عوناً طبياً من د. مختار الكسبانى من كلية الآثار جامعة القاهرة. وحظيت بدعم وتشجيع الزملاء من جامعة ولاية جورجيا: العميد أحمد عبد العال، ورئيس قسم التاريخ بالجامعة: تيموثى كريمنز، وديان ويللن، وتحملت منحة كوين لأعضاء هيئة التدريس نفقات الفهرسة، كما ساعدنى كل من د. جيمس هينرمان وبلاك يوسرى على إعداد الخرائط.

ولعب الأستاذان د. ل. كارل براون، ود. فرحات ج. زيادة دوراً فعالاً فى تشجيعى على المضى قدماً فى هذا العمل، وتركت صداقة وزمالة عمرها ثلاثين عاماً جمعتنى بوليم كيفلاند وروبرت هانتر بصماتها على هذا الكتاب، ومن بين الأصدقاء الآخرين الذين قدموا لى مساعدات قيمة: أحمد عبد الله، وجير باتشراتش، وإدموند بروك الثالث ، وبروس كريج، وإسرائيل جرشونى، وآرثر جولد شمث جونيور، وعلاء الحبشى، وفايزة هيكل وكينيث بركنز، ومايكل رايمر، وجون رودنبك، وجاسون طمسون، ومى طراد، وجورج سكانلون، وسمير سميكة، ودورلاند وتكومب، وكارولين وليامز.

كما لقيت مساعدة قيمة من د. عبد المنعم الجميعى، والسيد / مكرم نجيب اللذين غمرانى بكرمهما أثناء وجودى بمصر. وللأسف جاء اتصالى المتأخر بإريك جادى حائلاً دون أن أدخل على الكتاب سوى القليل من مقترحاته الممتازة والإشارات الببليوجرافية فى هذا الكتاب.

وكدأبهما دائماً كانت زوجتى باربرا جيبس ريد خير عون ومشجع وناقد موضوعى لهذا العمل.

كما قدم الأستاذ نيل آشر سلبرمان وأحد المحكمين المجهولين الذين استعانت بهم إدارة النشر بجامعة كاليفورنيا، قدما نظرات نقدية ثاقبة على مخطوطة الكتاب. كما أدين بالفضل للآنسات لين ويتى، ولورا هارجر، ووبن ويتاكر من إدارة النشر بجامعة كاليفورنيا.

وأذن لى بعض الناشرين باستخدام بعض المقتطفات من بحوثى التى نشرت لديهم مما يستوجب تقديم الشكر إلى مركز الدراسات الوثائقية والاقتصادية والقانونية والاجتماعية بالقاهرة (سيديج SEDEJ)، وفرانك كاس للنشر بلندن، وإدارة النشر بجامعة كولومبيا.

وتبقى مسئولية الآراء التى قدمتها فى هذا الكتاب من نصيبى وحدى.

المؤلف

مقدمة

"جدير بالمثقفين الأوروبيين أن يقدموا الشكر لفرنسا لإنتزاعها مسلة من أعماق الطمى المتراكم فى مصر، ومن الجهل البربرى للترك ، فالأوروبيون هم أصحاب الحق فى الآثار القديمة، لأنهم وحدهم يعرفون كيف يتذوقونها، فهى حقيقة تخص من لهم الحق الطبيعى فى رعايتها وجنى ثمارها".

الكابتن فرانك سان – مور

رحلة الأقصر (1835)

"إنه لمؤسف حقاً أن تكون الآثار آثارنا، والتاريخ تاريخنا، ولكن من يكتبون تاريخ مصر القديم ليسوا من المصريين ... غير أننا لا نملك سوى التعبير عن إعجابنا بالأستاذ سليم حسن لبراعته فى علم الآثار ولإكتشافاته الأثرية الدائمة، والتى كان آخرها الهرم الرابع"

صحيفة "البلاغ" المصرية 26 فبراير 1932

يعالج هذا الكتاب الكيفية التى تناول بها المصريون (ومعظمهم من الوطنيين)، والأوروبيون (ومعظمهم من الإمبرياليين)، حقباً معينة من تاريخ مصر الممتد فيما بين غزو نابليون لمصر فى العام 1798، وإندلاع نيران الحرب العالمية الأولى.

وتعود البداية الأوروبية لعلم الآثار فى مصر إلى زمن الحملة الفرنسية، فقد إكتشف الجنود الفرنسيون حجر رشيد صدفة عام 1799، واستطاع جان فرانسوا شامبليون أن يحل رموز النص الهيروغليفى المدون عليه بعد ثلاثة وعشرون عاماً من ذلك التاريخ ، ففتح بذلك الباب أمام علم "المصريات" الحديث. وعلى مدى نصف القرن الذى يقع بين

1858 و1908، لعب الأوروبيون الدور الرئيسى فى تأسيس مصلحة الآثار المصرية وأربعة متاحف تاريخية هى: المتحف المصرى (للعصر الفرعونى)، والمتحف اليونانى الرومانى، والمتحف القبطى، ومتحف الفن العربى (ويعرف الآن بمتحف الفن الإسلامى). وخلال نفس الفترة – نصف القرن– أحكم الاستعمار الأوروبى قبضته على مصر؛ مدفوعاً لتحقيق متطلبات الثورة الصناعية: الحاجة للقطن وغيره من المواد الخام، والسعى لإيجاد أسواق وفرص استثمار فيما وراء البحار، واحتدام مشكلات الإنتاج الواسع ، والصراعات بين الدول الأوروبية. وبدا وكأن علم الآثار والإمبريالية يسيران معاً يداً بيد[1].

وعندما تعرف المصريون على علم الآثار عن طريق الأوروبيين، بدأوا يدركون – تدريجياً– إمكانية استخدامه لخدمة أهدافهم الوطنية. وعندما أيقن المصريون من الدور الحيوى الذى يلعبه علم الآثار – فى صياغة هويتهم القومية–، راحوا يلتمسون السبل التى تتيح لهم تدريب الآثاريين المصريين، وهيأ ذلك المسرح للتحدى الوطنى للهيمنة الأوروبية على المؤسسات الآثارية المصرية، وللتفسيرات الغربية الإمبريالية لتاريخ مصر.

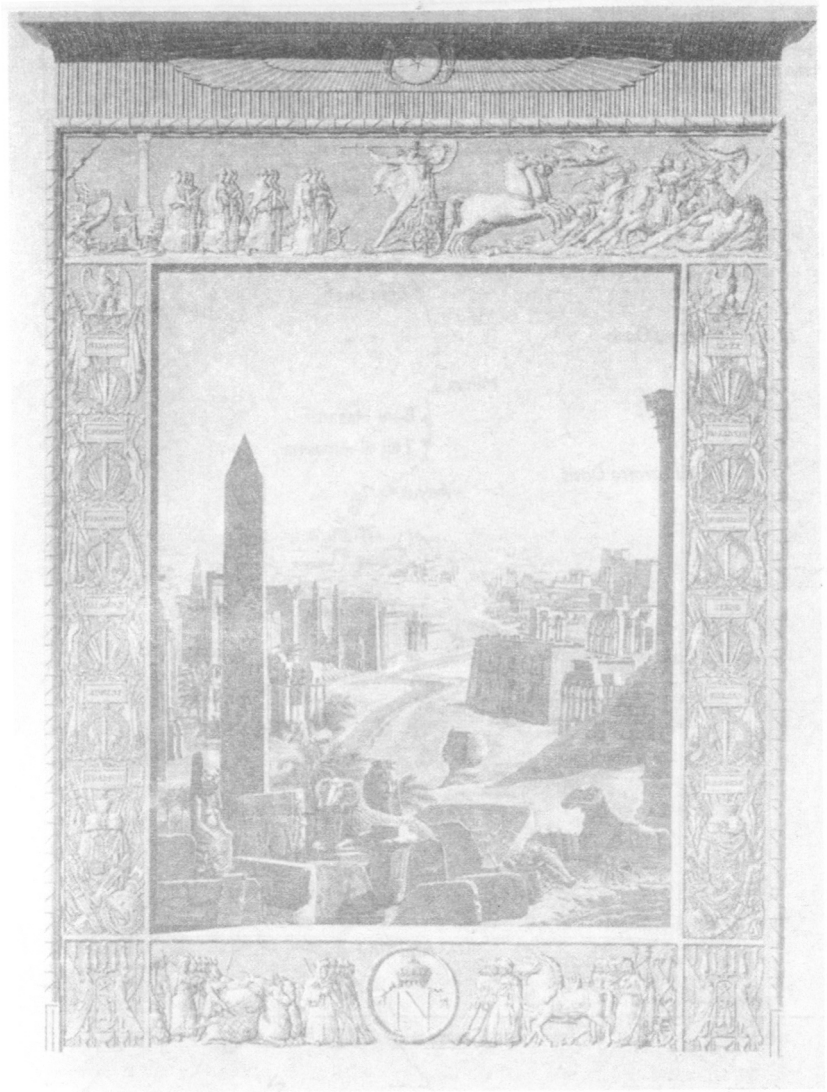
كانت الإعتبارات الجيوبوليتكية وحدها هى التى دعت الأوروبيين فى القرن التاسع عشر إلى محاولة السيطرة على مصر، ولكن الرؤية المبهرة لتاريخها السحيق أعطت تلك المحاولات دفعة قوية. فقد أحس الغربيون الذين يطأون أرض مصر أنهم يدخلون عالم الفراعنة، عالم التوراة، والإغريق والرومان، والقرآن، وألف ليلة وليلة. وقد عبرت فلورانس نايتنجيل عن هذه العوالم الأربعة فى جملة واحدة حين قالت: "هنا عاش أوزيريس وعباده، وسار إبراهيم وموسى، وإلى هنا جاء أرسطو، وفيما بعد جاء محمد[2]

[1] "علم الآثار" يعنى بدراسة المجتمعات القديمة من خلال ما يتم العثور عليه من آثار مادية فى الحفريات، وقد استخدمنا المصطلح فى هذا الكتاب ليعنى "التاريخ القديم" (ويجمع بين الفلسفة والتاريخ)، وقد ساد هذا المعنى فى العقود الأولى من القرن العشرين. وأخذت بهذا المفهوم كلية الآثار بجاعمة القاهرة حتى الآن، ويركز قسم الآثار الإسلامية فيها على التاريخ والفن أكثر من إهتمامه بالحفائر.

[2] هذا نص الإقتباس من نايتنجيل أورده المؤلف، ونقلناه بأمانة ولا يعنى ذلك أن النبى محمد تعلم مبادئ الدين فى مصر. (المترجم).

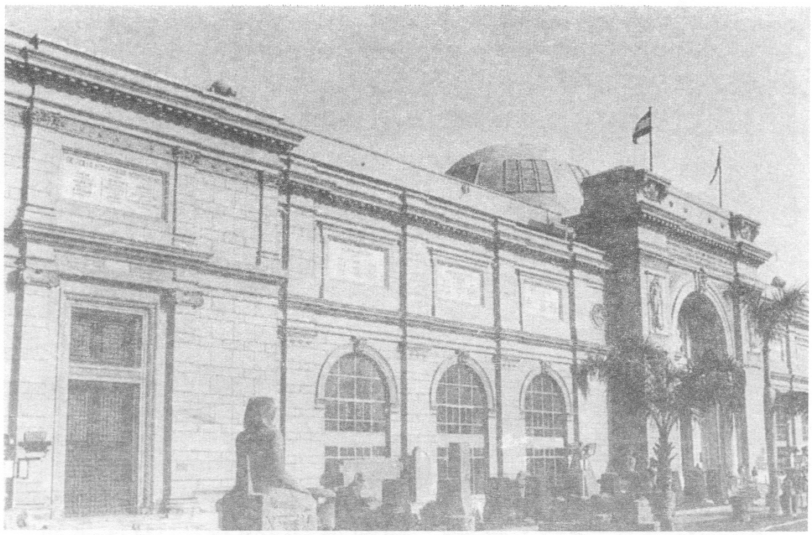
ليتعلم مبادئ دينه ويدرس المسيحية، ولعل أم مخلصنا (السيدة مريم) جاءت بإبنها إلى هنا ليفتح عينيه على النور"[3].

ولم تكن تلك الزوايا الوحيدة التى رأى الغربيون من خلالها تراث مصر، فورثة السحر رأوا فى مصر منبع الحكمة السحرية، ولا زال الإيمان بالسر الخفى للأهرام موجوداً حتى اليوم. وتصور البعض الآخر من الغربيين أنفسم صليبيين عادوا لاسترداد مواقعهم المفقودة، وإن كان ذلك أكثر ارتباطاً بفلسطين وسوريا، مثلما كان شعور الجنرال اللنبى عند دخوله القدس عام 1917، والجنرال جورو عند دخوله دمشق عام 1920. وراح الرومانسيون الذين افتقدوا عالم ما قبل الثورة الصناعية فى بلادهم، راحوا ينشدون فى البدو "الأرستقراطية الطبيعية" والمثل الخلقية الفطرية ورأى بريطانيو الهند فى المصريين الصفات الوراثية للشرقيين الذين يمكن حكمهم بالأساليب التى استخدمت فى الهند. ولما كانت الحكمة غائبة عن الجميع ، كان السؤال الأساسى يتعلق



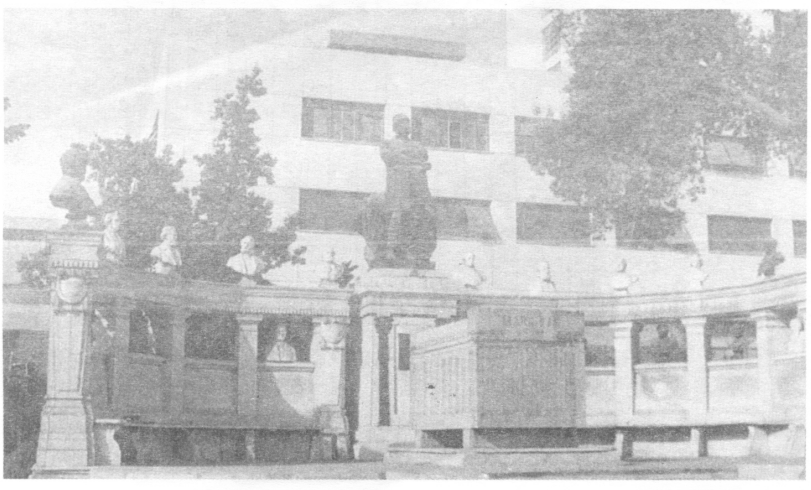
الشكل رقم (١) تأطير وتبنى مصر القديمة
صفحة العنوان لكتاب «وصف مصر» (١٨٠٩)

[3] Florence Nightingale, Letters From Egypt, A Journey on the Nile 1849 – 1850 (New York), 33.


الشكل رقم (٢) تخليد علم المصريات الغربى – المتحف المصرى بالقاهرة

بنوع الغرابيل التى يمكن استخدامها لاستخلاص حقيقة مصر، ومدى اتصال ذلك بالواقع المصرى وتعبيره عنه.

وثمة رؤيتان فرنسيتان ترمزان إلى ارتباط الغرب بالآثار المصرية طوال القرن التاسع عشر، أحدهما: فاتحة المجلد الأول من كتاب "وصف مصر" الذى أعدته الحملة الفرنسية، وثانيهما: مبنى "المتحف المصرى" الذى افتتح عام 1902 ولا زال يستخدم حتى اليوم، ففى فاتحة المجلد الأول من "وصف مصر" رسم إطار زخرفى غنى ، يدعو ناظره إلى الغوص فى مناظر النيل الخلابة من الإسكندرية إلى أسوان (انظر الشكل رقم 1)[4]. فهذه بلاد قديمة مليئة بالخرائب الفرعونية، ولا نرى أثراً إسلامياً بينها . أو منظراً للقاهرة، أو سكان مصر المحدثين. وعلى رأس الإطار منظر عارٍ لنابليون فى صورة أبوللو أو الإسكندر، يصوب رمحاً من عربته الحربية بينما يخر المماليك أمامه ، ووراء "البطل" إثنتا عشرة من آلهات الفنون (فى الأساطير الإغريقية) يعدن إلى مصر الفنون لتستقر فى أرضها الأسطورية التى نبعت منها.


الشكل رقم (٣) تخليد أوجست مارييت – النصب التذكارى والتمثال

وبعد ذلك بقرن من الزمان، خلدت واجهة

[4] رغم أن المجلد الأول من "وصف مصر" يحمل تاريخ 1809 فإنه لم ينشر إلا فى – 1810، انظر:
Commission des monuments d'Egypt, Description de l'Egypt, vol. 1, Paris 1809, Frontispiece.



الشكل رقم (٤) آباء علم المصريات من الغربيين – لوحة على واجهة المتحف المصرى بالقاهرة

"المتحف المصرى" عام 1902، وحديقة النصب التذكارى لمؤسسة أوجست ماريت، أبطال علم المصريات الأوروبى منذ نابليون (انظر الشكلين 2 ، 3). وتضمنت قائمة رواد علم المصريات الأوروبيين: ستة من الفرنسيين وخمسة من البريطانيين، وأربعة من الألمان، وثلاثة من الإيطاليين ، وهولندى، ودانماركى، وسويدى (انظر الشكل 4). وخلت القائمة من أسماء المصريين . وثمة لوح تذكارى آخر أكد المدخل الكلاسيكى الذى أطال من خلال الغرب النظر إلى مصر القديمة، إذ يبرز اللوح هيرودوت، وإراتوس، ومانيتو، وهورا بوللو. واحتل ذلك اللوح مكانه بين ألواح أخرى خلدت حكام مصر القدامى والعلماء المحدثين.

وعلى جانبى مدخل المتحف، نحت تمثالان جداريان يمثلان إلهة الوجه القبلى، وإلهة الوجه البحرى (انظر الشكل 5) يرتدى كل منهما "عباءة مبتلة" على نحو ما جرت عليه تماثيل النساء عند الإغريق، حيث تكشف تلك العباءة عن تفاصيل الجسد، وذلك فى وقت كانت فيه نساء الطبقة العليا فى مصر يعشن فى عصر الحريم ولا يستطعن الخروج من بيوتهن دون نقاب. وجاء نقش إسم الخديو عباس حلمى الثانى على المدخل طبيعياً، ولكنه لم يقدم ترضية كافية للمشاعر الوطنية (انظر الشكل 6)، فقد كتب النص باللاتينية التى لا يعرفها إلا الندرة من المصريين، وجاءت إضافة السنة الهجرية إلى جانب السنة الميلادية كنوع من


الشكل رقم (٥) منظر العباءة المبتلة – نخت تمثل الصعيد



الشكل رقم (٦) اللاتينية الإمبرالية . نقش على واجهة المتحف المصرى

الترضية ولكنها كتبت باللاتينية أيضاً وبطريقة الترقيم الرومانية. وقد تعنى بذلك واجهة المتحف عند المصريين أن: "علم المصريات أوروبى خالص ، وهو العلم الذى كشف عن عظمة مصر القديمة التى تعد أصل الحضارة الأوروبية، وأن المصريين المحدثين لا يستحقون أن يكونوا ورثة قدماء المصريين، فهم لم يصلوا إلى عظمتهم، ولم يأخذوا علم المصريات مأخذ الجد"[5].

وكان للمصريين نظراتهم الخاصة بهم فى مجال السياسة وعلم الآثار، فعلى الصفحة الأولى من أحد أعداد العام 1899 لصحيفة الأطفال المصرية "السمير الصغير" التى لم تعمر طويلاً، وضعت مصر القديمة فى بؤرة النهضة الوطنية الحديثة (انظر شكل 7)[6]، فأشعة الشمس التى ترمز إلى "نور المعرفة" تتجه نحو الأم التى بدت فى زيها الوطنى، والتى توجه أنظار أطفالها إلى الأهرام وأبى الهول. واحتل عباس حلمى



الشكل رقم (٧) إعادة تأطير وتبنى مصر القديمة – صفحة العنوان لمجلة عربية (١٨٩٩)

---

[5] انظر:

Benedict Anderson, Imagined Communities, 2nd ed. (London 1991), 181; Karl Baedeker, Egypt and the Soudan, 8th ed. (Leipzig 1929) 88.

حيث يذكر أن فردينان فيفر هو النحات الذى صنع تمثالى إلهة الوجه القبلى وإلهة الوجه البحرى على جانبى مدخل المتحف.

[6] Bertrand Millet, Samir, Mickey, Sindbad et les autres: Histoire de la presse en Fantine en Egypt (Cairo 1987) 30 – 31.

وقد تأسست "السمير الصغير" عام 1897 لتقديم المعلومات المصورة للأطفال.

الثانى (وليس نابليون) قمة المشهد الذى أحاط به أربعة من رموز الإصلاح من رجال الدولة والمعلمين والعلماء، ثلاثة منهم يحتلون موقعاً مهماً من كتابنا هذا، وهم: رفاعة الطهطاوى، ومحمود الفلكى، وعلى مبارك. وبذلك وضعت عند ختام القرن التاسع عشر البذور التى أنبتت أكلها فى العشرينات من القرن العشرين التى اتسمت بالإعتزاز القومى بالماضى الفرعونى وعلم المصريات.

لم يكن العصر الفرعونى وحده الذى ادعى العلماء الغربيون وشعوبهم حقهم فيه، فقد كان للأوروبيين فضل الريادة فى تأسيس متاحف أخرى فى مصر: المتحف اليونانى – الرومانى بالإسكندرية، ومتحف الفن العربى (الإسلامى الآن) بالقاهرة، وهم الذين ألهموا من أسسوا المتحف القبطى، وكما رأينا فى "المتحف المصرى"، عبر كل المتاحف الثلاثة عن أحد الفروع العلمية القائمة، وعن عصر من عصور تاريخ مصر الضارب فى أعماق الزمن، ومع وجود هذه المتاحف والحقول المعرفية التى اتصلت بها، شعر المصريون بالحاجة إلى تكوين وتدريب المتخصصين الذين يعطون مصداقية لتطلع المصريين إلى تولى مهمة دراسة وتفسير مختلف عصور تاريخهم المديد.

وجاء تتابع تأسيس المتاحف ليعكس أولويات الإهتمام الأوروبى بمصر أكثر من تعبيره عن الأولويات المصرية. فجاء تأسيس "المتحف المصرى" للآثار الفرعونية نتيجة اهتمام الأوروبيين بالكشف عن الحضارة المصرية القديمة، وكان الإهتمام بالإغريق تأكيداً لأهمية هذه الحضارة كأصل للحضارة الغربية. وتسمية "المتحف المصرى" وعلم "المصريات" تعكس الأهمية الكبرى التى يوليها الغرب للعصر الفرعونى، وكان من المنطقى أن يتضمن علم المصريات دراسة لتاريخ مصر فى مختلف عصور التاريخ ، ولكن المصطلح صيغ فى منتصف القرن التاسع عشر ليعنى دراسة تاريخ مصر القديم مع اعتبار العصرين اليونانى – الرومانى والقبطى نتاجاً له. وهذا الاستثناء للعصرين الإسلامى والحديث يعنى – بصورة أو بأخرى– "أن مصر فقدت هويتها عند نهاية تاريخها القديم"[7].

[7] A. Zvie, "Lgypte ancien ou l'Orient perdu et retrouve" in D'un Orient l'autre, 2 vols, (Paris 1991), 1:38.

وجاء تأسيس متحف القاهرة للفن العربى تالياً لتأسيس "المتحف المصرى" نتيجة عمل "لجنة حفظ آثار الفن العربى" التى تأسست عام 1881، وكان تأسيس اللجنة لهذا المتحف الذى افتتح عام 1884 تعبيراً عن إفتتان أهل الغرب بالآخر "الشرقى"، ولا يدخل هذا الإهتمام – بحال من الأحوال– فى نطاق سعى الغرب للبحث عن جذوره الحضارية.

وأعقب ذلك تأسيس المتحف اليونانى – الرومانى عام 1892 الذى لم يقم بالقاهرة، وإنما أقيم بالإسكندرية العاصمة البطلمية لمصر. ومن السهولة بمكان تعريف الأوروبيين فى إطار الحضارة الإغريقية – الرومانية أكثر من حضارتى مصر القديمة والإسلام. فقد قلل الكثيرون من فضل مصر القديمة على اليونان والرومان، واعتبروها مجرد نقطة إرتكاز فى الطريق إلى الحضارة اليونانية – الرومانية العظيمة. ومع وجود العديد من المتاحف التى ضمت آثار اليونان والرومان فى أوروبا، كان إنشاء متحف آخر بمصر لا يحتل الأولوية.

ولكن بحلول عام 1892، ومع وجود نخبة من البريطانيين المثقفين ممن حكموا مصر، ووجود جاليات أوروبية كبيرة، أصبح الوقت مناسباً لإقامة هذا المتحف، ففى إيطاليا كانت الطبقات العليا تبحث منذ عصر النهضة عن الآثار الرومانية القديمة وأعطى القوميون الذين أسسوا الوحدة الإيطالية فى القرن التاسع عشر دفعة جديدة لتلك الجهود، وتعاقب على إدارة المتحف اليونانى – الرومانى ثلاثة من المديرين الإيطاليين الذين بذلوا الجهود لدعم الجانب الثقافى من مطالب بلادهم فى تلك الولاية القديمة من ولايات الإمبراطورية الرومانية.

وكان المتحف القبطى – الذى أسس عام 1908– آخر المتاحف الأربعة التى تمت إقامتها فى مصر، لقد ظل الكاثوليك والبروتستانت فى الغرب ينظرون إلى الكنيسة القبطية منذ زمن بعيد على أنها هرطقة تعكس عيوب "البيئة الشرقية". ولكن المسيحيين الغربيين – واليهود فيما بعد– إهتموا بعلم الآثار لإقامة الدليل على صحة الكتاب المقدس فى مواجهة دعاوى العلمانية والنزعة العلمية، دعماً لقضيتهم. وقد جاسوا خلال فلسطين وبقية بلاد الهلال الخصيب بحثاً عن الأدلة الأثرية التى تدعم دعواهم، وكان من الصعب عليهم تجاهل بلد النيل (مصر) التى ارتبط بها يوسف، وموسى، والمسيح، وأمه مريم، والقديس

مرقص. ويرجع الأقباط أصل كنيستهم إلى القديس مرقص، وهم الذين إبتدعوا نظام الرهبنة المسيحية. وفى التسعينات من القرن التاسع عشر، إهتم بعض الأوروبيين بالفن القبطى والعمارة القبطية، وكان حماسهم مصدر إلهام مرقص سميكة فكرة تأسيس "المتحف القبطى"، وكان المتحف فريداً فى نوعه، يديره مؤسسه المصرى، ولا يخضع لسلطة الدولة وإنما ترعاه الطائفة القبطية.

والغرض الرئيسى لهذا الكتاب هو كتابة تاريخ المصريين المحدثين من خلال دراسة تاريخ هذه المتاحف والمؤسسات والعلوم التى ارتبطت بهم: علم المصريات، والدراسة القديمة (الكلاسيكية)، والدراسات القبطية، والفن والعمارة الإسلامية. فالكتابات الغربية فى تاريخ تلك العلوم تعكس عادة النظرة الإمبريالية التى طبع بها ذلك العصر، وحتى الكتابات التى احتفت بها، همشت دور المصريين. ويهتم هذا الكتاب – أيضاً– بالبحث فى المفاهيم الأكثر شيوعاً عن المصريين فيما يتعلق بماضيهم – فى مصر والغرب على حد سواء– ومدى صلتها بالإمبريالية، والقومية والهوية المصرية.

وكانت تلك التطورات التى شهدها علم الآثار المصرى والمتاحف جزءاً من عملية دولية، سعت من خلالها الدول والشعوب لتقديم نفسها بإعتبارها "أمماً حديثة"، وكان البون شاسعاً بين أن يكون أو لا يكون المرء مواطناً لإحدى الدول الغربية الكبرى: بريطانيا، أو فرنسا، أو ألمانيا، أو حتى الولايات المتحدة الأمريكية، تلك الدول التى حظى نفوذها السياسى والاقتصادى باعتراف العالم أجمع. وكانت المتاحف التى أنشئت فى المستعمرات كمصر والهند، ساحات متميزة للنضال من أجل الاستقلال الوطنى. أما البلاد المستقلة شبه الطرفية كاليونان وإيطاليا، والإمبراطورية الروسية، والمكسيك. فقد بذلت فيها جهود مضنية لدراسة وعرض ما يتصل بماضيها لخدمة أهداف توسعية عكست – بدرجات مختلفة– ملامح علم الآثار فى البلاد المستقلة والمستعمرة على السواء.

ويحاول هذا الكتاب تقديم أطروحة ذات مستويات خمسة: أولاً، المقابلة بين التواريخ المألوفة للآثاريين الغربيين والتاريخ المهمل لنظرائهم المصريين، فلا زال علم الآثار المصرية يحتاج إلى أن يكتب عنه الكثير حتى بعد ميشيل فوكو، وإدوارد سعيد، وعودة الإهتمام بأنطونيو جرامشى، والفرضيات الوضعية حول المعرفة التقدمية، الموضوعية،

"العلمية". فالذين يحتلون على مسرح علم الآثار المصرية دور "البطولة" هم: شامبليون ، ريتشارد ليبسيوس، أوجست ماريت، جاستون – كاميل– شارل ماسبيرو، أدولف إرمان ، فلندزر بترى، هوارد كارتر، جيمس برستيد، وجورج ريشنر. بينما تحجب الظلال المصريين بإعتبارهم ملاحظى عمال أكفاء، وخدم مخلصين، وعمال، ولصوص جبانات ، وتجار عاديات، وموظفين معوقين للعمل، ووطنيين مهووسين. ومن المقابلات التى لا جدال فيها، مقابلة شامبليون ورفاعة الطهطاوى، وكذلك إدوارد لين ورفاعة الطهطاوى، وماسبيرو وأحمد كمال، وماكس هيرتز وعلى بهجت، على نحو ما فعلنا فى هذا الكتاب لتحدى الفكرة السائدة عن تفرد الغربيين فى علم الآثار المصرية، دون أن نقلل من حجة مساهمات الغربيين أو نبالغ فى مساهمات المصريين أو أوجه التشابه بين الفريقين ، ولندحض الفكرة القائلة باستحالة إلتقاء الطرفين، وأن تاريخ علم الآثار كان غربياً محضاً، يلعب المصريون فيه دور المتفرج.

لقد أسقطت الطبعة الأولى (1951) من موسوعة أعلام علم المصريات (Who Was Who in Egyptology) إسم رائد المصريات المصرى أحمد كمال، ولم يذكر فى الطبعتين الثانية والثالثة إلا عرضاً، وإن خصته الطبعة الثالثة من هذه الموسوعة البريطانية الشهيرة (1995) بعشرين سطراً، على حين كان نصيب ماسبيرو 82 سطراً، ونصيب بترى 134 سطراً. ولا شك أن ماسبيرو وبترى كانوا عملاقين، ولكن التعامل مع أحمد كمال بهذا القدر من الإهمال يحتاج إلى تفسير. إن الموسوعات من هذا النوع تهدف إلى استخلاص "العلم" من السياق السياسى الاجتماعى، ولا تضع فى اعتبارها الإنتماء القومى للأعلام أو الصراعات الشخصية ولكن ما فعلته "موسوعة أعلام علم المصريات" يحول دون فهم علم المصريات كما عاشه أولئك الرواد[8]. كانت سيادة اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية فى حقل المصريات أحد العوامل المهمة التى أعطت للأوروبيين ميزة بارزة فى هذا المجال.

أما المستوى الثانى للأطروحة فهو وضع تاريخ علم الآثار والمتاحف فى المجرى العام لتاريخ مصر الحديث. فبعد احتدام الحركات الوطنية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية،

[8] W. R. Dawson, Who Was Who in Egyptology (London 1951), W. R. Dawson and Eric P. Uphill, 2nd ed., (1972); W. R. Dawson, Eric P. Uphill and M. L. Bierbrie, 3rd ed., (1995).

زعم علماء الآثار الغربيون أنهم أقاموا أسس علمهم على قواعد الموضوعية ونبذ المنفعة. وفى العقدين الماضيين تعرض هذا الزعم لهجوم متزايد بـافتراض أن الأهداف السياسية كانت كامنة وراء علم الآثار فى الغرب[9]، ولكن بالنسبة لمصر بدأت عملية إعادة التقويم. فلا يذكر ماريت وماسبيرو إلا بإعتبارهما من كبار علماء المصريات، ولكن يجب أن يذكرا أيضاً بإعتبارهما ممثلين بارزين للإمبريالية فى عصرهما، وعناوين مثل "إغتصاب النيل"، و"إغتصاب مصر"، و"إغتصاب توت عنخ أمون"، تعكس الإعتراف الغربى الراهن بالجانب الإمبريالى من علم المصريات فى القرن التاسع عشر، ولكن هذه الكتب تترك الغربيين يتصدرون المسرح، وتترك للمصريين دور "الضحايا"[10].

غير أن المؤرخين المصريين المحدثين ركزوا جهودهم فى مراجعة التاريخ على مجالات أخرى، ولم ينل علم الآثار إلا القليل من إهتمامهم فالقليل من المصريين والأقل من الغربيين يعرفون شيئاً عن أحمد كمال، أو على بهجت، أو مرقص سميكة وغير هؤلاء من المصريين الذين تناولهم هذا الكتاب معروفين بشكل أفضل، كالجبرتى، والطهطاوى، وعلى مبارك، وأحمد لطفى السيد، وطه حسين، والملك فؤاد – ولكن علم الآثار، والمتاحف والتاريخ القديم لا تدخل ضمن ما عرف عن هؤلاء. ترى من يتذكر أن طه حسين عندما عين أستاذاً بالجامعة كان أستاذاً للتاريخ اليونانى – الرومانى وليس أستاذاً للأدب العربى ؟[11].

وفى المستوى الثالث للأطروحة التى يقدمها هذا الكتاب، يتسع إطار النظر إلى تواريخ علوم المصريات، والدراسات اليونانية – الرومانية، والدراسات القبطية، والعمارة والفن الإسلامى، ليضمنها جميعاً معاً. فمجال هذه العلوم الأربعة هو ماضى مصر، ولكن المتخصص فى واحد منها نادراً ما يهتم بما يخرج عن إطار تخصصه، وأحياناً يمتد

---

[9] Bruce Trigger, A History of Archaeological Thought (Cambridge, Mass., 1989; Bruce Kuklick, Puritans in Babylon: The Ancient Near East and American Intellectual Life 1880 – 1930 (Princeton, N, J., 1996): Suzanne L. Machand, Down From Olympus, Archaeology and Philhellenism in Germany, 1750 – 1970, (Princeton, N. J., 1996).

[10] Brian M. Fagan, The Rape of the Nile (London 1975); Peter France, The Rape of Egypt: How Europeans Stripped Egypt of Its Heritage (London 1991); John and Elizabeth Romer, The Rape of Tutankhamun. (London 1993).

[11] كان المقرر الذى تولى طه حسين تدريسه بالجامعة المصرية عام 1919 هو "تاريخ الشرق القديم"، وقد قام بتدريسه مركزاً على التاريخ اليونانى الرومانى وموقع مصر منه.

اهتمامه إلى العصر السابق أو اللاحق لمجال تخصصه. والتخصص فى واحد من هذه العلوم ضرورى بحكم اختلاف اللغات وطرق الكتابة والأديان فى كل عصر من تلك العصور عنها فى غيره، ولكن حدود التخصص والعصور التاريخية قد تترك آثاراً سلبية على الدراسات نفسها. وقد إرتضى المؤرخون المصريون المعاصرون أن يتركوا تاريخ علم الآثار للآثاريين (ولهواة الكتابة من غير المتخصصين)، مما يؤدى إلى نقص فى دراسة تاريخ علم الآثار، فرغم أن كتابة الآثاريين فيه مطلوبة إلا أن مؤرخى مصر الحديثة أقدر على وضع تطور ذلك العلم فى سياق تاريخ مصر الحديث.

ويتناول المستوى الرابع من أطروحة هذا الكتاب، الإهتمام العلمى والشعبى بتاريخ مصر، فى مصر، وكذلك فى الغرب. وغالباً ما تقوم الدراسات التاريخية لعلم المصريات وغيره من تخصصات الآثار المصرية – بتنحية الأفكار الشعبية المتصلة بموضوع دراستهم، رغم ما فى بعضها من إثارة للخيال: فالأدبيات الخاصة "بالولع بمصر" طرقت موضوعات فرعونية فى الرسم والتصوير الفوتوغرافى، وطرز الملابس، وأدب الرحلات، والروايات، والأغانى الشعبية، والموسيقى الكلاسيكية، والمعارض الدولية، وكتب الدليل السياحى، وبطاقات البريد، وطوابع البريد، فـابتداءً من "معرض لندن الكبير" (أو قصر الكريستال) فى العام 1851، لم يكن هناك معرض دولى يستحق أن يسمى كذلك إذا غاب عنه "جناح مصر". وعلى الجانب المصرى إلتفتت الأنظار مؤخراً إلى الرموز الفرعونية التى استخدمها دعاة الاستقلال الوطنى فى العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين[12]. وفى تتبعى لهذه الظاهرة فضلت أن أصفها "بالولع المصرى بالعصر الفرعونى" أو "الحماس الشعبى تجاه مصر القديمة" نحو "الفرعونية" أو "النزعة الفرعونية" التى تثير عند الكثير من المسلمين الصور المستهجنة للوثنية وطغيان فرعون الذى عانى منه موسى وبنى إسرائيل على نحو ما جاء به القرآن (والإنجيل).

ولا يتضح دائماً الحد الفاصل بين "علم المصريات" و"الولع بمصر الفرعونية"، فمن بين أصحاب الإتجاه الأخير نجد ماريت، وزميله الألمانى هنريش بروجش، وعضو اللجنة

---

[12] Israel Gershoni and James Jankowski, Egypt, Islam and the Arabs, The Search For Egyptian Nationhood, 1900 – 1930, (New York 1986).
والكتاب يتناول النزعة الفرعونية فى العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين.

المهندس المعمارى ماكس هرتز الذى سعى لضمان الأصالة المصرية فى تصميم الجناح المصرى فى المعارض الدولية، واستخدم كارل بايدكر، وتوماس كوك، وجون مورای العلماء من أهل الإختصاص لكتابة بعض فصول كتب "الدليل السياحى" التى حملها السياح معهم فى رحلاتهم المتجهة إلى الصعيد. وتنوع الرسامون والمصورون الغربيون من السياح إلى الآثاريين. وكتب جورج إيبرس كتيبات فى علم المصريات، كما كتب بعض الروايات التى تناولت موضوعات من عصر الفراعنة. وتولى ماريت – عالم المصريات– إدارة مصلحة الآثار والمتحف، بينما عبر عن ولعه بمصر القديمة من خلال كتابته النص الذى أصبح أوبرا "عيادة" لفردى، وقد أصر على أن تكون ملابس الأوبرا مطابقة تماماً للزى الفرعونى، ولكن ماذا يجدى الإصرار على الأصالة مع تلك الموسيقى الأوروبية البديعة التى لا صلة لها بمصر القديمة، والتى لم يستطع تذوقها المصريون المعاصرون له ؟.

أما المستوى الخامس لأطروحة هذا الكتاب فيتناول المناورات التى درات بين "الوطنية " و"الإمبريالية" من ناحية، والموضوعية المثالية لعلم ذى طبيعة دولية من ناحية أخرى. ولم ينجح كل من الغربيين والمصريين فى التوصل إلى حل معضلة أن يكونوا مواطنين صالحين لمجتمعين متخيلين أحدهما سياسياً ذا طبيعة خاصة (إما إمبريالى غربى، أو مصرى وطنى)، والآخر عالمى. ففى الإقتباس الذى نستهل به هذه المقدمة، برر سانت – مور نقل مسلة من الأقصر إلى باريس بالمزج بين مخاطبة "مثقفى أوروبا" كمبرر عالمى الطابع، والوطنية والإمبريالية الفرنسية[13]. وبعد ذلك بقرن من الزمان كتب مصرى مجهول فى صحيفة "البلاغ" القاهرية صيغة بليغة جمعت بين العالمى والوطنى معاً عندما قال: "إن العلم لا وطن له، لأنه ثمرة الفكر البشرى المتطلع لتحقيق الخير للإنسانية، ويجب ألا يعرف العلم حدوداً جغرافية، وأن يتخلص تماماً من شبهة التحيز الوطنى. غير أننا لا نملك سوى التعبير عن إعجابنا بالأستاذ سليم حسن، لبراعته فى علم الآثار، ولاكتشافاته الأثرية الدائمة والتى كان آخرها الهرم الرابع"[14].

---

[13] E. de Verninac Sanit – Mauer, Vpyage du Luxor (Paris 1835) as quted in Leslie Greener, The Discovery of Egypt (New York 1965), 157 – 58.

[14] البلاغ – القاهرة: نقلاً عن الإجبشيان جازيت، عدد 26 فبراير 1932.

وتقدم الإمبريالية الغربية فى مواجهة الوطنية المصرية، إطاراً ضرورياً لهذا المستوى من الأطروحة، لا يتسم بالبساطة، ولكنه ليس كافياً. فقبل عام 1914 أبدى الآثاريون الغربيون (الإنجليز والفرنسيون، والألمان، والإيطاليين، والنمساويين، والأمريكيين) إتجاهات إمبريالية فى تعاملهم مع الآثار المصرية. وكان بعض أولئك العلماء أكثر تسيساً من الآخرين. وكان الصراع بين بعض الأفراد من جنسية واحدة بالغ الحدة أحياناً، وتباين الآثاريون المصريون أيضاً فى درجة إلتزامهم الوطنى وسبل التعبير عن ذلك الإلتزام . وقصر الغربيون المناصب الكبرى على أنفسهم أحياناً، مسيئين بذلك إلى حرمة العلم المتسم بالتقدمية، واتهموا المصريين بأنهم مجرد "وطنيين متطرفين". لأنه – على حد قول فرانز فانون "تستخدم الموضوعية دائماً ضد كل من يتسم بالوطنية"[15].

ولا يغفل هذا الكتاب الجدل الخلاق الذى دار بين إدوارد سعيد ونقاد الاستشراق من ناحية، والمؤرخين ذوى العقلية الإمبريقية من نقاد إدوارد سعيد وغيره، فقد أبرز سعيد الدور المعقد للمستشرقين الذين يردون فرض الإمبريالية الغربية على العالم الإسلامى[16] . ويذهب المؤرخون من نقاده أن سعيداً يبحث عن باطن النصوص ليضع يده على ما يدين به الاستشراق، وأن نقده للاستشراق مفرط فى أيديولوجية، ويستند إلى وقائع تاريخية بعينها تفتقر إلى الدقة.

ويذكر جون ماكنزى فى كتابه: "الاستشراق: التاريخ، والنظرية، والفنون" أنه رغم التفاوت فى القوة، كان اتصال الغربيين "بالشرقيين" يسير فى اتجاهين، وأنه أدى إلى نتائج متعددة غير متوقعة. وفى تناوله للفنون تحديداً، رأى أن الكثير من الفنانين المستشرقين : من الرسامين، والمعماريين، والمصممين، والمسرحيين، والموسيقيين لم يبد منهم عداءً للشرق، كما لم يروجوا للإمبريالية[17]. وأشار إدموند بروك الثالث إلى أن تركيز سعيد على مقدمة فوريه لكتاب "وصف مصر" المحملة بالأيديولوجية، حجبت عن سعيد مغزى هذا العمل. ويقول إن كتاب سعيد (الاستشراق) يعيد إنتاج نفس الأساسيات والتعميمات ،

---

[15] Quted in Edward Said, Culture and Imperialism (New York 1993).
[16] Edward Said, Orientalism (New York 1978); and Said, Culture and Imperialism; Timothy Mitchell, Colonising Egypt (Cambridge, 1988); Martin Bernal, Black Athena, Afroasiatic Roots of Classical Civilization, 2vols (NweBrunswick, N. J., 1987 – 1991).
[17] John Mac Kenzie, Orientalism: History, Theory and the Arts (Manchester, 1995).

مغطاة بطلاء من الرعاية الإمبريالية التى استخدمتها، فهى ذات سلالة معروفة، ولكن ليس لها تاريخ"[18]. ويعترف كارتر فندلى فى مقاله: "عثمانى مستغرب فى أوروبا" بالرؤية الثقافية للاستشراق التى قدمها إدوارد سعيد، وطرح خطوطاً أخرى مثمرة للتفسير[19].

ويقدم هذا الكتاب – من حين لآخر– مقترحات حول نقاط فى حاجة إلى إضافة أو دراسة متعمقة، فيذهب برانسنجت دوارا – من منطلق مدرسة "المهمشين"– إلى ضرورة "إنقاذ التاريخ من الأمة"[20]. وقد يحاول البعض ذلك بإسم الموضوعية "ذلك الحلم النبيل"، ولكن بيتر نوفك يثير الشك حول صلاحية هذا الإختيار[21]. ويرى أصحاب مدرسة "المهمشين " أن مقولة الوطنية أداة لتأكيد هيمنة النخبة الحاكمة على عامة الناس (المهمشين)، والحواضر على الأقاليم، والرجال على النساء. ونستطيع أن نقدم رواية تاريخ علم الآثار المصرية كما تروى "من أسفل". أو من وجهة نظر بعض المصريين[22]: المرأة، الأقباط، أهل الصعيد، التراجمة، عمال التنقيب عن الآثار، تجار العاديات، بحارة السفن النيلية، الفلاحين من قرى الجيزة أو القرنة، الجماعات الإسلامية التى هاجم أفرادها السياح[23] . ورغم إدراك برانسنجت دوارا لواقع مجتمع ما بعد الاستعمار، فإن قصة المراحل الأولى لمحاولات المصريين فى مجال علم الآثار هى "إنقاذ الأمة من الإمبريالية" الذى يمثل الخط الرئيسى فى هذه الدراسة.

وهذا الكتاب لا يقدم تاريخاً شاملاً لعلوم المصريات أو الدراسات القبطية أو الدراسات اليونانية – الرومانية أو الفنون والعمارة الإسلامية. ولأن الكتاب يركز على التطورات التى شهدتها مصر ذاتها فى القرن التاسع عشر، فقد تم تهميش علماء المصريات من أمثال صامويل برش – الذى كان يعمل بالمتحف البريطانى– وأدولف إرمان الذى كان

[18] Edmund Bruke III, "Egypt in the Description d'Egypte", Paper, MESA meeting at Phoenix, Ariz., November 1994.
[19] Carter Vaughn Findley, "An Ottoman Occidentalist in Europe: Ahmed Midhat meets Madame Gulnar, 1889" American Historical Review 103, (February 1998), 14 – 49.
[20] Prasenjit Duara, Rescuing History From the Nation: Questioning Narratives of Modern China (Chicago 1995).
[21] Peter Novick, That Noble Dream: The "Objectivity Question" and the American Historical Profession (Chicago 1988).
[22] Partha Chatterjee, The Nation and Its Fragments: Colonial and Post colonial Histories (Princeton, N. J., 1993).
[23] Michael Herz Feld, A Place in History, Social and Monumental Time in a Certain Town (Princeton, N. J., 1991).

أستاذاً بجامعة برلين الذين فضلوا العمل فى حقل الكشوف الأثرية، بدلاً من البقاء فى بلادهم داخل قاعات الدراسة وباحات العرض المتحفى. ولكن ماريت وماسبيرو يبرزان هنا بسبب طول فترة خدمتها فى مصر ونشاطهما المؤثر فيها.

وبالنسبة للحقبة الزمنية التى يتناولها الكتاب، يعد القرن التاسع عشر من 1798 حتى 1914 مناسباً للوفاء بالغرض الذى ننشده، فقد ذهب المتصدون لهذا العصر بالدراسة إلى التردد بين قدوم حملة نابليون فى 1798 وتولية محمد على فى عام 1805 بإعتبارها الحد الفاصل بين "العصر الوسيط" و"العصر الحديث" فى مصر[24]. فـافتراض أن "الغرب " الحركى الطابع قد أثر فى "الشرق" الراكد لا يصمد أمام النقد، فهناك استمرارية للكثير من الظواهر تمتد جذورها حول ذلك الفاصل الزمنى بين العصرين. ورغم ذلك اتخذنا عام 1798 نقطة إنطلاق لهذا الكتاب لأنه لولا مجئ الحملة الفرنسية لما إكتشف حجر رشيد، ولما كتب "وصف مصر"، فبدون حجر رشيد ربما تأخر حل رموز الهيروغليفية، وبدون حل تلك الرموز يظل التاريخ الفرعونى مجهولاً.

وعلى كل، فلا مناص من بروز مصر الحديثة وعلم المصريات، ولكن فى سياق زمنى آخر، وبفعل عوامل أخرى.

ويتوقف الكتاب عند عام 1914 الذى شهد تقاعد كل من ماسبيرو وأحمد كمال، وقيام الحرب العالمية الأولى التى أوقفت نشاط علماء المصريات من الألمان والنمساويين العاملين فى مصر. وتوقف – أو كاد– نشاط العلماء الإنجليز والفرنسيين، وفتح رحيل النمساوى ماكس هرتز من لجنة حفظ الآثار العربية وإدارة "متحف الفن العربى"، فتح الباب أمام تمصير إدارة المتحف على يد على بهجت. وعند نهاية الحرب العالمية الأولى، قامت ثورة 1919. وأصدرت بريطانيا تصريح 28 فبراير 1922 الذى أعطى مصر نوعاً من الاستقلال المنقوص، وبدأت حقبة جديدة شبه استعمارية فى تاريخ السياسات الوطنية والمتاحف وعلم الآثار، وعلى مدى العقود الثلاثة التى أعقبت التطور سارت عملية

---

[24] من أمثلة ذلك:
Peter Gran, Islamic Roots of Capitalism, Egypt 1760 – 1840 (Austin, Tex., 1979); Kenneth Cuno, The Pasha's Peasants: Land, Society and Economy in Lower Egypt, 1740 – 1858 (Cambridge 1992).

تمصير العمل فى الآثار وغيرها من مرافق الحكومة بخطى مناسبة، وإن كانت الأبواب الخلفية أتاحت للأوروبيين أن يمسكوا بأيديهم زمام التحكم فى السلطة حتى ثورة 1952.

ويستند الكتاب إلى المادة الوثائقية والمصادر المنشورة بالعربية واللغات الغربية التى دعمت بالمقابلات الشخصية. فقد تم استخدام الوثائق غير المنشورة المودعة بدار الوثائق القومية ودار المحفوظات العمومية بالقاهرة، ووثائق الخارجيتين البريطانية والفرنسية، ومحفوظات المتحف البريطانى، ومتحف جامعة بنسلفانيا. وكان أهم ما عثرنا عليه حتى الآن المخطوطة التى لم يسبق استخدامها من قبل، والتى تضم مذكرات مرقص سميكة مؤسس المتحف القبطى.

ويعالج الباب الأول "البدايات الإمبريالية والوطنية" الفترة السابقة على الإحتلال البريطانى عام 1882، فيتناول الفصل الأول التصورات الغربية والإسلامية لمصر القديمة قبل القرن التاسع عشر، والحملة الفرنسية وكتاب "وصف مصر" وتطور التنافس الإنجليزى – الفرنسى فى ميدان المصريات حتى منتصف القرن، ويبرز الفصل مساهمات الجبرتى ورفاعة الطهطاوى، ومحمد على، ويوسف حككيان فى تاريخ المصريات الذى يعالج – غالباً– من منطلق المركزية الأوروبية.

يوضح الفصل الثانى مدى مساهمة السفن البخارية والسكك الحديدية، وكتب الدليل السياحى الحديثة، والفنادق السياحية فى اختراع السياحة الجماعية التى لعبت فيها مصر وشركة توماس كوك دوراً قيادياً. ويرجع الفضل فى ظهور عصر السياحة الجديد إلى التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى شهدها الغرب عندئذ. وحظيت كتب الرحلات والرسوم والصور الفوتوغرافية التى تناولت موضوعات ومشاهد مصرية بإهتمام كبير من جانب العلماء، ولكن الدور الذى لعبه المصريون فى هذا المجال لا زال بحاجة إلى المزيد من البحث.

أما الفصل الثالث، فيعالج علم المصريات فى ثلاثة عقود تتركز فى عصر إسماعيل الذى مهد الطريق للإحتلال البريطانى فى العام 1882. فمع امتداد ظلال الإمبريالية الغربية بعد منتصف القرن، شجع ولاة مصر: سعيد وإسماعيل: ماريت على تأسيس مصلحة الآثار

المصرية والمتحف المصرى. وقام ماريت بإشباع نزعة الولع بمصر الفرعونية عند الأوروبيين بالترتيبات التى وضعها لإحتفالات افتتاح قناة السويس، ونص أوبرا عايدة، وجناح مصر بالمعرضين الدوليين بباريس. وكتب الطهطاوى أول كتاب بالعربية عن تاريخ مصر القديم، وقام على مبارك – ناظر المعارف– بجلب هنريش بروجش من ألمانيا ليتولى إدارة "مدرسة اللسان المصرى القديم"، وبدأ بعض المصريين المساهمة فى نشاط الجمعية الجغرافية الخديوية، والمجمع العلمى المصرى، والمؤتمرات الدولية للاستشراق.

ويتناول الباب الثانى فترة إزدهار الإحتلال البريطانى (1882 – 1914)، ويضم فصلاً عن كل من المتاحف الأربعة، والتخصصات الأثرية التى ارتبطت بكل منها. وقد استهلت هذه الفترة – سياسياً– بكرومر، وختمت بكتشنر، بينما سيطر ماسبيرو وبترى على مشهد علم المصريات. وتناول على مبارك آثار مختلف العصور فى موسوعته الشهيرة "الخطط التوفيقية"، وتولى أحمد كمال وعلى بهجت ومرقص سميكة تكوين جيل جديد من المتخصصين فى مختلف فروع التخصصات الآثارية.

ويعالج الفصل الرابع المتحف اليونانى – الرومانى والدراسات القديمة (الكلاسيكية)، فقد أهمل الإمبرياليون الإنجليز والفرنسيين فى مصر من نابليون إلى كرومر وكتشنر آثار الإسكندر وقيصر، وإزدهر المتحف اليونانى – الرومانى بفضل من تولى إدارته من الإيطاليين جيسب بوتى، وإيفرستو برشيا، وقدمت الجمعية الآثارية بالإسكندرية ذات الطبيعة الدولية، وكذلك بلدية الإسكندرية، الدعم اللازم للمتحف، ولم يظهر أى متخصص مصرى فى الدراسات القديمة أو الآثار اليونانية – الرومانية من مستوى أحمد كمال وعلى بهجت ومرقص سميكة حتى نهاية فترة الدراسة، ولكن نفراً قليلاً من المصريين تابعوا أعمال علماء الغرب الإمبريالى فى حقل الدراسات القديمة، ووجدوا فيها معيناً جديداً للمعرفة.

أما الفصل الخامس، فيتناول علم المصريات فى تلك الحقبة، حيث يقف فى الجانب الأوروبى ماسبيرو، وبترى وصندوق الكشوف الأثرية، بينما يقف فى الجانب المصرى أحمد كمال وحيداً. وغطت الخلافات الحادة بين الآثاريين الإنجليز والفرنسيين على

الضجة التى أثارها حادث فاشودة فى السودان عام 1898، وكان للوفاق الودى عام 1904 جانبه الآثارى إضافة إلى جانبه السياسى، وقامت الحكومة بنقل المتحف من بولاق إلى الجيزة ثم استقر فى موقعه الحالى بميدان التحرير. وحوالى نهاية القرن التاسع عشر استأنف الألمان حفائرهم فى مصر، وبدأ علماء المصريات الأمريكيين يضعون أقدامهم فى هذا الميدان، وإنهمك أحمد كمال فى بذل الجهد فى مجال المصريات، ونشر الوعى بتاريخ مصر القديم بين مواطنيه، وبذلك ساعد الكتاب والسياسيين المصريين من أمثال أحمد لطفى السيد على التماس جذور فرعونية للقومية المصرية.

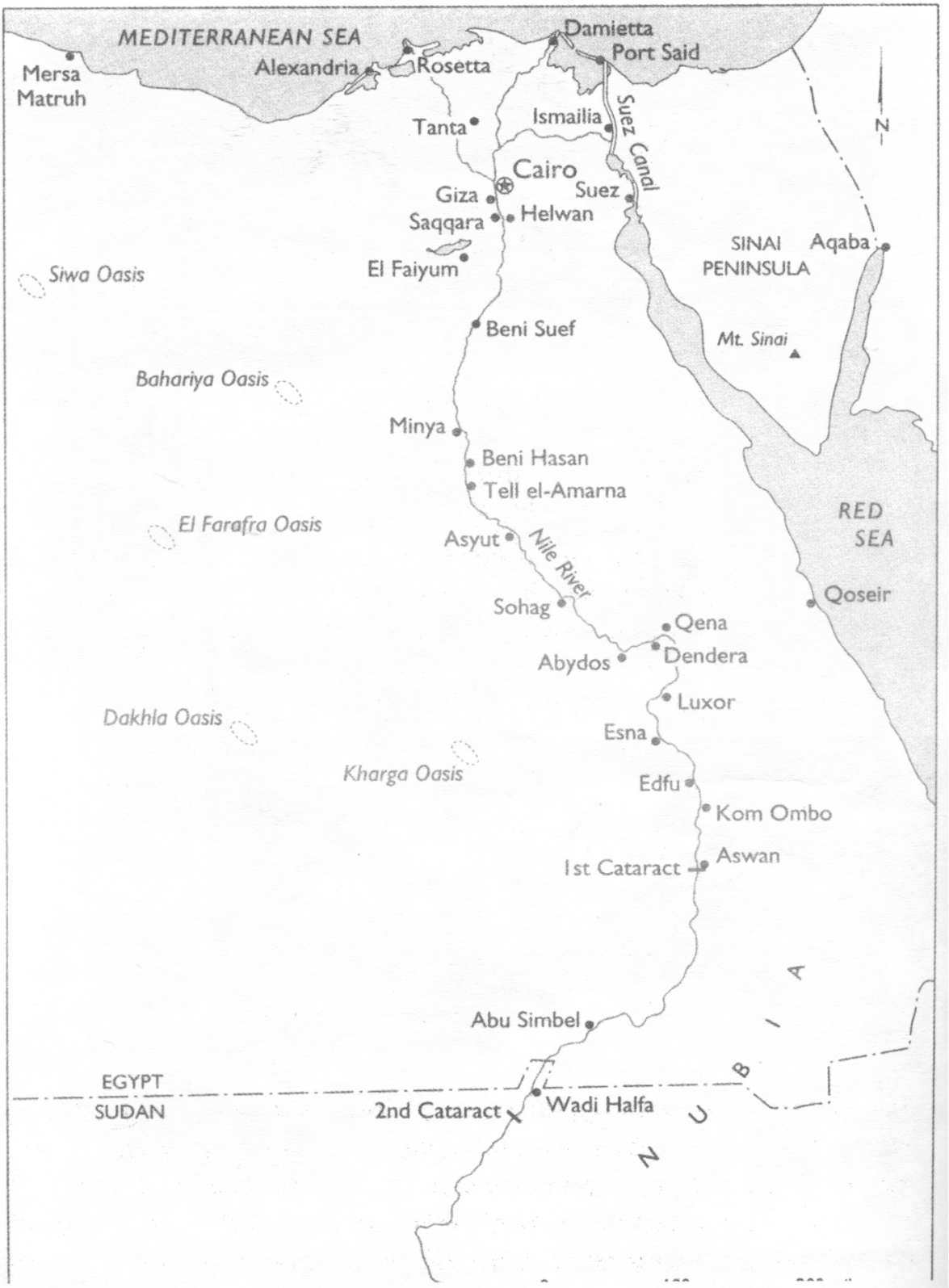
ويتحول الفصل السادس إلى "لجنة حفظ الفن العربى" و"متحف الفن العربى"، والصحوة المعمارية الإسلامية الجديدة. وقد وجه أعمال كل من اللجنة والمتحف بنجاح فى الفترة من 1881 حتى 1914 كل من يوليوس فرانتز الألمانى، وماكس هرتز اليهودى المجرى (من رعايا إمبراطورية النمسا والمجر)، بقدر كبير من النجاح. وحاول يعقوب أرتين – الأرمنى الكاثوليكى– أن يلعب دور حلقة الوصل بين العلماء الأوروبيين والمصريين . وعمل على بهجت تحت رئاسة هرتز لمدة عشر سنوات قبل أن يبدأ حفائره الرائدة فى الفسطاط عام 1912. وجاء رحيل هرتز المفاجئ بعد عامين ليفتح الطريق أمام على بهجت ليصبح مديراً لمتحف الفن العربى.

وخصص الفصل السابع للدراسات القبطية والمتحف القبطى، والفصل يعتمد أساساً على مذكرات مرقص سميكة التى لم يسبق استخدامها من قبل، ويضع الفصل الآثار القبطية والتاريخ القبطى فى إطار الجدل الذى يدور بين الأقباط حول الإصلاح الاجتماعى، وفى سياق السياسة الوطنية المصرية. ويعكس عنوان هذا الفصل "الأبناء المحدثون للفراعنة " الإنتماء عميق الجذور لمصر القديمة الذى بدأ بعض مثقفى الأقباط تأكيده عند نهاية القرن التاسع عشر.

وبعد أن لخصت الخاتمة التطورات التى شهدتها المجالات الأربعة لعلم الآثار على مر القرن التاسع عشر، أشارت إلى التغيرات التى حدثت بعد الحرب العالمية الأولى. ففى عام 1922 ربط التصريح البريطانى بإعلان استقلال مصر، وإكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، بين علم المصريات والنزعة القومية عند المصريين بشكل أكثر وضوحاً من ذى

قبل، فاستفاد المصريون من استقلالهم الجديد فى افتتاح جامعة حكومية عام 1925، وكان من بين أقسام الجامعة قسم للآثار والمصريات وقسم للدراسات الأوروبية القديمة (الكلاسيكية). وبعد ذلك بعام أدخل برنامج للدراسات العليا فى الآثار الإسلامية، وأبدى المشتغلون بالعمل الوطنى فخرهم وإعتزازهم بأجدادهم الفراعنة، وعبر عن ذلك الكتاب ، والرسامون، والمعماريون، والنحاتون، ومؤلفو الكتب الدراسية، ومصممو طوابع البريد فى استخدامهم للرموز الفرعونية.

وفقد علم الآثار بوفاة أحمد كمال عام 1923، وعلى بهجت عام 1924، رائدين مصريين لعلم الآثار فى فترة حرجة من تاريخ مصر، وجاء سقوط وزارة سعد زغلول عام 1924 ليحبط الآمال فى تحقيق الاستقلال التام. وخلال ربع القرن التالى أحكم بيير لاكو وإيتيان دوريوتون قبضة الفرنسيين على مصلحة الآثار المصرية، وخلف أكيل أدريانى، برتشتا فى إدارة المتحف اليونانى – الرومانى، وآلت إدارة متحف الفن العربى إلى جاستون فييت. وتولى الأوروبيون رئاسة قسم الآثار بالجامعة المصرية، وفى عام 1933، أسس الكابتن كييل أرشيبالد كامرون كرزويل شعبة الآثار الإسلامية بالجامعة. وكان درايتون ، وفييت، وكرزويل علماء كبار لم يتأثروا بهجوم غلاة الوطنيين ضد الأجانب. وكان على ثورة 1952 التى قادها عبد الناصر أن تحقق هدفين كانا مثار قلق جيل ثورة 1919 هما تحقيق الاستقلال التام، وتمصير العمل فى المتاحف وعلم الآثار.



خريطة مصر حوالى عام ١٩١٤

الباب الأول
البدايات الإمبريالية والوطنية
1882 – 1798

الفصل الأول
إعادة إكتشاف مصر القديمة
شامبليون والطهطاوى

"يدمر الأجانب الخرائب القديمة، ويأخذون منها الأحجار وبعض المشغولات، ويصدرونها إلى بلادهم. فإذا استمر ذلك لن يبقى بمصر شئ من المخلفات القديمة ،،، ومن المعروف أن الأوروبيين يشيدون أبنية خاصة بالعاديات، والأحجار المرسومة والمنقوشة وغيرها من تلك الأشياء، يحفظونها بعناية، ويعرضونها على أهالى البلاد وعلى السياح الراغبين فى مشاهدتها ... ومع أخذ هذه الحقائق بعين الإعتبار، رأت الحكومة أن الأمر يقتضى منع تصدير العاديات، التى يتم العثور عليها فى الخرائب القديمة، إلى خارج البلاد ... وتخصيص مكان فى العاصمة ليكون مستودعاً لها ... وقررنا عرضها للسياح الذين يزورون مصر، منعاً لنهب الخرائب القديمة بالصعيد، مع بذل كل جهد ممكن للحفاظ عليها".

أمر صادر من محمد على باشا فى 15 أغسطس 1835، أورده جاستون فييت فى كتابه:

"محمد على والفنون Mohamed Ali et les Banx–Arts"

قد يثير عنوان هذا الفصل فضول القارئ الغربى عندما يجدنى أضع العبقرى الفرنسى الذى حل رموز الكتابة الهيروغليفية فى مستوى واحد مع العالم المصرى رفاعة الطهطاوى، الأقل شهرة فى الغرب، فالقاسم المشترك بين الرجلين أنهما أحدثا انقلاباً فى

فهم قرائهما لمصر القديمة، عندما طرحا بين أيديهم المعرفة المستخلصة من الهيروغليفية التى طال زمان صمتها. وعلى حين كتب شامبليون بالفرنسية مخاطباً القارئ الغربى ، كتب الطهطاوى بالعربية مخاطبا المصريين. وهكذا فتح شامبليون أبواب عالم مجهول أمام قرائه، بينما دعا الطهطاوى قراءه أن يمعنوا النظر فيما وراء تلك الأبواب، وذلك رغم عدم قراءته للهيروغليفية، ويرصد هذا الفصل ما عرفه الغربيون والمسلمون عن مصر القديمة قبل العام 1800، ويبحث فى العمل الأثرى للحملة الفرنسية، ويقف عند التنافس الإنجليزى – الفرنسى فى حقل المصريات، ويسجل دخول الألمان إلى الساحة على يد ريتشارد ليبسيوس. ومحمد على، ويوسف حككيان، فى إطار قصة علم المصريات التى تروى دائماً من منطلق المركزية الأوروبية، ونظراً لقرب حككيان من الدوائر الأوروبية بحكم تعليمه وثقافته، أكثر من قربه من الدوائر المصرية، فإن الطهطاوى يعد الشخصية المحورية فى التعبير عن المصريين. وقد لعب دوراً أساسياً فى المحاولة التى يقدر لها النجاح لإقامة إدارة خاصة بالآثار ومتحف لحفظها فى عهد محمد على عام 1835، ونشر عام 1868 كتاباً فى تاريخ مصر القديم، سنلقى عليه نظرة فى الفصل الثالث من هذا الكتاب، ويبين الجدول رقم (1) المصريين الذين اهتموا بالآثار فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى مقابلة الأوروبيين أصحاب نفس الإهتمام.

الجدول رقم (1)

العلماء وجامعو الآثار والحكام الأوروبيين والمصريين

العلماء وجامعى الآثار الأوروبيين	العلماء المصريين	الحكام ومدة حكمهم
دينون 1747 – 1825		
	الجبرتى 1754 – 1822	نابليون 1799 – 1814
	حسن العطار 1766 – 1835	محمد على 1805 – 1848
يانج 1773 – 1829		
دروفيتى 1776 – 1852		
جومار 1777 – 1862		
بلزونى 1778 – 1823		
بوركهارت 1784 – 1817		
شامبليون 1790 – 1832		
ولكنسون 1797 – 1875		
روسلينى 1800 – 1843		
لين 1801 – 1876	رفاعة الطهطاوى 1801 – 1873	إبراهيم 1848
لبسيوس 1810 – 1884	يوسف حككيان 1807 – 1875	عباس الأول 1848 – 1854

رؤية الأوروبيين لمصر القديمة قبل شامبليون

كان الضباب يلف رؤية الأوروبيين لمصر القديمة قبل شامبليون، فقد كانت معرفتهم بمصر تعتمد على الروايات اليونانية – الرومانية، والإنجيل، وما يراه الزائر من آثار مهملة. وهناك لوحة على واجهة "المتحف المصرى" بالقاهرة تخلد ذكرى هيرودوت ، وأرانوس، ومانيتو، وهور أبوللو، وهم من الإغريق والمصريين المتأغرقين الذين كتبوا عن مصر القديمة. وعندما زار هيرودوت مصر عام 450 ق.م، كان باستطاعته أن يستعلم عن الكهنة الذين كانوا يمارسون الخدمة الدينية بالمعابد، ويعرفون الهيروغليفية، فكتب بقدر من المعرفة عن الأسرة الفارسية السابعة والعشرين وعن الأسرة السابقة لها (644 – 525 ق.م)، والأسرة "الأثيوبية" الخامسة والعشرين (745 – 664 ق.م)، ولكن

معلوماته عن الحقب الأقدم لهذا التاريخ كانت تفتقر إلى الدقة على نحو شبيه بما كتبه هوميروس، فقد كان الفارق الزمنى بين هيرودوت وعصر بناة الأهرام ألفى عام. وقد كتب كل من الكاهن المصرى مانيتو، والعالم الإغريقى الموسوعى إراتوس أمين مكتبة الإسكندرية، تاريخها باليونانية بعد ما أصبحت مصر تنتمى إلى العالم الهللينستى بعد ما ضمها الإسكندر إليه. ولم يتبق من تاريخ مانيتو سوى قائمة بملوك مصر[25]، ولكن علماء المصريات لازالوا يستخدمون تحديدها المناسب للأسرات الحاكمة.

وقد إنعكس الجانب العلمانى من الفكر الأوروبى نفسه فى إغفال واجهة "المتحف المصرى" لما يشير إلى الأنبياء إبراهيم، ويوسف، وموسى، وعيسى. غير أن هؤلاء الأنبياء الذين ورد ذكرهم بالإنجيل (والقرآن) كانوا يمثلون أكثر ما كان يعرفه الأوروبيون عن مصر القديمة. وقد أدى تحول المصريين إلى المسيحية فى القرنين الرابع والخامس للميلاد إلى حدوث قطيعة كاملة مع الديانات الوثنية القديمة، والملوك الآلهة والكتابة الهيروغليفية. وقام المسيحيون بطمس النقوش والصور الدينية القديمة على جدران المعابد الوثنية، وحولوها إلى كنائس. وهكذا انتهت معرفة الهيروغليفية والديموقطيقية بنهاية الكهنة القدامى، وماتت معهم.

ولكن التراث الفرعونى ظل على قيد الحياة وإن كساه غطاء من الوعى. فصورة إيزيس وإبنها حورس تحولت إلى صورة مريم تحمل إبنها المسيح، وتمثل بعث أوزيريس فى قيامة المسيح، وتحول ست عدو أوزيريس إلى التنين الذى قتله مارى جرجس، وأصبح "عنخ" بالهيروغليفية (مفتاح الحياة) أول شكل من أشكال الصليب واستمرت اللغة المصرية القديمة فى الحياة تحت إسم اللغة "القبطية" التى كتبت بحروف يونانية مضافاً إليها سبعة حروف ديموطيقية. واستمر الحديث بالقبطية لعدة قرون بعد الفتح العربى ، ولكن ما بقى منها الآن نصوص وأدبيات كنسية.

وخلال العصور الوسطى الأوروبية، جذب الحج والحملات الصليبية والتجارة الأوروبيون إلى مصر. فقد توقف الحجاج بمصر فى طريقهم إلى القدس، ليشاهدوا المواقع المصرية

[25] Gerald P. Verbrurgghe and J. M. Wickersham, Berosos and Manetho, introduced and translated (Ann Arbor, 1996).

التى ارتبطت بيوسف وموسى وعيسى، والقديس مرقص والقديس أنطونيوس، وأدرجت الأهرامات فى مشاهد الحج بـاعتبارها صوامع يوسف التى قام العبرانيون ببنائها. وعلى الصعيد التجارى، قام جون ساندرسون التاجر الإنجليزى بشحن ستمائة رطل من المومياوات إلى بلاده فى أواخر الثمانينات من القرن السادس، لأنه كان يعتقد بفائدتها فى علاج الجروح والرضوض والكدمات[26].

وأضاف إنسانيو عصر النهضة إلى مبررات السفر إلى مصر عند أهل العصور الوسطى، أضافوا الرغبة فى التعلم والترويح عن النفس، وكتبوا أقدم كتب الرحلات التى ضمنوها مشاهداتهم فى مصر، فأوجدوا بذلك طريقة جديدة للبحث، وصدرت طبعات لأعمال هيرودوت، وسترابو، وديودور الصقلى بعد مرور عقدين من الزمان على طباعة جوتنبرج للإنجيل، وبذلك أصبح من السهل التعرف على الكلاسيكيات وعلى المتطلبات الدينية للحج. وفى 1610 زار الشاب جورج ساندى الجيزة فى جولة طويلة عندما كان فى الثانية والعشرين من عمره، وأيد الفكرة الإغريقية الرومانية عن الأهرام بإعتبارها قبوراً ملكية، ونفى تماماً وجود أى علاقة بينها وبين يوسف أو العبرانين. ولكن المعرفة الكلاسيكية لها حدود، ولم يكن أحد قد عرف بعد ما إذا كان الملوك الذين ذكرهم مانيتو فى قائمته ملوكاً حقاً أو محض خيال، وقال ساندى إن محاجر طرة سميت كذلك لأن تراجان سجن هناك[27].

لقد شوهت العدسات الكلاسيكية صورة الأهرام، فحتى القرن التاسع عشر كان الكثير من الأوروبيين يعتبرون أن هرم كايوسى سيستيوس بروما (الذى يبلغ إنحداره 75 درجة) النموذج المثالى للهرم رغم أن (أهرام الجيزة كان إنحدارها 52 درجة). وذكرت مادة "الهرم" فى الطبعة الأولى لدائرة المعارف البريطانية (1771) أن هرم سيستيوس سابق على أهرام الجيزة. كان ساندى قد رأى الأهرام رؤية العين، ولكن رسمها بزاوية إنحدار كبيرة، ولا تزال زاوية إنحدار هرم سيستيوس تؤثر على تصور شكل الهرم فى خاتم

[26] John David Wortham, Britich Egyptology 1549 – 1906 (Newton Abbot, Devon, 1971), 15 – 16.

[27] On Sandays, see W. R. Dawson, Who Was Who in Egyptology, 3rd. er., revised by M. L. Bierbier (London 1995), 260 – 61; and George Sandys, A Relation of a Journey Begun Anno Dom. 1610 (London 1915; reorint of 2nd. ed – Amesterdam 1973).

الولايات المتحدة الكبير الذى يظهر على أوراق النقد (الدولار)، وكان البناءون الأحرار من أوائل من قاموا بتصميم ذلك الخاتم[28].

وقام أستاذ الرياضيات بـإكسفورد، الفلكى، والمستشرق جون جريفز بتجربة عملية، فجلب معه إلى مصر أدوات لقياس الأهرام وفى كتابه "جغرافيا الأهرام، أو حديث عن أهرام مصر" الصادر فى 1646 قدم تحديداً أدق لأبعاد الأهرام، مبيناً الممر الداخلى بالهرم الأكبر، مؤكداً أنها كانت مقابر للملوك[29]. غير أنه أخطأ فى حساب زاوية إنحدار الهرم . وحتى بعد مرور 125 عاماً على ذلك، ذكرت دائرة المعارف البريطانية تقديرات إرتفاع الهرم الأكبر التى تراوحت بين سبعمائة وخمسمائة قدم، دون أن توجه إنتقاداً إليها.

ومن المثير للدهشة أن يحظى هورأبوللو – من مؤلفى القرن الخامس الميلادى– بالتخليد على واجهة "المتحف المصرى" بالقاهرة، فقد ثبتت قيمة كتابه "هيروغليفيكان"، ولكن طريقة قراءته للرموز الهيروغليفية ضللت العلماء عدة قرون. وفى القرن الخامس عشر أعاد الأفلاطونيون الجدد بفلورنسا إكتشاف هورأبوللو وقوانين هرمس (Corpus Hermeticum) وأتاحوها للتداول. وكان المؤلف المزعوم لتلك القوانين هو هرمس ترسمجتس – وهو يجمع بين هرمس وتوت المصرى– الذى كان يعتقد بأسبقيته على موسى وبتعبيره عن حقائق المسيحية. وفى عام 1600، مات جيوردانو برونو وهو يسعى لتأكيد تفوق المحكمة الهرمسية على المسيحية، ورغم أن إسحق كازوبون أقام الدليل فى 1614 أن قوانين هرمس كتبت بعد ظهور المسيحية، فإن الرؤية الأسطورية لمصر القديمة بـاعتبارها منبع الحكمة الصافية إنتقلت إلى الروزيكوربين (وهى جمعية دينية سرية زعمت امتلاك أسرار الطبيعة والدين)، وإلى البنائين الأحرار، وإلى حلقات الصراع فى العصر الجديد الآن[30].

---

[28] Sandys, Relation, 128; Erik Iverson, The Myth of Egypt and Its Hieoglyphics in European Tradition (Copenhagen, 1961), Plate 7, Facing 48, and on 164 n. 82; Ency. Britannica (Edinburgh, 1771), 3 : 519; John A Wilson, Sings and Wonders upon Pharaoh, A History of American Egyptology (Chicago 1964), 37.

[29] Who Was Who in Egyptology, 3 : 176.

[30] Garth Fowden, The Egyptian Hermes: A historical Approach to the Late Pagan Mind (Princeton, 1986); Erik Iverson, The Myth of Egypt and Its Hierogliphics in European Tradition (Copenhagen 1961); Fxancis Yates, Giordano Bruno and the Hermetic Question, (Chicago 1946).



الشكل رقم (٨) مصر بعيون كلاسيكية – أثناسيوس كيرشر يحل لغز أبى الهول

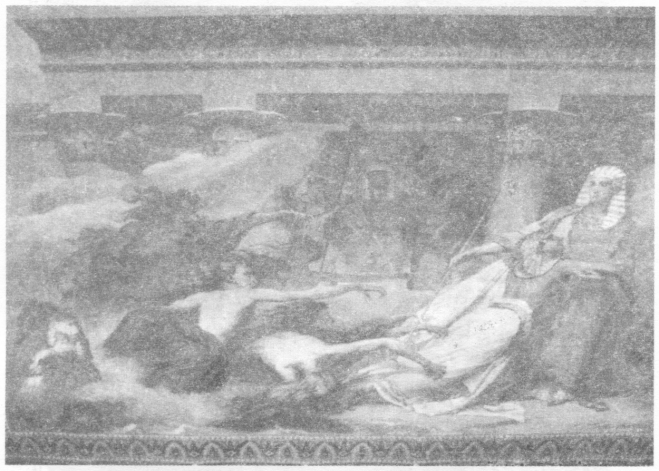
أما العلامة اليسوعى أثناسيوس كرشر (1601 – 1680)، الذى كان يقرأ العبرية، والسوريانية، والعربية، والقبطية، فقد التزم جانب الغموض الباطنى، فكتب كتاباً من ثلاثة آلاف صفحة ليبرهن على ما يزعمه من أن الهيروغليفية كانت سابقة فى تعبيرها عن المسيحية. وتحمل صفحة عنوان كتابه "أوديب المصرى" (Oedipus Aegptiacus) رسماً للمؤلف يصوره يسعى لمعرفة سر أبى الهول المصرى الذى بدا فى شكله الأنثوى المجنح أقرب ما يكون إلى الطابع الإغريقى لا المصرى (انظر الشكل رقم 8). ورغم ثبوت خطأ ما ذكره أثناسيوس كرشر بالنسبة للهيروغليفية واعتقاده فى جنيات البحر، والغرفين (حيوان خرافى نصفه نسر ونصفه أسد)، ومركزية الأرض، فقد كان له فضل إرساء دعائم الدراسات القبطية فى أوروبا[31].

إعادة إكتشاف الأوروبيين لآثار الصعيد

قبل قرن ونصف القرن من وصول بونابرت إلى مصر، نشر رحالة فرنسيون سبعة وعشرون كتاباً – على الأقل– عن رحلاتهم فى مصر، بزيادة 16 كتاباً عما كتبه الإنجليز، بينما كتب الألمان ست كتب، والهولنديون أربعة كتب، والإيطاليون كتابين والسويسريون كتابين[32]. وكان الأوروبيون يدخلون إلى مصر إما عن طريق موانيها على

[31] Joscelyn Godwin, Athanasius Kircher, A Renaissance Man and the Quest For Knowledge (London 1979).

[32] تم حصر عدد الكتب ونسبتها إلى جنسيات أصحابها استناداً إلى:
Martin Kalfatovic, Nile Notes of a Howadji: A Bibliography of Travellers' Tales From Egypt (Met u chen, N. J., 1992).



الشكل رقم (٩) مصر بعيون الكتاب المقدس – يوسف ينقذ مصر
لوحة آبل دويوجو (١٨٢٧)

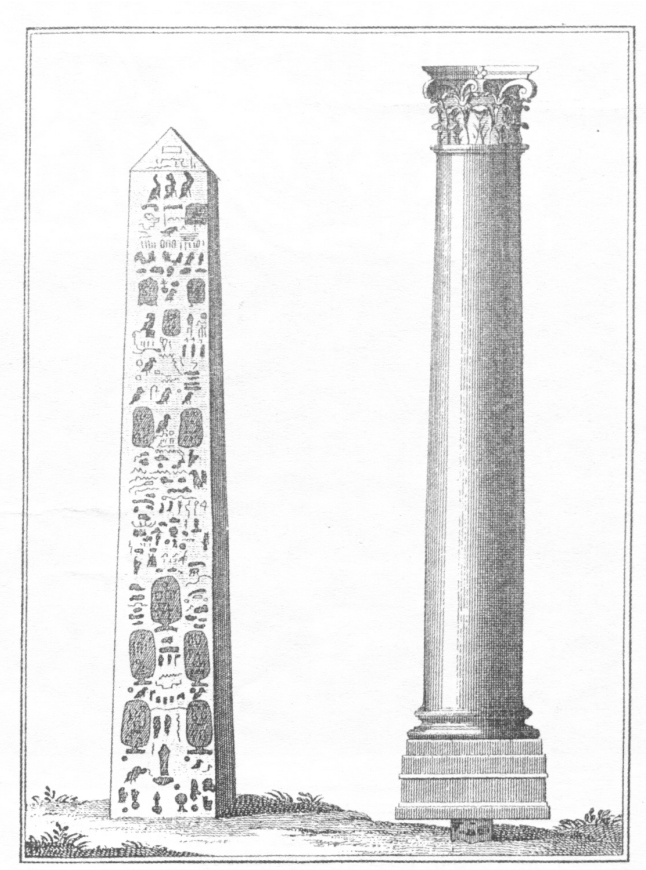
البحر المتوسط، أو عبر فلسطين بطريق البر، وحتى ستينات القرن السابع عشر، ندر من غامر منهم بالتنقل جنوب القاهرة. وبعد ذلك قام الرهبان الكاثوليك بالإبحار على صفحة النيل جنوباً لممارسة مهامهم التبشيرية التى تستهدف تحويل الأقباط إلى الكاثوليكية. وفى الطريق إلى دير الشهداء بإسنا، دلف راهبان كابوتشيان إلى الكرنك عام 1668. وفيما بعد كلف الأب فاسيليب وكلود سيكار من قبل ملك فرنسا بشراء المخطوطات المسيحية (القبطية) القديمة إضافة إلى مهمتهما التبشيرية . وكان سيكار – الذى قام برحلته فيما بين 1714 و1726– أول رحالة أوروبى حديث يكتب عن خرائب الأقصر فى طيبة. وزار أيضاً معبدى كوم أمبو والفانتين. وحتى الآن لازال ينظر إلى مصر القديمة فى الدوائر المسيحية واليهودية الغربية من خلال منظار الكتاب المقدس (انظر الشكل 9).

وكانت الرموز العلمانية أكثر وضوحاً عند بنوادى ماييت الذى كان قنصلاً لفرنسا فى القاهرة قرب نهاية القرن الثامن عشر ولم يقم ماييت بزيارة الصعيد، ولكنه شجع الآخرين على زيارته، ولا يعد كتابه الذى حمل عنوان "وصف مصر" من كتب الرحلات العادية، ولكنه كان يضم كماً هائلاً من المعلومات[33] عن مصر، وتوضح إحدى لوحات الكتاب "عمود بومبى" والمسلة القائمة بالإسكندرية جنباً إلى جنب، فثقافته الكلاسيكية جعلته يعبر عن ميله للعمود الرومانى أكثر من تأثره بالمسلة الفرعونية.

وقد رسم العمود بعناية كبيرة، ولكنه لم يلتزم الدقة فى رسمه للرموز الهيروغليفية المنقوشة على المسلة والتى كان من المتعذر قراءتها. وعلى نقيض مواطنيه بعد ذلك

[33] فيما يتعلق باستكشاف الصعيد، راجع:
Claude Traunecker and Jean – Claude Golvin, Karnak: Resurrection d'un site (Paris 1984), 35 – 99; Carre, Voyayeurs 1 : 29 – 118.

بقرن من الزمان، كان يرى أن أفضل ما تحصل عليه فرنسا هو عمود بومبى وليس المسلة الفرعونية (انظر الشكل 10)[34].



الشكل رقم (١٠) مالذى يجب أن يرسل لفرنسا المسلة أم عمود بومبى ؟

وفى عام 1737، جاء إلى مصر رجلان من بروتستانت شمالى أوروبا، هما: ف. ل. نوردون الضابط البحرى الموفد من ملك الدنمارك، وريتشارد بوكوك، القس الإنجيلى، وأسهما فى اكتشاف الصعيد، دون أن يعرف أحدهما بوجود الآخر، وبعد ما عاد كل منهما إلى بلاده كتب عن رحلته ، وإنضما إلى "الجمعية المصرية" التى أسسها بلندن عام 1741 جون مونتاجو، إيرل مقاطعة ساندوتش والتى لم يقدر لها أن تعمر طويلاً. وقد سارت الجمعية على نهج "جمعية ديلبتانى" (1732) التى ضمت المتحمسين للدراسات الكلاسيكية ممن قاموا بزيارة إيطاليا. وقد عبر بيكوك عن افتتانه بأبى الهول عندما صوره سليم الأنف، وكان نوردون أول من رسم أبى الهول على حقيقة أنفه المفقود[35].

وبعد عام 1750، حالت الإضطربات التى شهدها الصعيد على مدى نصف القرن دون الأوروبيين وزيارة المنطقة، ورغم ذلك جاس اللورد الأسكتلندى جيمس بروس خلال الصعيد فى طريقه إلى أثيوبيا، فتوقف عند الكرنك ووادى الملوك، بينما لم يتجاوز كل من المستشرق كلود سافرى، والفيلسوف كونت دى فولنى ما وراء القاهرة جنوباً. وكان

---

[34] Benoit de Maillet, Description de l'Egypt … composee sur les memoires de M. de Maillet, ancient consul de France an Caire, Par l'abbe le Mascrier (Paris, 1735), 147 – 48.

[35] Who Was Who in Egyptology, 3 : 312, 338; وفيما يتعلق بأنف أبى الهول، انظر:
Alberto Siliotti, The Discovery of Ancient Egypt (Cairo, 1998), 36 – 37, 42 – 43.

تصوير فولنى لمصر والشام بإعتبارهما ترزحان تحت نير الاستبداد الشرقى، كان عوناً عفوياً للتخطيط لحملة بونابرت على مصر[36].

وهكذا بنى علماء الحملة الفرنسية معرفتهم بمصر من تراكم المعلومات التى وردت فيما كتبه الغربيون عن مصر القديمة، ولم يبدأوا من الصفر على نحو ما يتردد غالباً فى بعض الكتابات. فقبل العام 1798، إلتفت الرحالة الغربيون إلى المعابد الكبرى فى الصعيد حتى أسوان. ولم تتم رؤية معبدى إدفو وأبيدوس عن قرب[37].

رؤية المسلمين لمصر القديمة قبل الطهطاوى

تعد فكرة الأوروبيين عن مصر القديمة قبل القرن التاسع عشر معلومة بصورة أوضح من فكرة المسلمين عنها، فالكتابات العربية التقليدية تبرز العداء الإسلامى لمصر القديمة وتعتبر عبادة الأوثان وتعددية الآلهة نوعاً من "الجاهلية" السابقة على الإسلام. ولما كانت مصر الإسلامية تختلف عن مصر القديمة عقيدة ولغة، فإنها لم تنتج نظيراً "للشاهنامة" التى إحتفى فيها الفردوسى بالتراث الفارسى وأشاد بالساسانيين وملوك الفرس الأسطوريين، وربما كانت الكتابات العربية التقليدية فى السحر، التى ارتبطت بمعرفة السحر الفرعونى، وافدة على مصر من العراق فى القرن الحادى عشر، وليس لها جذور عميقة بمصر. وليس هناك سوى مصدر عربى واحد سابق على العصر الحديث، أورد ذكر الكرنك، فقد أشار الرحالة إبن بطوطة إلى مسجد الولى الشيخ أبو الحجاج فوق قمة خرائب معبد الأقصر[38]. وسادت فى مصر فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر أزمة متصلة بسبب الحروب والأوبئة والمجاعات، وأدت تلك الأزمة إلى موجة من التشدد الدينى والتعصب ضد الرموز الدينية القديمة، فقام المسلمون بتحطيم تمثال لإيزيس بالفسطاط مدفوعين فى ذلك بالحماس الدينى. وتم استخدام حجارة تحمل نقوشاً، إنتزعت

[36] Volney, Voyage en Syrie et Egypte, Pendant les annees 1783, 1784 et 1785, 2 vols., 2 nd ed., (Paris 1787).
[37] Carrre, Voyagenrs, 1 : 67 – 68.
[38] Ulrich Haarmann, "Medieval Muslim Perceptions of Pharaonic Egypt", in Ancient Egyptian Literature : History and Forms, ed., Antonio Loprieno (Leiden, 1996), 605 – 27; H. A. R. Gibb, tras., Ibn Battuta : Travels in Asia and Africa 1325 – 1354 (London, 1953), 53.

من "المعبد الأخضر" فى منف، فى بناء تكية للمتصوفة، وتم هدم معبد أخميم، كما قام بعض المتصوفة بالهجوم على تمثال أبى الهول بالجيزة[39].

واعتمد الطبرى (المتوفى فى 923 م) فى تاريخه على مصادر يهودية ومسيحية، وفارسية، وعربية سابقة على الإسلام، ولكنه لم يشر إلى مصر القديمة إلا عرضاً عند ذكره للأنبياء يوسف وموسى وعيسى، وأعطى الجبرتى لفرعون موسى إسماً عربياً . واستهجن طغيانه الوثنى. وأسقط الطبرى من ذكر حكام مصر الفترة اليونانية – الرومانية[40].

وعلى كل، بين أولريش ها أرمان أن الأدب العربى الوسيط تميز بموقف إيجابى غير تقليدى من مصر القديمة. فالمسعودى (توفى 956 م) أبحر فى النيل حتى أسوان باحثاً عن أسرار المسلمين والأقباط فى كتابه "مروج الذهب" الذى قدم فيه عرضاً لتاريخ اليونان منذ فيليب المقدونى، والتاريخ البيزنطى، والأساطير الخيالية عن الفراعنة، وأبدى المسعودى إعجابه ببراعة الفراعنة فى الطب والفلك، واستخدامهم للحجارة والمعدن[41].

وعبر الكثير من الكتاب المسلمين عن مصر القديمة باعتبارها بلاد السحر والغموض . وقيل أن ملكاً يمنياً يدعى شداد بن عاد غزا مصر، وملك مصرى يدعى سريد بن شلق ، وهرمس ترسمجستوس (الذى يرد إسمه فى القرآن بإسم إدريس وفى الإنجيل بإسم إنوك) قد بنى كل منهم الأهرام للحفاظ على "الحكمة" حتى لا يضيعها فيضان النيل. ووصف الرحالة عبد اللطيف البغدادى (المتوفى 1231 / 1232م) الآثار بتفصيل مبهر. وذهب المقريزى (المتوفى 1422م) إلى أن الهيروغليفية ما هى إلا ترميز للمعرفة القديمة فى

---

[39] لاحظ مايكل كوك إهمال المسلمين لمصر القديمة، ويؤكد ذلك هاأرمان ولكنه يشير إلى إعجاب المسلمين بسحر الفراعنة، انظر:
Micheal cook, "Pharaonic History in medieval Egypt", Studia Islamica 57 (1983) 67 – 113; Ulrich Haarman, "Regional Sen timent in Medieval Islamic Egypt", Bulletin of SOAS, 43 (1980) : 55 – 66.

[40] تاريخ الطبرى فى خمسة أجزاء، وانظر مادة "فرعون" بدائرة المعارف الإسلامية.

[41] Ahmed M. H. Shboul, Al-Masudi and his World : A Muslim Humanist and his Interest in Non – Muslims (London, 1979) : and Tarif Khalid, Arabic Historical Thought in the Classical Period (Cambridge, 1994), 131 – 81.

الكيمياء، وذكر أن بمصر عشرين من عجائب الدنيا الثلاثين، من بينها الأهرام ومعابد أخميم ودندرة[42].

وكتب جمال الدين الإدريسى (حوالى 1238) كتاباً عن الأهرام باعتبارها تحذيراً إلهياً للبشرية. وأعطاها مسحة إسلامية بزعمه أن النبى والصحابة كان يسعدهم الاستظلال بها، وذكر أن شيخاً مغربياً أعاد حاجاً من مكة إلى مصر لأنه لم يزر الأهرام قبل قدومه إليها. وخصص الإدريسى فصلاً للتراث الخيالى عن الأهرام، مشيراً إلى أبعادها، واصفاً الهرم الأكبر من الداخل[43].

وبذلك سبق الإدريسى جون جريفز الذى كان أول من قدم للغرب صورة مماثلة بعد الإدريسى بأربعة قرون.

ولم يكن الغربيون أفضل معرفة بمصر القديمة من المسلمين، لأنهم اعتمدوا على ما أورده هيرودوت وديودور الصقلى وسترابو. ولأن كتب التاريخ والمسرحيات والأساطير وكتب الرحلات اليونانية لم تكن ضمن العدد الهائل من الكتب اليونانية التى نقلت إلى العربية. ولكن الميزة التى تمتع بها الغربيون كانت محدودة لأن الكتابات اليونانية – الرومانية القديمة لم تحقق التسلسل الزمنى لمصر القديمة ولم تقدم أسلوباً صحيحاً لقراءة الكتابة الفرعونية القديمة. وفى أواخر القرن الثامن عشر، أقرت دائرة المعارف الفلسفية الفرنسية أن "تاريخ مصر القديم فى حالة فوضى، يختلط فيه التطور الزمنى بالدين والفلسفة وتغرق جميعاً فى الغموض والإضطراب"[44].

الحملة الفرنسية والمجمع العلمى المصرى

ولد علم المصريات فى خضم العنف، والإمبريالية، والصراع الإنجليزى – الفرنسى. فقد جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر لتحقيق مشروع استعمارى إقترحه لينبنز عام 1672 ،

---

[42] بالإضافة إلى دراسة هاأرمان سالفة الذكر، راجع مادة "هرم" بدائرة المعارف الإسلامية، 2 : 173؛ ومادة "المقريزى"، 6 : 193 – 94.

[43] Ulrich Haarmann, "In Quest of the Spectacular : Noble and Learned Visitors to the Pyramids around, 200 A. D. "in Islamic Studies Presented to J. Adams, ed., Wael Hallaq and Donald P. Little (Leiden 1991), 57 – 67; Haarmann edition of Abu Jafar 91 – Idrisi, Anwar uluw al – Ajram Fi – 1 Kashf an Asrar al – Ahram, (Beirut 1990).

[44] "Egyptians (Philosophie des), "Encyclopedie raisonne des Connstatt, 1966, reprint of)1751 – 1780 ed. Paris), 5 : 434.

وكان الغرض من الحملة الهجوم على المصالح البريطانية فى البحر المتوسط والهند، وعثر الجنود الفرنسيون – صدفة– على حجر رشيد عندما كانوا يحفرون الأرض لإقامة الاستحكامات العسكرية، واستولى الإنجليز على الحجر كغنيمة حرب عام 1801، ليصبح ذلك معلماً لبداية صراع أنجلو – فرنسى فى حقل المصريات إمتد لأكثر من قرن. ولولا الغزو الفرنسى لمصر لما كان هناك "وصف مصر"[45].

وقد ذهب نقاد تاريخ هذه الحقبة إلى أن عام 1798 كان مجرد حدث لا يرقى إلى المستوى المفترض منه، فقد مهدت إصلاحات على بك الكبير الطريق لإصلاحات محمد على، ولم تكن مصر بعيدة عن السوق العالمية قبل العام 1798، وأن الحملة الفرنسية تركت القليل من الآثار الثقافية[46]. كما أنه قد بولغ فى تقدير تأثير كتاب "وصف مصر" فى أوروبا، وأن أسرار الماسونية، ومزمار موزار السحرى، والتصميمات المعمارية لبرانسى تقوم دليلاً على وجود الولع بمصر قبل العام 1798. وقام الأوروبيون الذين كان باستطاعتهم قراءة القبطية بزيارة الكنائس والأديرة الرئيسية بمصر، وحددوا المواقع التى ذكرها المؤلفون القدامى، ووصلوا إلى المعابد الكبرى فى الصعيد فيما عدا إدفو وأبيدوس، الآثار الإسلامية وحدها هى التى لم تكن معروفة إلا قليلاً[47].

وكان هناك كتاب أسبق يحمل عنوان "وصف مصر" (1735) الذى ذكر أن "النيل معروف للكثير من الناس كنهر السين تماماً"[48].

ولكن الحملة الفرنسية كانت نقطة تحول فى تأكيد الصراع الجغرافى الأنجلو فرنسى ، واستطاعت أن تضعف المماليك بشكل مؤثر، وتمهد الطريق أمام محمد على، كانت هناك عقبات، ولكن محمد على استطاع أن يدخل تغييرات أساسية فى مجالات الاقتصاد والمالية والجيش والسياسة والثقافة[49].

---

[45] تعتمد الدراسات الأخيرة التى تناولت الحملة الفرنسية على مصادر فرنسية من بينها:
Henry Laurens, L'Expedition d' Egypte 1798 – 1801 (Paris 1989); Andre Roymond, Egyptiens et Francais au Caire 1798 – 1801 (Cairo 1998).

[46] من بين نقاد التحقيب بيتر جران وكين كونو (انظر ما سبق ذكره بالمقدمة).

[47] Carre Voyage eurs 1 : 76 – 73.

[48] De Maillet, Description de l'Egypte, iv.

[49] أحدث الدراسات الخاصة بهذا العصر هى دراسة خالد فهمى:
All the Pasha's Men, Mohamed Ali, His Army and the Making of Modern Egypt (Cambridge, England, 1998).

ومثل عهد الحملة الفرنسية وعصر محمد على فتحاً جديداً فى علم الآثار – فقد مهد العثور على حجر رشيد الطريق لحل رموز الكتابة الهيروغليفية ومولد علم المصريات الحديث، ولعب "وصف مصر" دوراً مهماً فى تسجيل الفن الفرعونى وكذلك العمارة الفرعونية والطبوغرافيا.

ولما كان نابليون يسعى لتحويل الهزيمة العسكرية فى الحملة إلى نصر ثقافى، فقد جعل من "وصف مصر" مشروعاً للدولة عام 1802. وبرهن العمل الكبير الذى بذل فى إعداد المشروع على أنه قد يكون وريثاً لدائرة المعارف المعروفة، فقد صحب نابليون معه 170 عضواً كونوا لجنة العلماء والفنانين الموفدون إلى مصر، وكان علماؤها الأساسيون ينتمون إلى المجمع العلمى المصرى الذى أقيم على نسق مجمع مماثل أقيم حديثاً فى فرنسا، وتولى جسبار مونج – رائد الهندسة الوصفية– رئاسة المجمع، وتولى "المواطن بونابرت" منصب نائب الرئيس، وإضافة إلى جان باتست فورييه، كان مونج منتمياً إلى قسم الرياضيات، بينما كان فيفان دينون منتمياً إلى قسم الأدب والفنون الجميلة، وكلود لوى برتوليه إلى قسم الفيزياء[50].

وضمنت اللجنة خمسة وأربعين مهندساً (بما فيهم الجغرافيين)، ونحو الإثنى عشر من الميكانيكيين وأخصائى المناظير، ومثلهم من الأطباء والصيادلة، وثلاثين من الفلكيين والرياضيين والكيميائيين، وعلماء الحيوان والنبات، والتعدين، كما كان هناك ما يزيد قليلاً على خمسة عشر من رسامى الخرائط والرسامين، والمعماريين والأدباء، وعلماء الآثار والموسيقيين والاقتصاديين. وكان هناك عشرة من المستشرقين يعملون كمترجمين. وفى عام 1799 طبعت مجلة "الاستشراق" لتكون المجلة الأولى التى يسهم فى تحريرها كل من يدرس أو يرسم الشرق. وتولى ثمانية عشر طباعاً تشغيل مطبعتين كانت إحداهما غنيمة من الفاتيكان، وضمت حروفاً عربية ويونانية ولاتينية. وضم المجمع مكتبة، ومرصداً، وورشة، ومعملاً كيماوياً، ومجموعة من المعادن والآثار. ترى هل كان فرانسيس بيكون أودينيس ديدروت يحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك ؟

[50] Gabriel Guemard, Histoire et Bibliographie critique de La Commission des sciences et arts et de l'Institut d'Egypte (Cairo 1936).

وكانت الأسئلة الستة التى طرحها بونابرت فى افتتاح المجمع محبطة لأحلام الحالمين . فقد سأل عن كيفية استطاعة الجيش صناعة الجعة دون استخدام حشيشة الدينار، وكيف يستطيع تحسين أفران الخبز، وتنقية المياه، وصناعة البارود محلياً ؟ وما إذا كان من الأفضل إقامة طواحين هواء أو ماء ؟ وما هى الإصلاحات التى يمكن إدخالها على القانون المحلى والتعليم وتكسب قبولاً شعبياً ؟[51].

ولم يحظ باهتمام الأوروبيين من بين هؤلاء العلماء سوى فيفان دينون (1747 – 1825)، فقد عاد إلى فرنسا مبكراً بصحبة بونابرت، وكان كتابه "رحلة فى صعيد مصر" الذى نشر عام 1802 ممهداً الطريق "لوصف مصر"، وسرعان ما ترجم كتابه إلى الإنجليزية والألمانية. كان دينون فى الحادية والخمسين عندما انضم إلى الحملة، وكانت له إنجازات فى مجال الكتابة والفن، كما خدم فى السلك الدبلوماسى فى سان بطرسبرج والسويد، ونابولى وقد فقد دينون أملاكه فى حوادث الثورة ولكنه نجا من "الرعب" بفضل حماية الرسام دافيد[52].

وقد صحب دينون الجنرال ديزيه فى حملته على المماليك بالصعيد، ورسم الآثار التى وقعت عليها عيناه طوال الطريق. وكان الجنود يسخرون من "العلماء"، ولكن الجيش الفرنسى أصيب بالذهول عندما رأى طيبة "وكأن احتلال خرائب تلك العاصمة القديمة أعظم أعمالهم، وأنه المتمم لإحتلال مصر". وليس من الغريب أن تناقض رسوم دينون التقليد الكلاسيكى، فقد وصف المعابد المصرية بالنمطية والطابع الحزين، وقال عن معبد دندرة "لم يخترع اليونان أو يفعلوا شيئاً يفوق عظمة هذا المعبد"، متحدياً بذلك مقولة كاترميردى كونسى أن العمارة المصرية أقل شأناً من العمارة اليونانية[53].

وتبع دينون مهندسان شابان هما إدوارد دى فيلييه دى تراج (الذى يذكر دائماً بإسم دى فيلييه)، وجان باتست بروسبير جولوا، تبعاه فى الإهتمام بآثار الصعيد، فأحضرا معهما

---

[51] La Decade Egyptienne, vol. 1, (Year 7, 1798), 11 – 12.

[52] عن دينون راجع كتابه:
Voyage dans la basse, et l'haute : Egypte Description de l'Egypte, 2 vols., (Paris, 1802).

[53] Jean – Clande Golvin, "L Expedition de l'Haute Egypte : a la descouverte des ou la revelation de l'archi tecture pharaonique "in Henry Laurens, l'Expedition d'Egypte (Paris, 1989), 333 – 50.

رسوماً ومخططات معمارية للمعابد، كما أرسلت الحملة فيما بعد بعثتين علميتين إلى الصعيد لدراسة الآثار، وعقد دى فيلييه مقابلة بين عظمة الماضى وتخلف الحاضر، بربرية الشرق والتنوير الأوروبى فقال:

"القرية العربية تضم أكواخاً بائسة، وتتحكم فى أعظم آثار العمارة المصرية، ويبدو أنها قائمة هناك لتعبر عن انتصار الجهل والبربرية على قرون النور التى رفعت فى مصر الفنون إلى الذروة.

وقد سعدنا عندما فكرنا أننا سنأخذ معنا إلى بلادنا منتجات علوم وصناعة المصريين القدماء، وهو غزو مشروع سنقوم به بإسم الفنون"[54].

وصف مصر

إن الرجل الذى رعى "وصف مصر" حتى اكتماله هو إدمى فرانسوا جومار (1777 – 1862) الجغرافى الذى ساعد الحملة على رسم خرائط القاهرة والإسكندرية والأقاليم. وقد شمل هذا العمل الموسوعى أربع محافظ ضخمة من النصوص المتعلقة بمصر القديمة، وإثنتين (من ثلاثة أجزاء) للدولة الحديثة، وإثنتين (فى خمسة أجزاء) للتاريخ الطبيعى ، وخمس محافظ ضخمة للوحات التى خطت الآثار القديمة، وإثنتين للدولة الحديثة، وإثنتين (من ثلاثة أجزاء) للتاريخ الطبيعى. ولما كان العصر الإسلامى قد جاء بعد نهاية العصر القديم، فقد صنفه أصحاب "وصف مصر" ضمن "الدولة الحديثة" وفى هذه الحالة لم ينته الخلاف حول التفرقة بين القديم والحديث بصورة تامة، فسوف يقود هذا الخلاف إلى تقسيم التاريخ إلى عصور ثلاثة، جعلت "التاريخ الوسيط" يحتل موقعاً بين القديم والحديث[55]. وقد عمل على هذه اللوحات التى بلغ عددها 974 لوحة نحو 400 رساماً. ولم تظهر باكورة "وصف مصر" مطبوعة بالمطبعة الإمبراطورية التى أدارها جان – جوزيف مارسيل (أحد من خدموا فى صفوف الحملة بمصر)، لم تظهر إلا عام 1810

---

[54] الإقتباس مأخوذ من: Golvin, "L'Expedition", 344

[55] Irene Bierman, "The Time and Space of Medieval Cairo", أشار إلى غياب فترة العصور الوسطى من وصف مصر. (unpublished paper, 1998) وهناك دراسة مهمة عن تاريخ نشر "وصف مصر" هى:
Michael W. Albin, "Napoleon's Description de l'Egypte : Problems of Corporate Authorship", Publishing History 8 (1980) : 65 – 85.
وقد أعيدت طباعة اللوحات فى ألمانيا طباعة ممتازة فى كولون عام 1994.

(رغم أن صفحة الغلاف تحمل عام 1809)، وطبع آخرها عام 1828 (ولا يعد من بينها الأطلس المستقل الذى طبع عام 1829) غير أن بانكوك أصدر طبعة ثانية مختصرة (1820 – 1830) كعمل تجارى.

وقد إنتقد إدوارد سعيد وغيره المقدمة التى كتبها فورييه لتتصدر الكتاب، ووافق عليها نابليون، أشاد فورييه بالأهمية الاستراتيجية لموقع مصر عند ملتقى قارات ثلاث وبكونها بيت الفنون حتى قبل حرب طروادة، وتلقى العلم فيها هوميروس، وليكورجوس ، وسولون، وفيثاغورث، وأفلاطون، وسعى إليها كل من الإسكندر، وبومبى، وقيصر، ومارك أنطونيوس، وأغسطس طلباً للقوة والمجد. وتبع خطاهم نابليون العظيم، ولكن "هذه البلاد التى نقلت معارفها إلى العديد من الأمم، تعيش الآن بين براثن البربرية"[56] . ومن ثم كانت بحاجة ماسة إلى الغزو الفرنسى الذى كان عليه استعادة المنافع الحضارية.

وتناولت صورة الغلاف التى أشرنا إليها من قبل (شكل 1) ما يدعم هذه الرسالة[57]. فهناك خراطيش بها نجمة ونحلة – قيل فى شرحها أنها ترمز إلى الإمبراطور– تحيط بالإطار الذى يعبر عن تتويج نابليون. وحتى نابليون نفسه لم يعترف صراحة أن النجمة والنحلة تعنيان (فى الهيروغليفية) "الملك المقدس"[58].

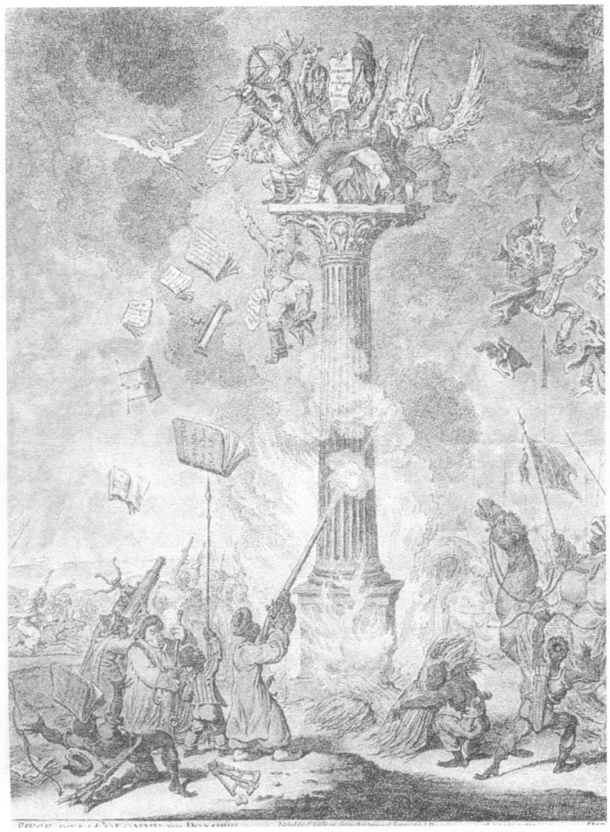
وقبل نشر "وصف مصر" بعقد من الزمان، عندما كان الجيش الفرنسى وعلماؤه لا يزالون رهن الحصار فى مصر، قام الرسام البريطانى الساخر جيمس جيلراى بالسخرية من العلماء الفرنسيين عندما صورهم فوق عمود بومبى مذعورين منهكين، وقد أحاط البدو بالعمود من أسفل يحكمون عليهم الحصار (الشكل 11) وكتب تحت ذلك الرسم أن خطاباً من الجنرال كليبر وقع فى يد الإنجليز ذكر فيه أنه عندما تقدمت قوة عثمانية، وأجبرت الفرنسيين على التقهقر نحو الإسكندرية، حوصر مجموعة من العلماء كانوا قد اعتلوا عمود بومبى لأغراض علمية، حيث أحاط البدو بالعمود وأشعلوا النار فى كم هائل من

---

[56] Description, Fourier, "Perface historrique", iii; Edward Said, Orientalism (New York, 1978), 80 – 87.

[57] Description, vol. 1 : Antiquites : Planches (Paris 1809), وقد أعيدت طباعتها لغلاف كتابين آخرين نشرا فى 1984، 1987.

[58] Iverson, Myth, 132 – 33.



الشكل رقم (١١) علماء الحملة الفرنسية محاصرون فوق عمود بومبى
لوحة جيلراى (١٧٩٩)

القش جمعوه تحته، وتبين للعلماء فى تلك المحنة الفكرة التى كانت وراء تصميم رأس العمود على هذا النحو".

وسار "وصف مصر" على نهج دائرة المعارف الفرنسية فى تخطيه للتاريخ الفرعونى وإغفاله الإشارة إلى المجتمع الفرعونى وتطوره السياسى والدينى[59] . ويستمد العمل قوته فيما إتصل بالتاريخ القديم من استناده إلى التراث الكلاسيكى (اليونانى – الرومانى) من حيث استخدامه فى محاولة فهم ما شاهده العلماء من آثار. وقد أشار "وصف مصر" إلى مصادر يونانية ولاتينية تم استخدامها وكانت النقوش الهيروغليفية الورادة "بوصف مصر" لا قيمة لها حتى صدور المجلد الأخير عام 1828، فالعلماء لم يلتزموا الدقة فى تصوير الرموز الهيروغليفية، كما أن جومار نفسه لم يكن مقتنعاً بعمل شامبليون.

ونحى العلماء التطور التاريخى جانباً، وقاموا بترتيب اللوحات الخاصة بالآثار المصرية القديمة على أساس موقعها الجغرافى من جزيرة فيلة إلى الإسكندرية شمالاً. وتعد لوحات الآثار التى اندثرت بعد الحملة الفرنسية بالغة القيمة اليوم، فالكتابات الإسلامية عن الآثار الفرعونية تفتقر إلى القيمة لأنها لا تتضمن توثيقاً مصوراً لتلك الآثار.

الجبرتى والحملة الفرنسية

عبد الرحمن الجبرتى (1754 – 1822)، عالم أزهرى، سجلت حولياته التى حملت عنوان "عجائب الآثار فى التراجم والأخبار" – تاريخ مصر منذ أواخر القرن السابع عشر حتى

[59] Claude Traunecker, "L'Egypte antique de la Description", in Laurens, Expedition, 351 – 70.

وفاته، ولكن سرده لأخبار الحملة الفرنسية تخطى الجانب الأثرى من عملها. ومن المحتمل ألا يكون قد رأى "وصف مصر" الذى كانت أجزاءه تصدر تباعاً فى باريس عندما مات الجبرتى. وقد أورد الجبرتى البيانات التى أصدرها بونابرت بالعربية موجهة إلى المصريين، ولم تأخذه بالفرنسيين الشفقة عندما راح يعدد الأخطاء النحوية الواردة بتلك البيانات، وينتقد إدعاء بونابرت صداقته للإسلام والسلطان، وعداءه للبابا، وإنقاذه المصريين من طغيان المماليك، وافتتح حولياته عن الحملة الفرنسية بالقول: "وهى أول سنى الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالى المحن، وإختلال الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب"[60].

وذكر الجبرتى أن الفرنسيين بعيدين عن التدين، ماديين، يمارسون الخلاعة والمجون مع النساء الأوروبيات والمصريات، وأنهم دنسوا الأزهر الشريف. غير أن الجبرتى قدر للفرنسيين علمهم أعظم تقدير، وعبر عن إعجابه "بالعلماء" الفرنسيين، وقد زار مكتبة المجمع العلمى ومعمله، ووصفه قائلاً:

"أفردوا للمدبرين، والفلكيين، وأهل المعرفة، والعلوم الرياضية كالهندسة، والنقوشات، والرسومات، والمصورين، والكتبة، والحساب، والمنشئين، حارة الناصرية حيث الدرب الجديد ... وفيه جملة كبيرة من كتبهم، وعليها خزان ومباشرون، يحفظونها ويحضرونها للطلبة، ومن يريد المراجعة، فيراجعون فيها مرادهم، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين، ويجلسون فى فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسى منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة. فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها، فيحضرها له الخازن . فيتصفحون ويراجعون ويكتبون، حتى أسافلهم من العساكر. وإذا حضر إليهم بعض المسلمون ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم، ويتلقونه بالبشاشة والضحك، وإظهار السرور بمجيئه إليهم، وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية

[60] الجبرتى، عجائب الآثار، 3 : 1، طبعة دار الكتب المصرية 1998.

أو معرفة أو تطلعاً للنظر فى المعارف، بذلوا له مودتهم ومحبتهم، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها التصاوير ....

ولقد ذهبت إليهم مراراً، وأطلعونى على ذلك، فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبى صل الله عليه وسلم ... وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم ... ورأيت بعضهم يحفظ سوراً من القرآن. ولهم تطلع زائد للعلوم ، وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغة والمنطق، ويدأبون فى ذلك الليل والنهار. وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات، وتصاريفها واشتقاقاتها ... وعند توت الفلكى وتلامذته فى مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة ... كذلك أفردوا أماكن للمهندسين وصناع الدقائق ... وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان، واستخراج الأملاح ... "[61].

ولم يذكر الجبرتى شيئاً عن مجموعة الآثار التى جمعها علماء المجمع العلمى ولكنه رأى كتباً تحتوى على "صور البلدان والسواحل والبحار والأهرام، وبرابى الصعيد، والصور والأشكال والأقلام المرسومة بها ..." وهكذا نقل إلينا عالم أزهرى مصرى صورة إيجابية لمكتبة غربية، ومعامل البحث، ومعرفة الفرنسيين للإسلام والعربية، ومشاهدته للصور التى رسموها للمعابد والنقوش الهيروغليفية.

القناصل جامعى الآثار (سولت ودروفتى) والصراع الأنجلو – فرنسى

يحدد الاستيلاء البريطانى على حجر رشيد بداية ما يزيد على القرن من الصراع الإنجليزى الفرنسى فى ميدان المصريات. وعندما جاء وليم هاملتون – سكرتير اللورد إيلجن السفير البريطانى فى إستانبول – إلى مصر عام 1801 ليساعد فى إجلاء الحملة عن مصر، أحبط محاولة فرنسية لتهريب حجر رشيد من مصر، وإضطر لإقامة نقطة مراقبة على النيل هناك لهذا الغرض. وأورد هاملتون فى كتابه عن مصر (1809) ترجمة للنص اليونانى على حجر رشيد. وفيما بعد، ساعد هاملتون اللورد إيلجن فى الحيلولة دون

[61] الجبرتى، عجائب الآثار، 3 : 57 – 58، نفس الطبعة (وقد أثر المترجم الرجوع إلى النص الأصلى الذى نقل المؤلف ترجمته من تحقيق موريه لعجائب الآثار).

حصول الفرنسيين على التمثال الرخامى لبارثينون، وإضطر اللورد إيلجن أن يبيعه للمتحف البريطانى خاسراً بذلك سمعته وماله[62].

وتابع القنصل البريطانى العام سولت وخصمه الفرنسى برناردينو دورفتى التسابق فى إقتناء الآثار المصرية وخاصة ما ندر منها، وعظمت قيمته. جاء سولت إلى مصر عام 1815، ومات بعد إثنى عشر عاماً، وقد رحب بـاقتراح السير جوزيف بانكس – عالم النبات وأمين المتحف البريطانى ورئيس الجمعية الملكية أن يتولى جمع الآثار لحساب المتحف البريطانى. ولم يكن المرتب السنوى الذى يحصل عليه سولت (1500 جنيهاً إسترلينياً) يكفى لتغطية نفقات القنصلية وتعلقت آماله بما يمكن أن يكسبه من تجارة الآثار، ولكن الضجة التى أثارها شراء المتحف البريطانى للتماثيل الرخامية لوثت الأجواء. فقام سولت أولاً بإهداء المتحف البريطانى تمثالاً لرأس رمسيس الثانى ثم عرض على إدارة المتحف شراء المجموعة التى كانت عنده كلها، ولكن السير بانكس خذله ، ويعقب صديقه وصاحب ترجمته على ذلك بقوله: "إتهم سولت المسكين بأنه مجرد تاجر ويهودى، ونسخة أخرى من اللورد إيلجن"[63].

وكان من بين رجال سولت العاملين فى حقل الآثار جيوفانى كافجليا، وهو قبطان بحرى من مالطا، أجرى حفائر بالجيزة، وجيوفانى بلزونى، وهو لاعب سيرك سابق ، والشخصية التى كتبت عنها ست تراجم. وقد أحضر بلزونى رأس رمسيس الثانى على مركب نيلى إلى سولت بالقاهرة، وفتح معبد أبو سمبل، ومقبرة سيتى الأول، وهرم الجيزة. وعندما قطع علاقته مع سولت قام بتنظيم معرض فى الصالة المصرية ببيكاديللى (لندن) فى 1821، ونشر كتاباً بديعاً عن نشاطه[64].

أما دروفتى فكان توسكانياً، خدم فى الجيش الفرنسى فى إيطاليا وجاء إلى مصر كنائب قنصل عام 1802، ثم ترقى إلى منصب القنصل العام. وعند عودة الملكية فقد وظيفته عام

---

[62] فيما يتعلق بهاملتون انظر: Who Was Who 3 : 188 وفيما يتصل باللورد إيلجن انظر:
William St-Clair, Lord Elgen and the Marbles (London 1967).

[63] J. J. Halls, The Life and Correspondence of Henry Salt, 2 vols. (London 1834), 2 : 301, see alo Who Was Who 3; 370 – 371.

[64] For Caviglia, see Who Was Who 3 : 88; For Belzoni, his Narrative of the Operations and Recent Discoveries (London 1820), Who Was Who 3 : 40 – 41; Stanley Mayes, The Great Belzoni (London 1959).

1814، ولكنه استمر مقيماً بمصر، يجمع الآثار على أمل بيعها فيما بعد إلى متحف اللوفر. ولم يدع دروفتى العلم كما فعل غريمه سولت. وقد استعاد منصبه القنصلى عام 1821، واستمر فى جمع الآثار. ووصل الأمر برجاله ورجال سولت إلى العراك داخل الكرنك، مما دفع القنصلين إلى التوصل إلى اتفاق بتقسيم مناطق مصر الأثرية بينهما، فما يقع غرب النيل من نصيب سولت، وما يقع شرقه من نصيب دروفتى. وقام جان جاك ريفر – أحد العاملين لحساب دروفتى– بإجراء حفائر فى الكرنك فيما بين عامى 1817 و1823[65].

وتابع خلفاء سولت ودروفتى الصراع القنصلى الأنجلو – فرنسى لجمع الآثار المصرية . ففى الخمسينيات من القرن التاسع عشر، تولى ذلك الأمر جون بيكر، وباتريك كامبل ، وتشارلز مورای على الجانب البريطانى، وتولاه على الجانب الفرنسى كل من جان فرانسوا ميمو وريموند ساباتييه، أما أدريا لوى كوشيليه الذى تولى القنصلية الفرنسية بمصر فيما بين ميمو وساباتييه فلم يكن له إهتمام بجمع الآثار[66].

وكان من بين قناصل الدول الأخرى من إهتم أيضاً بجمع الآثار المصرية مثل: جيسب دى نيزولى القنصل النمساوى فى العشرينات من القرن التاسع عشر، وجيوفانى أنستاسى الذى كان إبناً لأحد الأمريكيين ممن كانوا يمدون الحملة الفرنسية فى مصر بالمؤن، وقد وقع نشاطه فى حقل جمع الآثار بين فترة دروفتى – سولت وفترة بارييت، وتولى جمع الآثار أثناء عمله قنصلاً للسويد والنرويج بالقاهرة فيما بين 1828 – 1857. وعن طريق عملائه فى سقارة والأقصر، استطاع أنستاسى أن يكون مجموعة ضخمة من الآثار المصرية إنتهى بها المطاف إلى متاحف هولندا ولندن وباريس. كما قام ستيفان زيزينيا – اليونانى المولود بجزيرة خيوس والفرنسى الجنسية– قنصل بلجيكا بالقاهرة، بجمع الآثار المصرية[67].

---

[65] On Rifoud, see Who Was Who 3 : 358; Ronald T. Ridley, Napoleon's Procnsw in Egypt L The Life and Times of Bernardino Drovetti (London 1998).

[66] On Barker, Cambpell, Murray, Mimaut and Sabatier, see Who Was Who 3 : 30 – 31, 81 – 82, 302 289, 369; On Cochelet, see George Gilddon, An Appeal to the Antiquaries of Europe on the Destruction of the Monuments of Egypt (London 1841), 107.

[67] Who Was Who, 3; 217; 8 : 457.

وحال التمزق السياسى لإيطاليا من إنتفاعها بجهد الإيطاليين فى تجميع الآثار المصرية، وقد مارس الإيطاليون عملهم فى هذا المجال تحت أعلام دول أخرى (على طريقة كولومبوس وفيسيوتشى)، فقد عمل كل من بلزونى وكافجليا وألكسندرو ريتشى لحساب الإنجليز، وأصبح دروفتى البيدمونتى المولد فرنسى الجنسية. بل إن "الكورسيكى العظيم" – وهى الصفة التى خلعها أحد مؤرخى النشاط الإيطالى بمصر على بونابرت[68] – بدأ حياته إيطالياً أكثر من كونه فرنسياً. وفى العشرينات من القرن التاسع عشر، اشترت بروسيا مجموعات الآثار المصرية التى جمعها كل من هنريش فون مونيتولى وجيسب باسالاكا، لتودع فى متحف برلين، وكان مونيتولى ضابطاً بروسياً إيطالى المولد برتبة جنرال، أما باسالاكا فكان إيطالياً من تريسته، وقد تبع مجموعته إلى برلين وأصبح أمين المتحف المصرى هناك. ومن بين مواطنى الدول الصغرى الذين عملوا لحساب دول أخرى جيوفانى أثاناسى الذى قام بحفائر لحساب سولت فى وقت كانت فيه بلاده – اليونان– تابعة للإمبراطورية العثمانية. والمستكشف السويسرى يوهان لودفيج بوركهارت (وإسمه الإنجليزى جون لويس، وعرف بين المصريين بإسم إبراهيم المهدى) وكان يقوم باستخراج الآثار لحساب الإنجليز[69].

ولعل الأبعاد القومية بين المتصارعين الأوروبيين فى حقل الآثار المصرية كانت مثار حرج أرستقراطية القرن الثامن عشر التى كانت ترسم الحدود بين البلاد بطريقة أيسر من رسم الحدود بين الطبقات، ولكن عقدين من الحروب الثورية فعلت فعلها فى إضفاء الصفة العالمية على العلم والثقافة؛ فقد أخذت فرنسا بالنظام المترى للقياس فى عام 1793، وأرجأت بريطانيا عقد معاهدة دولية لجعل هذا النظام عاماً فى مجال العلوم حتى عام 1875[70].

هذا المزج بين الوطنية، والمنفعة، والحماس للتنقيب عن الآثار الذى تفاوت من جامع للآثار لآخر، والمتاحف التى انتشرت فى المدن الأوروبية، ما لبثت أن أنهت دور الجامعين الوطنيين. فقد رفض اللوفر عرض دروفتى بيع مجموعته للمتحف، وانتهى بها

[68] Angelo Sammarco, Gli Italiani in Egitto (Alexandria 1937), 144 – 45.
[69] On Ricci, Passalacqua, Athanasi and Burckhardt, see Who Was Who 3, 356, 321, 21, 74.
[70] Dhombres, Niassance, 223 – 33.

المطاف فى بلده الأصلى بيدمونت بدلاً من فرنسا التى حمل جنسيتها. ودفع المتحف البريطانى ألفى جنيهاً إسترلينياً لأول دفعة من مجموعة سولت، ولكن اللوفر حصل على بقية مجموعته بضعف الثمن، وانتهى الأمر بلوحة الملوك التى جلبها ميمو من أبيدوس إلى المتحف البريطانى.

الجبرتى والآثاريون الفرنجة

ولم يكن نشاط القناصل جامعى الآثار خافياً على العلماء المصريين، ففى عام 1817 سجل المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى نشاط الأوروبيين فى مجال الآثار كما يلى:

"إن طائفة من الإفرنج الإنكليز قصدوا الإطلاع على الأهرام المشهورة الكائنة ببر الجيزة غربى الفسطاط، لأن طبيعتهم ورغبتهم الإطلاع على الأشياء المستغربات، والفحص عن الجزئيات، وخصوصاً الآثار القديمة وعجائب البلدان، والتصاوير والتماثيل التى فى المغارات والبرابى بالناحية القبلية وغيرها، ويطوف منهم أشخاص فى مطلق الأقاليم بقصد هذا الغرض، ويصرفون لذلك جملاً من المال فى نفقاتهم ولوازمهم ومؤجراتهم، حتى أنهم ذهبوا إلى أقصى الصعيد، وأحضروا قطع أحجار عليها نقوش وأقلام وتصاوير ونواويس من رخام أبيض، كان بداخلها موتى بأكفانها وأجسامها باقية بسبب الأطلية والأدهان الحافظة لها من البلا ... وأحضروا أيضاً رأس صنم كبير، دفعوا فى أجرة السفينة التى أحضروه فيها ستة عشر كيساً، منها ثلثمائة وعشرون ألف نصف فضة، وأرسلوها إلى بلادهم لتباع هناك بأضعاف ما صرفوه عليها، وذلك عندهم من جملة المتاجر فى الأشياء الغريبة.

ولما سمعت بالصور المذكورة، فذهبت بصحبة ولدنا الشيخ مصطفى باكير المعروف بالساعاتى، وسيدى إبراهيم المهدى الإنكليزى (وهو الإسم الذى عرف به يوهان لودفيج بوركهارت فى مصر) إلى بيت قنصل بدرب البرابرة بالقرب من كوم الشيخ سلامة جهة الأزبكية (وهو بيت سولت). وشاهدت ذلك كما ذكرته ، وتعجبنا من صناعتهم وتشابههم، وصقالة أبدانهم الباقية على ممر السنين والقرون التى لا يعلم قدرها إلا علام الغيوب. وأرادوا الإطلاع على أمر الأهرام، وأذن لهم

صاحب المملكة (محمد على باشا)، فذهبوا إليها ونصبوا خيمة، وأحضورا الفعلة والمساحين والغلقان وعبروا إلى داخلها، وأخرجوا منها أتربة كثيرة من ذيل الوطواط وغيره، ونزلوا إلى الزلاقة، ونقلوا منها تراباً كثيراً وزبلاً، فإنتهوا إلى بيت مربع من الحجر المنحوت غير مسلوك، هذا ما بلغنا عنهم. وحفروا حول الرأس العظيمة بالقرب من الأهرام التى تسميها الناس رأس أبى الهول، فظهر أنه جسم كامل عظيم من حجر واحد ممتد كأنه راقد على بطنه، رافع رأسه، وهى التى يراها الناس، وباقى جسمه مغيب بما إنهال عليه من الرمال، وساعداه من مرفقيه ممتدان أمامه، وبينهما شبه صندوق مربع إلى استطالة من سماق أحمر عليه نقوش شبه قلم الطير، فى داخله صورة سبع مجسم من حجر مدهون بدهان أحمر، رابض باسط ذراعيه فى مقدار الكلب، رفعوه أيضاً إلى بيت القنصل ، ورأيته يوم ذاك. وقيس المرتفع من جسم أبى الهول من عند صدره إلى أعلى رأسه فكان إثنين وثلاثين ذراعاً، وهى الربع من باقى جسمه. وأقاموا فى هذا العمل نحواً من أربعة أشهر"[71].

وهكذا عبر الجبرتى عن إعجابه بدقة ما صنعه الفراعنة ولاحظ إقبال الأوروبيين على العمل فى استخراج الآثار، مستغرباً ذلك دون أن يستهجنه، ولعل هذه الفقرة المدفونة فى حوليات الجبرتى مرت أمام أعين قراء تاريخه دون أن تلفت نظرهم.

وقد مات الجبرتى عام 1822، وهو العام الذى شهد الإنجاز الذى حققه شامبليون فى حل رموز الهيروغليفية. وسوف تمضى إثنتا عشرة سنة قبل أن يتمكن أزهرى آخر هو رفاعة الطهطاوى من نقل ثمار عمل شامبليون إلى المصريين.

التسابق الأنجلو – فرنسى لحل الهيروغليفية (يانج وشامبليون)

تطور علم المصريات ودراسة آثار الشرق الأدنى من خلال الاستعانة بالنصوص فى فهم الآثار، مع وجود كتابات مسجلة تلعب دوراً حاسماً فى تفسير الآثار المادية، وهو هنا على نقيض علم الآثار ما قبل التاريخ فى الأمريكتين وأوروبا وأفريقيا ما وراء

[71] الجبرتى، عجائب الآثار، 4 : 439 – 41 طبعة دار الكتب 1998، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن. (وقد فضل المترجم رد الإقتباس إلى أصله لأن المؤلف نقله عن ترجمة T. Philipp and M. Perlmann أما ما ورد بين قوسين قى النص فمن عند المؤلف والمترجم).

الصحراء. ولذلك كان من أولويات علم الآثار فى الشرق الأوسط حل رموز الكتابات الهيروغليفية المصرية، والأكادية، والسومرية، والفارسية القديمة، والحيثية. لأن كل واحدة من تلك الكتابات كانت مفتاحاً لفهم النصوص التى تعد هدفاً أولياً للمنقبين عن الآثار. ورغم أن اليونانية واللاتينية لم تكونا فى حاجة إلى مفتاح لقراءتها، فقد تطور علم المصريات على نفس الخطوط التى سارت عليها دراسة الآثار اليونانية – الرومانية. أما دراسة علم الأشوريات (تاريخ العراق القديم) والآثار الإنجيلية فقد صاحب تطور علم المصريات أو تأخر عنه قليلاً[72].

وتعلقت آمال الإنجليز على توماس يانج (1773 – 1829) لحل رموز الهيروغليفية، وكان يانج طبيباً ولغوياً، له مساهمات فى المصريات. وقد أدرك يانج أن القبطية لغة مصر القديمة، واستطاع أن يستنتج بعض الرموز الديموطيقية المأخوذة عن الهيروغليفية، وأن الهيروغليفية مزيج من الرموز الأبجدية وغير الأبجدية. وتمكن من حل خرطوش بطليموس والملكة برنكى ووضع قائمة صحيحة جزئياً للعلامات الأبجدية ولكنه ظل عاجزاً عن تحقيق تقدم فى فك طلاسم الهيروغليفية[73].

وقبل جان فرانسوا شامبليون التحدى ممثلاً لفرنسا. وكان أخاه الأكبر جاك جوزيف يتمنى الذهاب إلى مصر مع حملة بونابرت ووجه حماس أخيه الصغير نحو علم المصريات . وفى سن السادسة عشر، قدم شامبليون الصغير بحثاً لأكاديمية جرينويل أكد فيه أن القبطية هى لغة مصر القديمة. وتلقى العلم فى باريس على يدى سلفستر دى ساسى ولوى لانجليه فى كلية فرنسا والمدرسة الخاصة باللغات الشرقية. وفى عام 1822، أعلن توصله إلى حل لرموز الكتابة الهيروغليفية فى خطاب وجهه للأكاديمية الفرنسية بعنوان : "خطاب للمسيو داسييه عن الأبجدية الهيروغليفية الصوتية"[74].

---

[72] Bruce Trigyer, A History of Archaeological Thought (Cambridge, Mass., 1989), 39 – 40.

[73] Who Was Who 3 : 454 – 55; Alexander Wood and Frank Oldham, Thomas Young. Natural Philosopher, 1773 – 1829 (Cambridge, 1954); Richard Parinson, Cracking Codes, The Rosetta Stone and Its Decipher (Berkley, Calif., 1999), 31 – 41.
والكتاب الأخير يقدم تقييماً لجهود كل من يانج وشامبليون.

[74] H. Hartleben, Champollion, sein Leben und sein Werk, 2 vols. (Berlin 1906); Jean Lacouture, Champollion. : Une Vie de Lumieres (Paris, 1988),

لقد استولى الإنجليز على حجر رشيد، ولكن قراءة النص المنقوش عليه إحتاجت إلى جهد رجل فرنسى ! وتكشف عناوين الكتابات الإنجليزية التى تصدت لدعم المزاعم الإنجليزية عن ذلك السباق بين البلدين فى هذا المجال، مثل ما كتبه يانج بعنوان "تقرير عن بعض الكشوف الحديثة فى الأدب الهيروغليفى والآثار المصرية بما فى ذلك الأبجدية التى وضعها المؤلف التى عرضها المسيو شامبليون" (نشر عام 1823)، وكذلك كتاب سولت "مقال حول التكوين الصوتى للهيروغليفية عند الدكتور يانج ومسيو شامبليون" (نشر عام 1825)، ولا زال رفض شامبليون الإعتراف بأى فضل ليانج مسجلاً على اللوحة الموضوعة عند حجر رشيد بالمتحف البريطانى.

وتجاوز الجدل حول أبجدية شامبليون حدود الدول. ففى ألمانيا اعتبر شامبليون بطلاً فى نظر عالم التاريخ الطبيعى ألكسندر فون هامبولد وشقيقه اللغوى فلهلم، بينما رفضه كل من هنريش كالبروت وجستافوس سايفارت. ولم يتأكد أن ما توصل إليه شامبليون بعيد تماماً عن الشك إلا عندما أقر ذلك ليبسيوس عام 1837، وعندما نشرت أعمال شامبليون بعد وفاة صاحبها: كتاب: "النحو" (1836 – 1841)، و"القاموس" (1841 – 1844)[75].

وكذلك اختلف العلماء الفرنسيون فى الرأى حول إنجاز شامبليون فعلى حين أيده تماماً سيلفستر دى ساسى، أدت معارضة إدمى فرانسوا جومار إلى عدم إنضمام شامبليون إلى "أكاديمية النقوش" حتى العام 1830. وكانت رعاية دوف بلاكا – الملكى والمهاجر السابق – لشامبليون حاسمة فى تمكينه من تجاوز انتماء عائلته لليعاقبة، وأن ينتصر على جومار ويحصل على أمانة القسم المصرى باللوفر عام 1826، وصرف جومار جهده إلى الوقوف على إخراج المجلدات الأخيرة من "وصف مصر"، والمساعدة فى إدارة أمور "الجمعية الجغرافية" والإشراف على البعثة العلمية التى أرسلها محمد على باشا إلى باريس، وتولى أمانة قسم الخرائط بالمكتبة الوطنية بباريس. ولكن من المؤسف أن رفضه لشامبليون جعله يحرم نفسه من الدخول فى زمرة علماء المصريات، فقد صنفته موسوعة من هو

[75] Anne – Frabcoise Ehrhard "Champollion et les Freres Humboldt" L'Egyptologie et les Compollion ed. Michel Dewachter and Alain Fouchard (Grenoble, 1994), 95 – 115.

عالم الآثار على أنه "مهندس، وجغرافى، ومنقب عن الآثار – ولكنه ليس من علماء المصريات"[76].

رسامو الآثار البريطانيين والفرنسيين

إنضم – فى العشرينات من القرن التاسع عشر – بعض الرسامين الشباب إلى الميدان إلى جانب القناصل جامعى الآثار. وكان البريطانيون فى المقدمة دون أن يتلقوا رعاية مادية خاصة أو حكومية. فقام السويسرى يوهان يوركهارت باستكشاف بلاد النوبة والشام ومكة لحساب الجمعية الأفريقية بلندن، وإعتزم البريطانيون الذين تبعوه فى مصر – فى العشرينات – رصد الآثار، والمناظر الطبيعية، والمجتمع المصرى الحديث بالفرشاة والقلم.

وقد أصبح جاردنر ويلكنسون (1797 – 1875) بارزاً فى ميدان المصريات كما أصبح إدوارد وليم لين (1801 – 1876) رائد الاستشراق البريطانى فى جيله. وكانت الثروة التى ورثها الرسام روبرت هاى (1799 – 1863) كافية لإعالة فريق كامل من الرسامين، ولكن الدراسات التى أجراها فريق هاى على العمارة المصرية لم تعرف طريقها إلى النشر. وقد قام كل من ويلكنسون وهاى ولين بإهداء بعض الآثار المصرية إلى المتحف البريطانى، ولكن تسجيل الآثار بالرسم كان شغلهم الشاغل[77].

وقضى ويلكنسون معظم الفترة التى عاشها فى مصر (1821 – 1833) فى قرية القرنة التى تقع فى مواجهة الأقصر على الضفة الغربية للنيل. وهناك شغل برسم مناظر القبور الفرعونية التى نشرها فى كتابه "عادات وتقاليد المصريين القدماء". ومن الغريب بمعايير اليوم أن نعرف أن ويلكنسون عاش فى مقبرة تكسوها النقوش، وكان يتخذ من أخشاب توابيت المومياوات وقوداً. ولما كانت قراءة الهيروغليفية – عندئذ– لازالت من الصعوبة بمكان، فقد كان جل إعتماد ويلكنسون على الإنجيل، والدراسات الكلاسيكية (اليونانية –

[76] Robert Marichal, "Champollion et l'academie", Bulletin de la Societe Froncaise d'Egyptologie 95, (1983) : 12 – 31; On Jomard, see also Who Was Who 3, 218 – 19.
[77] Jason Thornp son, Sir John Gardner Wilkinson and his Circle (Austin, Tex., 1992). On Lane. See: Leila Ahmed, Edward W. Lane (London, 1978); Edward William Lane, Description of Egypt, ed., Jason Thompson (Cairo 2000) : On Hay See, Selwyn Tillet, Egypt Itself : The Career of Robert Hay, Esquire of Limplum and Nunraw, 1799 – 1861 (London 1984).

الرومانية)، والمناظر المنقولة من نقوش القبور، وكان ويلكنسون يخشى أن يسرق الألمان أو الفرنسيون فضل المبادرة إذا تقاعس هاى عن نشر نتائج العمل الميدانى المكثف الذى قام به البريطانيون فى العشرينات والثلاثينات[78].

لقد تعلم لين الرسم، وجاء إلى مصر عام 1825، وأعد كتابه الذى لم تتح له فرصة النشر إلا بعد ما يزيد على القرن، والذى حمل عنوان "وصف مصر" مقابلاً جزئياً للعمل الفرنسى العظيم. وقد عكس كتابه الشهير "عادات وتقاليد المصريين المحدثين" جانباً من عمله عن "وصف مصر" الذى يعكس معرفته بالمصريات، ولكنه تخصص بعد ذلك بالاستشراق، فترجم "ألف ليلة وليلة"، ووضع قاموسه العربى برعاية بعض الأرستقراط . ولم تكن الجامعات – عندئذ– قد احتلت مركز العلم البريطانى الحديث، ولذلك اعتمد ويلكنسون ولين ومعاصريهما تشارلز لايل وتشارلز دارون على رعاية بعض الأثرياء أو ثرواتهم الخاصة.

وقد نشر البريطانيون 114 رحلة عن مصر (على الأقل) فيما بين 1798 – 1850 بينما لم يزد ما نشره الفرنسيون عن 54 رحلة (ومنذ عشرينات القرن التاسع عشر إحتل الأمريكيون المركز الثالث بعد ما أزاحوا عنه الألمان)[79]. وأدت التقارير الواردة إلى أوروبا عن النشاط البريطانى فى التنقيب عن الآثار المصرية إلى حفز شامبليون على إعداد بعثته الأثرية 1828 – 1829، وساعده فى قيادتها تلميذه التوسكانى فى إبوليتو روسللينى.

ولما كان العلماء يتحرقون شوقاً للنصوص، فقد إنكبوا على نسخها، ولكن كان من بين أهداف بعثتهم جمع الآثار المصرية لحساب متحف اللوفر. وعندما سمع جوزيف بونومى – ناسخ النقوش الذى كان يعمل مع هاى– أن شامبليون ينوى قطع بعض النقوش من مقبرة سيتى الأول كتب له ما يلى:

"سيدى – علمت أن أناساً وصلوا إلى القرنة بأمر منك لقطع رسوم معينة من مقبرة وادى الملوك التى فتحها بيلزونى بتمويل من المرحوم سولت القنصل البريطانى، فإذا صح

78 Thompson, Wilkinson, 184.
79 Compiled From Kalfatovic, Nile Notes.

عزمك على ذلك، أرى من واجبى كإنجليزى محب للآثار أن استخدم كل الحجج الممكنة لحثك على عدم إرتكاب مثل هذا العمل القوطى". فرد عليه شامبليون قائلاً:

"فلتهدأ بالاً – سيدى– لأنك تستطيع يوماً ما أن ترى النقوش الجميلة من مقبرة أوزيرى (سيتى الأول) فى المتحف الفرنسى. فقد تكون هذه الطريقة الوحيدة للحفاظ عليها من الدمار الواضح، وعندما أقوم بهذا العمل سوف أتصرف بمنطق المحب للآثار، طالما كنت سآخذها للمحافظة عليها، وليس لبيعها"[80].

ونتج عن عمل البعثة الفرنسية – التوسكانية مجموعتان من اللوحات العظيمة، مجموعة شامبليون التى نشرت بعد وفاته بعنوان "آثار مصر والنوبة" وتقع فى أربعة مجلدات (1835 – 1847)، ومجموعة روسلينى ونشرت بعنوان "آثار مصر والنوبة" وتقع فى تسعة مجلدات بالإضافة إلى ثلاثة مجلدات للأطالس (1832 – 1844)[81].

وفى الأربعينات من القرن التاسع عشر، إنتقل مركز الصراع الأنجلو – فرنسى فى مجال الآثار– القديمة من النيل إلى دجلة، فقد أرست الإنجازات – التى تمت فى مجال نسخ النقوش وجمع الآثار وحل رموز الكتابة – أرست قواعد علم "الأشوريات" القديمة. وكان كلوديوس ريس – وكيل شركة الهند الشرقية ببغداد وجامع الآثار مثل سولت– قد اكتشف بابل فى أوائل العقد الثانى من القرن، وجمع بعض الألواح المسمارية التى انتهى بها المطاف إلى المتحف البريطانى. وفى الأربعينات، أدهش بول إميل بوتا – نائب القنصل الفرنسى بالموصل– الإيطالى المولد مثل دروفتى، الفرنسى الجنسية– أدهش العالم بالكشف عن تماثيل لثيران مجنحة ذات رأس بشرى وبعض التماثيل الآشورية الأخرى التى عثر عليها فى خور سباد، وقام بشحنها إلى اللوفر. وقام أوستن هنرى لايارد – خصم بوتا وصديقه الذى أصبح سفيراً لبريطانيا فى إستانبول فيما بعد– قام باكتشاف تماثيل ونقوش مماثلة فى نمرود وكيونجك وشحنها بدوره إلى المتحف البريطانى. وأدى

---

[80] النص مقتبس من:
Kent Weeks, The Lost Tomb : The Greatest Discovery in the Valley of Kings Since Tutankhamun (Cairo 1998), 68.

[81] On Rosellini, see Who Was Who 3 : 262 – 63.

إندلاع حرب القرم إلى وضع نهاية لمرحلة الإقبال على إكتشاف آثار الرافدين عام 1855[82].

غير أن ما تحقق من نجاح فى حل رموز الكتابة المسمارية قرب الفجوة بين تفوق علم المصريات، وعلم الآشوريات الوليد. ففى 1802 إكتشف مدرس ألمانى يدعى جورج جروتفند دلالة إثنى عشر رمزاً فى الفارسية القديمة عن طريق مقارنة إسم دارا بإسم كسرى، ولكنه عجز عن التوصل إلى حل سليم لرموز الكتابة، تماماً كما فعل يانج فى سعيه لحل رموز الهيروغليفية. وفى العام 1846 – 1847، نشر هنرى رولنسون نص وترجمة نقش دارا الأول، وهو نص فارسى قديم كتب بثلاث لغات بالخط المسمارى، عثر عليه فى بيهستن بفارس، وبعد ذلك التاريخ بنحو عقد من الزمان نجح رولنسون وإثنين آخرين من العلماء فى التوصل إلى حل الرموز الأكادية – لغة بابل وآشور القديمة– عندما استطاع كل منهم – على حدة– أن يترجم النص المسمارى.

الظهور الأول للألمان، بعثة ليبسيوس

بينما كان الإنتباه الفرنسى والبريطانى موجهاً نحو دجلة، نجحت بعثة ريتشارد ليبسيوس البروسية فى الفترة 1842 – 1845 فى حفائرها بمصر وبلاد النوبة، وفاقت إمكانات البعثة تلك التى كانت للبعثة الفرنسية – التوسكانية التى قادها شامبليون. فقد أنفقت الحكومة البروسية بسخاء على هذه البعثة للقيام بحملة واسعة من نسخ النقوش والتنقيب عن الآثار، وجمعها. وكانت جامعة برلين وغيرها من الجامعات الألمانية قد برزت فى الثلاثينيات كمراكز للبحث العلمى، عندما كان ليبسيوس يدرس فقه اللغة بجامعات ليبزج وجوتنجن وبرلين. وانتقل ليبسيوس إلى باريس بعد عام واحد من وفاة شامبليون لمتابعة الدراسة، فأعد نفسه منهجياً بدراسة العلوم المساعدة قبل أن ينخرط فى دراسة فقه اللغة المصرية القديمة التى كان بروزها حاسماً عام 1837. ففى كتابه "خطاب إلى السيد

---

[82] William H. Stiebing Jr., Uncovering the Past : A History of Archaeology (Buffalo, N. Y., 1993), 95 – 190.

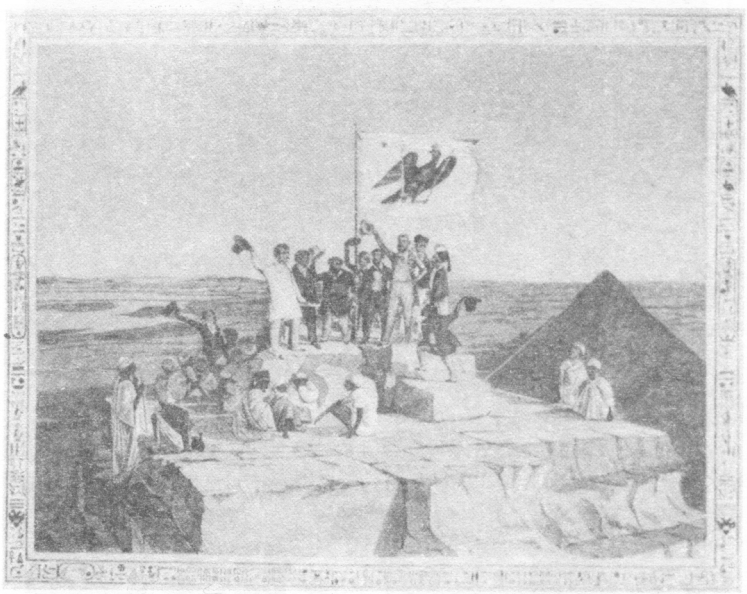
ويقدم هذا الكتاب صورة مختصرة للجهود المبكرة فى الكشف عن آثار الرافدين، أما العرض التفصيلى فتجده فى:

Seton Lloyd, Foundations in the Dust : The Story of Mesopotamian Exploration, 2nd ed. (London 1980); Brian Fagan, Travellers, Archaeologists and Monuments in Me soptamia. (Boston 1979).

الأستاذ روسيللينى بخصوص الأبجدية الهيروغليفية" هبط ليبسيوس بما فعله شامبليون إلى مستوى الهراء.

وعندما إعتلى فردريش فيلهلم الرابع (1840 – 1861) العرش البروسى، نصحه كل من ألكسندر همبولد، وكرستيان كارل بونسن (الدبلوماسى العالم) بأن يرسل ليبسيوس على الفور إلى مصر على رأس بعثة أثرية. وكان والده الملك فردريش فيلهلم الثالث (1797 – 1840) قد تولى رعاية البعثة المتواضعة التى قادها هنريش فون مينوتولى عام 1820 – 1821 للتنقيب عن الآثار فى مصر، وقد زرات تلك البعثة الصعيد وواحة سيوة[83]. وقد نجح مينوتولى فى جذب الأمير البروسى (ولى العهد) إلى الإهتمام بالمصريات، ولعب الأمير الدور الأساسى فى تدبير شراء مجموعة الآثار المصرية الخاصة بباسالاكا، وعينه أميناً لمتحف برلين. وكانت بعثة ليبسيوس على درجة عالية من التنظيم حتى أنها أخذت معها قساً لوثرياً لتوفير الخدمة الدينية للفريق. وقد احتفلت البعثة بعيد ميلاد ملك بروسيا على قمة الهرم الأكبر برفع علم بروسيا وإضرام شعلة (انظر الشكل 12).

ورحب محمد على باشا بالبروسيين، وقدم لهم عوناً تمثل فى توفير وسيلة نقل نيلية مجانية لهم، وتقديم ما يلزمهم من العمال المسخرين، وعلى مر الطريق إلى الجنوب، جمع ليبسيوس وسجل بالرسم كل ما قابله من آثار، وعاد إلى بلاده حاملاً معه خمسة عشر ألفاً من القطع الأثرية والأقنعة المصبوبة. واحتل مقعد أستاذية المصريات الذى نشئ خصيصاً من أجله بجامعة برلين ،



الشكل رقم (١٢) بعثة ليبسيوس على قمة الهرم الأكبر (١٨٤٢)

[83] On Minutoli, seeWho Was Who 3 : 289; On Lepsius see George Ebers, Richard Lepsius : A Biography, trans. Z. D. Underhill (New York, 1887); E. Freier and W. F. Reineke, eds., Karl Richard Lepsius (1810 – 1884), (Berlin, 1988).

وبأسلوب منهجى رصين نشر كتابه "آثار مصر وأثيوبيا" الذى ضم 12 مجلداً (1849 – 1859).

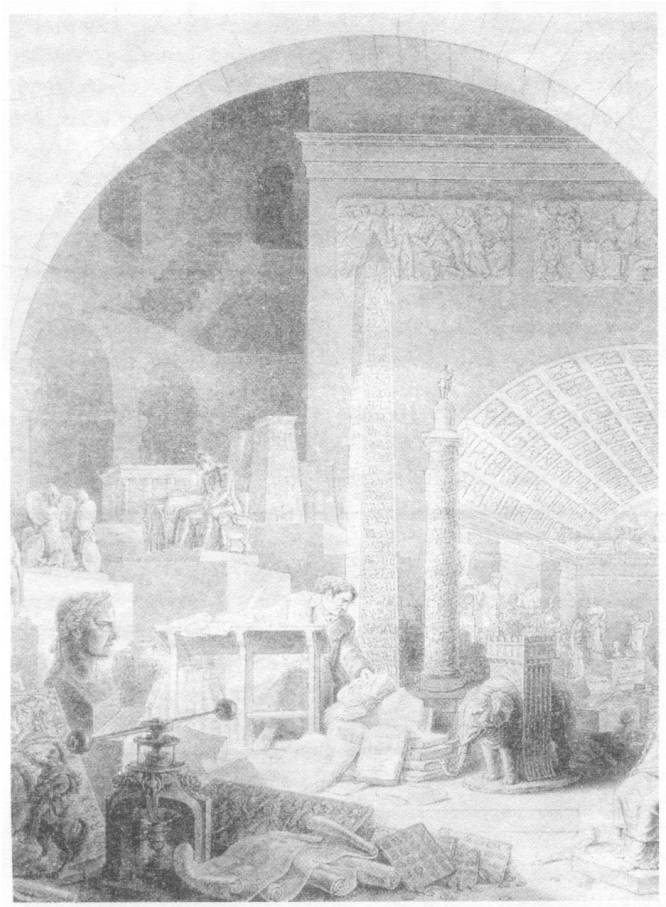
وقد كان ليبسيوس القوة المحركة وراء إدارة وتوسيع متحف برلين، رغم أن باسالاكا كان الأمين الإسمى للمتحف حتى وفاته عام 1865. وخسر ليبسيوس معركة مع المغامر الفرنسى بريس دافين (1807 – 1879) الذى ما كاد يسمع أن ليبسيوس ينوى نقل لوحة الملوك بالكرنك إلى برلين حتى هرع إلى هناك وعمل طوال الليل على اقتلاع اللوحة من موضعها، وحملها فى مركب على النيل، وعندما مر بجوار مركب ليبسيوس المتجه جنوباً، دعاه إلى مركبه واستضافه دون أن يدرى أنه كان يجلس فوق صندوق يحتوى على الكنز الثمين الذى كان يسعى للحصول عليه ! وكان بريس رساماً يشتغل بنسخ النقوش، كما كان معنياً بجمع الآثار وقد نشر لوحات عن الفن الفرعونى والفن العربى بالقاهرة[84].

سباق المؤسسات، المتاحف والجمعيات العلمية الأوروبية

قامت المتاحف والجمعيات العلمية برعاية أعمال التنقيب الأثرية فى حقل المصريات – حتى أواخر القرن التاسع عشر– أكثر مما كانت تفعله الجامعات، فقد أعلن شامبليون توصله إلى حل رموز الهيروغليفية إلى "أكاديمية الفنون الجميلة والنقوش" وعمل أميناً باللوفر، وحصل على كرسى الأستاذية "فى كلية فرنسا" قبل عامين من وفاته. وكان الإنجليزى صامويل بيرش من رجال المتاحف، وليس أستاذاً بالجامعة، وكان كونرا دوس ليمانز (1809 – 1893) رائد المصريات فى هولندا مديراً لمتحف ليدن[85].

وأدى استيلاء بريطانيا على القطع الأثرية التى جمعتها الحملة الفرنسية (بما فيها حجر رشيد) إلى تأخر البدء فى تكوين مجموعة الآثار المصرية باللوفر. وعندما أصبح دينون مديراً للمتحف المركزى للفنون بعد عشر سنوات من الثورة الفرنسية، جعل مجموعة المقتنيات الفنية الملكية متاحة للجمهور، ثم ما لبث أن ترقى إلى منصب مدير عام المتاحف الوطنية. وقام بجمع ما صادره نابليون من تحف أعدائه الأوروبيين وفقد دينون

[84] Carre, Voyageurs, 1 : 301 – 323.
[85] On Leemans, see l'Egyptoloque Conrade Leemans et sa Correspondance, ed., W. F. Leemans (Leiden 1973) and Who Was Who 3 : 242 – 43.



الشكل رقم (١٣) النهب النابليونى
لوحة بنيامين زيكس (حوالى ١٨٠٩ – ١٨١١)

منصبه فى 1815 عندما تخلص البوربون من موظفى نابليون، وكان يجب استعادة ما تم نهبه عقب هزيمة ووترلو. ورغم ذلك بدا اللوفر نموذجاً للمتاحف الوطنية يحتذى به فى أوروبا كلها، وفى بلاد بعيدة كالولايات المتحدة، والمكسيك، ومصر، وإستانبول (انظر الشكل 13).

وأضاع اللوفر فرصة ذهبية عام 1824، عندما حرضه جومار على رفض شراء مجموعة الآثار المصرية الأولى التى عرضها دروفتى، فقد اشترتها بيدمونت (البلد الأصلى لدروفتى)، وكان على شامبليون أن يتبع المجموعة حتى تورين بحثاً عن النصوص اللازمة لبحثه اللغوى. وهناك اقترح إقامة أول متحف للآثار المصرية فى العالم[86]. وما لبث اللوفر أن عوض ما فاته من وقت لإقتناء الآثار المصرية، فحصل على مجموعة سولت، ومجموعة دروفتى الثانية، وعين شامبليون أميناً للجناح المصرى الجديد عام 1826. وفى العام التالى – بعد أقل من ثلاثة عقود على الحملة الفرنسية– فتح شامبليون الجناح المصرى للوفر الذى كان يسمى رسمياً "متحف شارل العاشر". وتغاضى شامبليون عن العادة الشائعة لترتيب المعروضات وفق المعايير الجمالية، فقام بعرض المقتنيات على أساس زمنى وحسب الغرض الذى صنفت من أجله: دينى، أو زمنى، أو جنائزى. وساعدت ثمار بعثته إلى مصر على سد بعض الثغرات فى المجموعة.

---

[86] Christiane Ziegler, Le Louvre : Les Antiquites Egyptiennes (Paris 1990), 5 – 6; Tod Porterfield, The Allure of Empire : Art in the Service of French Imperialism 1798 – 1836 (Prineeton, N. J., 1998), 81 – 116; Mc Clellan, Inventing the Louvre : Art, Politics and the Origins of the Modern Museum in Eighteenth – Century Paris (Cambridge, 1994).

ولم يبدأ المتحف البريطانى بمجموعة ملكية، ولكنه بدأ بمجموعة خاصة، أوصى بها عام 1753 الطبيب وعالم التاريخ الطبيعى السير هانز سلون، فقد نصت وصيته على أن تكون مكتبته وتحفه "للنفع العام"، وأن يتاح الإطلاع عليها "لكل الطلاب ومحبى الإطلاع". وقد تم إنشاء أقسام المتحف الخاصة بالآثار القديمة عام 1807، وبدأت بداية غير ثابتة، على نحو ما حدث من صعوبات واجهها إيلجن وسولت فى تعاملهما مع المتحف، وقد بدأ صمويل بيرش – الذى خلدته واجهة المتحف المصرى بالقاهرة إلى جانب شامبليون وليبسيوس وروسيللينى– بدأ رحلة عمله الذى امتد إلى نصف القرن، بالمتحف البريطانى عام 1836.

وفى برلين، لم يعد مونبيجو كافياً لاستيعاب مجموعة الآثار المصرية بعد عودة ليبسيوس من مصر، وتم افتتاح المتحف الجديد عام 1850 بجزيرة المتحف مع استمرار باسالاكا مديراً للجناح المصرى إسماً بينما كان ليبسيوس صاحب اليد العليا فيه. وصممت صالة العرض على طراز فرعونى جديد مبهر يضفى الكثير على الآثار المعروضة[87].

أما عن الجمعيات العلمية، فقد كان السبق لباريس فى إنشاء الجمعية الجغرافية عام 1821، تلتها برلين عام 1828 ولندن عام 1830، ونيويوركفى 1851، وكان الأخوان شامبليون وراء تأسيس الجمعية الجغرافية بباريس، ولكن جومار جعل منها منتدى له لمدة أربعين عاماً، وغالباً ما كان يوجه مجلتها نحو الموضوعات المصرية[88].

وقد ورثت "الجمعية الجغرافية الملكية "بلندن"، جمعية النهوض يكشف المناطق الداخلية من أفريقيا" (تأسست عام 1788)، وجمعية فلسطين (تأسست عام 1804)، و"نادى الرالى للرحالة" (تأسس 1826)، وقد وجهت الإمبريالية غير الرسمية مسار "الجمعية الجغرافية الملكية"، ثم لعبت "الإمبريالية الجديدة" نفس الدور، وقد فاقت الجمعية منافساتها من جمعيات الدول الأخرى فى النهوض بالكشوف الجغرافية والبحث العلمى.

---

[87] Louis Keimer, "Le Musee egyptologique de Berlin", Cahiers d'histoire egyptienne, Serie 3, Fasc. 1 (Nov 1950), 27 – 41; Thomas W. Gaehtgens, "The Museum Island of Art and archaeology, ed., Gwendolyn Wright (Washington, D. C., 1966), 52 – 77.

[88] Donald Malcolm Reid, "The Egyptian Geographical Society". Poetics Today 14, no. 3 (Fall 1993), 539 – 72; T. W. Freeman, A History of Modern British Geography (London 1980).

وتأسست "الجمعية الأسيوية" بباريس عام 1822، وتلتها "الجمعية الملكية الأسيوية لبريطانيا العظمى وأيرلندا" التى أنشئت بلندن عام 1823 فى نفس العقد الحرج الذى تأسست فيه الجمعية. وفى التجربة البريطانية، أثرت المستعمرات فى المركز ولم يحدث العكس، فقد أنشأ وليم جونز "الجمعية الأسيوية بالبنغال" عام 1784، وأقيمت نظيرتها فى بومباى عام 1804. ولم تظهر الجمعيات الاستشراقية الألمانية والأمريكية قبل الأربعينات من القرن التاسع عشر. ولذلك كانت الجمعيات الجغرافية والأسيوية التى تأسست فى لندن وباريس، والمجمع العلمى المصرى الذى ذوى مع الحملة الفرنسية، "والمجمع العلمى الفرنسى"، و"الجمعية الملكية البريطانية" هى النماذج التى حذا حذوها الأوروبيون الذين أسسوا "الجمعية المصرية" بالقاهرة عام 1836.

استلهام النموذج الأوروبى، الجمعية المصرية بالقاهرة

كانت حملة نابليون، والبعثات الأثرية التى قادها شامبليون وليبسيوس ذاتية الدوافع خرجت جميعاً من أوروبا متجهة إلى مصر، جمعت الآثار من مصر، وحملتها معها إلى بلادها لدراستها وعرضها ونشر ما استخلصته منها من معلومات.

وظلت ذكريات المجمع العلمى المصرى ماثلة فى أذهان الأوروبيين المقيمين بمصر بعد جلاء الفرنسيين عن البلاد، ففى عام 1828 أقيمت جمعية غامضة بالإسكندرية سميت "جمعية القراءة الإنجليزية"، وأسس الأوروبيون بالقاهرة "الجمعية المصرية" عام 1836 "كملتقى للرحالة بهدف إيجاد رابطة بين أهل العلم والآداب الذين قد يزورون مصر من وقت لآخر"[89]. وقد سعت الجمعية – التى أطلق عليها أيضاً إسم "الجمعية الشرقية"– إلى تكوين مكتبة للمراجع الخاصة بمصر "لجمع وتسجيل المعلومات" عن مصر وجيرانها، وباستطاعة أى زائر أو زائرة لمصر استخدام المكتبة، "وجميع الرجال من مختلف الجنسيات" لهم حق العضوية مقابل جنيه إنجليزى واحد فى السنة[90]، وكان استثناء النساء من العضوية يتسق مع ما جرى العمل به – عندئذ– فى أوروبا.

---

[89] Laws and Regulations of Egyptian Society (Alexandria, n. d), 1; See also Philip Sadgrove, "Travellers' Rendezvous and Cultural Institutions in Muhammad Ali's Egypt "in Travellers, ed. Starkey and Starkey, 257 – 66.

[90] Laws and Regulations of the Egyptian Society, 1, 2, 8.

وكان أنتونى هاريس (1790 – 1869) أول رئيس للجمعية، تاجراً فى الآثار، أثرت مجموعة بردياته المتحف البريطانى. وبلغ عدد أعضاء الجمعية عشرين عضواً عام 1839 عندما حصلت مكتبتها على "الأعمال الكبرى لمدرسة الآثار الجديدة، وجعلتها متاحة للإطلاع فى مصر لأول مرة"[91]. وبعد أربع سنوات، إرتفع عدد الأعضاء إلى 110 عضواً، كان الثلثين من البريطانيين، يليهم الفرنسيون (وكان من بينهم أنطوان كلوت بك ، ولينان دى بلفون وفردنان دى ليسبس)، وكان هناك مجموعة من البريطانيين والألمان والأمريكيين، وكان كلوت بك والطبيبان البريطانيان: هنرى أبوت، وألفرد والن، مولعين بجمع الآثار تماماً مثل هاريس رئيس الجمعية. ومنحت الجمعية العضوية الشرفية لستين شخصية، كان من بينهم بيرش، وفون بونسن، وهاملتون، وجومار، ولين، وليبسيوس ، وروسيللينى، وويلكنسون. وتولى جومار متابعة تلبية طلبات الجمعية من الكتب فى باريس، وقام لين بنفس المهمة فى لندن[92]، وعندما ضمت الجمعية أعضاء من المصريين فى عضويتها، كان الأيسر قبولاً سليمان باشا الفرنساوى الذى تولى قيادة الجيش المصرى، والأرمينيان حككيان وأنستاسى.

وفى عام 1842 دب نزاع بين الأعضاء حول كتاب كلف بإعداده بريس دافين[93]، أدى إلى حدوث إنشقاق، وتأسيس جمعية منافسة بإسم "الجمعية الأدبية المصرية"، وكان الإنقسام على أساس شخصى وليس على أساس الإنتماء الوطنى، فقد قاد الطبيبان البريطانيان والن وأبوت هذا الإنشقاق، وكانت أغلبية الأعضاء فى الجمعيتين من البريطانيين. وأسهم كل من ويلكنسون وبريس دافين فى المجلد الوحيد الذى أصدرته "الجمعية الأدبية" قبل أفول نجمها. وفى الدليل الذى نشره ويلكنسون عام 1867، ذكر مكتبة "الجمعية المصرية كمكان جدير بزيارة السياح، ولكن الجمعية لم تكن ذات نشاط ملحوظ عندئذ، وفى 1873

---

[91] حول تاريخ الجمعية انظر:
L. Auriant, "Les Origines de l'Institut egyptien, La Societe egyptienne (1836 – 59), "Journal des savants (1926) : 217 – 27.

[92] Fifth Report of the Egyptian Society (n. P, m ca 1841), 2.
وهناك قائمة بأسماء الأعضاء على كتاب
Linant de Bellefonds, Memoire sur le Lac Moeris (Alexandria 1843).

[93] British Library, Additional Manuscripts 37, 449, Hekekyan Papers, Vol2 : 45 (4 July 1842), on the split, see Yacoub Artin, "Lettres inedites du Dr. Perron a M. J. Mohl" BIE, ser. 5, 3, Fasc. 2 (1909) : 144 – 46.

– 1874 قام حككيان ولينان دى بلفون بإهداء ما تبقى من مكتبة "الجمعية المصرية" إلى دار الكتب الخديوية التى أنشئت حديثاً[94].

الطهطاوى يكتشف الفراعنة

عند صدور طبعة رابعة من موسوعة "من كان هو فى علم المصريات"، يجب أن يدرج الطهطاوى ضمن الشخصيات التى رصدتها الموسوعة. فرغم أنه لم يقم بالتنقيب عن الآثار، ولم يقرأ الهيروغليفية، إلا أنه لعب دوراً مهماً فى جذب إهتمام مواطنيه المصريين بمصر القديمة على نحو ما فعل الرحالة وجامعو الآثار والمؤلفون الغربيون – الذين ورد ذكرهم فى الطبعات الثلاث من الموسوعة– مع أبناء بلادهم[95] . والطهطاوى شيخ أزهرى، ختم تعليمه فى باريس، وتولى مناصب رسمية فى ميادين الترجمة، والتعليم ، والصحافة، وأصبح أشهر مفكر مصرى فى جيله (انظر الشكل 14).



الشكل رقم (١٤) رفاعة رافع الطهطاوى – مؤلف أول كتاب بالعربية عن مصر القديمة

وقد حرصنا أن نقرن الطهطاوى وشامبليون فى عنوان هذا الفصل لتأكيد الدور الذى لعبه هذان العالمان فى تقديم معلومات جديدة – كل إلى قرائه– مستمدة من النصوص الهيروغليفية، كما أن الحياة العملية للطهطاوى قريبة الشبه بتلك التى كانت للمستشرق البريطانى إدوارد وليم لين. فقد ولد كل منهما عام 1801، وفى منتصف العشرينات، إتجه الأول إلى الغرب، بينما اتجه الآخر إلى الشرق، عبر البحر المتوسط، بحثاً عن المعرفة التى غيرت مسار حياة كل منهما. وعاش كل منهما فى العاصمة الكبرى للثقافة التى ينشد دراستها، وتعلم كل منهم لغة الثقافة التى تعنيه، وعاد كل منهما إلى بلاده، لينشر –

[94] I. G. Wilkinson, A Handbook for Travellers in Egypt (London 1874), 113; Artin, "Lettres", 146.

[95] حول رفاعة الطهطاوى راجع:
Gilbert Delanoue, Moralistes et Politiques musulmans dans l'Egypte du xixe siècle (1798 – 1882) 2 vols. (Cairo 1982) 2; Anouar Louca, Voyageurs et ecrivains egyptiens en France an XIX siècle (Paris 1979).
وانظر أيضاً: صالح مجدى، حلية الزمن بتاريخ خادم الوطن: سيرة رفاعة الطهطاوى، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة 1958): وأحمد بدوى: رفاعة رافع الطهطاوى، ط 2 القاهرة (1959).

فى منتصف الثلاثينات– كتاباً رصيناً قدم فيه لمواطنيه عادات وتقاليد أهل الثقافة الأخرى. (عاش الطهطاوى فى باريس ولم يعش فى لندن بلد لين، وتعلم الفرنسية وليس الإنجليزية).

وركز كل من الكتابين على عاصمة واحدة – باريس، والقاهرة– ويكاد كل منهما يستبعد الأقاليم الأخرى فى البلاد التى كتب عنها. وضم كتاب لين عن "المصريين المحدثين " صوراً رسمت بعناية، ولكن تعليم الطهطاوى الأزهرى لم يؤهله لتزويد كتابه بالرسوم المصورة.

وقد أتبع كل من الرجلين كتابه الأول بنشر ترجمات لإطلاع قراءه على ثقافة الآخر، ورغم أن وجودهما بالقاهرة قد تزامن، وأن لين اشترى نسخة من كتاب الطهطاوى "تخليص الإبريز" عند ظهوره، إلا أننا لا نجد دليلاً على أنهما قد تقابلا. وكان كل منهما شديد الإهتمام بمصر القديمة والحديثة، وبعد أن قضيا حياتهما يلعبان دور قناة الإتصال بين الثقافتين، مات الطهطاوى فى 1873، ولحق به لين فى 1876.

ولا شك أن الطهطاوى ولين إختلفا من حيث الشخصية، والأفكار، والعلاقات على الصعيدين الوطنى والعالمى. فخلال حياتهما تحول ميزان القوى بصورة حاسمة ضد مصر لمصلحة الغرب. لقد أبدى لين أسفه للتغيرات التى شهدتها مصر باستلهام الغرب ، ولعل ذلك يرجع إلى عدم ارتياحه للتغير الاقتصادى والاجتماعى والسياسى السريع الذى كان يجرى فى بريطانيا، ورغم أنه اعتمد تماماً على ما يلقاه من رعاية مادية أرستقراطية، كان لين إنطوائياً، عزوفاً عن الإرتباط بالنظام البريطانى. وكان الطهطاوى نقيضاً له، يعمل فى خدمة الحكام الذين يتطلعون إلى دعم سلطتهم من خلال اقتباس التكنولوجيا ونظم الإدارة الغربية.

ولد رفاعة الطهطاوى بمدينة طهطا – جنوب أسيوط– فى العام 1801، الذى شهد جلاء الفرنسيين عن مصر، لأسرة من العلماء، ولكن إقدام محمد على باشا على إلغاء نظام الإلتزام أضر بوالد رفاعة، وقد تلقى الصبى تعليمه الدينى الأولى ببلده ثم انتقل إلى القاهرة للإلتحاق بالأزهر عام 1817. وكان أستاذه – عندئذ– الشيخ حسن العطار عالماً

واسع الأفق، إتصل بعلماء الحملة الفرنسية، وقدر له أن يصبح – فيما بعد– شيخاً للأزهر. وقد رشح العطار تلميذه الطهطاوى ليعمل إماماً للبعثة التى ضمت 44 طالباً أوفدهم محمد على إلى باريس عام 1826. وكان يقيم بفرنسا – عندئذ– عدد من المصريين الذين تعاونوا مع الحملة الفرنسية، وفروا من مصر بصحبة الفرنسيين عند جلائهم عن البلاد فى 1801. ولكن ظهر الآن نوع آخر من المصريين هم الطلاب الذين أوفدوا إلى فرنسا لدراسة العلوم الحديثة، والعودة إلى مصر لتطبيقها[96]. وبرر الطهطاوى طلب العلم فى بلاد "الكفار" بالحديث النبوى "إطلبوا العلم ولو فى الصين".

وفى باريس، تحول "الإمام" ليصبح أكثر طلاب البعثة نجابة وشغفاً للمعرفة. وقام جومار – باعتباره "ناظر" البعثة المصرية– بتقديم رفاعة الطهطاوى إلى سيلفستر دى ساسى – عميد المستشرقين الفرنسيين–[97] ولعدد كبير من علماء فرنسا.

وفى عام 1830، كان الطهطاوى شاهد عيان لثورة يوليو التى أدت إلى نفى الملك شارل العاشر، واعتلاء لوى فيليب العرش الفرنسى، وفى العام نفسه عرض الطهطاوى على دى ساسى مسودة كتابه "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز"[98]، الذى وصف فيه رحلته وملاحظاته على الحياة الباريسية، وفى 1831 عاد إلى مصر ليتولى وظائف فى مجالات التدريس والترجمة والصحافة، جعلت منه نجم النهضة العربية فى القرن التاسع عشر.

نشرت المطبعة الأميرية ببولاق كتاب "تخليص الإبريز" عام 1834 ليكون الأول من ثلاثة كتب ظهرت خلال ذلك العقد من الزمان الذى أخذت فيه مصر والغرب بمعايير بعضهما البعض. فقد ظهر كتاب لين "عادات وتقاليد المصريين المحدثين" عام 1836، ونشر كتاب ويلكنسون "عادات وتقاليد قدماء المصريين" عام 1837. وقد جاء كتابا الطهطاوى ولين متناظرين، وكان من الممكن أن يحمل كتاب الطهطاوى عنوان "عادات وتقاليد الفرنسيين المحدثين". وكان من الطبيعى أن يترافق كتابا لين وويلكنسون فى حقيبة كل مسافر غربى

---

[96] Louca, Voyageurs, 25 – 27.

[97] Louca, Voyageurs, 61 – 62.

[98] قام أنور لوقا بترجمة "تخليص الإبريز" إلى الفرنسية (باريس 1988)، وقدم ديلانو فى كتابه Moralistes ملاحظات بيلوجرافية عن الطبعات والترجمات المختلفة.

إلى مصر، وذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر. وإذا كان كتاب ويلكنسون قد فقد قيمته، فإن كتاب لين ظل يحمل طابع التراث.

لقد تناولت دراسات أخرى ملاحظات الطهطاوى عن باريس، وما يعنينا هنا هو اهتمامه الواعى بمصر القديمة، ورغم أن أهل الصعيد يفترض فيهم الإنتماء إلى مصر القديمة، يصعب إثبات هذا الإفتراض، كما أن الطهطاوى لم ينشأ فى رحاب الكرنك أو إدفو، وإن كانت بعض الأعمدة المتداعية من معبد قاد الكبير تقع على بعد سبعة أميال إلى الجنوب من بلدته طهطا.

والدليل الأول على اهتمام الطهطاوى بمصر القديمة يعود إلى باريس عام 1827، عندما نشر ترجمة عربية لعمل جوزيف أجوب "قصيدة ملحمية عن مصر". وكانت عائلة أجوب قد ربطت نفسها بالفرنسيين أثناء وجود الحملة بمصر، وفروا معها عند خروجها من البلاد، ومعهم جوزيف الذى كان طفلاً فى السادسة من عمره، وقد ترعرع الطفل فى مارسيليا ثم انتقل إلى باريس، ودرس اللغات، وقام بتدريس العربية، وتردد على الصالونات الأدبية، وعمل معاوناً لجومار فى إعداد "وصف مصر"، كما علم الطهطاوى وتلاميذ البعثة المصرية اللغة الفرنسية أثناء وجودهم فى باريس، وكانت قصيدة أجوب الملحمية تعبيراً عن حنين ولوعة رومانسية على الوطن المفقود "مصر أم الآلهة والأبطال الحكماء" فبين خرائبها "تجتمع أربعون قرناً"[99].

وقدم شامبليون – شخصياً– تقريراً لمحمد على عام 1828 عن دراسة رفاعة الطهطاوى فى باريس[100]، ولكن ربما لم تتح لشامبليون والشيخ فرصة اللقاء – ورغم علاقة الطهطاوى بجومار، يخلو "تخليص الإبريز" من أى إشارة إلى "وصف مصر" الذى كان له بالغ الأثر فى الوعى الأوروبى، وإن كان يشير فى "تخليص الإبريز" إلى وجود موقع لحفظ الآثار – لعله اللوفر– يضم العجائب التاريخية للقدماء كالمبانى والمومياوات

[99] Jean – Jacques Luthi, Introduction a la literature d'expression Francaise en Egypte (1798 – 1943), (Paris 1974) 103 – 5, 268; see also Louca, Voyageurs, 26.
[100] Anouar Lonca, "Rifaa al – Tahtawi (1801 – 1873) et La Science Occidentalle" in D'un Orient l'autre (Paris 1991), 2 : 213.

والملابس، ومن بينها آثار من مصر مثل دائرة البروج المجلوبة من دندرة، التى وقف منها علماء فرنسا على معرفة المصريين القدماء بالفلك والنجوم[101].

ويرد ذكر قدماء المصريين فى "تخليص الإبريز" قرب نهاية الكتاب، إنتقل فيها من الحديث عن القديم حيث الآثار والذكريات. فقد توقف الطهطاوى فى فونتانبلو – فى طريقه إلى مصر عام 1831– وشاهد المسلة التى أقيمت تذكاراً لعودة البوربون إلى الحكم. ويشرح لقرائه أن الأوروبيين شأنهم شأن المصريين وسائر القدماء يخلدون أنفسهم بإقامة النصب التى تحمل كتابات. وعلى كل، فى تلك الحالة قام ثوار 1830 بمحو أسماء الملوك[102].

هذا النصب جعله يفكر فى الأهرام فيقدم مزيجاً من التخرصات القديمة وما اكتشفه الأوروبيون حديثاً، فيقول أن بعض الفرنج يذكرون أن ملكاً يدعى قوف (خوفو) بنى أهرام الجيزة منذ ثلاثة آلاف عام. ويرجعه آخرون إلى خامس أوخيوب (يقصد Cheops وهو النطق اليونانى لخوفو على أى حال)، ويذكر البعض أن إقامتها استغرقت 23 عاماً وأن الهرم الأكبر إحتاج إلى 350 ألف عامل لبنائه، وأن طعام العمال تكلف 22 مليوناً من القروش المصرية. وأن فتحة الهرم الثانى والثالث المغلقين يحتوى أحدهما على جثمان زوجة الملك والآخر على جثمان ابنته (وهى معلومات خاطئة نقلها الطهطاوى إلى قرائه).

ويورد الطهطاوى ما أبداه السيوطى (المتوفى 1505) من الإهتمام بالأهرام، رغم أن المسلات الموجودة بالصعيد تبدو أكثر قيمة. ويضيف الطهطاوى أن الفرنج أخذوا مسلة إلى روما، كما نقلت أخرى "فى أيامه" إلى باريس، ويعلق على إهداء محمد على مسلة لفرنسا بقوله أنه مادامت مصر قد اختارت الأخذ بالحضارة والعلم على نحو ما تفعل الدول الأوروبية، فإنه من الواجب الإحتفاظ بالتحف والأعمال التى تركها الأجداد للمصريين.

---

[101] رفاعة رافع الطهطاوى، تخليص الإبريز فى تلخيص باريز (القاهرة 1994)، 270.
[102] انظر، الطهطاوى، تلخيص، 377 – 379.

ولما كان "تخليص الإبريز" قد طبع فى المطبعة الأميرية ببولاق فقد وزع مجاناً على طلاب المدارس والموظفين، وطبعت الترجمة التركية للكتاب عام 1839، ولعلها أثرت فى الشباب العثمانى الذى اتجه إلى المطالبة بالحكم الدستورى، وفى عام 1835، تولى الطهطاوى تأسيس ونظارة مدرسة الألسن، وتولى بعد ذلك إدارة قلم الترجمة، وتحرير "الوقائع المصرية".

وقد تضمنت المقدمة التى كتبها شيخ الأزهر حسن العطار لكتاب "تخليص الإبريز" بعض النقد، ولكن لين سمع أن الكتاب وصف بأنه يحكى قصة إفساد فضائل الغرب للمؤلف فى بلاد الكفار[103]. ولعل الطبعة الثانية من الكتاب (1849) قد سبقت ما تعرض له الطهطاوى من إهمال فى عهد عباس حلمى الأول الذى كان معادياً للنفوذ الأوروبى – وخاصة الفرنسى – واستبدل برجال محمد على بعض رجاله. فأغلق عباس مدرسة الألسن، وقلم الترجمة، والوقائع المصرية، وباع المطبعة الأميرية، ونفى الطهطاوى إلى الخرطوم. وقد خشى الطهطاوى أن تدركه الوفاة هناك، وخاصة أن نحو النصف من زملائه الذين نفوا معه قد ماتوا[104]. ولكن ما لبث أن أنقذه تولى سعيد الحكم خلفاً لعباس الذى مات مقتولاً، فعاد إلى مصر مرة أخرى، وأعيد إلى الخدمة.

دبلوماسية محمد على فى مجال الآثار

كانت الآثار – عند محمد على باشا– مجرد أداة مساومة تستبدل بها الدبلوماسية والعون التقنى الأوروبى. غير أن هناك إشارات إلى مواقف للباشا كانت أقل نفعية منها: فزعه عندما شاهد استخراج مومياء بقرية القرنة، وإختياره الهرم كرمز يتوج الصفحة الأولى من جريدته الرسمية (الوقائع المصرية) عام 1829، (انظر الشكل 15)[105]. ويشاع أن الأوروبيين وحدهم رأوا فى الأهرام رمزاً لمصر فى أوائل القرن التاسع عشر، وأن اللوتس الفرعونية الجديدة التى تتوج جامع محمد على بالقلعة ربما تعكس التأثير

---

[103] من خطاب شخصى من جيسون طومسون إلى المؤلف بتاريخ 2 نوفمبر 1993.

[104] الطهطاوى، مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية (القاهرة 1268 / 1869)، 265 إقتبسه المؤلف من كتاب: Delanoue Moralistes 2 : 404

[105] إبراهيم عبده، تاريخ الوقائع المصرية (القاهرة 1942)، 35 – 36، وانظر أيضاً:
Mohammed al – Asad, "The Mosque of Mohammed Ali in Cairo", Muqarnas q (1992) : 55, n. 24.


نمرة ١٩

في ١٣ شوال سنة ١٢٤٤

الشكل رقم (١٥) الهرم رمزًا لمصر – عنوان أول جريدة مصرية (١٨٢٩)

الأوروبى وليس الإلهام المحلى المباشر[106]. لعل إمتداح محمد على لرسوم شامبليون للآثار كان مجرد تصرف دبلوماسى، غير أن طلب الباشا إلى العلماء الفرنسيين أن يقوموا بترجمة نقوش مسلة الإسكندرية وكتابه تاريخ مختصر للعصر الفرعونى يشير إلى وجود فضول ثقافى حقيقى عند محمد على[107].

وفى العام 1830، قدم شامبليون إلتماساً إلى محمد على لحماية الآثار المعرضة للخطر، مشيراً إلى اختفاء ثلاثة عشر معبداً من الوجود خلال الثلاثين عاماً التى انقضت على الحملة الفرنسية. ونحى شامبليون باللائمة على الفلاحين، وتجار الآثار، وجامعى الآثار . وأكد للباشا أن "كل أوروبا سوف تعلم بالإجراءات التى قد يتخذها سموه للحفاظ على المعابد والقصور والمقابر وجميع الآثار التى تشهد بمتانة معطيات مصر القديمة، والتى تعد – فى الوقت نفسه– أجمل ما تتحلى به مصر الحديثة"[108].

وعلى كل استمر تعرض الآثار للدمار، ونبه مينو – القنصل العام الفرنسى– محمد على باشا إلى أن معبد دندرة تقتلع حجارته لتستخدم فى بناء مصنع للنسيج بقنا، وتمنى مينو على الباشا أن يوقع بالفاعلين عقوبة صارمة ليتأكد أن "أحداً من أولئك المتوحشين" لن يجرؤ على استخدام حجارة المعابد فى بناء "مصانع حقيرة"[109]. وعندما علم محمد على

---

106 Asad, "Mosque", 48.

107 Jean – Francois Champollion, Lettres ecrites d'Egypte et de Nubie, en 1828 et, 1829 (Geneva 1973, reprintot 1833 Paris ed.), 42, 409, 429 – 54.

108 Champllion, Lettres, 456 – 57; Entire Memo 455 &,
حول الجهود الأولى التى بذلت فى المتحف ومصلحة الآثار، راجع:
G. Maspero, Guide du visiter au Musse du Cairo, 4th ed., (Cairo, 1915), ix – x.

109 Gasten Wiet, Mohamed Ali et les Beaux – Arts, (Cairo ca. 1949), 24.

باستمرار تعرض الآثار للدمار مرة أخرى، علق الإتهام فى رقبة الأوروبيين الذين لا سلطان عليهم.

ففى أغسطس 1835، أصدر محمد على أمراً وجه فيه أصبع الإتهام إلى سوابق تصرفات الأوروبيين فى هذا المجال، ليبرر خطر تصدير الآثار، ويأمر بجمعها لتعرض فى القاهرة: "ومن المعلوم أن الأوروبيين لديهم مبان لحفظ الآثار، والأحجار المنقوشة، والنقوش، وغيرها من الأشياء الأخرى، التى يتم حفظها بعناية وعرضها على أهل البلاد وزوارها من الأجانب ... ومثل هذه الأبنية تجلب الشهرة للبلاد التى تقيمها"[110].

ونص الأمر على إرسال الآثار التى يتم جمعها إلى الطهطاوى ناظر مدرسة الألسن بالأزبكية، وأن على الطهطاوى وحككيان إختيار الموقع المقترح لإقامة المتحف فى مقابل المدرسة، وأسند تصميم المبنى إلى حككيان، حكم كونه مهندساً، كما أسندت نظارة المتحف إلى يوسف ضياء أفندى، الذى كان عليه – أيضاً– القيام بدورات تفتيشية سنوية إلى المواقع الأثرية بالصعيد، فقام ضياء أفندى بجولة تفتيشية، وعين ممثلين له بالصعيد لتجميع ما يتم العثور عليه من آثار وإرساله إلى القاهرة، ورغم إشارة أمر محمد على إلى أن أهل البلاد وزوارها يشاهدون الآثار بالمتحف، إقتصر دخول المتحف على "السياح من زوار البلاد".

ولو قدر لهذه الخطة أن تنفذ، لسارت مصر مع اليونان جنباً إلى جنب فى تحقيق السيطرة والحماية الوطنية للآثار. فقد أسس متحفها الوطنى عام 1829، والإدارة المختصة بالآثار فيها فى 1833، وصدر أول قانون خاص بالآثار فيها عام 1834، وأسست الجمعية الآثارية اليونانية عام 1837. وفى فرنسا أدى الاستيلاء على التحف والأيقونات الدينية الملكية أيام الثورة إلى إقامة متحف لها بدير الجراند أوجستان فى تسعينات القرن الثامن عشر. وأدت عودة البوربون إلى الحكم فى فرنسا إلى إشاعة نوع من الحنين إلى العصور الوسطى. وفى عام 1830 قام فرانسوا جيزو – المؤرخ والوزير الدائم للوى

[110] انظر نص الأمر فى دار الوثائق القومية، فهرس بطاقات الدار، درج رقم (1) آثار، ومحافظ الأبحاث رقم 118 آثار، وقد قام جاك تاجر بنشر ترجمة هذه الوثائق وغيرها مما يتصل بالآثار فى:
"Ordres superieuer relatifs a la Conservation des antiquites et la Creation d'un mussee au Caire", Cahiers d'histoire Egyptienne, ser 3., Fasc, 1 : 13 – 25.

فيليب– بتعيين مفتش للآثار التاريخية، وبعد ذلك بأربعة سنوات، أسست الحكومة الفرنسية "لجنة الآثار التاريخية". أما فى بريطانيا، فقد أدى الإهتمام بحقوق الملكية الفردية إلى تأخير تعيين مفتش مسئول عن الآثار القديمة، حتى تم ذلك عام 1882[111].

ويعتبر المصريون – أحياناً– الأمر الصادر فى 1835 حجر الأساس لإقامة مصلحة الآثار المصرية والمتحف المصرى[112]. ولكن المصادر الفرنسية تشير إلى أن الهدف من صدوره هو عرقلة جهود القنصل الفرنسى العام مينو لجمع الآثار المصرية وتصديرها خارج البلاد. وعلى كل، كان من سوء الطالع أن الأمر الذى أصدره محمد على لإنشاء 18 مصنعاً للملح الصخرى (نترات البوتاسيوم أو الصوديوم) أدى إلى تدمير الإيوان التاسع بمعبد الكرنك وتحويله إلى أحجار استخدمت فى بناء أحد تلك المصانع[113]. وأبدى القنصل الأمريكى جورج جليدون سعادته بهزيمة محمد على فى "المسألة الشرقية" 1840 – 1841، لأن ذلك يؤدى إلى توقف بناء المصانع مما يقلل من نهب الآثار وتحويلها إلى مواد بناء[114].

وشجع نهم الغرب إلى الآثار الأوروبيين – من القناصل إلى أقل الناس شأناً– على السخرية من حظر تصدير الآثار، فقد قام شامبليون نفسه بقطع لوحة من مقبرة سيتى الأول المكتشفة، كما انتزع مينو لوحة الملوك من معبد أبيدوس، واستطاع بريس دافين أن يرشى رجال الجمارك بالإسكندرية لتصدير لوحة الملوك دون الحاجة إلى مساعدات القنصل.

وكانت المسلات أعظم الآثار شأناً وأكثرها إجتذاباً، وقد حملها الرومان معهم غنيمة إلى روما والقسطنطينية. وقد اقترح الجنرال ديزيه على نابليون أن يأخذ إحداها معه إلى باريس[115]. وبعد إجلاء الفرنسيين عن مصر عام 1801، تحدث الضباط الإنجليز عن أخذ إحدى مسلات الإسكندرية معهم إحتفالاً بالنصر على الفرنسيين. وتغيرت الأذواق عند

---

[111] Hans Huth, "The Evolution of Preservationsm in Europe" Journal of the American Society of Architectural Historians (July / Oct. 1941) : 5 – 12; Paul Leon, La vie des monuments Francaise : Destruction, restauration (Paris 1951).

[112] من خطبة لسوزان مبارك، الأهرام 16 ديسمبر 1998؛ وحول وجهة النظر الفرنسية، راجع، Maspero, Guide, ix

[113] Traunecker and Golvin, Karnak, 1336.

[114] Wiet, Mohamed Ali, 30; Gilddon, Appeal, 69.

[115] Carre, Voyageurs I : 57, n. 3.

أوائل القرن الثامن عشر، عندما إقترح بوادى ماييه نقل عمود بمومبى – وليس إحدى المسلات– إلى باريس. وإقترح دروفتى على محمد على باشا أن يكسب ود الملك لوى الثامن عشر بإهداء فرنسا إحدى مسلات الإسكندرية. واستطاع شامبليون أن يساومه على المسلة الأحسن حالاً بمعبد الأقصر، وأخيراً وصلت المسلة إلى باريس لتقف شامخة فى ميدان الكونكورد عام 1836. ورفض الإنجليز أن يتحملوا نفقات نقل المسلة التى وعدهم بها محمد على، ولكن إرازمس ويلسون – الخير– تحمل نفقات نقلها وإقامتها على ضفاف التيمس[116].

وفى عام 1841، نشر القنصل الأمريكى جليدون – عضو الجمعية المصرية– كتابه "إلتماس إلى آثاريى أوروبا بشأن تخريب آثار مصر"، وتساءل ساخراً: "لماذا لا نقيم حائطاً من الحجر الجيرى فى كل موقع أثرى، حتى يحفر عليه – كل سائح إنجليزى متجه إلى الهند أو قادم منها– إسمه ؟ " ولعل السياح الذين يضيقون ذرعاً بالآثار التى زاروها يمضون الوقت فى كتابة أسمائهم على النحو الذى كان يفعله الوندال فى زخرفة حوائطهم[117].

واتهم جليدون مينو باستحواذه على لوحة الملوك الخاصة بمعبد أبيدوس من قبيل المنفعة المادية وليس اهتماماً بالآثار. ووجه اللوم إلى دروفتى وسولت لصراعهما حول "تمثال جرانيتى لأبى الهول، وليس صراعهما حول الفرعون الذى أمر بنحته، ولكن حول السعر الذى يجلبه عندما يباع فى أوروبا"[118]، ولكن جليدون أعاد النظر فى موقفه هذا، فإمتدح شامبليون "لإنقاذه الآثار من جحورها، لتنعم بالأمان فى المتاحف الأوروبية". ووصف سولت بأنه "رجل نبيل وعالم"، واستنكر جليدون صدور الأمر الخاص بالآثار عام 1835 واعتبره خادعاً، يمثل "عملاً جديداً من أعمال الإحتكار" الذى يعرقل التجارة الحرة برعاية الحضارة، ويقيم متحفاً بمصر ! وطالب بإصدار فرمان عثمانى يجعل من

---

116 Bernadette Menu, "L'es Freres Champollion, "L'Egyptologie et Les Champollion, ed. Dewachter and Fouchard, 77 – 94; Jean Vidal, "L'absent de l'obelisque" in La-coutufe, Champollion, 473 – 92; Erasmus Wilson, Cleopaxra's Needle (London 1877).
انظر أيضاً: دار الوثائق القومية، فهرس بطاقات الدار، آثار، درج 1، من محمد على للكتخدا، معية تركى، دفتر 42، أمر 611، المحرم 1247.

117 Gilddon, Appeal, 142 – 44.

118 Gilddon, Appeal, 52; and Gilddon, "Ancient Egypt".

القناصل "أمناء على الآثار"، ويأمر المصريين بإطاعة أمرهم فيما يتصل بحماية الآثار[119]. ولعب جليدون دوراً مهماً فى نشر الإهتمام بمصر القديمة فى الولايات المتحدة فى الأربعينات من القرن التاسع عشر، ونشر – أيضاً– الفكرة القائلة بأن قدماء المصريين كانوا مبدعين[120].

وفى العام 1842، ذكر محمد على لليبسيوس أن مشروع إقامة المتحف المصرى قد فشل، وبرر ذلك بالقول بأن مصر الحديثة لازالت فى "بدايات الحضارة". ولكن تقييم ويلكنسون لذلك الموقف كان فجاً، فقد قال:

"إقامة متحف بمصر فكرة خيالية محضة، فبينما يؤدى حظر تصدير الآثار من مصر إلى الإضرار بالعالم، لا تحقق مصر مغنماً. فالحفائر تتم دون حاجة إلى معرفة أو جهد، ومن يعملون فيها يخدعون الباشا ولا يهتمون بإقامة المتحف ... وبعد وضع الحظر كعقبة فى طريق الأوروبيين، لن يقيم الباشا متحفاً"[121].

وبعد ذلك ببضع سنوات، تلقى لينان دى بليفون أمراً من الحكومة المصرية عام 1265 هـ / 1848 – 1849م ليقوم بالتفتيش على مواقع الآثار المصرية، وأن يشحن إلى القاهرة ما يراه عرضة للنهب من جانب السياح والتجار. ولكن جهوده فى هذا الصدد لم تكلل بالنجاح.

واستخدم إبراهيم باشا نجل محمد على، رجلاً تركياً للتنقيب عن الآثار بالأقصر، وقام بطرد المنقبين الآخرين. وقلل ويلكنسون من قيمة المجموعة التى نتجت عن هذا العمل ، وتجمعت فى قصر إبراهيم، فقد احتوت على "خليط من المومياوات المحطمة والتوابيت وبعض اللوحات غير الكاملة، ومجموعة متنوعة من حطام الآثار".

وبعد عصر محمد على، إهتم عباس الأول بالآثار، فأمر إثنين من المهندسين بالقيام بالتفتيش على المواقع الأثرية بالصعيد، وأمر ناظر ديوان المدارس بإعداد تقرير عن

---

[119] Gliddon, Appeal, 127, 146 – 48.
[120] Robert J. C. Young, Colonial Desire : Hybridity in Theory, Culture and Race (London 1995), 124 – 29, On Gliddon, see Who Was Who 3, 169.
[121] I. G. Wilkinson, Modern Egypt and Thebes, 2 vols, (London 1843).

المواقع الأثرية القريبة من القاهرة[122]. ويذكر جاستون ماسبيرو أن عباساً نقل مجموعة الآثار التى كانت بالأزبكية إلى القلعة عام 1851 [123]، ولكن مصدرا آخر يؤكد أن عباسا أصدر أمرا فى أكتوبر 1849 بنقل مدرسة الألسن إلى الناصرية (السيدة زينب)، ولما كانت الحاجة ماسة إلى مكان أرحب بسبب ضيق المكان هناك، فقد تم نقل مجموعة الآثار إلى مدرسة المهندسخانة ببولاق، وعلى كل، قام عباس الأول بإهداء المجموعة إلى السلطان عبد العزيز، وأهدى خلفه سعيد ما بقى منها إلى ماكسمليان – أرشيدوق النمسا – عام 1855. وكان اتجاه الوالى العثمانى فى مصر إلى اعتبار الآثار المصرية هدية مناسبة للسلطان، جديداً فى بابه. وفى إستانبول أيضاً، بدأت الحكومة الإهتمام بالآثار والمتاحف وما تمثله من تراث. ويقبع نصيب ماكسمليان من الآثار بمتحف الآثار التاريخية بفيينا الآن.

الوساطة الأرمينية، يوسف حككيان

تعلم يوسف حككيان (1807 – 1875) بأوروبا، شأنه فى ذلك شأن رفاعة الطهطاوى، وكان محباً للآثار، أقبل على تعلم اللغات التى تساعد على اتصال مصر بأوروبا. وإذا كان الطهطاوى المصرى المسلم استخدم موقعه كموصل بين الثقافة الأوروبية وبلاده فى حفز مواطنيه على الإهتمام بمصر القديمة، فقد كان حككيان على نقيضه تماماً، فقد كان أرمينياً كاثوليكياً، ولد بإستانبول، ونأى به تعليمه فى بريطانيا بعيداً عن وطنه الثانى مصر. وعندما طرده عباس الأول من وظيفته، إشتغل بالتنقيب عن الآثار تحت رعاية بريطانية، ومد يد العون للأوروبيين من زوار مصر، وكتب كثيراً عن مشكلة التوفيق بين ما جاء بالكتاب المقدس والإطار الزمنى للعصر الفرعونى، وكانت مشكلة ملحة عند أهل الغرب، وتغلب عنده الميل إلى الثقافة الأوروبية على إنتمائه الشرقى، حتى أن أوراقه الخاصة مودعة بالمكتبة الوطنية البريطانية بلندن، وليس القاهرة.

---

[122] Ehud Toledano, State and Society in Mid – Nineteenth. Century Egypt (Cambridge 1990), 88 – 90, 272.

[123] Maspero, Guide, x: Dia "Abou-Ghazi", The First Egyptian Museum; Annales du Service des antiquités de l'Egypte [ASAE] 67 (1991): 1-13; John Muray, Handbook for Travellers in Constantinople, Bursa and the Troad (London 1990), 72.

كان حككيان واحداً من بين مجموعة صغيرة من الأرمن الذين لعبوا دور الوساطة مع الغرب، واحتلوا وظائف كبرى فى مصر فى القرن التاسع عشر. وكان الأرمن – الذين زاد عددهم عن الألفين عام 1840– ينقسمون إلى قسمين: أحدهما يتبع الكنيسة الجريجورية (الأرثوذكسية)، والآخر يتبع الكنيسة الأرمينية الكاثوليكية وقد جلب محمد على والد حككيان – الأرمنى الكاثوليكى من إستانبول ليعمل لديه مترجماً فى مطلع عهده، ولعب أرمينى آخر جاء إلى مصر من إستانبول – أيضاً – هو بوغوص يوسفيان – دوراً مهماً فى خدمة محمد على فتولى نظارة "ديوان التجارة والأمور الأفرنكية" وخلفه أرمينيان آخران فى منصبه فى الأربعينيات. وقد زكى هؤلاء الأرمن عند محمد على ، إفتقارهم إلى الجذور الاجتماعية المصرية، وإتقانهم التركية واللغات الأوروبية، وإختار بوغوص يوسفيان أربعة من الطلاب الأرمن ليوفدوا إلى باريس ضمن البعثة التعليمية الأولى التى انضم إليها الطهطاوى عام 1826، وكان نوبار باشا – أول رئيس وزراء لمصر فيما بعد– عضواً بالبعثة التعليمية التى ذهبت إلى فرنسا عام 1844[124].

ظل يوسف حككيان بإستانبول بعد ما رحل والده إلى مصر للعمل فى خدمة محمد على ، ولم يغادرها إلا بعد موافقة محمد على على تحمل نفقات تعليمه بإنجلترا. وعندما وصل إلى لندن عام 1817 كان فى العاشرة من عمره حيث تلقى نبأ وفاة والده. وأشرف صامويل بريجر– التاجر ونائب القنصل السابق بالإسكندرية– على تعليمه العام الذى استغرق سبع سنوات، تعلم خلالها الإنجليزية واليونانية واللاتينية، وعلى تعليمه الهندسى الذى استغرق خمس سنوات. وحتى يقف يوسف حككيان على جوهر التقدم الصناعى والتجارة الحرة، قام بجولات استطلاعية للقنوات والجسور، ومصانع الغزل والنسيج بمانشستر وجلاسجو، وشهد مولد عصر السكك الحديدية[125]. وضمن مذكراته إقتراحات لتحديث مصر التى لم يكن قد رآها بعد: "أظن أن بناء بواخر نيلية، وعربات لنقل الركاب على الطريق بين القاهرة والإسكندرية مشروع جيد. ولابد من إنشاء خطوط حديدية تيسر سبيل تحريك القوات العسكرية ونقل البضائع ... وخطوط البرق وما يشابهها من وسائل

---

[124] انظر كتاب: محمد رفعت الإمام، الأرمن فى مصر فى القرن التاسع عشر، (القاهرة 1995).

[125] أوراق حككيان جميعاً مودعة بالمكتبة البريطانية، مجموعة المخطوطات الإضافية، انظر أحمد عبد الرحيم مصطفى. "The Hekekyan Papers" in Political and Social Chang in Modern Egypt, ed. P. M. Holt (London 1968), 68 – 75.

الإتصال التى تستخدم فيما بين لندن وبورتسموت يجب تركيبها بين القاهرة والإسكندرية. كما يجب استخدام الأنابيب لمد المدن بالمياه، ولابد من العناية بالسجون ...[126]".

وعندما أمره محمد على بالعودة إلى مصر عام 1830، وكان يوسف حككيان قد تفرنج تماماً حتى أنه نسى اللغة التركية، وأصبح يتحدث من خلال مترجم. وقد أدهشه ما لقيه من استهجان فى مصر لاستمراره فى إرتداء القفازات والجوارب[127] ولم يستطع حككيان أن يخفى تحيزه لثقافته الإنجليزية، فيقول: "كان الزاد الذى حملته معى إلى مصر، رفاهية اليونان، واضطراب الترك، وصوت المقارع للسادة أكلة الضفادع"[128].

كان حككيان سريع التعلم، وما لبث أن اكتسب قدراً مما يتسم به رجال البلاط من مرونة، كان محمد على يسرع الخطا فى طريق التصنيع، مما أعطى للمهندسين أولوية عنده . وشغل حككيان بالتفتيش على المصانع، والبحث فى جدوى استغلال المناجم، وتصميم المبانى وإدارة مدرسة المهندسخانة، وأضاف التركية والعربية والفارسية إلى اللغات التى يعرفها (الإنجليزية – الفرنسية – اليونانية – اللاتينية)، ثم بدأ يتعلم الإيطالية والألمانية والأرمينية. وكان إتقانه للإنجليزية يعطيه وزناً خاصاً فى حاشية محمد على التى تتحدث التركية[129]، لأن بوغوص بك يوسفيان "ناظر ديوان التجارة والأمور الأفرنكية" ومساعدة أرتين تشراكيان كانا يعرفان الفرنسية والتركية ويجهلان الإنجليزية[130]، فقام حككيان بترجمة المراسلات الإنجليزية إلى الفرنسية ليتولى بوغوص وأرتين ترجمتها إلى التركية وعرضها على محمد على.

ولكن دراسته للهندسة لم تعلمه إحترام الآثار وتقدير قيمتها، فقبل قدومه إلى مصر كتب فى يومياته:

"إذا كانت الأهرام الواقعة بجوار القاهرة تتكون من كتل من الجرانيت والأحجار الأخرى، فمن المفيد اقتلاع تلك الأحجار، واستخدامها فى بناء الجسور وغيرها

---

[126] أوراق حككيان، 1 : 50 (24 يوليو 1829).
[127] أوراق حككيان، 3 : 65 (يونيو 1845).
[128] أوراق حككيان، 24 : 458 (1858).
[129] أوراق حككيان، 14 : 59 (2 فبراير 1837).
[130] Who Was Who 3 : 456 – 99.

من المبانى ذات النفع العام، ويكتفى بالإبقاء على هرم واحد أو هرمين فى موضعهما إلى الأبد ... ولما كانت جوانب الهرم منحدرة، فإن إقتلاع الأحجار الضخمة من القمة إلى القاعدة على التوالى يصبح ممكناً، وقد يمد خط حديدى تدفع عليه حاويات الحجارة من عند قاعدة الهرم إلى النيل ... ويجب أن نأخذ كل ما يقال عن عدم اقتلاع أحجار الهرم بنوع من التراضى. ويمكن الإبقاء على التماثيل والأعمدة والمعابد واللوحات الرخامية ... "[131].

وفى 1836، عندما اعتزم محمد على إقتلاع أحجار الهرم لاستخدامها فى بناء القناطر الخيرية، فزع مينو (القنصل الفرنسى)، وقدم إليه التماساً قال فيه:

"لقد حققت شهرة عظيمة لنفسك بفضل ما قمت به من جلائل الأعمال ... ولما كان الرأى العام قوياً فى البلاد المتحضرة، فسوف يثور ضد تخريب الآثار . فالأوروبيون ينظرون إلى الأهرام باعتبارها أعظم آثار باقية للجنس البشرى القديم، وهى تعد فى التراث القديم إحدى عجائب الدنيا السبع ... وأمر هذه الآثار يعنى جميع شعوب العالم ... وهى فوق ذلك كله تعنى للفرنسيين الكثير منذ قال بونابرت كلمته الخالدة فى المعركة التى حملت إسم الأهرام: تذكروا أن أربعين قرناً (من التاريخ) تنظر إليكم من فوق قمم الأهرام ... ويجب على حكام البلاد أن يحفظوها لتنقل إلى الأجيال القادمة سليمة وخالدة، بعد أن تنتهى حياتهم القصيرة على الأرض"[132].

وبعد ما وصل حككيان إلى مصر، تغيرت نظرته إلى الآثار تماماً تأثراً بالأوروبيين ، وأصبح من أقوى الدعاة للمحافظة على الآثار. وكان من بين مؤسسى "الجمعية المصرية". وخلال تنقله فى ربوع البلاد فى مهام تتصل بالعمل، قام برسم المعابد واللوحات ونسخ النقوش الهيروغليفية، ولا زالت أوراقه الخاصة مصدراً مهماً للمتخصصين فى المصريات. وقدم – فى يومياته– وصفاً رومانسياً لكوم أمبو:

---

[131] أوراق حككيان، 1 : 82 – 83 (19 أغسطس 1829).

[132] Wiet, Mohamed Ali, 31 – 34.

"عندما رسا قاربنا أمام هذه الحوائط الشامخة، لم أملك سوى إطلاق العنان لمشاعرى أمام ذلك الصرح الذى يطل علينا باعتبارنا غرباء لا نستحق الاستحواذ على الآثار، فلا يجب أن نهمل الصروح التى أقامها الأقدمون ... إن كل ما يهمنا فى خرائب الآثار هو قدرتها على إنتاج الملح الصخرى"[133].

وفى إدفو، راح حككيان يبدى إنزعاجه من "التراب والقذارة المتراكمة بفعل سكانها الحاليين، فالمعبد يئن تحت تلك الأكواخ البائسة التى أقاموها فوقه، ولو كان ذلك فى بلد أوروبى لنفضت عنه الأتربة وقامت بترميمه ... "[134].

ومع مضى الأربعينات، تكشف يوميات حككيان عن تصاعد اغترابه التام عن مصر، وتبنيه الفكرة الشائعة بين الأوروبيين عن تعصب المسلمين[135]. ودارت فى ذهنه أفكار النموذج الأوروبى لحرية العبادة، وإلغاء الرق، والآثار: "ألا يمكن – لوجه الله– أن ينقل كل معبد إلى إنجلترا أو فرنسا بواسطة ساحر، مع اتخاذ إجراءات صارمة للحفاظ على الآثار فى مصر، ولابد أن تتدخل القوى الثلاث الكبرى لفرض حرية العبادة وتصفية الرق، وحماية الآثار"[136].

ومع تزايد شعور حككيان بفقدان الأمان، إزداد اغترابه عن المجتمع المصرى. فقد حرص محمد على على تزكية الخصومات بين الأرمن العاملين معه ليقينه أن مراسلات الأرمنى لا يستطيع قراءتها إلا واحد من قومه[137]. وكان زواج حككيان من شقيقة أرتين بك تشراكيان (بانومانيكافا) دعماً لمركزه فى بداية الأمر، ولكن مع تولى عباس الأول السلطة إنتابت حككيان الهواجس من نوبار (رئيس الوزراء فيما بعد) قريب بوغوص يوسفيان، لدسه ضده عند الباشا[138]. وقد نصح أرتين صهره حككيان بإلتزام الحذر . وأشار حككيان فى يومياته إلى أنه كان باستطاعة أرتين وأخيه خشرف الإرتكان إلى الحماية الفرنسية والعثمانية. ولكن أرتين فر إلى إستانبول عام 1850 عندما اتهم بالفساد،

---

[133] أوراق حككيان 2 : 489 (29 سبتمبر 1844).
[134] أرواق حككيان 2 : 489 (30 سبتمبر 1844).
[135] أوراق حككيان 3 : 36 (1845).
[136] أوراق حككيان 2 : 489 (أول أكتوبر 1844).
[137] أوراق حككيان 3 : 35 (12 يونيو 1845).
[138] أوراق حككيان 5 (أوائل عام 1851).

تاركاً وراءه حككيان يعانى من الفزع وفقدان الحماية، وقد ذكر فى يومياته أن الرجال والنساء كانوا يختفون ببساطة تامة فى عهد عباس[139].

ولجأ حككيان إلى القنصل العام موراى، وأنتونى هاريس – زميليه فى الجمعية المصرية– كما لجأ إلى بريجز الذى أشرف على تعليمه بإنجلترا، طالباً الحماية البريطانية. وتم وضع ترتيب تم بموجبه تعاقد ليونارد هورنر – ممثل الجمعية الجيولوجية الملكية– مع حككيان ليقوم بالتنقيب عن الآثار فى عين شمس لحساب الجمعية، وبذلك اكتسب الحماية البريطانية، وكان للقنصل موراى دالة عند عباس الذى فضل المشروع البريطانى لإقامة سكك حديد الإسكندرية – القاهرة، على المشروع الفرنسى الخاص بشق قناة السويس، ولذلك وصل عباس إلى درجة تقديم دعم مادى لحفائر حككيان، فزوده بمهندس وبالعمال المسخرين للعمل مجاناً، وبالأدوات اللازمة للحفر. وحرص حككيان ألا يثير شك حارسه، فقد ذكر أن موظف القصر "لم يخف عنى أن هناك إنطباعاً عاماً أن الهدف من حفائر عين شمس استخراج كنوز الذهب، وسألنى عما أنوى فعله بالكنوز التى قد أعثر عليها فأجيب بأننى سوف أرسلها لخزانة الوالى"[140].

بدأ حككيان حفائر عين شمس من يونيو 1851[141]، كما قام فيما بعد بحفائر فى منف – لحساب هورنر– فيما بين 1852 – 1854. وساعدته معرفته بالجيولوجيا إلى القيام بأول حفائر استخدم فيها علم الطبقات فى مصر، وكان ذلك سابقاً لمارييت الذى احتفظ بمجرد قوائم بما تم العثور عليه[142] وكان هورنر يعتقد أن التراكم السنوى لطمى النيل فوق الآثار المصرية قد يحسم الخلاف بين دارسى الكتاب المقدس وأولئك الذين ينتقدون بحدة التحقيب الزمنى لما جاء بالكتاب المقدس. ومن ثم رأى أن مسلة عين شمس الخاصة بسنوسرت الأول (الأسرة الثانية عشر) وتماثيل رمسيس الثانى الضخمة فى منف (الأسرة التاسعة عشر) أماكن مناسبة لبداية العمل فى هذا الإتجاه. ونشر هورنر نتيجة الحفائر التى أثارت المتخصصين فى الكتاب المقدس الذين حددوا بدء الخليقة بحوالى عام 4004

---

[139] أوراق حككيان 5 : 48 – 50 (29 أبريل 1851).
[140] أوراق حككيان 5 : 69 (5 يونيو 1851)
[141] أوراق حككيان 5 : 61 (أواخر مايو 1851).
[142] Thompson, Wilkinson, 249, n. 25.

قبل الميلاد، وحدد زمان ما قبل التاريخ بما كشفت عنه حفائر حككيان فى منف بالعام 11500 قبل الميلاد.

وإعتزل حككيان التنقيب عن الآثار عام 1854، واهتم بتعريف سبيل الأوروبيين الذى انهمر على مصر لزيارتها، بتراث هذه البلاد. فكتب الكثير عن الحساب الزمنى لمدة فيضان النيل، وعن الكتاب المقدس، ومانيتو، والنظريات الخيالية حول الحكمة الخفية فى الآثار. وقد تمت طباعة عمله حول هذا الموضوع بشكل خاص فى لندن عام 1863 بعنوان "رسالة فى تقويم الآثار القديمة".

وقد تأثرت سمعة حككيان كثيراً لأنه لم يدرج ضمن علماء الآثار الوطنيين، فقد بدأ عثمانياً فى وقت كانت فيه مصر تتباعد عن إستانبول، وأدت تربيته الإنجليزية إلى اغترابه عن المجتمع المصرى، وعن اهتمام المؤرخين الوطنيين، لقد كان يتمتع بالحماية البريطانية دون أن يحمل الجنسية، وكان كاثوليكياً بعيداً عن الكنيسة الأرمينية الجريجورية. وفى عالم المصريات تعد رسومه الأثرية وحفائره التى وظفت علم الطبقات ذات قيمة، ولكن تحوله عن المجال – مثل بيازى سميث– جعل وجوده باهتاً فى التخصص الذى كان فى مرحلة التكوين. ولا تزال أوراقه الخاصة فى المكتبة البريطانية فى حاجة إلى دراسة استكشافية.

وفى الوقت الذى بدأ فيه حككيان التنقيب عن الآثار فى منتصف القرن، كان الفرنسيون والألمان والإنجليز قد قاموا بعمل جسات أثرية، وعثروا على مجموعات كبيرة من الآثار المصرية، وتعمقت المعرفة بالهيروغليفية، وصحح إطار جدول مانيتو للأسرات الفرعونية. وكان محمد على يرى فى الآثار مجرد أدوات تستخدم فى المساومات الدبلوماسية، غير أن الطهطاوى ساعده على اتخاذ الخطوات المترددة (الأولى لحماية التراث الفرعونى. وتهيأ المسرح لظهور ماريت الذى سيعيد تكوين مصلحة الآثار ويقيم المتحف على أسس متينة، وليقوم الطهطاوى بحملته التى دعت المصريين إلى تبنى التراث الفرعونى. وفيما بين 1850 – 1882 نشرت تلك التطورات أشرعتها فى مواجهة سحب العاصفة السوداء للإمبريالية الغربية التى تجمعت فى الأفق. وفى عام 1849 كتب حككيان الذى كان متأثراً بالإجماع الأوروبى، تحذيراً جاء فيه:

"إن من المقدر لمصر ألا تبقى هكذا فى ظلال الجهل وترزح تحت ثقل البربرية، تلك البلاد التى نقلت إلى أوروبا فى العصور القديمة شعلة الحضارة المقدسة. وإن عاجلاً أو آجلاً سنضطر إلى فتح الأبواب أمام ضغوط الحضارة الأوروبية والدول، وإلا فسوف يقومون بفتح تلك الأبوب عنوة"[143].

[143] النص مقتبس من تقرير عن التعليم عام 1849، ذكره Dykestra, "Joseph Hekekyan", 165

الفصل الثانى
توماس كوك
من الاستكشاف إلى السياحة

فى كتاب المويلحى "حديث عيسى بن هشام" الذى نشر فى مطلع القرن العشرين، نجد تعليقاً يورده المؤلف على لسان مصرى، معلقاً على تواجد السياح الأوروبيين بملهى ليلى بالقاهرة:

" ... هؤلاء سياح الغربيين أهل المدنية والحضارة، الناظرون إلى الشرقيين بعين المهانة والحقارة، فإن نظروا إليهم من جهة العزة فنظرة العقاب من شماريخ رضوى وثبير إلى جنادب الرمل وضفادع الغدير. وإن نظروا إليهم من طريق العلم، فنظرة معلم الإسكندر عالم العلماء، إلى صبى يتهجى فى العين والياء، وإن نظروا إليهم من باب الصناعة فنظرة "فيدياس" صانع التماثيل والدمى إلى بناء يقيم أكواخ القرى، وإن نظروا إليهم من جهة الغنى، فنظرة صاحب المفاتيح التى تنوء بالعصبة إلى أجير ينضح عرقاً تحت القربة ... تلك دعواهم فى نفوسهم بأفواههم.

وهم فى رحلتهم إلى الشرق على ضربين: أهل الفراغ والجدة الذين أبطرهم الغنى، وألهاهم الاستمتاع ببدع المدنية، ولم يبق فى أعينهم جديد .... فأصبحوا هائمين على وجوههم فى الأقطار والبلدان، وحطتهم القدرة إلى الاستشفاء من الداء بالتنقل فى البلاد المنحطة عنهم فى درجات المدنية، والإقامة فى الأقطار الباقية دونهم على الفطرة الغريزية.

والضرب الثانى: منهم أرباب العلم والسياسة وأهل الاستعمار والاستنفاض ، يستعملون علومهم، ويعملون أفكارهم فى احتلال البلدان، وامتلاك البقاع ومنازعة الناس فى موارد أرزاقهم، ومزاحمة الخلق أرضهم وديارهم، فهم طلائع الخراب ، أدهى على الناس فى السلم من طلائع الجيوش فى الحرب"[144].

---

[144] محمد المويلحى، حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن، (القاهرة 1964)، 213 (إختار المؤلف هذا النص من الترجمة الإنجليزية للكاتب روجر ألن، وهى ترجمة غير دقيقة إذا ما قورنت بالأصل – المترجم).

وسياح المويلحى الغربيين، الذين لا يجدون ما يفعلون سوى التجول هنا وهناك، هم موضوع هذا الفصل. ويختلف هذا الفصل عن بقية الكتاب فى أنه لا يروى سوى نصف قصة التواصل الغربى المصرى من منظور غربى خالص. وتشير الفقرة المقتبسة من "حديث عيسى بن هشام" أن المصريين يرون إمكانية أن يكون للسياحة تاريخ فى بلادهم، ولكن ذلك يخرج عن نطاق هذا الكتاب. والدراسات الاستكشافية تعانى نقصاً شديداً، والمصادر الأولية حول رؤية المصريين للسياحة فى القرن التاسع عشر محدودة جداً، والكثير من المصريين الذين عملوا بمجال السياحة المتنامى كانوا من الأميين، كما انشغل معظم كتاب ذلك العصر بأمور أخرى.

وعلى النقيض من ذلك، هناك وفرة كبيرة فى المصادر الأوروبية عن السفر والسياحة فى مصر. فقد مكنت الثورة الصناعية قطاعات من الغربيين من توفر وسائل ومتعة السفر، عندما أصبحت البواخر والقطارات تربط العالم. واجتذبت مصر الكثير من راغبى السفر إلى الشرق، فقد تخيلها الغربيون بإعتبارها أرض التاريخ القديم والعراقة، أرض الفراعنة، والكتاب المقدس، وهيرودوت، وألف ليلة وليلة. وفى السنوات الأخيرة، أدى الحنين إلى "الزمن الجميل" زمن السياحة إلى مصر قبل 1914 إلى صدور كم هائل من الكتب التى تتراوح بين كتب لصور طاولات المقاهى إلى الدراسات الجادة. ويعتمد هذا الفصل على هذه الكتب والمصادر الأولية التى اعتمدت عليها لتوضيح كيف أن السياحة الحديثة، والمتاحف، وعلم الآثار قد شبت عن الطوق معاً على أرض مصر[145]. فقد كتب الآثاريون كتب الدليل السياحى أو كتبوا بعض فصولها، وقاموا بتأسيس المتاحف فى بلادهم وفى مصر وهم يفكرون فى خدمة السياح الذين لم يغيبوا عن بالهم، ونظموا أجنحة مصر فى المعارض الدولية، واستثاروا فضول القراء بقصص المغامرات والإكتشافات. وقد تحول معظم من أقبلوا على شراء هذه المواد إلى سياح، وتحول القليل من السياح – بدورهم– إلى آثاريين.

---

[145] Timothy Mitchell, "Worlds Apart : An Egyptian Village and the International Tourism Industry", Middle Wast Report (September – October – 1995), 8 – 11, 25; Dean Mac Cannell' The Tourist : A New Theory of the Leisure Class (New York, 1976); Tom Selwyn ed., The Tourist Image : Myths and Myth Making in Tourism (Chichester, England, 1996).

المكتشف، والرحالة، والسائح

"إنك تنظر إلى ظهر رجل من أبناء البلاد، معمم، يرتدى قفطاناً طويلاً أزرق اللون، ويتمنطق بحزام أحمر، وقدماه البنيتان مكشوفتان، فتقول "يا له من شرقى نموذجى !" وعندما يستدير نحوك، وتقرأ عبارة "حمال كوك"، يقول لك "إنك تسافر مع كوك يا سيدى"، ويسألك "كله تمام" ... ويكون كل شئ على ما يرام ... إن مندوب كوك هو أول من تلقاه فى مصر، فهو يستقبلك، ويصحبك فى رحلتك، ويودعك عند السفر ... ".

نقلاً عن ستيفنز كما وردت بكتاب جون باندى "قصة توماس كوك".

لقد بدأ استخدام البواخر والقطارات فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر، فبدأت بذلك ثورة فى دنيا السفر، أخرجت مصر والشام وغيرها من بلاد العالم خارج أوروبا من عالم المستكشفين والرحالة المغامرين إلى عالم السياح العاديين.

ففى مطلع القرن الثامن عشر، إعترف الدكتور صامويل جونسون أن "من لم يزر إيطاليا يشعر بعقدة نقص تجاه الآخرين، لأنه لم ير ما يجب على الإنسان أن يراه"[146]. وفى القرن التالى فعل توماس كوك وولده جون ما لم يفعله غيرهما، فأضافا الأهرام إلى قائمة "ما يجب على الإنسان أن يراه". وقد أثار امتعاض النخبة الأرستقراطية أن توماس كوك وولده وسعوا من دائرة السياح لتشمل من جاءوا من الدرجات الدنيا من السلم الاجتماعى بأعداد ملحوظة.

ويذهب جيمس بوزارد إلى أن السياحة الحديثة وما حققته من دفعة، تعود إلى مجال واحد برز فى شمال أوروبا والولايات المتحدة مع الثورة الصناعية والديموقراطية، وركز الرحالة على البلاد المتخلفة ليميزوا أنفسهم عن السياح حتى يكونوا أكثر حساسية ومتعة وإقتناعاً. وهذا التمييز بين الرحالة والسائح يعود إلى افتراض وجود تمييز طبقى

---

146 كما صدرت فى
James Buzard, The Beaten Track : European Tourism, Literature and the Ways to Culture 1880 – 1918 (Oxford 1933), 110.

وحساسية شديدة، وأحياناً تميز ثقافى. ويقول إيفلن فوج: "السائح هو الرفيق الآخر"، ويرد بول فوسل بقوله: "كلنا سياح الآن، ولا مفر من ذلك"[147].

وكانت القاهرة والإسكندرية بالنسبة للأوروبيين فى القرن الثامن عشر لا تدخل فى مجال المكتشفين، وإنما تدخل فى اهتمام الرحالة المغامرين. وهناك الكثير من الروايات عن الإسكندرية والقاهرة والأهرام. وفى أعقاب الحملة الفرنسية وتكوين محمد على لحكومة مركزية قوية إنضم الصعيد حتى أسوان إلى جدول الرحالة، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح على جدول السياح العاديين.

أما جون لويس بوركهارت الذى اكتشف (من وجهة نظر الغرب) بترا – المدينة النبطية– فقد مد نشاطه جنوب أسوان، وقام باكتشاف النوبة حتى قرب الشلال الثالث – أى ما يمثل اليوم الحدود المصرية السودانية– مما جعلها فى متناول الرحالة. وقد اشتمل دليل ريفو السياحى الرائد والخاص بمصر عام 1830 على النوبة السفلى[148]، ووادى حلفا قرب مسقط الشلال الثانى، الذى ما لبث أن أصبح "الخط الذى يقف عنده الرحالة الذين ينشدون استكشاف المناطق الصعبة والخطرة"[149].

الباخرة والقطار وزمن الرحلة

ظهر مصطلح "السائح" فى الإنجليزية لأول مرة عام 1780، وما لبث مصطلح "السياحة " أن ظهر عام 1811، فقد حبست الحروب النابليونيين البريطانيين فى جزرهم، واستفاد مغامر كاللورد بيرون من قوة البحرية البريطانية ليستبدل بالجولة التقليدية فى فرنسا وإيطاليا الرحلة إلى اليونان والبلقان[150]. ووجد مصطلح "سائح" طريقه إلى الفرنسية عام 1816، فى الوقت الذى كانت فيه موجة من السياح البريطانيين تجتاح أوروبا بعد الحرب

---

147 كما ورد فى جيمس بوزار سالف الذكر، 1، 133.

148 Jean Leclant, "Le Voyage en Nubie (1813 – 1913) in D'un Orient L'autre, 2 vols. (Paris 1991), 1 : 405 – 13.

149 Adolphe Jounne and Emile Isambert, Itineraire descriptif, historique et archaeologique de l'Orient (Paris 1861), 1094.

150 Oxford English Dictionary, 2nd. Ed. (1989); Helen Angelomatis – Tsougarakis, The Eve of Greek Revival : British Travelers erceptions of Early Nineteenth, Century Greece (London 1990).

النابليونية، وانضمت كلمة "سياحة" إلى الفرنسية عام 1841، وهو العام الذى شهد أول رحلة نظمها توماس كوك فى وسط إنجلترا.

ونظم أول خط بحرى لنقل الركاب بالبواخر بين دوفر وكاليه عام 1821، وفى نهر الراين عام 1828، وفى نهرى الرون والدانوب فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر[151]، وهو نفس العقد الذى شهد إقبالاً على مد الخطوط الحديدية فى غرب أوروبا والولايات المتحدة، كما شهد ظهور "جدول مواعيد القطارات"، وكتب الدليل السياحى واستخدام البرق الكهربى (التلغراف). وأدى التوسع التدريجى لمجموعات السياح من الطبقة الوسطى إلى تحويل ما كان قاصراً على النخبة إلى حركة سياحية جماهيرية، "وحيثما كانت الباخرة ترسو على الشاطئ، تراجع الرحالة المغامرون إلى الداخل، وأخذ الخيال الرومانسى فى التلاشى .. ولكنه ثمن بخس لنشر الحضارة" على حد قول ثاكيراى[152].

لقد احتاج هنرى سولت إلى قضاء ستة شهور فى الطريق – فى 1802 – 1803– حتى يصل إلى كلكتا قادماً من لندن عن طريق رأس الرجاء الصالح، ولذلك ليس غريباً أن تحاول شركة الهند الشرقية البريطانية أن تقيم خطاً برياً لنقل الركاب والبريد عبر مصر، لتختصر 41% من طريق كلكتا – لندن عن طريق رأس الرجاء الصالح الذى يصل إلى 10700 ميل. وحتى فى البحر المتوسط، إستغرقت رحلة الطهطاوى من الإسكندرية إلى مرسيليا عام 1825 شهراً بالسفينة الشراعية، قضى بعدها 18 يوماً أخرى فى الحجر الصحى. وأدى سوء الأحوال الجوية إلى إطالة زمن الرحلة البحرية التى حملت ويلكنسون من مالطا إلى الإسكندرية عام 1833 إلى ما يزيد على الشهر[153].

وقد غيرت البواخر ذلك تماماً، ففى عام 1837، حصلت شركة "بننسولار آند أورينتال P & O" على عقد لنقل البريد إلى الهند عن طريق جبل طارق ومالطا والإسكندرية، وفى عام 1842 حصلت على مرسوم ملكى يرخص لها بحمل البريد الحكومى إلى الهند على خط البواخر الذى مدته الشركة بين السويس وبومباى. وفى العام 1843 وصلت بواخر

---

[151] Grand Larousse de la langue Francaise (Paris 1971 – 1987), 7 : 6142.
[152] Patrick Brantlinger, Rule of Darkness : British Literature and Imperialism, 1830 – 1914 (Ithaca, N. Y., 1988), 138.
[153] Daniel R. Headrick, The Tentacles or Progress : Technology Trans fer in The Age of Imperialism 1850 – 1940 (London 1988), 26.

الشركة القادمة بين ساوث هامبتون إلى الإسكندرية فى رحلة استغرقت خمسة عشر يوماً. وأدى استخدام طريق أقصر عبر فرنسا ومنها ببواخر شركة "مساجيرى ماريتم" من مرسيليا إلى الإسكندرية، أدى إلى اختصار زمن الرحلة ما بين ثلاثة وأربعة أيام[154].

ونظم ثوماس واجهورن وصلة برية من الإسكندرية إلى السويس فى خمسة أيام، جعلت بالإمكان الوصول من لندن إلى بومباى فى 41 أو 42 يوماً. وقفز عدد المسافرين عبر مصر من 275 مسافراً عام 1844 إلى ثلاثة آلاف مسافر عام 1847.

وما كان غريباً على نابليون، طلبه ثاكيراى من فندقه بالقاهرة: "بالمقارنة بواجهورن، ذبح نابليون المماليك عند الأهرامات، ولكن واجهورن هزم الأهرام ذاتها، وقربها من إنجلترا شهراً، وجلب الإنجليز إليها ... يروح واجهورن جيئة وذهاباً فى الفناء مشغولاً بعمله، لقد غادر بومباى صباح الأمس، وشوهد فى البحر الأحمر يوم الثلاثاء، ويتناول العشاء مساء اليوم فى ريجنت بارك (بعد دقيقتين من رؤيتى به بالفناء) ولا شك أنه الآن فى مالطا أو الإسكندرية، وربما كان فيهما معاً"[155].

وقد أقيم نصب تذكارى تخليداً لهذه السرعة فى مدينة السويس فيما بعد[156].

وفى عام 1834، إقترح البريطانيون إقامة خط حديدى يربط القاهرة بالسويس لتسهيل النقل البرى، ولكن محمد على رفض الإقتراح، وجاء نجله عباس الأول (1848 – 1854) فمنح جورج ستيفنسون، إبن رائد السكك الحديدية روبرت ستيفنسون، إمتياز مد الخط الحديدى من الإسكندرية إلى القاهرة، ثم امتد الخط إلى السويس عام 1858. وبحلول عام 1873، كانت القطارات السريعة تقطع المسافة بين القاهرة والإسكندرية فى أربعة ساعات ونصف بعد أن كانت الرحلة تستغرق أربعة أيام[157]. وأقيمت شبكة أخرى من الخطوط لا

---

154 Headrick, Tentacles, 39 – 41; Wilk. 1843, 2 : 473 – 76.

155 W. M. Thackeray, The Paris Sketchbook of Mr. M. A. Titmarsh : The Irish Sketchbook and Notes of a Journey From Cornhill to Grand Cairo (New York, n. d.), 719, 720.

156 E. A. W. Budge, Cook's, Handbook For Egypt and the Sudan, 2nd. Ed. (London 1906, 411 – 12).

157 John Murray, A Hand – Book For Travellers in Egypt (London 1858) 112 – 13; Murray, A Handbook For Travellers (London 1873), 111.

صلة لها بالطريق إلى الهند، ولكنها اتصلت بنقل القطن إلى ميناء التصدير، غطت الدلتا وبعض مناطق الصعيد. وصحب البرق الكهربى بناء السكك الحديدية[158].

وكان فردينان ديلسبس صديقاً لسعيد فى صباه، وعندما تولى الأخير الحكم منحه امتياز حفر قناة السويس، وتغلب ديلسبس على الإعتراضات البريطانية والعثمانية، وبدأ الحفر عام 1859. وجاء افتتاح القناة بعد ذلك بعشر سنوات ليضع مصر فى نقطة إلتقاء التجارة الأسيوية – الأوروبية. وفقد بذلك الخط الحديدى أهميته، وبدأت تظهر كتب الدليل السياحى خاصة بمصر وحدها بعد أن كانت تشركها مع الهند فى رحلة سياحية واحدة[159].

وقد وضع دليل ويلكنسون السياحى عام 1847 إطار رحلة مداها ثلاثة شهور لزيارة مصر، فالرحلة من القاهرة إلى الأقصر بالمراكب النيلية كانت تستغرق عشرين يوماً فى المتوسط ذهاباً وإياباً، يضاف إليها 14 يوماً لزيارة الشلال الثانى. وكانت تلك الرحلة التى تمتد إلى ثلاثة شهور تكلف الفرد 80 جنيهاً إسترلينياً أو 120 جنيهاً لشخصين. وفى عام 1880، كان باستطاعة السائح أن يقوم بنفس الرحلة من لندن إلى الشلال الثانى والعودة فى ستة أسابيع، رغم أن دليل موراى السياحى أوصى السائح بقضاء ما بين شهرين ونصف الشهر وخمسة شهور، لتغطية كل ما يمكن رؤيته بمصر[160].

المال، والمتعة، والطبقة الاجتماعية

كانت الجولة السياحية الكبرى تربط بين أرستقراطية القرن الثامن عشر فى بريطانيا – الذين عاشوا فى وهم العصر الأوغسطى– والذين اشتركوا فى المغامرة على الطريقة الفرنسية، وحب الفن الإيطالى والآثار الرومانية[161]. وعلى مر القرن التاسع عشر إنضم إلى الطبقة الأرستقراطية فى الإقبال على السياحة قطاع متزايد من أبناء الطبقة الوسطى الذين جنوا ثمار الثورة الصناعية، وأقبلوا على السياحة من أجل المتعة أو الثقافة. وخرج توماس كوك، رسول سياحة عصر الصناعة الذى ظهر من المنجم والمصنع وبلاد السكك

---

158 Wiener, Egypt, 64 – 76; Daniel R. Headrick, The Invisible Weapon : Telecommunications and International Politics 1851 – 1945 (New York 1991) 1 – 115.

159 المعلومات الواردة هنا عن كتب الدليل السياحى الخاصة مأخوذة من كتاب:
Oleg V. Volkoff, Comment on visitait du Nil : Les Guid de l'Egyte, (Cairo IFAO, 1967).

160 Wilk. 1847, 2; Murr. 1858; 2; John Murray, A Hand – book For Travellers in Lower and Uper Egypt, 2 Vols, (London 1880) 1 : vix.

161 Buzard, Beaten Track, 121.

الحديدية، وسط إنجلترا، وعمل كوك جاهداً ليسحب متعة السياحة لتغطى الدرجات الأدنى من السلم الاجتماعى. وانضم إلى البريطانيين فى الجولات السياحية الأوروبية، الأمريكيون من رجال الدين والكتاب والفنانين، فقد وجد الأمريكيون فى السياحة متعة استهلاكية الطابع. فالدراسة أو الكتابة أو الرسم فيها علاج لمخاوف البيوريتان من خشية الميل إلى إشباع الشهوات[162].

وقد صنعت شركة بواخر P & O أسعار السفر على خطوطها حسب النوع، والطبقة الاجتماعية، والتمايز العرقى / الوطنى. وفى عام 1847، كانت أجرة السفر من إنجلترا إلى عدن 77 جنيهاً إسترلينياً للرجل الأرستقراطى، و82 جنيهاً للسيدة، و37 جنيهاً للخادمة الأوروبية، و35 جنيهاً للخادم الأوروبى، و30 جنيهاً للخادمة من أهالى المستعمرات، 26 جنيهاً للخادم من أبناء المستعمرات. ويبدو أن المقصورات الخاصة بالنساء كانت أغلى ثمناً، أنيقة، أو لعلها كانت أفخم من مقصورات الرجال. وحتى بين الخدم روعى التمييز بين الأوروبيين وغيرهم، ليبقى كل فى موقعه. وبحلول عام 1858 كانت أجرة السفر بالدرجة الثانية من ساوثهامبتون إلى الإسكندرية، والتى استخدمها هواة الاقتصاد فى النفقة، كانت تزيد قليلاً عن أجرة سفر الخدم. وفى عام 1880 وحدت أجور السفر بالدرجة الثانية وأجور سفر الخدم، وفى عام 1895، توقف دليل بايدكر السياحى عن ذكر أجرة سفر الخدم[163]. كذلك اختفى التمييز فى أجور السفر على أساس النوع.

وقام توماس كوك بتنظيم رحلات لمحدودى الدخل وأبناء الطبقة العاملة إلى "معرض لندن الكبير" عام 1851، وذلك للتغلب على خشية زبائنه من أبناء الطبقة الأولى من الإختلاط بالسوقة. وبعد صدور قانون الإصلاح فى 1867، ذلك القانون الذى وسع من دائرة من لهم حق الإنتخاب من الرجال، نظم كوك رحلة سياحية إلى مصر لأول فوج من أبناء الطبقة الوسطى، ولكن كوك لم يستطع أن يجعل أسعار السفر عبر البحار فى متناول

---

[162] William W. Stowe, Going Abroad : European Travel in Nineteenth – Century American Culture, (Princeton 1994), 7.

[163] Wilk, 1847 : xvi; Murr. 1858 ix – x; Murr 1880, 1 : xv, Karl Baedeker, Egypt : Hand – book For Travellers, 6th ed., (Leipzig 1895, 1 – 2).

الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى، وأبناء الطبقة الدنيا إلا من سافروا منهم كخدم أو جنود أو بحارة[164].

مولد كتاب الدليل السياحى الحديث – موراى، بايدكر، جوان

مع إزدياد سرعة، وانضباط، ورخص أسعار وسائل السفر، قام ثلاثة من المنظمين بتبنى نصيحة عملية لتلخيص ما يمكن مشاهدته فى الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر، مما أدى إلى اختراع كتاب الدليل السياحى. فقد ورث كل من جون موراى الثالث (1808 – 1892) وكارل بايدكر (1801 – 1859) دور طباعة وتوزيع كتب، بينما بدأ أدولف جوان (1813 – 1881) حياته العملية محامياً وصحفياً. وكان مجال السياحة الذى يحيطه الشك يفت فى عضد المؤلفين، ويجعلهم يترددون فى تقديم كتب تشرح جغرافية وطبيعة البلاد التى تتجه إليها السياحة، والمعلومات الخاصة بها، لحث القراء على الإقدام على مغامرة السفر. وكانت بعض نشرات الرحلات السياحية تعكس خبرات كتابها، بينما كان بعضها الآخر يقدم معلومات عن المناخ والطرق، والنباتات، أو الشعوب، واللغات ، والطعام والعمارة، والآثار[165].

وعلى نقيض النشرات السياحية، يخضع مؤلف كتاب الدليل السياحى لمطالب المحرر . ولما كان قراء تلك الكتب هم من يعتزمون السفر سائحين، فإنهم يحتاجون إلى معلومات دقيقة عن الأسعار، وقيمة صرف العملة، والطرق ووسائل المواصلات، وأماكن الإقامة، وألوان الطعام، والحالة الصحية، وبعض النصائح المهمة، وما يمكن شراؤه من أشياء تذكارية. وقد رتبت كتب الدليل السياحى المواقع حسب أهميتها، وقدمت حقائق موضوعية صحيحة. وخرجت تلك الكتب صغيرة الحجم، يسهل حملها فى اليد (hand book) أو فى الجيب (livre de Poche)، وكتبت ليستعين بها السائح مباشرة فى المواقع التى يقوم بزيارتها.

---

[164] John Pemble, The Mediterranean Passion : Victorians and Edwardians in the South, (Oxford 1987), v.

[165] فيما جاء بهذه الفقرة والتالية لها، انظر:

Ali Behdad, Belated Travellers : Orientalism in the Age of Colonial Dissolution (Durham, N. C., 1994), 39 – 47.

وكما يتضح من الجدول رقم 6 (انظر الملاحق)، ظهرت كتب الدليل السياحى الأولى الخاصة بمصر فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر، كان أولها عام 1830، وثانيها فى 1835، وظهرت خمس طبعات أخرى من تلك الكتب فى الأربعينات، وست طبعات فى الخمسينات. ولم يطبع سوى كتاب واحد عام 1882 وهو العام الذى شهد الإضطرابات التى صحبت الثورة العرابية والإحتلال البريطانى، وكان ذلك الكتاب من مطبوعات وزارة الحربية البريطانية، ومن الطريف أنه كان بالفرنسية وليس الإنجليزية. وطبعت أربع كتب فقط فيما بقى من عقد الثمانينات مما يعكس حالة القلق بالنسبة لاستمرار الوجود الإحتلالى فى مصر وإندلاع الثورة المهدية بالسودان، ولكن نهاية العصر الفيكتورى وخلال العصر الذهبى الإدواردى ظهرت 82 طبعة من كتب الدليل السياحى الخاصة بمصر فيما بين 1890 – 1914.

وكان ريفو (1786 – 1852) أول من أدلى فى هذا المجال بكتابه الذى حمل عنوان "جدول مصر والنوبة وملحقاتها" (نشر فى باريس 1830). ولد ريفو فى مارسيليا، ودرس النحت، وخدم بجيش نابليون بإسبانيا قبل قدومه إلى مصر عام 1812 ليقضى فيها أربعة عشر عاماً كمساعد لدروفتى فى جمع الآثار. ولما كان ريفو ذا قدرات علمية وأدبية، فقد قاد كتابه السياح من الإسكندرية إلى القاهرة إلى الأهرام فيما بين الجيزة والفيوم ، وصعوداً مع النيل إلى طيبة وأسوان والشلال الثانى. وتضمن رحلات إختيارية جانبية إلى الدلتا والبحر الأحمر وسيناء. وخصص فصولاً من الكتاب لجغرافية البلاد، وسكانها، وعاداتهم[166]. وإحتوت ملاحق الكتاب على 41 صفحة من كلمات عربية باللهجة الصعيدية، وسبع صفحات لكلمات نوبية. لقد كان كتاب ريفو أول محاولة فى مجال لم توضع بعد أصوله، ولذلك إفتقر إلى الخرائط، واكتفى بإعطاء معلومات سطحية عن الآثار، ولم يشر إلى حل شامبليون للرموز الهيروغليفية، وأسرف فى ذكر مواقع لا تهم السائح من قريب أو بعيد.

واستجاب جاردنر ويلكنسون للتحدى الفرنسى بدليله السياحى الأكثر علمية، والذى نشر عام 1835 بعنوان "طبوغرافية طيبة، ونظرة عامة إلى مصر"، وقام ويلكنسون بتوقيع

[166] On Rifaud, see Who Was Who 3 : 358.

مقدمة الكتاب فى طيبة عام 1831، ولا ندرى كيف تلقى قراء الكتاب ممن يعتزمون زيارة مصر، إعتذار المؤلف عن تأخر الكتاب فى الصدور بسبب تفشى الكوليرا، ووفاة الناشر الذى اعتزم نشر الكتاب، مما أدى إلى تأخر الطبع حتى 1835.

وكان تأخير طبع الكتاب خيراً، فقد تمكن ويلكنسون أن يجد ناشراً مناسباً هو جون مورای. كان جون مورای الثانى لازال مسئولاً عن دار النشر، ولكن جون مورای الثالث (1808 – 1892) كان مشغولاً بتطوير كتب مورای الشهيرة للدليل السياحى. فقد أحس أن الإنجليز الذين تدفقوا على أوروبا زائرين بعد موقعة وترلو فى حاجة إلى دليل جيد مناسب، فألف مورای الصغير كتاب "دليل المسافرين إلى هولندا وبلجيكا وبروسيا وشمال ألمانيا وعلى الراين من هولندا إلى سويسرا" (1836)، وقد أدخل هذا الكتاب المصطلح الألمانى "Handbuch" إلى الإنجليزية. وقد أحرزت دار مورای شهرة عن طريق كتب الدليل وليس عن طريق الكتب الأخرى[167]. وما لبثت الدار أن أصدرت كتباً أخرى لإرشاد السياح. وكان ويلكنسون أحد ثلاثة من أعضاء "الجمعية الجغرافية الملكية" الذين كلفهم مورای بتأليف سلسلة من تلك الكتب.

كان كتاب ويلكنسون "طبوغرافية طيبة ونظرة عامة إلى مصر" سابقاً على أول كتاب نشر فى سلسلة مورای للدليل السياحى الأوروبى. وتضمن كتاب ويلكنسون مائتى صفة عن تاريخ طيبة القديمة منها 60 صفحة عن "عادات وتقاليد قدماء المصريين" و25 صفحة عن "الإنتاج فى مصر الحديثة" وهنا فقط قفز ويلكنسون إلى الإسكندرية نقطة الدخول الوحيدة إلى مصر للقادم من أوروبا، ووصف الطريق على النيل صعوداً إلى أسوان ، متجاوزاً طيبة التى عالجها بإسهاب من قبل. وكان نصيب الإسكندرية خمس صفحات ، والقاهرة ثمانى عشرة صفحة، وأهرام الجيزة 12 صفحة.

وتضمنت الطبعة الأولى من كتاب ويلكنسون الملامح التى أصبحت أساسية فى كل كتاب دليل سياحى بمصر: مفردات إنجليزية – عربية، قسم عن الهيروغليفية، قائمة بخراطيش

---

[167] Oxford English Dictionary, 2nd ed. (1989); Johann Gottfried Ebel, Introduction pour un voyageur qui sepropose de parcourir la Suisse, 2 vols., (Basel 1975); On the Murray's guidebooks, see W. B. C. Lister, A Bibliography of Murray's Hand books for Travellers (Dereham, England 1993).

الفراعنة، وجدول زمنى لحكام مصر حتى الغزو العثمانى، أضيف إليها فى الطبعة الثانية الولاة العثمانيون وأسرة محمد على إلى زمن صدور الطبعة.

ورغم أن الطبعة الثانية من كتاب ويلكنسون (1843) لم تكن قد أدرجت ضمن سلسلة موراى للدليل السياحى فقد كانت قريبة الشبه بها من حيث الإخراج، وأصبح العنوان "مصر الحديثة وطيبة" ويبدأ الرحلة بالإسكندرية (85 صفحة) والقاهرة (185 صفحة)، وجاءت طبعة 1847 من الكتاب ضمن سلسلة موراى، وحملت عنوان "كتاب الدليل للمسافرين إلى مصر"، وفى الطبعة الثالثة من الكتاب فى سلسلة موراى (1867) حل إسم موراى محل ويلكنسون، وحملت الطبعة الرابعة إسمهما معاً. وفى 1851 ظهر دليل موراى للسياحة فى سوريا وفلسطين. وتحدث توماس كوك عن الحجاج إلى الأراضى المقدسة الذين كانوا "يحملون الإنجيل فى يد، ودليل موراى فى اليد الأخرى"[168].

وفى فرنسا، صدر أول دليل سياحى لجوان عن منطقة الألب (1841)، وتبع موراى فى تناول خط سير الرحلة[169]، وتبع ذلك صدور دليل جوان لمناطق أخرى من فرنسا، وفى الخمسينات أصدر جوان دليل سياحى لإنجلترا بالفرنسية وكذلك لألمانيا وإسبانيا. وأعقب ذلك إصداره لدليل "الشرق" بما فيه مصر (1861)[170]، وجاء بعده دليل اليونان 1888 – 1891.

وكما فعل سميث فى إنجلترا، أوجد الناشر الفرنسى جوان ولوى هاشيت سوقاً لكتب الدليل السياحى بإقامة أركان لبيعها فى محطات السكك الحديدية، وميز لون الغلاف الأحمر كتب دليل موراى وبايدكر، وحملت كتب جوان اللون الذى جعلها تعرف فيما بعد "بالدليل الأزرق".

وتناول دليل جوان للشرق (1861) مصر وسيناء، ومالطا، واليونان، وتركيا الأوروبية، وتركيا الإسلامية، وسوريا، وفلسطين، و"بترا العربية". وكان نصيب مصر مائتى صفحة من بين 1100 صفحة ضمها الكتاب. وبعد مقالات إفتتاحية، تبع جوان الطريق من

---

[168] مقتبس من: Piers Brendon, Thomas Cook : 150 Years of Popular Tourism (London 1991), 120.

[169] Mordmann, "Guides", 529 – 67.

[170] Joan. 1861.

الإسكندرية إلى القاهرة ثم صعوداً بالنيل حتى الشلال الثانى متناولاً رحلات جانبية على طول الطريق. ولما كان الكتاب موجهاً للقارئ الفرنسى فقد خصص صفحة لكل من معركة أبى قير والأهرام، وحدد موقع البيت الذى أقام فيه بونابرت بالأزبكية، والموقع الذى أغتيل فيه كليبر، وقدم شرحاً مطولاً للإكتشافات الأثرية التى قام بها ماريت فى السرابيوم[171].

وفى ألمانيا، أسس كارل بايدكر داراً للنشر عام 1827 فى كوبلنز على نهر الراين، وهى محطة على طريق خط بواخر كولن – مينز النهرى الذى إفتتح فى تلك السنة[172]. وتأثراً بموراى، أصدر بايدكر كتاب الدليل الأول عن ألمانيا والنمسا عام 1842، وأصدر أول دليل بايدكر عن مصر بالألمانية فى 1877، وبالإنجليزية فى 1878.

ولما كان كوك يعمل فى مجال السياحة وليس النشر، باع لعملائه – فى بداية الأمر – دليل هنرى جيز (منافس موراى الذى لم يعمر طويلاً). وفى 1876 أصدرت الشركة "دليل كوك السياحى لمصر والنيل والصحراء". وبعد ذلك بعشر سنوات تبنى كوك دليلاً أعده عالم المصريات بالمتحف البريطانى إرنست بادج[173] الذى بلغت عدد طبعاته 12 طبعة بحلول عام 1912.

وبينما عكس دليل ريفو ذروة سيطرة القناصل، وغلب عليه طابع العمل البدائى، جاء كتاب دليل ويلكنسون نتاجاً لعمل خبير بالمصريات. وسار بقية علماء المصريات على نهج ويلكنسون، فقد أعد ماريت دليلاً لزوار احتفالات إفتتاح قناة السويس، وكتب بادج دليلاً لكوك. وفى عصر انتصار العلم تضمن دليل بايدكر فصولاً كتبها كبار المتخصصين مثل عالم التاريخ الطبيعى جورج شيفا ينفورت، والكابتن ليونز من مصلحة المساحة المصرية، وخبير العمارة الإسلامية يوليوس فرانز، والمستشرق كارل بيكر، وعلماء المصريات صامويل بيرش، وجورج ايبرز، وجورج شتايندورف.

---

171 Joan 1861 : 968 – 60, 922 – 93, 1005 – 8.
172 Baedeckar's Egypt, 8th ed. (London 1929; reprint 1985).
173 Edmund Swinglehurst, Cook's Tours : The Story of Popular Travel (Poole, Dorset, England 1982), 45.

وإذا أخذنا فى الإعتبار أن أوروبا كانت فى قمة الهيمنة والقوة، وتقدم المعرفة، فلن يدهشنا عدم وجود دليل سياحى عربى لأوروبا فى القرن التاسع عشر. كانت هناك رحلات مثل رحلة الطهطاوى التى قدم فيها المجتمع الفرنسى وعاداته، ولكن لم يكن هناك كتاب دليل سياحى، ليس لأوروبا فحسب، بل ولمصر ذاتها. وقد استقى مرقص سميكة – مؤسس المتحف القبطى– معلوماته عن الآثار المصرية من دليل موراى، ودليل بايدكر، ولفتت رحلة لتوماس كوك إلى صعيد مصر شارك فيها سلامة موسى، لفتت إنتباهه إلى التاريخ الفرعونى لبلاده[174].

فنادق القاهرة والإسكندرية

كان زوار مصر من الأوروبيين – حتى ثلاثينات القرن التاسع عشر– يضطرون للإقامة فى منزل أو فندق متواضع، إذا عجزوا عن العثور على مكان للإقامة ببيت قنصل بلادهم أو أحد التجار المقيمين بمصر من أبناء بلادهم. وبعد ذلك العقد من الزمان قامت فنادق يديرها الأوروبيون، لتقدم الإقامة المريحة الملائمة لنزلائها. وكان البريطانيون الذين يصلون إلى الإسكندرية – فى 1843– يقيمون بفندق "أوروبا" (الذى إمتلكه هيل ثم انتقلت ملكيته إلى راى) مقابل أربعين قرشاً فى اليوم. وتولى الفرنسيون إدارة "فندق الشرق " الذى إمتلكه كولومب. وكان "فندق أوروبا" لا يزال الإختيار الأول للسائح فى دليل موراى عام 1880، يليه "فندق أبات"[175].

وفى القاهرة عام 1830، وجه ريفو السياح إلى الحى الفرنجى إلى جوار شارع الموسكى، حيث كان هناك بيت ضيافة لرجال الدين الكاثوليك، يستقبل الزوار للإقامة مقابل ما يتراوح بين سبعة وثمانية قروش فى اليوم. وكان هناك خان أوروبى صغير بالقرب منه يحصل من السائح على 12 قرشاً فى اليوم. وفى العام 1843 حل "فندق الشرق" المتسع الأرجاء بالأزبكية محل فندق هيل بالحى الفرنجى، واستخدمه المسافرون بالطريق البرى

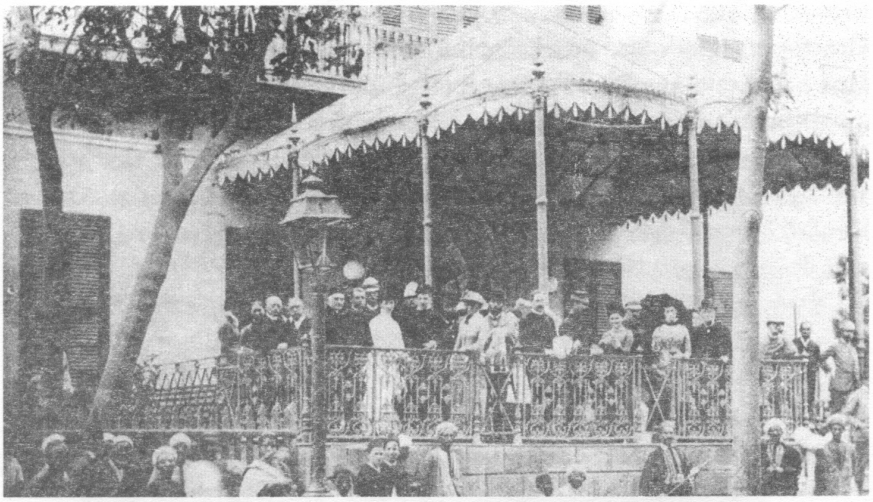
---

[174] Marcus Simaika, "Excerpts From Memories of Marcus H. Samaika, C. B. E., F. S. A. (1864 – 1944).

مخطوط طرف د. سمير سميكة؛ سلامة موسى : تربية سلامة موسى.

[175] Wilk. 1843, 1 : 101; Murr 1880, 1 : 115 – 116.

من الهند وإليها مقابل خمسين قرشاً للإقامة الكاملة فى اليوم الواحد. وفى عام 1846 تحول إسم الفندق إلى "شبرد" ليحمل إسم رجل الأعمال البريطانى الذى امتلكه[176].



الشكل رقم (١٦) سياح بشرفة فندق شيبرد بالقاهرة

وإختار الفرنسيون والطليان الإقامة "بفندق جياردينو" – الذى كان يملكه دوميرج – بالحى الفرنجى مقابل ثلاثين قرشاً فى اليوم[177]. وقد أشاد دليل موراى فى 1858 وفى 1880 بفنادق شبرد، وويليامز، والشرق، وكانت تقع جميعاً بالأزبكية (انظر الشكل 16). وتقاطر البريطانيون والأمريكيون على "فندق شبرد"، بينما فضل الفرنسيون "فندق الشرق". وبعد توسع فندق شبرد ليضم 350 غرفة، كان لايزال يحتل قمة قائمة الفنادق عام 1908 فى دليل بايدكر. أما أولئك الذين لم يكن يلائمهم وسط حى الأزبكية، فقد فضلوا فندق "الجزيرة بالاس" الذى يقع بجزيرة بالنيل، أو فندق "مينا هاوس" بالأهرام الذى ظهر بالدليل لأول مرة عام 1889، وتضمنت قائمة الفنادق بدليل بايدكر عام 1908 "فندق سميراميس" الذى ضم ثلاثمائة غرفة ويقع على النيل بالقرب من دار المعتمد البريطانى[178].

الفرامانات والزى، الأعلام والأسلحة النارية

وتسجل كتب الدليل السياحى التغيرات الأساسية فيما بين العشرينات والخمسينات فيما يتعلق بالفرامانات، والزى، والأعلام والأسلحة النارية بالنسبة للسياح الغربيين. ففى عام

---

176 Jean – Jacques Rifaud, Tableau de l'Egypte, 61 – 62; Michael Byrd, Samuel Shepheard of Cairo : A Portrait (London 1957).

177 Rifaud, Tableau, 61 – 62, Wilk. 1843, 1, 202 – 4.

178 Murr. 1858, 114 – 15; Joan. 1861, 958; Murr. 1880, 1 : 157 – 58; Karl Baedecker, Egypt : Handbook for Travellers, 6th. Ed. (Leipzig 1908).

1830 نصح ريفو قراءه بأن يقوم كل منهم بزيارة قنصل بلاده عند وصوله إلى مصر، حتى يرتب له القنصل مقابلة مع محمد على باشا ليعطيه فرماناً يرخص له بالتجول فى البلاد وربما التنقيب عن الآثار: وفى عام 1847 توقف تقليد مقابلة الباشا للحصول على فرمان. وبعد ذلك بوقت طويل، ذكر بايدكر عام 1908، "لا تعد جوازات السفر ضرورية ويكفى المرء أن يقدم بطاقة الزيارة التى تحمل إسمه ليتمكن – عملياً– من إنجاز أعماله فى داخل البلاد"[179]. ولكن الحرب العالمية الأولى ما لبثت أن وضعت نهاية لذلك.

وحتى العقد الأول من القرن التاسع عشر، جرت العادة على أن يرتدى الأوروبيون الزى المحلى حتى لا يثيرون إنتباهاً إليهم غير مطلوب، وربما الشكوك والعداء. وقبل ذلك كان "الفرنجة" يغامرون بالخروج إلى الشوارع بزيهم الغربى فى الإسكندرية وحدها. وكان إرتداء زى الأتراك يبرز إختلاف الزوار الأوروبيين عن المصريين، ويبرر عدم استخدامهم العربية التى لا يتخذها الترك لغة للحديث. وقد ارتدى كل من بوركهارت وبلزونى، ولين، وويلكنسون، وشامبليون، وروسيللينى، وبريس دافين، إرتدوا جميعاً العمامة والجلباب وأطلقوا لحاهم على طريقة الترك. واتخذ بعضهم لنفسه إسماً عربياً.

وفى العام 1830، نصح ريفو قراءه بإرتداء الزى المحلى، ولكن سولت إنتقد ويلكنسون – قبل ذلك بسنوات– لتوقعه تدخل القنصل لحماية من يرتدون زياً تركياً من الزوار الأوروبيين[180] وفى العام 1835 نصح ويلكنسون بإرتداء الزى المحلى فى القاهرة وواحات الصحراء الغربية، والبحر الأحمر، ولكنه ذكر عدم وجود ضرورة لذلك بالصعيد، وعلى الطريق البرى (القاهرة – السويس). وفى أواخر الثلاثينات، كان تمسك اللورد ليندساى بزيه الأوروبى دليلاً على تحسن وضع الأوروبيين: "لم يعد هناك وجود للشتائم التى كانت توجه للمسيحيين فى السابق ... فباستطاعة المسافرين التنقل بالزى الفرنجى بأمان تام. ترى ماذا كان باستطاعة ساندیز وليثجواى أن يقولا ؟ هل كان باستطاعتهما التنبؤ فى أيامهما، أنه فى العام 1836 يستطيع بريطانيان أن يسيرا معاً علناً

[179] RiFand, Tableau, 32 – 35; Wilk. 1847 : 8; Murr 1873, 8, Baedecker 1908, v.
[180] Rifoud, Tableau, 56 – 58; Thompson, Wilkinson, 1, 45 – 47.

فى القاهرة، يتقدمهما خادم محلى يفسح الطريق منادياً بكلمات لا تفرق بين الدواب والبشر ؟ "[181].

وفى عام 1847، أعلن ويلكنسون أن من يرتدى الزى المحلى ولا يتحدث العربية يصبح مثاراً للسخرية[182].

وفى العام 1835، أوصى ويلكنسون المسافر الأوروبى أن يرفع علم بلاده على (الدهبية) القارب الذى يبحر به فى النيل، حتى يتحاشى مضايقات قوارب الحراسة المسلحة . وتباهى منديس كوهين بأنه كان أول أمريكى يرفع العلم الأمريكى على صفحة النيل عام 1832. وشجعت القنصلية البريطانية مواطنيها على تسجيل الأعلام الشخصية المثلثة الشكل لكل منهم حتى يستطيع كل منهم التعرف على قارب صديقه دون مشقة[183].

وكان المسافر الأوروبى – فى أوائل حكم محمد على– يحمل السلاح ويستأجر فرداً أو إثنين من "الإنكشارية" لحراسته. وجاءت نصيحة ريفو – عام 1830– تجنب التجول فى مصر دون سلاح، فى غير موضعها، لأن محمد على كان قد أقر النظام فى ربوع البلاد حتى النوبة جنوباً. وفى العام 1843، لم يورد ويلكنسون ذكراً لضرورة حمل الأسلحة النارية دفاعاً عن النفس، أما الأمر بالنسبة لسوريا وفلسطين فكان مختلفاً، فأصر دليل موراى على ضرورة أن يحمل السائح الأوروبى السلاح، وأن يتخذ لنفسه مرافقاً من أبناء البلاد. وفى عام 1895 وصف بايدكر السفر إلى مصر بأنه آمن تماماً كما هو الحال فى أوروبا، ونصح السياح بعدم الحاجة إلى حمل السلاح إلا إذا كان السائح من هواة الصيد[184].

مخالطة أهل الشرق

وحفلت كتب الدليل السياحى بنصائح عامة ذات طابع عنصرى، حول ما أسماه بايدكر "مخالطة أهل الشرق". كان التراجمة يقدمون خدماتهم لزوار مصر منذ أيام هيرودوت الذى ذكرهم بإعتبارهم محرفين وجهلة. وفى عام 1835، استخدم ويلكنسون مصطلح

[181] Lord Lindsay, Letters on Egypt, Edom, and the Holy Land (London 1838) 1 : 44 – 45.
[182] Wilk. 1847, 7.
[183] I. G. Wilkinson, Topography of Thebes and General View of Egypt (London 1835).
[184] Rifand, Tableau, 88; Brebdon, Cook, 120; Baedecker 1895, x.

"الترجمان" للوسيط الذى يستخدم فى التفاهم مع النخبة الحاكمة التى تتحدث التركية، ورأى عدم وجود حاجة إليهم، ونصح السائح بأن يستأجر خادماً أوروبياً من مالطا أو خادماً مصرياً من حى الفرنجة بالقاهرة ممن يجيدون الحديث بالفرنسية والإيطالية . وبحلول عام 1873، لم يجد دليل موراى أن هناك ضرورة لاستخدام اللغة التركية وذكر أنه من الممكن – لقاء أجر معلوم– استئجار ترجمان يتحدث الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية لترتيب الرحلة إلى الصعيد، فيقوم الترجمان بدوره بتأجير المركب والخدم وجلب المؤن الضرورية للرحلة[185].

وكان بعض أولئك التراجمة من الجنود الفرنسيين أو الإنجليز السابقين الذين أسروا أو فروا من الخدمة أيام الحروب النابليونية. فقد التقى فرانسوا أوجست رينيه دى شاتوبريان "مماليك فرنسيين" فى خدمة محمد على، أحدهما كان يدعى إسماعيل رشوان (وإسمه الأصلى بيير جارى) الذى رافق الكونت دى فوربان فى جولته عام 1817. ومن أشهر البريطانيين من هؤلاء عثمان أفندى، وهو أسكتلندى، كان فى صباه طبالاً أو ممرضاً، وقع فى الأسر عندما قام البريطانيون بغزو مصر 1807 (حملة فريزر)، وتم استرقاقه وتحول إلى الإسلام، ونجح القنصل البريطانى سولت فى التدخل لإعتاقه، ولكنه رفض العودة إلى إسكتلندا. وقد عمل مساعداً لبوركهارت، ومترجماً وحارساً للقنصلية البريطانية، وتولى تأجير البيوت بالقاهرة، وأدى خدمات لرويرت هاى وغيره[186].

وحذر دليل موراى السياح من الجلبة التى ستواجههم عند زيارتهم لأهرام الجيزة:

"يشكو الزوار من حشود القرويين الذين يتجمعون حولهم مثل سحابة من الذباب ، يلحون عليهم فى قبول خدماتهم المزعجة، مما يسبب للزوار الضيق والإنزعاج . ومن واجب الترجمان الذى يرافق السائح أن يضع حداً لهذا باختيار عدد معقول من الأدلة، ولا يسمح لغيرهم بالإقتراب من السياح ... ولا يجب أن يعطى لهم شئ أثناء وجود السائح بالهرم، ويجب مقاومة أى مطالب لهم بحزم"[187].

---

[185] Baedecker 1908, xxviii – xxv, Wilk. 1835, 559; Murr. 1873, 119; Frances Karttunen, Between Worlds : Interpreters, Guides and Survivors (New Brunswick 1994).
[186] Jean – Joel Bregeon, I'Egypte Francaise au jour le jour 1798 – 1801 (Paris 1991).
[187] Murr. 1858, 160.



الشكل رقم (١٧) الحمارون والسياح الأجانب – رسم لرودولف هوبر يسجل مضايقة السياح (١٨٧٨)

وهناك رسم هزلى من السبعينات عن "الحمارين والسياح الأجانب" يعبر عن المفهوم الشائع بين الأوروبيين عن "مخالطة أهل الشرق " (انظر الشكل 17).

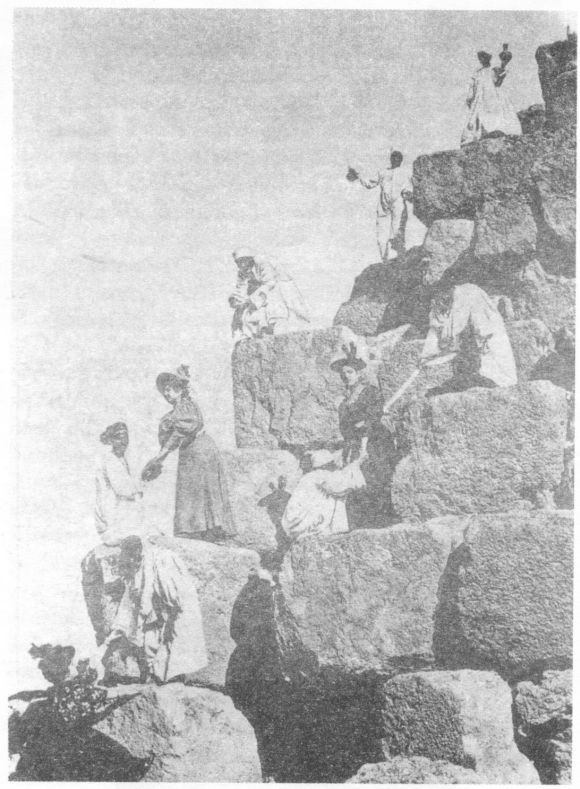
وقد عكست الصلات بين السياح وأهالى البلاد – غالباً– حدة التمايز النوعى، فتبين إحدى اللوحات سائحين – رجل وإمرأة– محمولين عبر مخاضة ماء كانت موجودة قبل رفع مستوى طريق أهرام الجيزة عام 1869 (انظر الشكل 18)، وهناك صورة فوتوغرافية نادرة تبين نساء العصر الفيكتورى وهن يسحبن من ظهورهن بحبال حول خواصرهن لصعود الهرم (انظر الشكل 19)، وسوف نتناول الرؤية الخيالية للمرأة الشرقية عند الرجل الغربى فيما بعد. فقد كان أبرز ما جاء برحلة جستاف فلابير، تلك الرحلة التى قضاها مع الراقصة كوجك هانم بإسنا، وليس زيارته للكرنك أو الأهرام[188].



الشكل رقم (١٨) رحلة إلى الهرم على النمط القديم

وحذر دليل بايدكر من إعطاء "البقشيش" دون مقابل، عندما راح يعدد الطباع الصبيانية لبعض "أبناء البلاد": "يعتبر الشرقى العادى السائح الأوروبى مغفلاً، بل – أحياناً– يعتبره مجنوناً، فالشرقى لا يقدر قيمة السياحة ومتعتها، فالسياح غالباً ما يدفعون

[188] Carre, Voyageurs, 2 : 108.



الشكل رقم (١٩) سائحات أمريكيات يتسلقن الهرم – لمصور مجهول

الكثير من أجل تحقيق متعة وقتية بثمن باهظ، ولا يدركون أن بذور الطمع التى لا نهاية لها قد بذرت، لتؤتى أكلها لمن يخلفهم، وتفسد من أخلاق المتلقين أنفسهم. لذلك لا يجب إعطاء البقشيش إلا فى مقابل خدمة ...

ويجب أن نتذكر دائماً أن المصريين يحتلون أكثر الدرجات دنواً فى سلم الحضارة مقارنة بمعظم أمم الغرب، ويعد الجشع أحد الأسباب الرئيسة لفشلهم، ولكن إذا وضع السائح عيوبهم فى إعتباره، وعاملهم بالكثير من الحزم، لوجد أنهم لا يفتقرون إلى الإخلاص والأمانة ورقة الحاشية"[189].

وفى العام 1830، حذر ريفو السائح من شراء الآثار المزيفة، واتهم فلاحى الصعيد ويهود القاهرة بترويجها، وبعد ذلك بخمس سنوات جاء بدليل ويلكنسون أن أسعار الآثار بقرية القرنة (مقابل الأقصر) قد تضاعفت بسبب تزايد عدد السياح الوافدين إلى مصر منذ العام 1816[190].

ومع تعاقب عقود القرن التاسع عشر، استنكرت كتب الدليل السياحى الرق، وطقس "الدوسة" حيث يمر الشيخ الصوفى بحصانه فوق أجساد مريديه. وذكر ريفو – دون حرج– أن سعر الجارية السوداء الجميلة فى العاشرة من عمرها يتراوح بين 600 – 800 قرشاً بالقاهرة، بينما تبلغ قيمة الجارية الجركسية ستة آلاف قرشاً أو تزيد، وقد اشترى كل من لين وويلكنسون جارية، وعدا ذلك من قبيل الإحسان، وما لبث لين أن تزوج

[189] Baedecker, 1895, xxii.
[190] Rifaund, Tableau, "Avis", Wilk. 1835.

الجارية التى اشتراها[191]. وذكر دليل موراى لعام 1858، أنه منذ قيام سعيد بإلغاء تجارة الرقيق، لم يعد سوق العبيد بالقاهرة مكاناً يستحق الزيارة[192].

وأعلن دليل موراى فى 1858، ومرة أخرى فى 1880، أن: "لا يستطيع الأوروبى مشاهدة حفل "الدوسة" دون أن يشعر بالفزع والإشمئزاز. وفى تلك المناسبة يمتطى شيخ السجادة حصاناً ... وتجرى الطقوس فى الأزبكية حيث يرقد على الأرض ما بين 200 و300 من المريدين ملتصقين ببعضهم البعض، ويمر الشيخ بحصانه فوقهم ... ويقيم هذا الإحتفال البرهان على التعصب الوحشى الذى لا يصدقه من لم يره رأى العين".

وفى دليل بايدكر للعام 1835، وصف حفل "الدوسة" بأنه "عادة بربرية" تم إلغاؤها على يد الخديو توفيق، ولكن يقال أن أتباع "الطريقة العلوانية" يمارسون أحياناً مضغ جمر الفحم وإبتلاعه، وإبتلاع قطع الزجاج المكسور، ويمارسون "الرقص الوحشى"[193].

السياح والأوروبيون المقيمون، الجنسيات والأعداد

يذكر ريفو – عام 1830– أن القاهرة افتقرت إلى الصحف والبورصات، والأكاديميات ، ودور العرض المسرحى، وأن الأوروبيين يجتمعون عادة فى حديقتين: إحداهما بالقنصلية الفرنسية، والأخرى فى دير قبطى حيث يقيم الكاثوليك صلواتهم، وأكد دليل موراى ذلك عام 1858، فذكر أن "القاهرة لا تكاد تقدم للسياح أماكن عامة للترويح عن أنفسهم"[194] ، ولكن تدفق السياح الذين يسعون لتجربة حظهم على النيل، سرعان ما غير ذلك. فقد زاد تعداد الأوروبيين ومن تمتعوا بحمايتهم نحو عشرة أضعاف بالإسكندرية من 4824 عام 1848 (5% من سكان المدينة) إلى 42.884 عام 1878 (نحو ربع سكان المدينة)[195]. وفى عام 1873 تضمن دليل موراى قائمة بالقنصليات، ومكاتب البريد الأوروبية والمحلية، ومكاتب البرق، والبنوك، والمقاهى، والمطاعم، ومحلات بيع الكتب، والمصورين ، والصيدليات، والأطباء، وأطباء الأسنان، والترزية، وتجار المواد التموينية،

[191] Rifaud, Tableau, 104; Thompson, Wilk 52 – 54.
[192] Wilk 1843, 1 : 245 – 51; Murr. 1858, ci.
[193] Murr. 1858, 140; Murr. 1880, 1 : 215; Baedecker 1895, ci.
[194] Rifaud, Tableau, 64; Murr. 1858, 117.
[195] Michael Reimer, Colonial Bridgehead: Government and Society in Alexandria, Egypt 1807 – 1882, (Boulder, Colo., 1997), 108.

والجواهرجية، والحلاقين، بالقاهرة والإسكندرية. كذلك تضمن الدليل كنائس الروم الكاثوليك، والإنجيليين، والبرسبتاريين الإسكتلنديين والأمريكان، واللوثريين ، والبروتستانت الفرنسيين، واليونان الأرثوذكس، واليونان الكاثوليك، والموارنة، والأرمن، والمعابد اليهودية بالمدينتين. وكان دليل ويلكنسون فى الأربعينات قد أوصى السائح بأن يحضر معه "الأشياء اللازمة لرحلته بمصر" لأنه يصعب الحصول عليها بالبلاد. وفى العام 1873، كان كل ما يلزم السائح من أغراض متوفراً بالقاهرة والإسكندرية، رغم أن الأسعار لم تكن دائماً مناسبة. وفى دليل بايدكر عام 1895، لم يجد صاحبه أن هناك ما يدعو للإبقاء على تلك القوائم[196].

وفى العام 1873، قدرت إيمليا إدواردز أنه من بين كل "دهبية" راسية بالأقصر، كان البريطانيون يشغلون 12 والأمريكان 9 والألمان 2، وشغل الفرنسيون والبلجيك واحدة لكل[197]. وقد بينا فى ملاحق هذا الكتاب (الجدول 7) توزيع السياح حسب الجنسيات وفق ما أورده مؤلفو كتب الدليل السياحى لمصر، (الجدول 8) يبين الأوروبيين المقيمين بمصر تمتعوا بحماية دولهم، (الجدول 9) يلخص المادة الواردة فى الجداول من 6 – 8. فقد كانت هناك علاقة بين حجم الجالية المقيمة بمصر من أبناء البلد الأوروبى ومكانها فى مجال السياحة. ولم يكن لليونانيين وجود كسياح، ولكن كانت لهم أكبر جالية فى مصر . ولم يصدر سوى دليل سياحى واحد بالإيطالية، رغم أن الجالية الإيطالية بمصر تحتل الموقع الثانى من حيث الحجم، بينما فاق البريطانيون – الذين احتلت جاليتهم المركز الثالث من حيث الحجم– غيرهم فى عدد كتب الدليل السياحى، وفى السياح حتى تفوق عليهم الأمريكان فيما بعد.

وترجع هذه العلاقة العكسية بين حجم الجاليات الأوروبية المقيمة فى مصر، ونصيب بلادها من حركة السياحة، ترجع إلى سرعة تطور بريطانيا والولايات المتحدة على طريق الصناعة، وما صاحب ذلك من اتساع حجم الطبقة الوسطى التى توفر لها الرخاء المادى الذى يتيح لها فرصة السفر والسياحة. أما اليونان وإيطاليا (وخاصة فى الجنوب) فقد كان حظهما من الصناعة قليل، فكانتا مستوردتين للسياح ومصدرتين للأيدى العاملة.

---

[196] Murr. 1873; 1: xix – xx; Wilk. 1843, 1 : 85 – 89.

[197] Amelia Edwards, A Thousand Miles up the Nile, 2nd ed. (New York, ca 1881), 370.

كتب ثيوفيل جوتبيه عام 1840 "الإنجليز فى كل مكان ما عدا لندن، التى لا تجد فيها إلا الإيطاليين والبولنديين"[198]. ولعل بعض من كان يفتقدهم من سكان لندن توجهوا إلى مصر لقضاء جانب من فصل الشتاء هناك، وحيث كان السياح البريطانيون منتشرين فى كل مكان بأعداد كبيرة. وربما زاد عدد السياح الأمريكان على عدد البريطانيين فى عقد الثمانينات، عندما احتل الأمريكان المقدمة فى عدد كتب الرحلات التى نشرت عن مصر بالإنجليزية. وعلى كل فقد كان عدد الأمريكان المقيمين فى مصر عام 1907 لا يتجاوز 521 فرداً.

ورغم طول المدى الزمنى للروابط الفرنسية – المصرية، نشر البريطانيون من كتب الرحلات وكتب الدليل السياحى ما فاق ما نشره الفرنسيون، ولم يزد عدد كتب الرحلات الفرنسية عن مصر على عدد ما نشر بالإنجليزية إلا فى الستينات التى شهدت عصر ديلسبس ونابليون الثالث وولع الخديو إسماعيل بالثقافة الفرنسية.

لقد تدفق الأمريكان عبر الأطلنطى بعد انتهاء الحرب الأهلية التى شغلتهم طويلاً، تماماً كما فعل الإنجليز عندما عبروا القنال الإنجليزى بعد ووترلو[199]. وارتفع عدد كتب الرحلات الأمريكية التى كتبت عن مصر، ولكن لم ينشر دليل سياحى أمريكى لمصر قبل الحرب العالمية الأولى[200]. ويبدو أن السياح الأمريكيين إكتفوا بما كان ينشره مورای وكوك وبايدكر.

وبدأ الألمان ينشرون العديد من كتب الرحلات عن مصر فى عقد الأربعينات، ورغم أن الألمان لم يواكبوا العدد المتزايد من كتب الرحلات التى نشرها الأمريكيون بعد الحرب الأهلية، ولكن كتب الدليل السياحى الألمانية عكست الاهتمام بالعالم الخارجى بعد توحيد المانيا عام 1871.

كتب جورج ستيفنس عام 1898 يقول: "حقق البريطانيون والأمريكان الغلبة فى هذا الميدان، ولكن اللافت للنظر بروز الألمان فى هذا المجال. فمنذ عشر سنوات كنت

---

198 Theophile Goutier, Voyage en Espagne, (Paris 1929).

199 Buzard, Beaten Path, 219.

200 لاحظ أن دليل ماكميلان لفلسطين ومصر المنشور بنيويورك 1901 لم يذكر عند فولكوف.

تستطيع القول أنه لم يتوفر لديهم المال ولا الخبرة للسفر إلى أبعد من نابولى، واليوم تراهم فى كل مكان. لقد استمعنا إلى صوت أغنية قادمة من باخرة من بعيد، فإذا هى ألمانية"[201]. ومثل دليل بايدكر السياحى عن مصر بالإنجليزية أحد قنوات التأثير الألمانى.

القراءات والأماكن الموصى بها

لعل ويلكسنون كان حسن الظن بقرائه عندما اقترح عليهم أن يحملوا معهم مجموعة من الكتب لهيرودوت وغيره من المؤلفين القدامى (الكلاسيكيين)، وشامبليون، وكتب الرحالة الذين زاروا مصر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وكتاب لين عن المصريين المحدثين، وكتاب ويلكنسون – نفسه– عن قدماء المصريين، وقد أصبح ذكر قائمة القراءات التى يوصى السائح بقراءتها نموذجاً يحتذى به فى كتب الدليل السياحى الصادرة عن موراى وبايدكر.

وأوصى ويلكنسون السائح أن يحمل معه سدسية (آلة لقياس الأجرام المساوية)، وأفق صناعى، وكرونومتر (لقياس الزمن)، وسحارة، وبارومتر (لقياس الضغط الجوى)، وترمومتر (لقياس درجة الحرارة)، ومقياس مترى[202]. وتذكرنا هذه الوصية بطريقة الرجال الهواة من خارج الجامعات – مثل لايل، وداروون ولين، وويلكنسون ذاته– فى إجراء معظم بحوثهم فى العصر الفيكتورى. وقد تضمن دليل ويلكنسون / موراى (من الأربعينات حتى السبعينات) قائمة "بنقاط معينة فى حاجة إلى فحص" تعبيراً عن فن السفر، فالذين أوقفوا حياتهم على القيام برحلات، قاموا بذلك طلباً للحقائق أكثر من سعيهم للشهرة أو المنفعة، أو التسلية، أو التعلم أو جمع الآثار، أو الاستعداد لإحتراف مهنة. وقد أورد كتاب ليوبولد برشتولد "مقال فى توجيه اتجاه وتحديد مجال استطلاع الرحالة الوطنيين" (نشر 1789) أسئلة على الرحالة أن يبحث عن إجابة لها، بلغ عددها 2443 سؤالاً، ولعله كان آخر كتاب من نوعه[203].

---

[201] G. W. Steevens, Egypt in 1898 (London 1998).
[202] Wilk. 1843, 1 : 89; Wilk. 1835, 560.
[203] Justin Stagl, A History of Curiosty : The Theory of Travel 1550 – 1800 (Chur, Switzerland 1995).

واقترح دليل ويلكنسون / موراى على القارئ التنقيب عن الآثار فى عين شمس، وعند أبى الهول بالجيزة، وفى مدينة سايس بالدلتا، وأن يقوموا بنسخ السقوف الفلكية بوادى الملوك، وكل الرموز والكتابة الهيروغليفية فى مقبرة واحدة، والنقوش على الأعمدة التسعة والسبعين بمعبد إدفو، وأسماء الملوك وتماثيلهم فى "أثيوبيا العليا". وحث الدليل القراء على البحث عن النقوش المثلثة على الأحجار التى أعيد استخدامها فى مساجد القاهرة، والأقواس المدببة التى ترجع إلى مطلع العصر الإسلامى فى أسوان، وموقع المستعمرة اليونانية فى نوكواتيس، وموقع الإسكندرية القديمة، وتبدو هذه المقترحات بالغة الغرابة الآن، لأن السائح، وعالم الآثار يسير كل منهم اليوم فى طريق منفصل عن الآخر، وعند العام 1873، أقر دليل موراى بوضوح أن قائمة توصياته التى حذفت معظمها بتلك الطبعة كانت تمثل نوعاً من المفارقة التاريخية، لأن "ماريت وغيره قد أجابوا بالفعل عن الكثير مما ورد بقائمة الأسئلة التقليدية، وأن الآثار المصرية قد وضعها الخديو فى متحف وجعل ماريت مسئولاً عنه، كما لم يعد مسموحاً لأى فرد، أن ينقب عن الآثار فى أى مكان يشاء دون الحصول على ترخيص بذلك، كما أصبح تصدير الآثار للخارج محظوراً"[204]. واختفت القائمة تماماً من طبعة 1880.

من بلد الأوبئة إلى منتجع صحى

كان المرضى من البريطانيين يهربون من الشتاء القارص فى بلادهم إلى البحر المتوسط طلباً للشفاء، عندما مات كينس بروما فى عام 1821. وبعد ذلك بأربع سنوات، ترك إدوارد لين عمله فى مجال النقش متجهاً إلى مصر لأسباب صحية. ولكن الأوروبيين – أيضاً– يذكرون مصر بإعتبارها بلاد الطاعون الذى يرد ذكره بالكتاب المقدس، وقد قضى بوركهارت نحبه بمصر عام 1817 بسبب الدوسنطاريا، كما أن زوجة سولت ، والناشر الذى كان ويلكنسون يعتزم نشر دليله عنده، ماتا بالطاعون. وقد ذكر كينجليك فى كتابه "إيوثن" أن كل من التقاه بالقاهرة تقريباً فى العام 1835 حصده الطاعون[205]. وقضت الكوليرا على إبن صامويل شيبرد الطفل، وعلى زوجة ماريت. (لأسباب مجهولة)، أقيمت المحاجر الصحية فى مارسيليا، وليجورن وجنوا والبندقية، كما أقيم نطاق على

---

[204] انظر قائمة المقترحات سالفة الذكر فى Murr. 1858, 46; Murr. 1873, 46.

[205] Alexander Kinglake, Eothen (Lincoln, Nebr., 1970), 272.

الحدود الشرقية لإمبراطورية الهابسيورج لمنع دخول الوباء الذى كان متفشياً فى الشرق الأوسط. ولم يتم إكتشاف إنتقال ميكروب الطاعون عن طريق براغيث الفئران إلا فى العام 1898. وخصص ويلكنسون تسع صفحات من دليله للحديث عن إجراءات الحجر الصحى بجزيرة مالطا التى استغرقت ما بين 19 و24 يوماً يقضيها المسافر إلى أوروبا[206]. وكانت الطرق البحرية المباشرة بين الإسكندرية وإنجلترا تتمتع بميزة قضاء فترة الحجر الصحى خلال الرحلة.

وعكست المحاجر الصحية الإعتقاد الذى ساد عند الأوروبيين – فى القرن السابع عشر – أن الطاعون مرض معد. وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قدم معارضو هذه الفكرة تحدياً عملياً لها، إذ قام كلوت بك – الطبيب الفرنسى الذى تولى نظارة مدرسة الطب فى عهد محمد على– بحقن نفسه بدم أحد ضحايا الطاعون ثلاث مرات ليقيم الدليل على أن الطاعون غير معد. وفى شمالى أوروبا، ساعدت الثورتين التجارية والصناعية على ترجيح كفة إنعدام العدوى بالطاعون. فقد أشار الدكتور جون باورنج فى تقريره عن مصر وكريت عام 1840 إلى ما تتعرض له التجارة من تكلفة طائلة بسبب الحجر الصحى الذى يتعرض له المسافرون والتجار. وساند أنصار التجارة الحرة بمدرسة مانشستر القائلين بإنعدام العدوى الذين كانوا ينصحون بالتخلص من النفايات بطريقة صحية، وتجديد الهواء، والإهتمام بالسكن، وتقويم العادات.

وعلى كل، أدرك الإيطاليون بحكم الخبرة أن الأوبئة تصل بحراً وتنتشر براً، وأقام الأطباء الإيطاليون محاجر جديدة بالإسكندرية وبلاد الشام فى الثلاثينات، وكانت فرنسا – التى لها شواطئ على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى– منقسمة حول هذه القضية . وكان حلم ديليسبس الكبير بشق القنوات لخدمة التجارة الدولية قد قربه من أفكار كلوت بك.

---

[206] حول الطاعون فى الشرق الأوسط، انظر:
Daniel Panzac, Quarantaines et Lazarets: l'Europe et la peste d'Orient (xviie – xx siecles) (Aix – en – Provence, 1986); Laverne Kuhnke, Lives at isk: Public Health in Nineteenth – Century Egypt (Berkeley, Calif. 1990), esp. 70 – 87.

وعلى أية حال، إختفى الطاعون من مصر بعد العام 1844 بصورة غامضة. ولكن دليل ويلكنسون / موراى عام 1847، كان لا يزال يذكر بالتفصيل إجراءات الحجر الصحى بجزيرة مالطا وميناء مارسيليا وفى إيطاليا التى تم إغلاقها بعد ذلك بقليل. وفى دليل موراى عام 1858 ورد ذكر الطاعون بإعتباره "وباء سابق"[207].

وقبل أن ينحسر الطاعون، لعبت البواخر والخطوط الحديدية دوراً مهماً فى نقل الكوليرا من موطنها بالبنغال إلى أقطار بعيدة. وساعدت شبكة الرى – التى شهدت توسعاً فى مصر– على نقل هذا الوباء الذى ينتقل عن طريق الماء. وقد حمل الحجاج الوباء معهم من الحجاز إلى مصر عام 1831، وذلك الوباء الذى استمر معهم حتى 1837، ثم انتقل إلى أوروبا وأمريكا. وقد أصاب وباء الكوليرا مصر 11 مرة فيما بين 1831 – 1902 . وجلب الحجاج الهنود الوباء معهم إلى مكة 1865، وانتقل إلى الحجاج المصريين الذين أدى استخدامهم للخط الحديدى السويس – القاهرة – الإسكندرية فى رحلة العودة إلى انتشار الوباء بسرعة فى جميع أنحاء البلاد. وقد نجح عالم البكتريولوجى الألمانى روبرت كوخ فى تتبع ميكروب الكوليرا فى مصر خلال وباء 1883 واستطاع أن يضع يده عليه بالهند فى العام التالى[208].

وأدى وباء الكوليرا (1831 – 1832) إلى تكليف محمد على للقناصل بتشكيل مجلس للصحة ومحجر بالإسكندرية تحت إدارة طبيب إيطالى. ودفع وباء (1846 – 1850) الأوروبيين والعثمانيين والمصريين إلى إرسال مندوبين إلى أول مؤتمر صحى دولى عقد بباريس عام 1851، وعقد المؤتمر الدولى الصحى الثانى بإستانبول عام 1866. وتبع ذلك وقوع وباء كوليرا آخر أدى إلى وضع نظام حجر صحى دولى على الساحل المصرى للبحر الأحمر[209].

ورغم العودة الدورية للكوليرا، أدى اختفاء الطاعون إلى تمهيد الطريق لكى تصبح مصر منتجعاً للأوروبيين، ففى العام 1859 نشر ريل كتاباً بالألمانية بعنوان "مصر منتجع للمرضى فى فصل الشتاء"، وجاءت لوسى دف جوردون عام 1862 لتستشفى فى مصر

---

[207] Wilk. 1847, xviii – xxv, Murr 1858, 7.
[208] Kuhnke, Lives, 49 – 66, 101 – 7; Panzac, Quarantaines, 117 – 21.
[209] Kuhnke, Lives, 49 - - 66, 101 – 4; Panzac, Quarantines, 95 – 96, 120 – 121.

من مرض السل، لتنشر الدعاية لجو مصر الشتوى الصحى، قبل أن يتغلب عليها المرض بعد ذلك بسبع سنوات[210].

وأوصى دليل موراى عام 1873 بزيارة مصر "مرضى السل الرئوى، والربو الشعبى ، وحالات إلتهاب المفاصل المزمنة، وإنتفاخ أمعاء البطن، والإرهاق العصبى، وقصور الدورة الدموية نتيجة حالة مرضية متقدمة بالقلب ... والأمراض السرية بمختلف أنواعها، وتضم الغدة"[211].

وبحلول عام 1858، إجتذبت عيون حلوان الكبريتية الأتراك والأوروبيين الذين ينشدون الاستشفاء من أمراضهم، وعند نهاية القرن أنشئ فندق مينا هاوس بالهرم وكذلك فنادق الأقصر وأسوان كمنتجعات صحية بكل منها أطباء وممرضات مقيمون من الأوروبيين[212].

الإتجاه إلى الصعيد – الدهبية، الباخرة، القطار

حققت السياحة فى الصعيد تقدماً على ثلاثة مراحل خلال القرن التاسع عشر، ارتبطت كل واحدة منها بوسيلة نقل معينة هى: الدهبية، والباخرة، والقطار، وكان الإبحار إلى الصعيد بالدهبية بطيئاً، مكلفاً، قاصراً على السياح الأثرياء، ففى 1858 كان إيجار الدهبية الكبيرة لثلاثة أو أربعة مسافرين، بمقصورتين، أو ثلاث مقصورات مجهزة، وحمام، يتراوح بين 50 – 79 جنيهاً إسترلينياً شهرياً. أما الدهبية المتوسطة الحجم التى يعمل بها طاقم من عشرة أفراد (من بينهم طباخ وترجمان)، فكانت تحمل شخصين من السياح إلى الشلال الثانى ذهاباً وإياباً بتكلفة قدرها 200 جنيهاً لمدة شهرين. وكانت الرحلة من القاهرة إلى الأقصر والعودة تستغرق أربعين يوماً وتكلف 110 جنيهاً، أما الرحلة إلى أسوان ذهاباً وإياباً فتستغرق خمسين يوماً، وتكلف 150 جنيهاً. وكان جدول زيارة الأقصر يتضمن التوقف لمدة عشرة أيام لزيارة الآثار، ولكن إذا هبت ريح معاكسة، فقد يؤدى ذلك إلى إطالة زمن الرحلة كثيراً[213].

---

[210] Volkoff, Guides, 104; K. Frank, Lucie Duff Gordon (London 1994).
وانظر كتابها رسائل من مصر، الترجمة العربية (القاهرة 1971).

[211] Murr. 1873, 12, 4.

[212] Murr. 1858, 226, Murr. 1880, 1 : 278; Pemble, Mediterranean, 246 – 47.

[213] كان السياح قبل ذلك يستخدمون مراكب متواضعة أقل كلفة تسمى خانقة.

وقد أوصى دليل ويلكنسون للعام 1843 بضرورة غمر المركب المستأجر بالماء تماماً ثم تفريغه قبل القيام بالرحلة لتخليصه من الفئران والحشرات، ونصح السائح بأن يحمل معه مصيدة فئران حديدية، وقفص من الدجاج، وبقسماط، لأن الخبز لا يتوفر فى القرى على الطريق. وقدم للقارئ نموذجاً لعقد استئجار الدهبية الذى يجب أن يبرم فى القنصلية[214].

وفى عام 1858، أصبحت الباخرة بديلاً للدهبية، ولكنها لا تقوم برحلة القاهرة – أسوان والعودة التى تستغرق عشرين يوماً إلا إذا توفر عدد كاف من السياح الراغبين فى السفر. وكانت التكلفة الإجمالى للرحلة للفرد عشرون جنيهاً، وعشرة جنيهات للخادم المرافق لسيده. وبحلول عام 1873، أصبحت رحلات البواخر تسير بإنتظام طوال الموسم السياحى. وأدى استخدام البواخر فى رحلات الصعيد إلى خفض زمن الرحلة إلى النصف أو حتى الثلث، وحررت السياح من الخضوع لحركة الرياح، وأدخلت نظام الجداول الزمنية الذى اقترن بعصر الصناعة[215].

وعند العام 1900، كان القطار قد اختصر زمن الرحلة إلى الصعيد وتكلفتها إختصاراً كبيراً. فبعد أن وصل الخط الحديدى إلى المنيا عام 1867 وإلى أسيوط عام 1874 توقف مد الخطوط الحديدية جنوباً مدة عقدين من الزمان، ورغم أن الهدف من الخط هو توفير وسيلة نقل للسكر المنتج هناك، فإن السياح كان باستطاعتهم السفر بالقطار حتى أسيوط، حيث يستأجرون دهبية أو باخرة لإكمال الرحلة جنوباً، والعودة إلى أسيوط لمتابعة السفر إلى القاهرة بالقطار، وأدت حملة استرداد السودان بقيادة كتشنر إلى مد الخط الحديدى إلى أسوان عام 1898 – وأصبح باستطاعة السائح أن يتجه بالباخرة من أسوان إلى وادى حلفا حيث مد كتشنر خطاً حديدياً من أبو حمد إلى الخرطوم[216]. وفى عام 1908 كانت رحلة القطار بعربات النوم تستغرق 14 ساعة من القاهرة إلى الأقصر، تضاف إليها ست ساعات ونصف للوصول إلى أسوان، وبذلك أمكن ضغط الرحلة السياحية القاهرة – الأقصر لتستغرق بضعة أيام[217]. وبذلك اختصر القطار زمن الرحلة بالباخرة إلى النصف

---

[214] Wilk. 1843, 1 : iv, ii, 210 – 13.
[215] Murr. 1858, 122; Murr. 1873, 120, 318 – 19; Murr. 1880, 2 : 386; Baedecker 1908, 197 – 98.
[216] Winer, Egypt, 90 – 122.
[217] Baedecker 1908, 197 – 98.

أو الثلث، تماماً كما فعلت الباخرة مع الدهبية من قبل. وانقرضت سياحة الدهبية، أما الباخرة التى عانت من مشكلة الوقت والتكلفة فقد ظل استخدامها دليلاً على الفخامة والمتعة مقارنة بالقطار.

وفى نفس الوقت، صحب البرق الكهربى (التلغراف) الخطوط الحديدية فى العالم كله ، وتجاوزها أحياناً إلى أصقاع لا تصل إليها. وقد ربط أول خط دولى للبرق بين بريطانيا وفرنسا عام 1851 فى وقت معاصر للمعرض الكبير، وفتح خط البرق بين كلكتا وبومباى عام 1854 مما ساعد البريطانيين على قمع "التمرد" بعد ذلك بثلاث سنوات ، ولكن أخبار الثورة لم تصل إلى لندن إلا بعد أربعين يوماً. وقد مدت العديد من الكابلات لربط لندن بالهند عبر الدولة العثمانية وروسيا عام 1865، وذلك قبل عام من مد الكابل البحرى عبر الأطلنطى بنجاح، وخلال أزمة فاشودة عام 1898، كان كتشنر على اتصال دائم بلندن بفضل خط البرق أم درمان – القاهرة، أما غريمه جان باتست مارشان فقد كان محروماً من تلك الميزة معزولاً عن باريس[218].

وفى عام 1880، كانت رحلة الباخرة العادية التى تحمل ما بين 25 – 30 سائحاً، معهم طبيب وترجمان، تتوقف ثلاثة أيام فى الأقصر ويوم واحد فى أسوان. وفى 1873 عقد دليل موراى مقارنة بين متعة الرحلة بالدهبية والرحلة بالباخرة الأرخص سعراً، على النحو التالى:

"باستطاعة من يريدون زيارة مصر فى أقصر وقت ممكن ... التوجه من لندن إلى الشلال الثانى والعودة فى ستة أسابيع ... إن السفر بالقارب الخاص بك يجعلك سيد نفسك، لأنه إلى جانب وجودك وسط مجموعة من الناس الذين لا تعرفهم، فإن عليك أن تفعل كل شئ فى وقت محدد، ولا يترك لك إلا وقت معلوم من الساعات أو الدقائق لزيارة المواقع الأثرية. إن الميزة الوحيدة للباخرة هى اقتصاد الوقت والمال ... أما كل من لديهم الوقت والمال فنقول لهم: إختر الدهبية، وإياك والباخرة".

[218] Headrick, Tentacles, 97 – 116; Headrick, Invisible Weapon, 1 – 92.

وكتب جابرييل شارمز: "طالما كنت محشوراً على ظهر باخرة مع مائة من الإنجليز رجالاً ونساءً، علينا أن نغادر الباخرة معاً فى كل مكان نتوقف فيه، ونصعد معاً فى وقت واحد، ولا تتاح لنا رؤية الأثر الذى يعجبنا سوى دقائق معدودات، وشعورنا بأننا جميعاً نمثل شحنة واحدة، لم يجعلنى أشعر بالرضا لحظة واحدة"[219].

وعلى حين عبر الدليل السياحى لموراى عن تقديره للرحلة بالباخرة، يفترض دليل بايدكر عام 1908 أن "السائح العادى" قد يستخدم الباخرة أو القطار – أما السياح الذين لا يحسبون للوقت والمال حساباً، فإن استئجار الدهبية يبدو ممتعاً. كان توماس كوك – عندئذ– قد توسع فى سوق النقل السياحى الفاخر بإمتلاك سبع بواخر و13 دهبية شراعية، وكانت الدهبية "نيتوكريس" أرقاها من حيث الفخامة تؤجر شهرياً بمبلغ 400 جنيهاً إسترلينياً لأربعة أفراد، وبذلك يتكلف الفرد ضعف ما يكلفه السفر فى رحلة بالباخرة : القاهرة – أسوان والعودة لمدة عشرين يوماً، إذ كانت الأجرة للفرد 50 جنيهاً[220].

وقد أدى استخدام الدهبيات والبواخر كأماكن للإقامة، أدى إلى تأخير الطلب على الفنادق السياحية بالأقصر وأسوان. وأوصت الطبعات الأولى من دليل ويلكنسون السائح بأن يحمل فراشاً معه، ومقشة ليكنس الأرض عند مقابر الجيزة والإيوان الأول بالكرنك حتى يجهز مكاناً لفراشه. ولكن اللورد ليندساى لاحظ فى 1836 – 1837 أن "ما يمنع النساء الإنجليزيات من قضاء الشتاء فى طيبة كما يفعلن الآن فى باريس وروما، هو عدم وجود فندق فى مدينة سيزوستريس، ولو أقيم فندق هناك لحقق أرباحاً كبيرة"[221]. وفى عام 1877 أقدم توماس كوك على خطوة جديدة فـافتتح "فندق الأقصر" – الذى إمتلكته شركته – وذلك بدلاً من تزويد السياح بقسائم للإقامة فى الفنادق الأخرى هناك، وفيما بعد، باعت الشركة الفندق لمديره بانون الذى كون إمبراطورية خاصة به فى مجال الفندقة شملت "جراند هوتيل" و"كتراكت هوتيل" بأسوان، وكذلك فندق "ونتر بالاس بالأقصر"[222].

---

[219] Murr. 1873, xiv, 318; Gabriel Charmes, Cinq Mois au Cairo et dans la Basse – Egypt (Cairo, 1880), 221 – 22.
[220] Baedecker 1908, 196, 200.
[221] Wilk. 1842, 1 : 319, 2 : 134; Lindsay, Letters, 1 : 39 – 40.
[222] Murr. 1880, 2 : 450; Brendon, Cook, 136 – 37, 231 – 32.

الرسم وقصص الرحالة، والصور، وبطاقات البريد

تفقد السياحة الخارجية نصف متعتها، ما لم تتح للأهل فى الوطن فرصة التعرف على ما حققه السائح فى رحلته، فيرمقونه بالإعجاب والحسد معاً. وكان سياح العصر الفيكتورى من البريطانيين ينقلون تجاربهم إلى الأهل من خلال ما كانوا يرسلونه من خطابات ، وكتب الرحلات، والكتب العلمية، والرسم، والصور الفوتوغرافية، وبطاقات البريد.

لقد دفعت أحلام الاستشراق الرومانسية بالكثير من الرحالة صوب الشرق، كان الكثير منهم ينشد التخلص من قبح المدن الصناعية فى بلادهم، ولكن الثروة والقوة التى حققتها الثورة الصناعية هى التى أتاحت لشرائح واسعة من الطبقة الوسطى القدرة على السفر . وكان باستطاعة الأرستقراط الذين يبحثون عن "البدو المتوحشين النبلاء" أن يتصوروا أن الزمن قد عاد بهم إلى الوراء إلى مجتمع يختلف نظامه الفطرى عن نظامهم "الأفضل".

أما زبائن سياحة الشرق، فكانوا ينشدون اقتفاء آثار الأبطال الحقيقيين أو الخياليين، فنشر جون مورای الثانى أعمال بايرون، ووالتر سكوت، ونشر جون مورای الثالث كتب الدليل السياحى التى أوردت اقتباسات من تلك الأعمال الرومانسية[223]، "كان كل رجل إنجليزى يحمل دليل مورای ليستقى منه المعلومات، وبايرون ليتزود منه بشحنة عاطفية، وعن طريقهما يهتدى إلى ما يجب أن يعرفه ويحسه فى كل خطوة يخطوها"[224]. ورغم أن شيلى لم يتجاوز حدود إيطاليا إلا أننا لا يمكن أن ننسى السطور التى كتبها عن مصر : "إلتقيت مسافراً من بلاد عتيقة ... إسمى أوزيما نداس ملك الملوك، انظر إلى أعمالى، يا صاحب العظمة، والبأس"، وأضافت زيارات ألكسندر كينجليك، ووليم ثاكيراى، وأنتونى ترولوب لمصر إضافات إلى أدب الرحلات المصرية، تماماً كما فعل الكتاب الفرنسيون : شاتوبريان، والفونس – مارى– لوى دى لامارتان، وجيرار دى ترفال، وفلوبير، ويتوفيل جوتييه، وانفرد من بين الكتاب الأمريكان: هيرمان ملفيل، ومارك توين، ورالف والدو إمرسون، بمد نطاق رحلاتهم الأوروبية لتستوعب مصر.

---

[223] Buzard, Beaten Path, 123.
[224] William Wetmore Story, Roba di Roma, 2nd. Ed. (London 1863), 1 : 7 as quoted in Buzard, Beaten Path, 120.

ولما كانت كتب الدليل السياحى، وكتيبات المتخصصين قد توزعت بين وظيفة قصص الرحلات ذات الطابع الخيالى، ووصف الآثار، فقد تحرر أدب الرحلات – أو أجبر على التحرر– ليتخذ لنفسه وجهات جديدة. فقد خرج كتاب ألكسندر كينجليك (Euthen) الذى نشر عام 1844 على التقليد الوصفى لكتب الرحلات، حيث عبر عن عدم اهتمامه "بالخرائب" الأثرية التى لا نرى لها وجوداً عنده[225]. وابتدع جيرار دى نرفال الرحلة الشرقية الممتعة مركزاً على القاهرة، متجاهلاً آثار الصعيد، مبرراً ذلك بقوله: "إن عادات المدن الحية أكثر إجتذاباً للمراقب من خرائب المدن الميتة"[226]. وعبر فلوبير عن مخاوف سائح متأخر عندما كتب لصديقه جوتييه: "عليك بالإسراع، فلم يمر وقت طويل حتى يختفى الشرق من الوجود، ولعلنا نكون آخر المستمتعين به"[227].

وعبر وليم ثوكيراى ومارك توين عن لوعة الحاج الورع عند المشاهد التى لابد أن يراها، فقد ركبت المجموعة السياحية التى ضمت ثاكيراى القارب البخارى فى رحلة نيلية، وما كادت تبدو لهم الأهرام "حتى حاول بعضنا أن يعبر عن إنبهاره، ولكن بدأت خدمة الإفطار فإندفع الجميع نحو القهوة والفطائر ... ثم نظرت إلى جارى عساه أن يكون أكثر تحمساً منى، ولكن خريج كلية ترنتى بجامعة أكسفورد كان مشغولاً باللحوم الباردة، والسياسى البريطانى كان مهتماً بعناقيد العنب ... والحقيقة أن أحداً منهم لم يتأثر بمشاهدة منظر الأهرام"[228]. وما يورده ثاكيراى وتوين عن مشهد الأهرام يؤكد أن الإختلاط بالناس تجاوز الإهتمام بالآثار ذاتها.

أما من كانت لهم موهبة الرسم، فقد حملوا معهم إلى بلادهن لوحات ظلت موضوعاً للدراسة لزمن طويل، من حيث موضوعها وليس أسلوبها، وتحديد نوعها: الكلاسيكية الجديدة، والرومانسية، والواقعية، والإنطباعية، وما بعد الإنطباعية، وغيرها، فقد جرت أيدى هؤلاء برسم "الشرق". وكان بعضهم لم يزر أى من بلاده، وبعضهم الآخر – مثل يوجين ديلاكروا – زار بلاداً كثيرة ليس من بينها مصر. ومن بين رسامى الشرق الذين

---

[225] Robin Fedden, English Travellers in the Near East (London 1958), 16.
[226] Carre, Voyageuers, 2 : 13.
[227] Behdad, Belated Travellers, 92, 53 – 72.
[228] Thackeray, Notes, 717; Thackeray, Innocents Abroad or the New Pilgrim's Progress (New York 1929, 509 – 17.

استمدوا إلهامهم من مصر: برز البريطانيان دافيد روبرتس، وجون فردريك، والفرنسيان جيروم، ويوجين فورمانتان. وقد استخدمت ليندا نوكلين منهج إدوارد سعيد فى تحليل الرسم الاستشراقى ولكن جون ماكنزى يحذر من التوسع فى إدانة الفنانين المستشرقين[229].

وبعد منتصف القرن التاسع عشر، بدأ التصوير الفوتوغرافى يتحدى الرسم كوسيلة من وسائل نقل المشاهد التى يراها السائح إلى الوطن. وعندما أعلن لوى داجير فى باريس عام 1839 عن طريقته لإلتقاط الصور على ألواح نحاسية مكسوة بالفضة، وردت مصر على الفور فى ذهن العلماء: "لو كانت لدينا هذه الطريقة عام 1798، لكنا نضع أيدينا اليوم على سجلات مصورة دقيقة مما حرم منه الوسط العلمى العالمى نتيجة طمع العرب وعدوان بعض السياح ... ولاستطعنا أن نصور الملايين من النصوص الهيروغليفية التى تغطى فقط واجهات المعابد فى طيبة ومنف والكرنك التى يحتاج تسجيلها إلى عشرين عاماً ومجموعات عديدة من الرسامين، وهو عمل يستطيع القيام به الآن رجل واحد ... وسوف تتفوق الصور الجديدة والألوان المحلية على عمل أكثر الفنانين مهارة"[230].

وفى خريف نفس العام (1839) جاء إلى مصر فردريك جروبل فسكوبه وبصحبته رسامه هوراسفينيه، وانضم فسكوبه إلى السويسرى بيير جولى ديلو بتنييه حيث قاما باستخدام طريقة داجير فى التقاط الصور الفوتوغرافية بمصر وفلسطين، ونتج عن ذلك نسخة موجبة محفورة. ونشر نيقولا ليريبور كتاب "رحلات مصورة بطريقة داجير (1840 – 1844)"، واعتمد هيكتور – هورو فى كتابه "بانوراما مصر والنوبة" (1841) على مصورات جولى بطريقة داجير.

كما أعلن عام 1839 – أيضاً– عن الطبع الحرارى الذى أنتج عدة نسخ موجبة من ورق سالب مبلل، أمام "الجمعية الملكية" بلندن. وأوفدت الحكومة الفرنسية – فيما بعد– ماكسيم

---

[229] Linda Nochlin "The Imaginary Orient", Art in America (May 1983), 118 – 31, 187 – 91; John Mackenzie, Orientalism : History, Theory, and the Arts (Manchester, 1995), 43 – 70.

[230] Kathleen Stewart Howe, ed., Excursions along the Nile : The Photographic Discovery of Ancient Egypt (Santa Barbara Museum of Art, 1993), 22 – 23; see also Deborah Bull and Donald Lorimer, Up the Nile : A Photographic Excursion : Egypt 1839 – 1898 (New York, 1979); Carney E. E. Gavin, The Image of the East : Nineteenth – Century Near Eastern Photographs by Bonfils From the Collections of Harvard Semitic Museum (Chicago, 1982).

دى كامب الذى قام برحلة بصحبة صديقه جوستاف فلوبير لإلتقاط صور حرارية نشرها عام 1852 فى كتابه "مصر والنوبة وفلسطين وسوريا". وقدم المصور الحرارى فليكس تينار كتابه "مصر والنوبة" (1854 – 1858) باعتباره تحية فوتوغرافية لكتاب "وصف مصر".

وأدى اختراع عملية الكولوديون المبلل على الزجاج (عام 1851) إلى تشجيع المحترفين على إنتاج صور فوتوغرافية فى متناول القدرة الشرائية لأبناء الطبقة الوسطى، واستخدم فرانسس فربث هذه الطريقة الجديدة فى ثلاث رحلات قام بها إلى الصعيد فى أواخر الخمسينات. وفى عام 1862، إصطحب ولى عهد إنجلترا – أمير ويلز – معه فى رحلته النيلية المصور فرانسس بيدفورد، وإفتتح أنطونيو بيتو ستوديو بالأقصر لبيع الصور للسياح، وبدأت عائلة بونفيل بيع الصور المصرية عام 1870. ولم يرد بدليل مورای عام 1858 أى ذكر لمصورين أو محلات لبيع الكتب بمصر، ولكن طبعة عام 1873 تذكر أوتو شوفت وهيبوليت دى ليل كمصورين بالقاهرة، وتزكى شركة باسكال سيبا ومحلين لآخرين لبيع الكتب بإعتبارها أماكن لتوزيع مطبوعات فريت.

وجلبت التسعينات معها بطاقة البريد التى تباع ببنس واحد بعد أن كانت تباع بشلن واحد، كما جلبت آلة تصوير كوداك المحمولة باليد وأفلامها الحرارية، وأصبح باستطاعة أى هاو يحمل تلك الآلة أن يلتقط صوراً، يحمضها ويطبعها فيما بعد عودته لبلاده[231].

وقد تعددت استخدامات التصوير الفوتوغرافى – بالطبع– خارج مجال صناعة السياحة . وقبل نهاية القرن بسنوات، بدأ علماء المصريات والآثار فى استخدامه فى عملهم، وأصبح التصوير الفوتوغرافى أداة أساسية للتنقيب العلمى عن الآثار فى أوائل القرن العشرين.

[231] John M. Mac Kenzie, Propaganda and Empire : The Manipulation of Public Opinion, 1880 – 1960 (Manchester 1984) 19 – 21; see also Frank Staff, Picture Postcards and Travel : A Collector's Guide (Guideford, England 1979), 44.

صناعة السياحة، توماس كوك وولده

"السلطان صاحب السيادة الإسمية على مصر، أما السيادة الحقيقية فللورد كرومر، والخديو هو الحاكم الإسمى للبلاد، أما حاكمها الحقيقى فى نهاية الأوبرا الهزلية فهو توماس كوك وولده"

(إقتباس من ستيفنس، أورده جون بادنى فى كتابه: توماس وولده)

جاء مولد جون موراى الثالث، وتوماس كوك (1808 – 1892) فى العام 1808، ليجعل من ذلك العام عاماً ميموناً بالنسبة لمستقبل السياحة[232]. عاش كوك طفولة شقية صعبة، ولم ينل سوى تعليماً عاماً محدوداً. وفى العام 1841، إفتتح مطبعة فى ليستر لطباعة بعض كتيبات النصائح الخلقية الدينية، وقاد رحلته الأولى بالقطار لمجموعة من أصحاب ذلك الإتجاه الدينى لحضور سباق كان يجرى على بعد 11 ميلاً من ليستر. وشهد نفس العام ظهور طبعة برادشو لجداول مواعيد القطارات وتأسيس شركات سوف يقدر لها أن تنمو لتصبح "شركة خط كونارد"، وشركة الأمير كان إكسبريس (شركة ويلز فارجو)[233].

وحمل كوك عقيدته الإنجيلية المعمدانية معه إلى مجال السياحة محاولاً أن ينظم رحلات للتهذيب الخلقى تضم عملاء من مختلف الدرجات الدنيا من السلم الاجتماعى قدر الإمكان، فنظم رحلة لعمال وسط إنجلترا لزيارة "المعرض الكبير" بلندن 1851 وبعد ذلك بأربع سنوات عبرت رحلاته القنال الإنجليزى لزيارة معرض باريس. وفى عام 1864 قاد أول مجموعة سياحية عبر الألب إلى إيطاليا، ونقل مقر نشاطه إلى "فليت ستريت" بلندن . وفى الستينات شملت رحلات كوك إلى سويسرا رجال دين، وأطباء، ومصرفيين ، وموظفين، وتجار، ورجال صناعة من ذوى الدخول المتوسطة التى تراوحت بين 300 – 600 جنيهاً فى العام. وما كادت الحرب الأهلية الأمريكية تضع أوزارها، حتى شرع توماس كوك يستكشف السوق السياحية عبر الأطلنطى. وفى العام 1869 نظم أول رحلة إلى مصر وفلسطين، ضمنها مشاهدة حفلات افتتاح قناة السويس. وتبع بمجموعته من السياح أمير ويلز فى رحلته إلى الصعيد، وذلك فى باخرتين قام بتأجيرهما لهذا الغرض .

---

[232] G. W. Steeven quoted in John Pudney, The Thomas Cook Story (London, 1953), 212.
[233] Brendon, Cook, 12.

وباستكمال مد السكك الحديدية عبر أمريكا فى نفس العام، ومد الخط الحديدى بومباى – كلكتا بعد ذلك بقليل هيأ الفرصة لكوك لتنظيم رحلة حول العالم فى 222 يوماً عام 1872 – 1873، وربما كانت هذه الرحلة مصدر إلهام للكاتب الفرنسى جول فيرن، الذى كان كتابه "حول العالم فى ثمانين يوماً ينشر منجماً على صفحات جريدة "الطان Temps".

كانت الرحلات الطويلة فى القرن الثامن عشر قاصرة على الرجال وحدهم، وضمت المجموعات فى رحلات توماس كوك العائلات؛ معلناً نفسه "وصيفة السفر للنساء اللاتى يفتقرن إلى الحماية". (كانت المجموعة التى ورد ذكرها فى القصة القصيرة لأنتونى ترولوب "أنثى بلا حماية فى الأهرامات" قد وصلت قبل أن تصبح خدمات كوك متاحة بعدة سنوات)[234]. وقد أطلق دليل ويلكنسون تحذيراً عام 1843 "عندما تكون هناك نساء فى الرحلات النيلية، لابد أن يرتدى المراكبية سراويل طويلة، ويؤمرون بألا يخلعونها عند النزول فى الماء". وقد صدمت مجموعة كوك الأولى فى الرحلة النيلية عندما شاهدوا رهبان أحد الأديرة يستحمون فى النيل عرايا، وطلب من النساء أن يمكثن فى داخل الباخرة حتى يتم عبور تلك المنطقة"[235].

وبدأ جون ماسون كوك (1834 – 1899) مساعدة أبيه توماس فى عمله منذ صباه، ولم يتجاوز فى تعليمه المرحلة الإبتدائية، وقد آمن جون بأن يكون العمل بالسياحة من أجلها وحدها دون أن يتضمن غرضاً دينياً،وقد إصطدم بوالده صداماً عنيفاً، وأجبره على التقاعد غير الرسمى عام 1878 وأدى ذلك إلى إطلاق يد الشركة فى تنظيم رحلات للأثرياء والأرستقراطيين، والأمراء من أعضاء الأسرة المالكة، الذين كانوا يتندرون ويسخرون من مجموعات كوك التى ضمت محدودى الدخل. وفى العام 1885 أقام كوك فرعاً للنشاط فى مجال مربح آخر هو فرع "الحج" لتنظيم رحلات الحج للهنود المسلمين إلى مكة.

وعلى صعيد السياحة البريطانية فى إقليم البحر المتوسط، جاءت مصر فى المركز الثالث بعد فرنسا وإيطاليا – قياساً بعدد طبعات كتب الدليل السياحى– ولكنها سبقت اليونان وفلسطين وإسبانيا والجزائر. وفى عام 1858 كان دليل ويلكنسون / موراى يطبع للمرة

---

[234] Brendon, Cook; and Anthony Trollope, "An Unprotected Female at the Ryramids", The Complete Shorter Fiction, ed. Julian Thompson (New York 1992), 82 – 103.
[235] Wilk. 1843, 1 : iv; Brendon, Cook, 124; Buzard, Beaten Track, 148 – 50.

الرابعة عندما أصدر موراى دليل فلسطين وسوريا. وعند قيام الحرب العالمية الأولى كان موراى وبايدكر معاً قد أصدرا إحدى عشرة طبعة من كتب الدليل السياحى عن اليونان ، وإثنتا عشرة طبعة عن إسبانيا ولم ينشر كوك شيئاً. وأصدرت الشركات الثلاث معاً 16 طبعة عن فلسطين قبل الحرب، وهى قليلة قياساً بمصر التى صدر من كتب الدليل السياحى عنها 25 طبعة، وعن إيطاليا 106 طبعة[236].

وحققت رحلات كوك الشتوية فى شرقى المتوسط توازناً مع رحلاته الصيفية إلى أوروبا. وفى عام 1892، بدأ جون ماسون كوك يزود عملاؤه بدليله السياحى للبحر المتوسط بما فى ذلك مصر[237]. وقد ذكرنا – فيما سبق– أن كوك كلف بادج عالم المصريات بإعداد دليل سياحى لمصر، وافتتح كوك مكاتب له فى فندق شيبرد بالقاهرة، وفى يافا عام 1873، ولكن رحلات فلسطين وسوريا كانت لا تزال تتم فى مخيمات، وكان الإنتقال بالجياد، ولذلك كانت متخلفة كثيراً عن مصر.

وفى العام 1870 – الذى حصل فيه كوك من الخديو إسماعيل على إمتياز النقل النيلى – قام كوك بتشغيل باخرة و136 دهبية فى رحلات الصعيد، وبعد عشرين عاماً أصبح عدد البواخر 15 باخرة، وعدد الدهبيات 30 دهبية.

وفى العام 1880، وقع على مبارك – ناظر الأشغال العمومية– على امتياز قصرى يعطى كوك الإنفراد بنقل الركاب بالبواخر على خط القاهرة – أسوان – وادى حلفا فى الموسم السياحى (نوفمبر – مارس)، وبموجب هذا الإمتياز إلتزمت الحكومة بتوفير البحارة والصيانة لسبع بواخر، والتزم كوك بتقديم 150 راكباً من القاهرة إلى أسوان، و60 راكباً من أسوان إلى وادى حلفا فى كل موسم، فإذا لم يوف بذلك تعرض للغرامة[238].

وقد برهن إمتياز كوك على أنه كان نذيراً بوقوع الإحتلال البريطانى بعد ذلك بعامين . فبعد هزيمة عرابى فى معركة التل الكبير بسبعة أسابيع، قام جون ماسون كوك بزيارة موقع المعركة مباركاً للضباط الإنجليز. واعتباراً من العام 1885، كان يقضى جانباً كبيراً

---

[236] Brendon, Cook, 120; Pemble, Mediterranean, 49.
[237] Rev. J. Burns, Helpbook for Travellers to the East including Egypt, Palestine, Turkey, Greece and Italy, with tourist arrangements by Th. Cook (London 1872).
[238] Thomas Cook Archives, Egypt (General), Nile Fleet, Nile Hotels, Boulac, 9 July 1880.

من الشتاء بمصر، وتحول من تأجير البواخر والدهبيات إلى إمتلاك أسطوله الخاص منها، فـاشترى أربعاً من بواخر الدرجة الأولى فى 1886 – 1887، وفى العام التالى أنشأ ترسانة للصيانة ببولاق. وأدى ذلك إلى إفلاس شركة النقل النيلى السياحية المنافسة "هنرى جيز" بعد وفاة صاحبها عام 1890 بوقت قليل، وضمن كوك فى الموسم السياحى المنتهى فى مارس 1895 "742 سائحاً" حجزوا أماكنهم على بواخره النيلية[239].

وقد أطلق كوك إسم الفرعون "رمسيس" على واحدة من بواخره الجديدة الأربع، أما الأخريات فسماهن: "توفيق" و"البرنس عباس"، و"البرنس محمد على"[240]، وفى العام 1891 نظم كوك رحلة نيلية للخديو توفيق من أسيوط إلى الشلال الثانى ذهاباً وإياباً. وعند وصوله إلى الأقصر قام توفيق بإفتتاح مستشفى الأقصر الخيرى لعلاج أبناء الأقصر الذى أقامته الشركة[241].

وعندما مات توفيق عام 1892، سار بحارة كوك فى جنازته، ونعته صحيفة الشركة (الرحالة) "لتحرره من التدخل، وولائه لأعز أصدقائه – بريطانيا". وعلقت الصحيفة الآمال على ولده عباس الثانى الذى قضى خمس سنوات بأوروبا، ونشرت صورة له وأخيه مع توماس كوك عندما قاما بزيارة إنجلترا عام 1886[242].

وقامت بواخر كوك بنقل شارلز جوردون من نهاية الخط الحديدى عند أسيوط، فى رحلته المصيرية إلى الخرطوم، ونقلت ولسلى فى مهمته الفاشلة لنجدة جوردون، ووضعت كل إمكانات النقل النهرى لديها فى خدمة حملة كتشنر لاسترداد السودان. وفى العام 1898 ، أرهق جون ماسون كوك نفسه فى قيادة رحلة القيصر فيلهلم الثانى (حفيد الملكة فيكتوريا) إلى الأراضى المقدسة. ومات سيد السياحة الذى كان يعمل فوق طاقته بعد عودته من تلك الرحلة إلى إنجلترا. وقام فرانك وإرنست كوك، ولدا جون كوك بإدارة أعمال الشركة التى ظلت بيد العائلة لجيل آخر قبل أن تنتقل ملكيتها عام 1928 – إلى شركة عربات النوم الدولية البلجيكية.

---

239 Swingle hurst, Cooks Tours, 97.
240 Thomas Cook Archives, The Excursionist, 12 Sep. 1887, 3; and 1 February 1888.
241 Luxor Hospital For Natives in Upper Egypt, Leaflet.
242 The Excursionist, 12 Sep. 1887; and, February 1892, 7.

ويرى أحد المؤرخين أن "تأثير كوك فى مصر كان خيراً خالصاً، فقد جلب لمصر مجالاً جديداً، وأتاح فرصة العمل لعدد كبير من المصريين، ولا يتفق هذا مع رأى المويلحى فى "حديث عيسى بن هشام" الذى أوردناه فى بداية هذا الفصل. ويستخلص بيمبل رؤيته لسياحة البحر المتوسط فى العصرين الفيكتورى والإدواردى: "من المؤسف أن نقر بأن مستوى حسن النوايا والتفاهم الدولى ما كان ليهبط إلى هذا الحد، وربما ارتفع، لو بقى الإنجليز فى بلادهم يزرعون حدائقهم"[243]. وسواء كان ما فعله توماس كوك نافعاً أو خبيثاً، فإن صناعة السياحة التى أقامها كوك بمصر جاءت لتبقى، وليكون لها دور كبير فى حياة مصر فى القرن العشرين، حتى أن البطريرك القبطى كيرلس السادس بدأ حياته العملية كاتباً بشركة كوك[244].

واعتبر أوجست مارييت السياح الأوروبيين الذين تدفقوا على مصر بأعداد متزايدة، إعتبرهم جمهوره. ويعالج الفصل الثالث إنجاز مارييت فى تأسيس مصلحة الأنتكخانة والمتحف المصرى. وبدأ المصريين أيضاً يبدون اهتماماً بالحضارة الفرعونية التى خلبت لب الأوروبيين، ويعالج الفصل أيضاً محاولات الطهطاوى وعلى مبارك وعالم المصريات الألمانى هنريش بروجش لجعل دراسة المصريات وتاريخ مصر القديم متاحة للمصريين.

---

[243] Pundey, Cook, 212; Buzard, Beaten Path, 335; Pemble, Mediterranean, 274.
[244] Otto Meinardus, Two Thousand Years of Coptic Christianity (Cairo 1999).

الفصل الثالث
علم المصريات فى عصر إسماعيل
ماريت والطهطاوى وبروجش (1850 – 1882)

"وعلى تلك الأحجار كتابة بخط المعبد القديم الذى لا يستطيع المصرى قراءته، ولكن بعض الفرنجة حل ألغازه فى القرن الثالث عشر (الهجرى / التاسع عشر الميلادى) إلى حد ما"

(الطهطاوى: أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل)

بعد أقل من عامين من كتابة الطهطاوى لتلك العبارات، قرت عينه بمشاهدة افتتاح مدرسة بالقاهرة لتعليم المصريين قراءة اللغة المصرية القديمة (مدرسة اللسان المصرى القديم)، وأسندت نظارتها إلى عالم المصريات الألمانى المرموق هنريش بروجش. ولكن عداء ماريت للمدرسة كان السبب الرئيسى وراء إغلاقها بعد خمس سنوات من إفتتاحها، ولكن بعد أن تمكنت المدرسة من وضع أحمد كمال وزميل أو زميلين بعده، على طريق المصريات.

وخلال تلك السنوات من عهدى سعيد وإسماعيل، كان ماريت يقيم أركان مصلحة الأنتكخانة والمتحف المصرى، ولكن الإشادة به كمؤسس لهما، يغفل المحاولة التى ارتبطت بمحمد على والطهطاوى عام 1835، وهى محاولة لم يقدر لها النجاح[245]. وعلى كل، فقد كان على ماريت أن يبدأ من جديد عام 1858 ويشكل جهد ماريت الإطار الزمنى لهذا الفصل، فقد وصل إلى مصر عام 1850، وتوفى بها فى يناير 1881، قبل وقوع مصر تحت الإحتلال البريطانى بعام ونصف العام. ويبين الجدول 2 علماء المصريات الأوروبيين فى ذلك العصر ومقابلهم من المصريين:

---

[245] Mohamed Saleh and Hourig Sourouzian, The Egyptian Museum Cairo : Official Catalogue (Cairo, 1987), 9.

وعلى كل، أشار هذا الكتالوج إلى الجهود الأسبق.

الجدول رقم (2)

علماء المصريات الناشطين فيما بين 1850 و1882

الأوروبيون	المصريون	الحكام ومدة حكمهم
ويلكنسون 1797 – 1875	رفاعة الطهطاوى 1801 – 1873	عباس الأول 1848 – 1854
ليمانز 1809 – 1893	يوسف حككيان 1807 – 1875	سعيد 1854 – 1863
دى روجيه 1811 – 1872	محمود الفلكى 1815 – 1885	
ماريت 1821 – 1881	على مبارك 1823 – 1893	
بروجش 1827 – 1894		إسماعيل 1863 – 1879
إميليا إدواردز 1831 – 1892		
دويمشن 1833 – 1894		
إيبرز 1837 – 1898		
نافيل 1844 – 1926		
جريبو 1846 – 1915	أحمد نجيب 1847 – 1910	توفيق 1879 – 1892
ماسبيرو 1846 – 1916	أحمد كمال 1851 – 1923	

وخلال تلك السنوات، كانت الأمتان القديمتان الجديدتان: اليونان وإيطاليا، قد وضعتا الحفائر الأثرية تحت رقابة الدولة، وقامتا ببناء متاحفهما الوطنية. وعلى نقيض ذلك ، كانت مصر الواقعة على الجانب الآخر الإسلامى من البحر المتوسط مهيأة للوقوع فى براثن الهيمنة الأوروبية، وكان ماريت – شأنه فى ذلك شأن غيره من الموظفين الأوروبيين– يعمل فى خدمة حكومة الخديو، وهو أيضاً مواطن مخلص لدولة إمبريالية تسعى بإطراد لتقويض دعائم الاستقلال الذاتى الذى تمتعت به مصر.

وفى نفس الوقت، قامت المتاحف الوطنية فى باريس، ولندن، وبرلين، ونيويورك، تعبيراً وتجسيداً للرأسمالية الصناعية، والقومية، والديمقراطية. وفى مصر – كما فى المستعمرات– كان تأسيس مصلحة الآثار (الأنتكخانة) والمتحف أداة للإختراق والسيطرة الأوروبية، وإن كانت هناك أدوات أكثر وضوحاً، لذلك الإختراق والسيطرة تمثلت فى السكك الحديدية والبواخر، وقناة السويس، وخطوط البرق، وتجارة القطن، والديون

الدولية، والسياحة، والنشاط التبشيرى، والإمتيازات الأجنبية، والمحاكم المختلطة، والقوة العسكرية الغربية، غير أن المتاحف فى البلاد المستعمرة أو شبه المستعمرة مثل مصر لم تكن – بصورة قطعية– "أداة استعمارية". فقد شجع الأوروبيون على إقامتها وزيارتها لدوافع متعددة، وكذلك فعل المصريون.

وقد نضجت الأسواق الدولية التى تقدم ساحات أرحب للعرض مما يتاح فى المتاحف، بعد "معرض لندن الكبير" عام 1851 بعقد من الزمان، فتناقضت أجور السفر نتيجة ابتداع سياحة المجموعات على يد توماس كوك، وتم تمثيل مصر بعصورها الفرعونية والإسلامية والحديثة فى كل الأسواق والمعارض الدولية على مدى العقود الستة التالية . ولكن، ترى من مثل مصر فى تلك المعارض التى تعبر عن احتفاء الغرب بالقومية، والإمبريالية، والرأسمالية الصناعية، والنزعة الاستهلاكية، وماذا كان الغرض من تمثيلهم لها، وما ترتب على ذلك من نتائج ؟ نظم ماريت جناح مصر فى معرضين دوليين بباريس، وقام بإرسال المعروضات إلى معارض لندن، وفيينا، وفيلادلفيا وساعد فى توجيه الإحتفالات الكبرى الفخمة بإفتتاح قناة السويس. وبعد الإحتلال البريطانى لمصر أصبحت مصر تمثل فى المعارض والأسواق الدولية من خلال منظمين ووكلاء أوروبيين وشوام ممن يعملون على تسويق "الشرق" للمستهلكين فى الغرب.

وحتى منتصف القرن التاسع عشر، كانت الجمعيات العلمية والمتاحف، ودوائر الأثرياء المنتفعين هم الذين يوفرون الرعاية لعلماء المصريات بأوروبا. وفى النصف الثانى من القرن أصبحت "المصريات" تخصصاً أكاديمياً بفضل ريادة الجامعات الألمانية فى هذا المجال. وفى مصر – التى لم تقم بها جامعة على الطراز الغربى إلا بعد ما يزيد على نصف القرن – أقام الخديو، وناظر المدارس على باشا مبارك مدرسة متخصصة فى علم المصريات (مدرسة اللسان المصرى القديم)، وكتب الطهطاوى كتاباً بالعربية فى تاريخ مصر القديم، واهتم على مبارك فى موسوعته "الخطط التوفيقية" بلفت الأنظار إلى المواقع الأثرية الفرعونية. واتخذت جريدة "الأهرام" – كبرى الجرائد العربية حتى اليوم– إسمها وشعارها، وحمل كل طابع بريد صدر فيما بين 1867 – 1914 الهرم وبجواره أبى الهول رمزاً لمصر.

وظهرت فى مصر جمعيتان علميتان هيمن عليهما الأوروبيون، هما: "المجمع العلمى المصرى" الذى تأسس بالإسكندرية عام 1859، و"الجمعية الجغرافية الخديوية" التى تأسست بالقاهرة فى 1875 لدعم نشاط إسماعيل التوسعى فى أفريقيا، وإن كانت الهيمنة الأوروبية فى الجمعية الأخيرة أقل وطأة، وقد لعبت الجمعيتان دوراً فى تعزيز دور المتحف ومصلحة الآثار فى نشر ثمار علم المصريات، وشارك أعضاء الجمعيتين فى مؤتمرات الاستشراق والجغرافيا التى بدأت تعقد فى أوروبا – بإنتظام– منذ السبعينات . وكان الكثير من المصريين يصرفون جل اهتمامهم إلى الثقافة العربية الإسلامية، ولكن رفاعة الطهطاوى، وعلى مبارك، ومحمود الفلكى شجعوا مواطنيهم على ولوج باب هذه الجمعيات ذات الطابع العلمى رغم سيطرة الغربيين عليها، لكونها قنوات ضرورية لنشر المعرفة.

النهضة المبتسرة فى عهد إسماعيل

بلغت الرعاية الرسمية للنهضة العربية ذروتها فى عصر إسماعيل (1863 – 1879)، وقد أدت الكوارث المالية والسياسية والاجتماعية الاقتصادية التى حاقت بمصر فى السنوات الأخيرة من حكم إسماعيل إلى خلعه، وجاءت الثورة العرابية والإحتلال البريطانى ، فحجبت تلك الأحداث الإنجازات الثقافية التى حققتها نخبة صغيرة. لقد ارتكب إسماعيل العديد من الأخطاء، ولكن إذا وضعنا فى اعتبارنا أن الإمبراطوريات الأوروبية كانت تضم إلى حظيرتها بلاداً فى كل عام – فيما بين 1871 – 1914– تبلغ مساحة كل منها ما يعادل مساحة فرنسا[246]، فإن إلقاء مسئولية الكارثة التى حدثت على عاتق إسماعيل وحده يصبح نوعاً من التضليل.

بدأ سعيد السير على طريق الاستدانة من أوروبا – المحفوف بالمخاطر– شأنه فى ذلك شأن الحكام من معاصريه فى إستانبول وتونس. وأدى حصار الشمال لموانى الجنوب فى الحرب الأهلية الأمريكية إلى الإرتفاع الكبير فى أسعار القطن المصرى عند بداية عهد إسماعيل مما أدى إلى وجود شعور وهمى بالرخاء. ولما كان إسماعيل شديد الميل

[246] Michael Adas, Machines as the Measure of Men : Science, Technology and Ideologies of Western Dominance (Ithaca, N. Y. 1989); see also F. Robert Hunter, Egypt under the Khedives: From Household to Modern Bureaucracy (Pittsburgh, 1984):
انظر أيضاً: عبد الرحمن الرافعى، عصر إسماعيل، ط 2 (القاهرة 1948).

للظهور بمظهر الحاكم المستنير الذى يسير على النهج الأوروبى، فقد أراد أن يحقق كل شئ دفعة واحدة: يقيم إمبراطورية أفريقية، ويستكمل مشروع قناة السويس، ويقيم قاهرة على النمط الباريسى، ويبنى قصر عابدين وغيره من القصور، ويشق الترع للرى، ويمد الخطوط الحديدية، وينظم المدارس الحكومية، ويبسط سيطرته على المحاكم. وبرهن الموظفون الأوروبيون الذين استخدمهم إسماعيل للاستفادة بخبرتهم فى المصالح الخاصة بالشرطة (الضبطية)، والبريد، والسكك الحديدية، والبرق، والمحاكم المختلطة، والجيش ، برهنوا على أنهم كانوا ركائز مهدت الطريق للإمبريالية. وعندما حان موعد سداد الاستحقاقات، لم يجد إسماعيل مفراً من بيع حصة مصر فى أسهم شركة قناة السويس – التى كلفتها غالياً– إلى بريطانيا، تلك الصفقة التى أوقفت – إلى حين– التدهور نحو الإفلاس.

إن البحث عن جذور النهضة فى القرن التاسع عشر فى أعمال علماء الأزهر مثل حسن العطار[247]، وربما الجبرتى، يعد تصحيحاً للفكرة الشائعة عن دور الغرب الحركى فى إيقاظ الشرق الراكد. ولكن مع تعاقب عقود القرن، لم تزدهر النهضة فى الأزهر، ولكنها ازدهرت فى المجالات الجديدة أو القديمة التى تم إصلاحها مثل الصحافة، والمدارس الأميرية، ومدارس الإرساليات التبشيرية والبعثات التعليمية التى أوفدت إلى أوروبا، ومكاتب البرق، وقلم الترجمة، والقضاء، والمحاماة، وتجارة التصدير. فالطهطاوى، وعلى مبارك، ومحمود الفلكى كانوا نتاجاً لإصلاحات محمد على التعليمية، كما كانوا وراء ما تحقق بعد ذلك من تغيير.

إن التحرك الذى قادته بريطانيا فى 1840 – 1841 لطى بساط سيطرة محمد على على الشام، دشن عصر الإنكماش الذى استمر طوال عهد عباس الأول، ثم جاء سعيد ليعكس الإتجاه، ويفتح الباب على مصراعيه أمام طلاب الثراء من الأوروبيين، وكان ديليسبس أول من دخل الباب حاملاً مشروع قناة السويس. وجاء المجمع "المجمع العلمى المصرى"، ومصلحة الأنتكخانة والمتحف المصرى، نتاجاً لتدفق الأوروبيين على مصر، وأصدر إسماعيل أوامره بإقامة المؤسسة الثقافية تلو الأخرى: الكبتخانة الخديوية،

[247] Peter Gran, Islamic Roots of Capitalism: Egypt 1760 – 1840 (Austin, Tex., 1979).

والجمعية الجغرافية الخديوية، ودار الأوبرا الخديوية، ومدرسة دار العلوم، وغيرها من المدارس على اختلاف مستوياتها، وقامت محاولة لإصلاح الأزهر، ووجهت بمقاومة من علمائه جعلت إسماعيل، وعلى مبارك يسقطانه من اعتبارهما فى لائحة المدارس التى صدرت عام 1867، والتى كانت حجر الزاوية فى النشاط الثقافى فى عهده. وحلت اللغة العربية محل التركية كلغة رسمية للبلاد، ووصلت الصحافة العربية والأوروبية فى مصر إلى درجة من النضج.

وعند نهاية حكم إسماعيل، عبرت الصحافة وأعضاء مجلس شورى النواب عن أفكارهم المستقلة. وقام المصلح جمال الدين الأفغانى بالتدريس على هامش الأزهر، فالتف حوله الشبان المسلمون من أمثال محمد عبده وسعد زغلول، وكذلك المسيحيون الشوام من الصحافيين. وحملت صحيفة "الجوائب" – التى كان يحررها أحمد فارس الشدياق بإستانبول – إلى مصر أخبار الغليان السياسى فى إستانبول الذى أدى إلى صدور الدستور العثمانى عام 1876، وقيام التجربة البرلمانية التى امتدت حتى 1878.

وكان الطهطاوى، وعلى مبارك، وأحمد كمال، يمثلون أجيالاً مختلفة، ولهم اهتمامهم بعلم المصريات فى عهد إسماعيل فقد تعلم من استفادوا بالإصلاح التعليمى فى عهد محمد على، تعلموا لغة أجنبية واحدة على الأقل، لأنها كانت مفتاح الترقى فى وظائف الحكومة. وأصبح هؤلاء لا يفكرون فى إطار الإنتماء الإسلامى فحسب، بل فكروا أيضاً فى أمة مصرية تمتد جذورها الفرعونية فى أعماق التاريخ.

كان الطهطاوى قد بلغ الثانية والستين من عمره عندما تولى إسماعيل الحكم، وكان على مبارك فى الأربعين، بينما كان أحمد كمال تلميذاً فى الثانية عشرة من عمره. وكان التعليم المتاح فى صبا الطهطاوى هو "الكتاب" والأزهر، ولكن تعيينه واعظاً للبعثة الموفدة إلى باريس عام 1826 – كما رأينا– ساعده على أن يضيف إلى ثقافته بعداً جديداً مما تعلمه فى فرنسا.

وكان والد مبارك – الشيخ الأزهرى– يتمنى أن يحذو ولده حذوه، ولكن الصبى على مبارك فر من أسرته ليلتحق بالمدارس الجديدة بعد ما رأى ضابطاً كبيراً أسمر البشرة

مثله، فأدرك أن الوظائف المهمة لم تعد للترك وحدهم. وهكذا شق طريقه فى مجال التعليم الحديث: من المرحلة الإبتدائية (المبتديان) إلى الثانوية (التجهيزية)، إلى مدرسة المهندسخانة، إلى المدرسة المصرية بباريس، فالأكاديمية العسكرية الفرنسية فى متز، ثم قضى عاماً فى الخدمة بالجيش الفرنسى[248].

إتجهت الحياة العملية لكل من الطهطاوى وعلى مبارك وجهة مختلفة لبضع سنوات، فقد نفى عباس الأول رفاعة الطهطاوى إلى الخرطوم، وكافأ على مبارك لقيامه بتقليص نظام التعليم الذى أسهم الطهطاوى فى بنائه. وفقد مبارك الحظوة عند سعيد فأرسله للمشاركة فى حرب القرم ثم تولى مناصب متواضعة تخللتها فترات استيداع قصيرة، بينما أنقذ سعيد رفاعة الطهطاوى وأعاده من منفاه بالخرطوم، وجعله ناظراً للمدرسة الحربية، ولكن الطهطاوى عانى أيضاً من تقلبات سعيد. وفى عهد إسماعيل لمع نجما على مبارك والطهطاوى مع اختلاف فى الدرجة، فلما كان مبارك صديقاً لإسماعيل منذ أيام الدراسة فى باريس، فقد أصبح باشا ووزيراً (ناظراً) للأشغال العمومية، والمدارس، والأوقاف ، والمواصلات والسكك الحديدية، أما الطهطاوى فلم يتجاوز رتبة البكوية، ولكنه جعل العقد الأخير من عمره منتجاً من خلال إدارته لقلم الترجمة (الذى بعث من جديد)، وتأليفه الكتب الدراسية، والإشراف على تعليم اللغة العربية بالمدارس، وتحرير مجلة "روضة المدارس".

كان رفاعة وعلى مبارك رجلى النهضة، تحتل "المصريات" عندهما موضع الأهمية وسط العديد من الإهتمامات الأخرى، وقد استطاعا أن يستخدما المدارس لتكوين الجيل الجديد الذى انتمى إليه أحمد كمال ممن أتيحت لهم فرصة التخصص فى "المصريات". وقد تعرف أحمد كمال على كتب الطهطاوى من خلال دراسته بالمدارس، وكان لمدرسة اللسان المصرى القديم الفضل فى تخصصه بهذا المجال، وهى المدرسة التى أسسها مبارك فى عهد إسماعيل. وعلى عكس هذين الرائدين، تعرف أحمد كمال على الغرب

---

[248] حول رفاعة الطهطاوى، انظر: صالح مجدى، حلية الزمن فى مناقب خادم الوطن: سيرة رفاعة بك رافع الطهطاوى، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة 1958)؛ أحمد بدوى؛ رفاعة رافع الطهطاوى، ط 2، (القاهرة 1959) وحول على مبارك، راجع سيرته الذاتية فى موسوعته: الخطط التوفيقية الجديدة، 20 مجلد (القاهرة 1305 / 86 – 1887)، 9 : 37 – 61. وانظر أيضاً: Anouar Louca, Voygeurs et ecrivains
وكذلك: Gilbert De lanone, Moralistes et Politiques Musulmans dan l'Egypte.

من قراءاته ومن الأوروبيين المقيمين فى زيارة عابرة. وإذا كانت فرصة اللقاء قد أتيحت للطهطاوى وكمال لكان مثل هذا اللقاء جسراً يربط قرناً يبدأ بإنتباه الطهطاوى إلى أهمية الآثار فى العشرينات، وإعادة تأسيس مدرسة المصريات المصرية عام 1923، وهو العام الذى شهد وفاة أحمد كمال. وعاش كمال حياته العملية فى عهد الإحتلال البريطانى[249] ، وهو ما سنتناوله فى الفصل الخامس.

إعادة تأسيس مصلحة الآثار (الأنتكخانة)

ولد ماريت فى بولون – سير– مير عام 1821، بعد مولد مبارك بعامين، وعندما بلغ الحادية عشر من عمره مات شامبليون. وقام جاك – جوزيف شامبليون فيجى– بنشر العمل المتميز وغير المكتمل الذى تركه أخاه الأصغر دون أن يحقق تقدماً فى دراسة فقه اللغة المصرية القديمة، ومات كل من نستورلوت وروسيللينى فى أعقاب وفاة شامبليون . وقام ليون دوبوا – خليفة شامبليون فى اللوفر– بقطع الصور الملونة للآلهة من إحدى البرديات وقام بتأطيرها، مهملاً النص باعتباره نفاية لا لزوم لها. ولكن إيمانويل دى روجيه – الذى أصبح أميناً للقسم المصرى باللوفر عام 1849– وماريت، استطاعا عند منتصف القرن أن يعيدا الفرنسيين إلى مكانهم فى علم "المصريات"[250].

حصل ماريت على شهادة الثانوية (البكالوريا) الأدبية، وعمل بالتدريس، والصحافة، ولكن وراثته لأوراق قريبه نستور لوت حولت اتجاهه نحو "المصريات"، فصرف سبع سنوات فى كفاح متصل لدراسة القبطية والهيروغليفية بشكل إقليمى منعزل حتى نال وظيفة متواضعة باللوفر عام 1849. ولما كان متحف اللوفر ينظر بعين الحسد إلى مجموعة المخطوطات القبطية التى جلبها – فى الثلاثينات– روبرت كيروزون وهنرى تاتام إلى المتحف البريطانى، فقد أوفد ماريت إلى القاهرة عام 1850 للبحث عن

---

[249] حول سيرة أحمد كمال، راجع: المقتطف، العدد 63 (نوفمبر 1923)، ص 277-273؛ وتوفيق حبيب، "تاريخ الكشف عن الآثار المصرية وأعمال المرحوم أحمد كمال باشا"، الهلال، 32 (نوفمبر 1923)، ص 141-135؛ وزكى فهمى، صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير الرجال فى مصر، مجلدان، (القاهرة 1926)، جـ 1، 336-331.

[250] On L'Hote, Rosellini, Dubois and de Rouge, see Who Was Who, 3 : 253 – 254, 362 – 63, 130 – 31, 365 – 66.

المخطوطات القبطية القديمة، ولكن البطريرك القبطى كان لا زال يتذكر ما فعله كيروزون وتاتام، فرفض التعاون مع ماريت[251].

فقامر ماريت بما كان معه من مخصصات مالية، كما قامر بمستقبله، بحثاً عن السرابيوم الذى وصفه الرحالة اليونانى إسترابو، فراح يقتفى أثر تماثيل أبى الهول التى عثر عليها فى سقارة، والتى شاهدها فى الحدائق الأوروبية بالإسكندرية والقاهرة، وقام بالتنقيب فى طريق أبى الهول الذى يقود إلى مقبرة عجول أبيس. وبلغ حماس الغرفة الفرنسية بباريس حد الموافقة على المخصصات اللازمة لنقل ما تم العثور عليه من آثار إلى اللوفر قبل أن يحصلوا على موافقة عباس الأول على تصديرها. وقد ثارت ثائرة عباس، وأرسل الحراس إلى سقارة لوقف عمليات التنقيب التى يقوم بها ماريت، ويرجع ذلك إلى تحريض القنصل العام البريطانى شالز موراى، والمبشر الإنجليكانى البارون دى هربر، وهم جميعاً من جامعى الآثار. فكلف ماريت أحد مساعديه بصناعة لوحات قرابين مقلدة لإقناع عباس بتنفيذ أوامره، واستمر فى التنقيب سراً فى الليل. وأخيراً استطاع أرنو ليموين القنصل الفرنسى العام أن يصل مع الباشا إلى حل وسط، يستطيع ماريت بموجبه أن يرسل إلى اللوفر 515 قطعة أثرية، ويستمر فى التنقيب، وما يتم العثور عليه مستقبلاً يبقى فى مصر[252]. وقبل أن تنفد مخصصاته المالية عاد ماريت إلى بلاده، ولكنه كان قد اكتشف معبد الوادى الخاص بخفرع بالقرب من تمثال أبى الهول بالجيزة.

وكافأ اللوفر ماريت على جهوده بترقيته إلى وظيفة أمين مساعد بالمتحف، وكان رئيسه دى روجيه فى مطلع الأربعينات من عمره، مما يعنى استحالة وصوله إلى منصب الأمين، كان ماريت يعيش أحلام اليقظة مع مغامراته، وقرر تفضيل دراسة الفن على دراسة فقه اللغة. وفى عام 1857 إنتهز الفرصة ليقوم بالتنقيب عن الآثار لحساب سعيد باشا الذى تولى الحكم خلفاً لعباس الأول، وذلك حتى يقوم سعيد بإهدائها إلى الأمير نابليون عند زيارته التى يعتزم القيام بها لمصر. وكان سعيد قد أهدى كل ما بقى لدى

---

[251] Elisabeth David, Mariette Pacha 1821 – 1881 (Paris 1994); Edouard Mariette, Mariette Pacha (Paris 1904); Auguste Mariette Pach, Le Seropeum de Memphis (Paris 1882); On Curzon and Tattam, See Who Was Who, 3 : 113, 410 – 11.

[252] دار الوثائق القديمة، محافظ الأبحاث، 118 ب آثار، وتتضمن رسائل من لوموين إلى إسطفان بك بهذا الشأن فيما بين 1851 – 1852.

الدولة من قطع أثرية إلى الأرشيدوق ماكسمليان – ولى عهد النمسا– عام 1855 "وهى مودعة الآن بمتحف التاريخ القديم بفيينا"[253]. فقد أقنع ديليسبس، والقنصل الفرنسى العام ريمون ساباتييه سعيداً بأنه يجب ألا يقل كرمه مع فرنسا عما فعله سلفه مع النمسا. وقام سعيد بتجهيز ماريت بباخرة وفريق من عمال السخرة، مما أسعد ماريت، وجعله يقسم العاملين معه إلى فرق قامت بالحفر فى الجيزة، وسقارة، وأبيدوس، وطيبة، والفنتين فى وقت واحد. ووقعت زيارة الأمير نابليون خلال عمليات التنقيب، ولكن سعيد استمر فى متابعة العمل، وأهدى كل ما تم اكتشافه من آثار إلى اللوفر.

وبدعم من الإمبراطور نابليون الثالث، ومساندة من جانب ديليسبس وساباتييه، حث نوبار باشا سعيداً على تكليف ماريت بإعادة تأسيس مصلحة الآثار المصرية، وتولى كوينج بك – الإلزاسى، سكرتير سعيد ومعلمه السابق– تولى أمر التفاصيل. ففى أول يونيو 1858، أصبح ماريت "مأمورالأنتيكات" براتب سنوى قدره ثمانية عشر ألف فرنك (أى ما يوازى 720 جنيهاً إسترلينياً)[254]، وذلك قبل عام من قيام ألكسندر كاننجهام بتأسيس الإدارة الخاصة بالآثار فى الهند[255]. وقد تنوعت الأسماء التى أطلقت على مصلحة الآثار المصرية فهى: مصلحة الأنتيكات، ومصلحة الأنتكخانة، ومصلحة الآثار. وأنعم الوالى على ماريت برتبة البكوية من الدرجة الثانية، وأعطاه حق الإنفراد بإجراء الحفائر الأثرية، وخصص له باخرة نيلية، ومنحه سلطة تسخير كل ما يحتاج إليه من الأيدى العاملة، وعلق ماسبيرو على ذلك ساخراً:

"إن هذا بمثابة استحواذ على مصر بحجة خدمة البحث العلمى"[256].

وقام الفرنسيان بونفرى وجابيه بالعمل كمساعدين لماريت، وأعار اللوفر الرسام تيودور ديفريا ليقوم بنسخ النقوش، كما عمل لويجى فاسالى مع ماريت زمناً طويلاً، وبدأ إميل – الأخ الأصغر لهنريش بروجش – حياته العملية فى مصلحة الآثار المصرية[257]. وكون

---

[253] Gaston Maspero, Guide du visiteur au Musee du Cairo, 4th ed., (Cairo 1915), x; Abou – Ghazi, "Egyptian Museum" ASAE 67 (1991), 9.

[254] دار الوثائق، محافظ الأبحاث، 118 ب، آثار، رسائل متنوعة من ماريت.

[255] Bernard S. Cohen, Colonialism and Froms of Knowledge : The British in India (Princeton 1966), 9.

[256] Maspero, "Mariette", xcvi.

[257] Maspero, "Mariette", xcvi.

ماريت فرقاً للتنقيب فى ستة مواقع مختلفة من الجيزة إلى أسوان. وجاء أول ذكر لهذا النشاط فى مجلة المتاحف Journal d'entree فى يونيو 1858[258]. وقد إقترح ماريت – فى بداية الأمر – قوة عمل تتكون من 2380 رجلاً، يعمل 200 منهم بالكرنك، وما بين 500 – 1000 فى إدفو، و750 فى إسنا، و400 بالجيزة، ولكنه تلقى نصحية بالاقتصاد فى قوة العمل لأن التنقيب عن الآثار يختلف عن حفر القنوات[259]. وفى وقت من الأوقات كان لديه تفويض بتجنيد سبعة آلاف عامل[260].

ولعل ضحايا السخرة الذين عملوا فى حفائر ماريت ربطوا بين العمل فى الآثار، والعمل الذى كان جارياً فى شق قناة السويس. فكلاهما كان شقاءً وبؤساً مصدره الأوروبيون وسعيد، وإسماعيل، دون أن يفيد العمال المسخرون شيئاً. وتولى العمال تجميع المسخرين للعمل بين القرى، وتقاضوا رشاوى من الفلاحين الميسورين لإعفائهم من السخرة التى كان الفقراء وحدهم ضحاياها[261].

وكما فعل بول إميل بوتا وأوستن هنرى لايارد فى بلاد الرافدين قبل ذلك بسنوات، قام ماريت باستخدام مجموعات عمل كبيرة للتنقيب عن القطع الفنية والنقوش. ولم يكن قد ظهر بعد الإهتمام بالجسات الأرضية، وتجميع الملاحظات عن ميدان العمل، وإعداد التقارير العلمية التفصيلية. ولم يكن عمل هنريش شليمان فى إصطياد كنوز طروادة وميسيناى فى السبعينات، أفضل من ذلك. وفى عام 1864 استخدم ماريت ألف عامل لتنظيف حوائط المعبد حتى تتاح لدى روجيه فرصة إبراز النقوش أمام زائر مرتقب[262] . وعبر فليندر بترى عن شكواه من أن ماريت ترك مساعديه الأوروبيين ورؤساء العمال من المصريين يحفرون لحسابهم لمدة شهور فى كل مكان ما عدا الجيزة وسقارة . وتسربت الآثار التى عثر عليها ماريت إلى السوق لأنه كان لا يدفع مكافأة لمن يعثر عليها، وكان رؤساء العمال يجذبون إنتباه ماريت إلى المواقع غير المهمة بوضع قطع فيها مشتراة من السوق[263]. وفى إيطاليا كان جيسيب فيوريللى وبيتروروسا يقومان فى

---

[258] May Trad, "Journal d'entrée et catalogue general", ASAE 70 (1984 – 85), 253 – 57.
[259] دار الوثائق، محافظ الأبحاث، 118 ب، آثار، من ماريت إلى كونج بك فى 18 أبريل 1858.
[260] Who Was Who 3 : 276.
[261] W. M. F. Petrie, Seventy Years in Archaeology, (London 1931), 46.
[262] Maspero, "Mariette", cxliv.
[263] Petrie, Seventy Years, 52 – 53.

الستينات بحفائر علمية فى بومبى وروما، كما قام ألكسندر كونز النمساوى وإرنست كرونيوس الألمانى – فى السبعينات– بحفائر فى اليونان طوروا فيها أسلوب التنقيب، مما جعل ماريت على درجة كبيرة من التخلف.

وعندما مارس ماريت سلطته، توقفت الحفائر التى كان يقوم بها فى مصر أوروبيون آخرون، وتم حظر تصدير الآثار دون ترخيص. وصدرت أوامر دورية إلى موظفى مصلحة الآثار بتطبيق الحظر على التنقيب عن الآثار، ولكن المصريين استمروا فى استخراج "السباخ" وبيع الآثار، وحرق حجارة المعابد لإنتاج الجير. ورفض ماريت طلباً تقدم به فلاح عام 1880 للترخيص له باستخدام حجارة الأهرام فى بناء بيت[264].

وفى عام 1861، بلغت ديون سعيد ثمانية ملايين جنيهاً إسترلينياً مما إضطره إلى الإختباء فى يخته هرباً من الدائنين، وكان قد رهن موارد الدولة مقدماً، وأحال الكثير من الموظفين إلى الاستيداع أو فصلهم من وظائفهم، وأنقص عدد الجيش إلى 2500 جندى، وباع المعدات العسكرية، فحث ماريت باريس على التغلب على لندن بتقديم قرض جديد لسعيد قائلاً: "إن من يقدم القرض لسعيد سوف يلف الحبل حول رقبته (وكانت تلك الكلمات الوالى نفسه)، وبعبارة أخرى، سوف يصبح سيد مصر"[265]. وانتهز نابليون الثالث الفرصة للضغط على ماريت حتى يحصل من سعيد على مساعدة للبحث عن مصادر لسيرة يوليوس قيصر – التى كان يكتبها– وعلى مخطوطات قبطية من الأديرة المصرية، وتجاهل ماريت الملاحظة التى أبداها نابليون الثالث عندما قال له أن الآثار التى يكدسها فى بولاق سوف تكون فى وضع أحسن لو حصل عليها اللوفر. ورغم أن الممولين البريطانيين والألمان – وليس الفرنسيين– قدموا القرض لسعيد، عبر الأخير عن ارتياحه بمنح ماريت البكوية من الدرجة الأولى، ووعده بدعم مطبوعاته، وتقديم المعونات للمتحف، ومنحه معاشاً، وجعله مفوضاً عاماً لدى "معرض لندن الدولى" عام 1862.

---

264 Garnot, Melanges, 1 – 2.

265 Maritte, Oeuvres, cxxxi; For this paragraph see cxxiii – cxxxi; and Landes, Bankers, 108 – 9.

على الرغم من نجاح مارييت فى الحد من تدفق الآثار المصرية على أوروبا، لم يستطع أن يحول دون خسارة مسلتين أخريين. ففى العشرينات، أهدى محمد على لكل من بريطانيا وفرنسا واحدة من المسلتين القائمتين بالإسكندرية، واستبدل الفرنسيون بالمسلة المهداة لهم أخرى أفضل حالاً إنتزعت من معبد الأقصر حصلوا عليها فى 1831 – 1832، ونصبت بميدان الكونكورد. وحذر ويلكنسون بلاده من الإهانة التى قد تلحق بها إذا حصل الفرنسيون على مسلتهم قبلهم، ولكن صديقه روبرت هاى رأى أن المهانة تتحقق بقبول بريطانيا للمسلة المعروضة عليها، فى حين أن فرنسا حصلت على مسلة أفضل. وعارض ويلكسنون – فيما بعد– فى نقل المسلة إلى لندن على أساس أن الغرض الأصلى لها كان مجهولاً – وسخر ثاكراى من المشروع ككل قائلاً:

"ذهبنا لمشاهدة المسلة الشهيرة التى أهداها محمد على للحكومة البريطانية التى لم تبد قبولها للهدية صراحة ... وإذا كانت حكومتنا تتعامل مع الموضوع ببرود، فإن تحمسنا له يعد من قبيل عدم الولاء لحكومتنا. أتمنى أن تقدم حكومتنا للمصريين عمود الطرف الأغر حتى يرقد هذان العملاقان القبيحان فى التراب جنباً إلى جنب"[266].

ولم يتم نقل المسلة إلا عام 1877 عندما قام الطبيب البريطانى إرازمس ولسون بتمويل عملية النقل، وتم نصب المسلة على كورنيش نهر التيمز فى السنة التالية.

وأدى ذلك إلى حفز الأمريكان على الحصول – بدورهم– على مسلة، فأهداهم إسماعيل المسلة الباقية بالإسكندرية تقديراً لما أداه الضباط الأمريكان السابقون (الذين خدموا فى الحرب الأهلية) من خدمات خلال عملهم فى جيشه، وأثار ذلك ثائرة مارييت الذى احتج على هذا التفريط الذى لم يترك لمصر سوى خمس مسلات، ورغم أن بمصر الآن "متحفين، أحدهما متحف بولاق، والآخر هو جميع أراضى مصر ... زد على ذلك أن هناك مبدأ عالمى معمول به فى جميع المتاحف، هو أن ما تحصل عليه المتاحف لا

[266] William Makepeace Thackeray, The Paris Sketch Book of M. A. Titmarsh : The Irish Sketchbook and Notes of a Journey From Cornhill to Grand Cairo (New York, n – d.), 714; Jeason Thompson, Sir John Gardner Wilkinson and His Circle (Austin, Tex – 1992), 192 – 93.

تستطيع أبداً التنازل عنه، وأن على مصر أن تطالب اللوفر بتمثال فينوس دى ميلو، وتطالب المتحف البريطانى بإعادة حجر رشيد إليها، وتطالب متحف نيويورك بأحد آثار مجموعة أبوت، لأن شيئاً فى الدنيا لا يعادل هذه الهدية من حيث القيمة. فلماذا تعامل مصر معاملة مختلفة ؟ ... لقد إنتهى الزمن الذى استطاع فيه اللورد إيلجن أن يحمل معه لوحات الأجرام السماوية، فمصر لديها أقدم أرشيفات مماثلة للعيان فى التاريخ الإنسانى ، وهى وثائق تشهد بمجدها القديم وهى تعتزم الإحتفاظ بها"[267].

وقد صدق مجلس النظار (الوزراء) على المنحة التى قدمها إسماعيل لأمريكا بعد تردد، رغم أن الخديو فقد عرشه قبل أن تقوم الحكومة الأمريكية بنقل المسلة فى أواخر 1879. وقد تم نصب المسلة فى سنترال بارك بنيويورك فى يناير 1881، وهو الشهر الذى فارق فيه ماريت الحياة، وقد نجح ماريت – على الأقل– فى استصدار قرار من مجلس النظار نص على أنه "من الآن فصاعداً لا يتم إهداء أثر مصرى لأى دولة أو أى مدينة خارج الديار المصرية"[268].

المتحف المصرى – ماريت فى بولاق

على مر قرن من الزمان قامت ثلاث من بلاد البحر المتوسط المتباينة – هى: اليونان ، والدولة العثمانية، ومصر– بتأسيس مصالح خاصة بالآثار، وإقامة متاحف أثرية، وكان لشمال غرب أوروبا أثر كبير فى تلك الحالات الثلاث، ولكن المتاحف كانت بمثابة المسرح الذى بلور أبناء تلك البلاد هويتهم القومية من خلاله.

وأحرزت اليونان قصب السبق بإقامتها لمتحف أيجينا الوطنى عام 1829، حتى قبل أن تنجز القوى الكبرى مهمتها بإجبار الدولة العثمانية على قبول استقلال اليونان، فقد فرضت الدول أوتو الأول البافارى ملكاً على ذلك البلد الصغير المشتت، وجاء أوتو الأول من ميونيخ حيث كانت الكلاسيكية الجديدة فى أوجها. وكان مؤسسو مصلحة الآثار اليونانية (1833)، والمتحف الوطنى للآثار (1834) من الألمان أيضاً. وقد اتخذ المتحف

---

[267] حرصت على إيراد هذا الإقتباس، مخالفاً بذلك العرف الأكاديمى، وقد تاهت البطاقة التى كتبتها عليها بين أوراقى فلم استطع تحديد مصدرها، ولعله من وثائق الخارجية الفرنسية بأرشيف نانت.

[268] دار الوثائق القومية، محفوظات مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، مصلحة الآثار 1 / 4 : متاحف 1879 – 1914، ملف الحكومات الأجنبية والآثار المصرية، طلب دولة أمريكا لمسلة، 20 أكتوبر 1879، ويحتوى على مراسلات متبادلة بين شريف باشا – رئيس مجلس النظار– والقنصل الأمريكى العام فارمان.

الوطنى للآثار من الهيفايستيون مقراً له حتى عام 1874 عندما انتقل إلى المبنى الجديد الذى صممه الألمان على الطراز الكلاسيكى الجديد. لقد كان معظم اليونانيين يستمدون هويتهم من بيزنطة والكنيسة الأرثوذكسية اليونانية بقدر أكبر من ذلك الماضى القديم الذى بعثه أهل غرب أوروبا والأمريكيون. وكان التوافق بين التراثين (الوسيط والقديم) يحتل مركز الجدل فى الهوية القومية اليونانية الحديثة[269].

لقد تنقل متحف الآثار القديمة فى كل من إستانبول والقاهرة من مكان لآخر، ولكنهما بدآ بداية ملائمة تماماً. فلم تكن مجموعة القاهرة التى بدأ تكوينها عام 1835، أو مجموعة إستانبول التى بدأت فى كنيسة القديسة إيرين البيزنطية عام 1845، متاحة للجمهور. ولم يعمر المتحف السلطانى العثمانى الذى أسس عام 1869 طويلاً، وكان مديره بريطانى يدعى جولد، فما لبث أن ألغى ليعاد تأسيسه بعد ثلاث سنوات وتسند إدارته إلى ألمانى يدعى ديتير، قام بنقل المجموعة إلى جنلى كشك بطوب قابى سراى؛ ووضع مشروع قانون للآثار، وبدأ فتح المتحف للجمهور يومياً عام 1875، وخصص يوم الأربعاء لزيارة النساء.

واستطاع متحفا القاهرة وإستانبول أن ينجوا من الإفلاس فى أواخر السبعينات عام 1882 الذى شهد وفاة المدير الأوروبى لكل منهما، وتفرقت بهما السبل بعد هذا التاريخ. فقد استطاعت الدولة العثمانية فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى أن تسند إدارة الآثار لأحد أبنائها وهو الرسام التركى عثمان حمدى. أما مصر التى وقعت بين براثن الإحتلال البريطانى، فقد استمرت مصلحة الآثار والمتحف فيها فى قبضة الفرنسيين[270].

قام ماريت بتكديس مجموعة بولاق فى المقر القديم لشركة النقل البرى التى أنهى الخط الحديدى وجودها. وكان المقر الذى يقع على شاطئ النيل (بالقرب من مبنى التليفزيون ومبنى وزارة الخارجية الآن) مناسب تماماً لتفريغ القطع الأثرية الثقيلة التى تنقل من الصعيد بالمراكب على صفحة النيل.

---

[269] Maria Avgouli, "The First Greek Museums and National Identity", in Museums and the Making of "Ourselves" : The Role of Objects in the National Identity, ed., Flora E. S. Kaplan (London, 1994).

[270] استمر عثمان حمدى مديراً لمتحف إستانبول حتى وفاته عام 1910، انظر:
Tulay Egril, Museums of Istanbul (Istanbul 1993).

وفكر ماريت – فى البداية– أن يتخذ من الإسكندرية مقراً للمتحف الذى يعتزم بناءه لهذا الغرض مستقبلاً[271]، ولكن خط سكك حديد الإسكندرية – القاهرة هبط بزمن الرحلة إلى بضعة ساعات، وجعل من السهل على القادمين بالبحر التوجه إلى العاصمة. وبدأ ماريت يتخير موقعاً بالأزبكية حيث فندق شيبرد وغيره من الفنادق والمحلات والمقاهى التى تجتذب العديد من الأوروبيين.

غير أن وفاة سعيد المفاجئة فى يناير 1863 وهو فى الحادية والأربعين من عمره ، أزعجت ماريت، ولكن سرعان ما بعث الطمأنينة فى نفسه. وعلى حد تعبير ماسبيرو شعر ماريت بالغبطة عندما وجد فى إسماعيل "إنساناً له تطلعات خيالية مبهرة تفوق تطلعات ماريت نفسه ...[272]. وفكر فى مشروعات أكبر بعد ما أسكرته كلمات إسماعيل" فقد تحدث إسماعيل عن مجمع ضخم يقام بالأزبكية يضم متاحف للآثار اليونانية، والعربية، والفرعونية، فإذا أضيف إليه المجمع العلمى المصرى مع تعيين مدير متفرغ له وأمين لمكتبته، وإقامة مكتبة عامة، كل ذلك يحول المجمع "إلى مركز علمى مصرى حقيقى". وأدت إقامة حى الإسماعيلية فى غضون احتفالات إفتتاح قناة السويس، إلى جذب حركة بناء المساكن الحديثة غرباً نحو النيل، وغير ماريت رأيه فى الموقع الملائم لإقامة المتحف المصرى، فإختار الطرف الجنوبى من الجزيرة[273] المواجهة لبولاق ومعسكرات قصر النيل (انظر الخريطة 2).

وفى الوقت نفسه، هيأ ماريت مبنى بولاق ليكون متواضعاً بصفة مؤقتة، وتم وضع أساس المتحف الجديد فى صيف 1860، وكان من المتوقع أن تفرغ من بنائه شركة إيطالية خلال عام ووصلت بالفعل إلى الإسكندرية المشغولات الزخرفية الحديدية الخاصة بالواجهة "ذات الطراز العربى الجميل" قادمة من باريس. وفيما بعد، كتب ماريت:

"لم يعد باستطاعتك أن تميز مقرنا القديم فى بولاق، ففى وسطه الآن مبنى كبير على الطراز الفرعونى يضم 12 غرفة بنيت وفق خطتى. هذا هو متحفنا المؤقت، لا استطيع

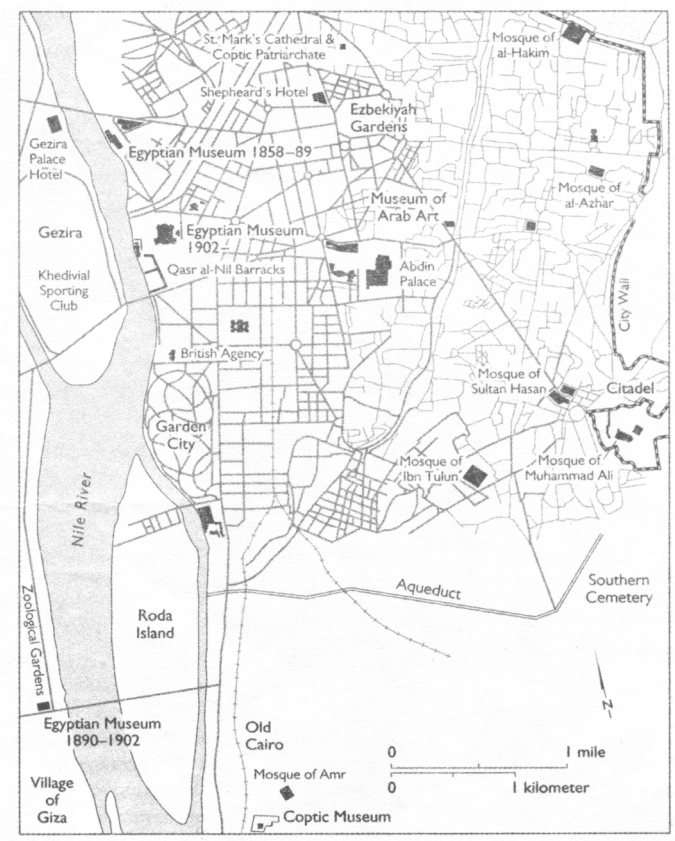
---

[271] دائرة الوثائق القومية، محافظ الأبحاث، 118 ب آثار، خطابات من ماريت إلى كونج فى أبريل 1858.

[272] هذا الإقتباس والإقتباسين التاليين له من:

Maspero, "Mariette", cxxiv, cxxv.

[273] Maspero, "Mariette", cxcii.



خريطة القاهرة حوالى عام ١٩١٤

القول أننا سنقيم هناك مثل الملوك ، ولكن لدينا على الأقل مجموعتان من صالات العرض انتظاراً للمتحف الفعلى. وقد اتخذت الزخرفة الخارجية والداخلية الطابع المصرى القديم، وسوف تتخذ القطع الأثرية مواقعها قريباً ... وسوف يتم افتتاح المنشآت الجديدة فى الأول من أكتوبر"[274]. وذهب منتقدو ماريت إلى تقدير تكلفة تلك المنشآت بمئات الألوف من الفرنكات، ولكن ماسبيرو يقدرها بستين ألفاً، تحمل ماريت جانباً منها من جيبه الخاص[275].

وقام إسماعيل بافتتاح متحف بولاق فى 16 أكتوبر 1863 بحضور أمين المتحف الفرنسى وأحد الشيوخ المقربين إلى نابليون الثالث، ولعله كان أول مبنى يقام فى مصر على الطراز الفرعونى، وكان يتكون من مبنيين: أحدهما للمتحف، والآخر لإقامة ماريت، وكانت له حديقة يمرح فيها غزاله الأليف. وفيما بعد أقنع ماريت إسماعيل بإضافة قاعتين أخريين للعرض لإبهار الضيوف الأوروبيين المدعوين لحضور إحتفالات قناة السويس[276].

---

[274] فيما يتعلق بمتحف بولاق عامة راجع:
Auguste Mariette Bey, Notice des Principaux monuments exposes dans les galaries provisoirer du Museee d'antiquites egyptiennes de S. A. le Vice – Roi aBoulaq, 1st – 5th eds., (Alexandria / Cairo 1864 – 74).

[275] Maspero, "Mariette", cxxxix.

[276] F. de Saulcy. "Musee du Cairo", Revue archeologique, n – s. (May 1864) 9 : 313 – 22; Maspero, "Mariette", cxxxix – cxi.



الشكل رقم (٢٠) الترتيبات الجمالية التى أقامها ماريت بمتحف بولاق

وقد رتب ماريت المعروضات على النسق الذى اتبعه روجيه فى الجناح المصرى باللوفر، مع تخصيص أقسام للديانة والآثار الجنائزية، وأدوات الحياة العادية، والآثار التاريخية. (وقام – فيما بعد – بتخصيص القسم الخامس لعرض آثار يونانية ورومانية، وقبطية). وقد اتبع ليبسيوس نظاماً مشابهاً للعرض فى متحف برلين تضمن الآثار التاريخية وأدوات الحياة اليومية، والأساطير. وكان ماريت يفخر بأن مجموعة بولاق – على نقيض المجموعات المصرية فى أوروبا– مسجل على كل منها مصدره الأصلى.

وأقر ماريت بإعتماده – أحياناً– الناحية الجمالية فى العرض أكثر من إهتمامه بالناحية "العلمية"، ودافع عن نفسه بالقول بأن هدفه من ذلك اجتذاب المصريين لزيارة المتحف (انظر الشكل 20):

> "إننى مطالب كأثرى – طبعاً– أن أتجنب طريقة العرض التى لا تفيد من الناحية العلمية، ولكن المتحف على النحو الذى نظمت به معروضاته يرضى أولئك الذين أقيم من أجلهم، فهم إذ يترددون عليه تدفعهم الرغبة فى المعرفة التى لا تتخذ طابع الدراسة، وإننى أقول دائماً أن غرس محبة الآثار المصرية (عند الزوار) يعنى أن هدفى قد تحقق"[277].

واستطرد ماريت شارحاً أن "متحف القاهرة لم ينشأ من أجل السياح وحدهم، فقد قصد الوالى من إنشائه أن يكون متاحاً لأبناء البلاد – حتى يتعلموا تاريخ بلادهم. ولا يعنى ذلك الإنقاص من قدر الحضارة التى أدخلتها أسرة محمد على إلى بلاد النيل، قائلاً أن مصر لازالت فى بداية الطريق وأن الأمر يتطلب وقتاً حتى يستوعب الجمهور المصرى

[277] Mariette, Notice, 1868, 10 – 11.

الآثار والفنون. ففيما مضى دمرت مصر آثارها، ولكنها تحترم اليوم تلك الآثار، وغداً ستعشقها"[278].



الشكل رقم (٢١) فناء متحف الآثار ببولاق – لنساء محجبات وسياح أجانب

قام عبد الله أبو السعود – تلميذ الطهطاوى– بترجمة دليل المتحف الذى أعده ماريت إلى اللغة العربية، وهو يبدأ بالبسملة والصلاة على النبى، ثم يذكر الهدف من الدليل وهو شرح محتويات المتحف الذى أنشأه ماريت للمصريين حتى يعلموا ما كان عليه أجدادهم[279]. ولا تتوفر لدينا معلومات كافية عن مدى استفادة المصريين بالمتحف، فهناك صورة رسمها فنان ألمانى تظهر فيها نساء منقبات مع بناتهن، ونساء أوروبيات فى الفناء الأمامى للمتحف (انظر الشكل 21).

وقد وضع ماريت الزوار والمصريين فى اعتباره عندما أكد أن قدماء المصريين لم يكونوا وثنيين مشركين، بل كانوا يؤمنون "بإله واحد، حى لا يموت، خالق لا مخلوق، لا يرى، ولكنه موجود فى أعماق خلقه، فهو خالق كل شئ فى الوجود ... "[280]. وكان اعتقادهم بآلهة أقل شأناً بمثابة تجسيد لقدرات الخالق.

ويظل الموقف الشخصى لكل من سعيد وإسماعيل تجاه الآثار محيراً، فقد صحب سعيد ماريت معه على باخرته وسأله عن الموقع الذى يمكن أن يؤدى الحفر فيه إلى العثور على الآثار، لاستيائه لعدم العثور عليها. ولم يزر سعيد المتحف سوى مرة واحدة بصحبة الكونت دى شامبور المطالب الشرعى بالعرش الفرنسى، وقضى الزيارة التى استغرقت 45 دقيقة فى خيمة حريرية بفناء المتحف مستغرقاً فى التدخين والحديث إلى القنصل الفرنسى، ولم يهتم بمصاحبة الكونت أثناء تفقده للمعروضات[281].

---

[278] Mariette, Notice, 1868, 10.

[279] أوجست ماريت بك، وصف نخبة الآثار القديمة المصرية الموضوعة فى أنتكخانة التحف العلمية المصرية (القاهرة 1286 / 1869).

[280] Mariette, Notice, 1868, 20 – 21.

[281] Maspero, "Mariette", cxxvii – cxxviii.

ووفقاً لما يذكره ماسبيرو لم يدخل إسماعيل المتحف مع ضيوفه الفرنسيين عند إفتتاحه "فهو كشرقى أصيل يخيفه ويفزعه الموت ولذلك يبتعد عن المكان الذى تعرض فيه المومياوات. وقد ظل بحديقة المتحف – بينما كان المحتفلون بداخله– يتسلى بالفرجة على القردة، وقفزات (فينت) غزالة ماريت"[282] وتكشف هذه الطرف التى يرويها المستشرقون الكثير عن ماريت وماسبيرو وقرائهما الغربيين، بقدر ما تفعل بالنسبة لسعيد وإسماعيل.

تاريخ الطهطاوى عن مصر قبل الإسلام

إعتمد الطهطاوى على أعمال ماريت إعتماداً تاماً فى حملته لجذب أنظار المصريين نحو مصر القديمة. فقد أعاد إسماعيل رفاعة الطهطاوى إلى موقعه السابق ناظراً لقلم الترجمة، عشية توليه الحكم، وأسندت إليه فيما بعد مهمة الإشراف على تدريس اللغة العربية بالمدارس، ورئاسة تحرير مجلة "روضة المدارس".

وكان ثلاثة من تلاميذ الطهطاوى (أحدهم عبد الله أبو السعود)، قد ترجموا فى 1838 – 1839 كتاباً فرنسياً عن مصر القديمة، نشر بالعربية تحت عنوان "بداية القدماء وبداية الحكماء" وتولى الطهطاوى مراجعة الترجمة والتقديم لها[283]. وعاد أبو السعود إلى الموضوع مرة أخرى فى 1864 – 1865 بترجمة لكتاب ماريت "نظرة على تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى الفتح الإسلامى"، ونشرت الترجمة العربية بعنوان "كتاب قدماء المصريين"، وقد طلب إسماعيل ترجمة هذا الكتاب – كما يقول أبو السعود– لأن "الخديو يريد أن يوقظنا من سباتنا العميق بدراسة تاريخ أجدادنا، حتى نستعيد مجدهم الغابر، ونهتدى بسنتهم، فنعمل معاً كمصريين أصلاء، ووطنيين حقيقيين من أجل نهضة مصر"[284].

وذهب عبد الله أبو السعود إلى أن حب الوطن يعنى العمل معاً لتحقيق صالح أبناء الوطن دون النظر إلى الأصل أو العرق. ولم يقبل أبو السعود بالشلال الأول كمعلم لحدود مصر

---

[282] Maspero, "Mariette", cxI.

[283] بداية القدماء وبداية الحكماء، ترجمة مصطفى الظواربى، ومحمد عبد الرازق، وعبد الله أبو السعود (بولاق 1254 / 1838)؛ أبو الفتوح رضوان، تاريخ مطبعة بولاق (القاهرة 1953) 468، يورد ذكر تاريخ المصريين أو تاريخ قدماء المصريين بين كتب الطهطاوى (1839)؛ عايدة إبراهيم نصير: كتب عربية منشورة فى مصر فى القرن التاسع عشر (القاهرة 1990) 252.

[284] مقتبس من كتاب:

Arthur Rhone, L'Egypte a petites journees: Le Caire d'autre Fois newed. (Paris, 1910), 3.

الجنوبية مدافعاً بذلك عن حركة التوسع التى قام بها إسماعيل، لأنه مهمة تحضير "المتوحشين الوثنيين" فى أقصى جنوب حوض النيل تقع على عاتق مصر[285]. وحملت الصحيفة التى أصدرها عن عبد الله أبو السعود عام 1867 – بدعم من إسماعيل – عنوان "وادى النيل" الذى يعكس الوعى المصرى الذى جمع بين الإعتزاز بالفراعنة والإمبراطورية السودانية الجديدة. وبالإضافة إلى ذلك، تولى أبو السعود التدريس بدار العلوم، والكتابة فى "روضة المدارس"، وترجم دليل المتحف الذى وضعه ماريت إلى العربية.

وكتب رفاعة الطهطاوى أول كتاب قدم مسحاً مستفيضاً لتاريخ مصر القديم، نشر بعنوان: "أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل"، ويتناول تاريخ مصر فى العصور الفرعونية، واليونانية – الرومانية، والبيزنطية، وصولاً إلى الفتح الإسلامى ، وبعد وفاة رفاعة (عام 1873) بعام واحد، قام إبنه على فهمى رفاعة بنشر العمل الذى لم يكمله والده، وهو كتاب "نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز" الذى تناول سيرة النبى محمد حتى البعثة[286].

وتماماً كما فعل فى كتابه "تخليص الإبريز" قبل ذلك بثلاثة عقود، صدر الطهطاوى كتاب "أنوار توفيق" بمقدمة يدفع بها عن نفسه هجمات المحافظين. وقد أشاد الشيخ مصطفى العروسى – شيخ الأزهر– ببراعة الطهطاوى فى الفنون التاريخية، ولكن الشيخ محمد الدمنهورى – أحد علماء الأزهر– إمتدح الكتاب لإحتوائه على أمثلة لفضلاء الرجال الذين خدموا الوطن منذ آلاف السنين. وذهب أحمد خيرى – السكرتير الخاص للخديو – إلى أن معرفة الأوروبيين للهيروغليفية جعلت بالإمكان أن يتخلص المرء – غير ملوم – من المصادر العربية المليئة بالإسرائيليات. وامتدح على مبارك الكتاب لاستناده إلى الشواهد المستمدة من علم الآثار الأوروبى والدراسات اللغوية بدلاً من تكرار الحكايات الخيالية القديمة. واستهل الطهطاوى كتابه بآية قرآنية تعظم من شأن العقل الإنسانى ،

---

[285] يقدم الشيال عناوين مختلفة لهذه الترجمات، انظر:

Shayyal, History, 41 – 43.

[286] رفاعة الطهطاوى، أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل، فى الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى، تحقيق محمد عمارة، المجلد 3، تاريخ مصر والعرب قبل الإسلام (بيروت 1974).

وامتدح الخديو "حامى حما الوطن، الذى أعاد لمصر مجدها التليد، وجدد حاضرها الإسلامى"[287].

وضع الطهطاوى التاريخ الوارد "بالكتب السماوية" جانباً، وقسم تاريخ البشرية إلى تاريخ عام يعالج كل الأمم، وتاريخ خاص تناول أمة واحدة مثل مصر، والعراق القديم ، والأكراد، والفينيقيين، وفارس، والهند، واليونان. ورأى أن مصر ليست كغيرها من الأمم التى يتألق نجمها فى عصر من العصور ثم يأفل تماماً، فقد احتفظت مصر بحيويتها عبر سبعين قرناً، وكانت فى عصر الفراعنة بمثابة الأم لجميع أمم العالم الأخرى، وذاعت شهرتها فى عهد الإسكندر والبطالمة والرومان كمصدر للعلم والحكمة. وأصبحت مصر بعد ذلك مركز الحضارة الإسلامية، فهزمت ممالك الفرنجة، واستردت منهم بيت المقدس، وأوقعت ملك فرنسا فى الأسر. ولعبت مصر دوراً أساسياً فى نشر الحضارة فى الغرب ، وهزمت الغزاة الفرنسيين فى بداية القرن الحالى (التاسع عشر)، وهى تستعيد الآن مجدها بفضل أسرة محمد على [288].

وتضمن الكتاب نحو 12 فصلاً تمهيدياً تناولت جغرافية مصر، ومصادر مياه النيل ، والفيضان، ومقاييس النيل، والزراعة فى مصر القديمة، والترع، والبحيرات، والزهور، والنباتات، والمعادن، والمركز الإقليمى لمصر. وتناول فى فصل من ثلاث صفحات الآثار مؤكداً على تفرد الأهرام، والمسلات، وأبى الهول والنقوش الهيروغليفية، والعمود الأثرى بالإسكندرية[289]. وأشار الطهطاوى إلى المسلة التى حصلت عليها فرنسا من مصر ونقلتها إلى باريس، ورغم انتمائه إلى الصعيد، لم يشر إلى آثاره العظيمة فى أكثر من ثلاثة سطور. وأشار إلى الأمر الذى أصدره محمد على عام 1835 لجمع الآثار، ملتمساً تبريراً له بإحدى الآيات القرآنية.

وقد مزج الطهطاوى بين ما جاء بالقرآن والكتاب المقدس ولوحة الأسرات التى أعدها مانيتو للبطالمة حكام مصر الذين يتحدثون اليونانية، فإعتبر الملك الأسطورى مينا هو

---

[287] Yousef M. Choueri, Arab History and the Nation – State: A Study in Modern Arab Historiography 1820 – 1880 (London, 1989), 9 – 11.

[288] الطهطاوى، أنوار توفيق، 14 – 15، 18 – 19.

[289] الطهطاوى، أنوار توفيق، 33 – 70، والفصل الخاص بالآثار 63 – 66.

حفيد نوح مصرايم بن سام. وسار الطهطاوى على نهج ماريت من حيث التحديد الزمنى للملك مينا بالعام 5626 قبل الهجرة (الموافق للعام 5004 قبل الميلاد)، رغم إشارته إلى أن بعض العلماء الأوروبيين قد يهبطون بهذا التقدير ألفان أو ثلاثة آلاف عام[290].

وتتبع الطهطاوى حكم كل ملك من ملوك الثلاثين أسرة التى أوردها مانيتو، ولاحظ أن حل رموز الهيروغليفية على يد الأوروبيين ساعد على قراءة أسماء بناة الأهرام الثلاثة بالجيزة قراءة صحيحة، وإن كان لم يتم التحقق مما إذا كانوا قد عاشوا قبل إبراهيم أو بعده[291]. ومن المفترض أن تكون إشارة الطهطاوى إلى هيرودوت، وسترابو، وديودور الصقلى مستقاة من شامبليون، وماريت، وغيرهما من الأوروبيين المحدثين، واقتفى الطهطاوى أثر ماريت فى تأكيد المعلومات من خلال الشواهد الأثرية لدعم أو نفى ما جاء بالمصادر الأدبية اليونانية، وحاد عن ماريت بأسلوبه الأدبى الزخرفى، وبالدروس الأخلاقية التى قدمها استناداً إلى القرآن، وبالرجوع إلى مصادر عربية كالمسعودى، والمقريزى، وإبن عبد الحكم، والسيوطى.

ويعكس كتاب "أنوار توفيق" محدودية المعرفة الأوروبية بتاريخ مصر القديم عندئذ، فلم تكن هناك شواهد أثرية متاحة عن الأسرتين الأولى والثانية، والأسرة الخامسة، وأوائل الفترة الوسطى التى أعقبت "الدولة القديمة"، واعتبر الطهطاوى الهكسوس "رعاة الأغنام " عرباً، وكانت معلوماته عن حتشبسوت وأمونحتب الرابع وثورته الدينية ونقله العاصمة إلى تل العمارنة، معلومات محدودة، وتبع ماريت فى اعتبار رمسيس الثانى ، سيزوستريس اليونانيين، وقبل بروايات هيرودوت الباهتة عن فتوحاته. ولاحظ الطهطاوى أن البعض يرى أن رمسيس – سيزوستريس يعادل هيرميس تريسمجستس وإدريس الذى يرد ذكره فى القرآن. وقدم عرضاً للجدل حول تحديد فرعون موسى، مزكياً مرنيتاح أحد ملوك الأسرة التاسعة عشر[292].

ولم يهتم الطهطاوى بتقديم المقابل (بالتقويم الجريجورى) لما أورده من تواريخ قبل الهجرة، فلم تهتم المطبوعات العربية بذكر المقابل للتاريخ الهجرى بالتقويم الجريجورى

---

290 الطهطاوى، أنوار توفيق، 70.
291 الطهطاوى، أنوار توفيق، 64، 74.
292 الطهطاوى، أنوار توفيق، 73، 74، 80، 90، 94، 95، 100 – 105، 110 – 113.

(الميلادى) إلا نحو العام 1900، وقد تبع الطهطاوى نهج ماريت فى كتابه "نظرة على تاريخ مصر" فى الإشارة إلى تواريخ ما قبل الهجرة بدلاً من قبل الميلاد وأوائل التقويم الميلادى، ولكنه أشار إلى أن حساب السنين قد تم حسب السنوات الشمسية، وبذلك يصبح عام 2314 قبل الهجرة موافقاً للعام 2314 بالسنوات الشمسية، رغم أن التقويم الهجرى تقويم قمرى. وقد أضاف محقق طبعة "أنوار توفيق الجليل وتوثيق بنى إسماعيل" التى ظهرت فى القرن العشرين، المقابل الميلادى للتاريخ الهجرى، وأشار إلى أن تداخل سنوات حكم الأسرات التى وردت بقائمة مانيتو زاد من المدى الزمنى للعصر الفرعونى ألفى عام[293].

وأورد الطهطاوى نصوص بعض نقوش أهرام سقارة مستنتجاً منها أن قدماء المصريين كانوا من الصابئة. ويشير محقق"أنوار توفيق" إلى أن الصابئة قوم من حران بالعراق ، إعتنقوا ديناً سابقاً على الإسلام، يقدس الكواكب. ويستخدم المصطلح أيضاً للدلالة على جماعتين فى صدر الإسلام إحداهما مسيحية والأخرى وثنية، لا تتوفر عنهما معلومات كافية[294]. ولما كان القرآن يعتبر الصابئة شأنهم شأن المسيحيين واليهود "من أهل الكتاب"، فقد كانت نسبة قدماء المصريين إلى الصابئة تقرب الأمور إلى أذهان المسلمين من المصريين المحدثين – وربما الأقباط أيضاً– لتحقيق التواصل مع التراث الفرعونى.

وجاءت نهاية الكتاب بالفتح الإسلامى لمصر عام 18 هـ / 640 م لتعكس رؤية المسلمين لرسالة النبى محمد بإعتبارها حداً فاصلاً بين عهدين. غير أن الطهطاوى لم يشعر بالتناقض الذى وقع فيه عندما تبع ماريت فى الحديث عن عصرين رئيسيين فى مصر ما قبل الإسلام: عصر وثنى (جاهلى) إنتهى بصدور مرسوم تسودوريوس عام 241 هـ / 391 م بتحريم العبادات الوثنية وإغلاق المعابد؛ والعصر المسيحى (القبطى) الذى استمر 259 عاماً حتى وقوع الفتح الإسلامى. وكان هذا مناسباً لمارييت، ولكنه قد يعنى بالنسبة للمسلمين أن العصر المسيحى لم يكن من الجاهلية، وعندما يتحدث الطهطاوى عن "القرون الوسطى" التى تبدأ بالفتح الإسلامى، نجده يتبنى – ربما دون وعى– التقسيم

---

293 الطهطاوى، أنوار توفيق، 73.

294 ت. فهد، مادة "الصابئة" دائرة المعارف الإسلامية، 8 : 675 – 78.

الغربى للعصور إلى ثلاثة: قديم، وسيط، وحديث دون أن يضع فى حسبانه المشكلات المتصلة بتطبيق هذا التقسيم على التاريخ الإسلامى[295].

أتاح نشر كتاب "أنوار توفيق وتوثيق بنى إسماعيل" للقارئ العربى مرجعاً فى تاريخ مصر الفرعونى، ولكن نصيبه من الكتاب لم يتجاوز الخمس، فقد خصص الطهطاوى صفحات كثيرة للعصور التالية: الإسكندر، والبطالمة، والرومان حتى عهد تيودوريوس ، والبيزنطيين من عهد تيودوريوس حتى الفتح الإسلامى، ثم حول بؤرة اهتمامه إلى الجزيرة العربية ليتحدث عن العرب قبل الإسلام، وبذلك حظى الألف عام من تاريخ مصر اليونانى الرومانى والبيزنطى بما يوازى ثلاثة أضعاف ما خصصه الطهطاوى للعصر الفرعونى.

وفى العام 1865، تلقت مطبعة بولاق أمراً بطباعة خمسمائة نسخة من كتاب الطهطاوى "تاريخ مصر" للمدارس. ولما كان كتاب "أنوار توفيق" قد نشر عام 1868، ربما كان الأمر يخص إعادة طبع كتاب "بداية القدماء". وقد رشح الشيخ محمد عبده كتاب "أنوار توفيق" ككتاب دارسى للشباب المصريين، ولكن لا تتوفر لدينا معلومات عن كيفية تلقيهم للكتاب[296]. ولم يعد نشر الكتاب إلا عام 1977.

وفى ظل رئاسة الطهطاوى لتحرير مجلة "روضة المدارس" كان من بين كتابها أربعة – على الأقل– من العلماء المعنيين بنشر التراث الفرعونى بين المصريين المحدثين، هم : الطهطاوى، وعلى مبارك، وعبد الله أبو السعود، وهنريش بروجش. وكان مجلس تحرير المجلة يضم ستة من المصريين إضافة إلى بروجش[297]. وكان مبارك وأبو السعود من كتاب المجلة، وتولى على فهمى رفاعة مساعدة والده فى تحريرها. وكانت للطهطاوى خبرة سابقة بالصحافة منذ توليه رئاسة تحرير "الوقائع المصرية". واتخذت "روضة المدارس" من المجلتين الفرنسيتين: "المجلة الموسوعية" و"المجلة الأسيوية" نموذجاً

---

[295] الطهطاوى، أنوار توفيق، 20 – 21.
[296] خليل صابات، تاريخ الطباعة فى الشرق العربى، ط 2 (القاهرة، 1966).
[297] محمد عبد الغنى حسن، وعبد العزيز الدسوقى، روضة المدارس، نشأتها واتجاهاتها الأدبية والعلمية، (القاهرة 1975) 44 – 45.

فضفاضاً لها[298]، فتنوعت موضوعاتها من الإنسانيات إلى العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية. وكان يطبع منها فى البداية 350 نسخة زيدت فيما بعد لتصبح 700 نسخة.

وبافتتاح "مدرسة اللسان المصرى القديم" قبل صدور "روضة المدارس" ببضعة شهور، أتيح لهنريش بروجش أن يشهد مولدها، فنشر بها دراسة فى تاريخ النقود مترجمة إلى العربية، ونصوص المحاضرات التى ألقاها بدار العلوم[299]. وقام تلميذ له يدعى محمد على بنشر ترجمة بعض النصوص الهيروغليفية، وقدم الصحفى القبطى ميخائيل عبد السيد دراسة فى "عادات قدماء المصريين"[300].

التنافس فى حقل "المصريات" بالقاهرة – الفرنسيون، والألمان، وغيرهم

كان عقد الستينات بمثابة "عقد فرنسا" تحت سماء مصر بفضل ميل سعيد وإسماعيل إلى الثقافة الفرنسية، وقناة السويس، وإنجازات ماريت، ومكانة نابليون الثالث. ودخلت كلمة "الإمبريالية imperialism" اللغة الإنجليزية فى الخمسينات، وارتبطت غالباً بالإمبراطورية الفرنسية الثانية[301]. فقد أدت مواقف نابليون الثالث فى حرب القرم، والمكسيك، والهند الصينية، ومصر إلى الربط بين هذا المصطلح والتوسع فيما وراء البحار. وشهد عقد الستينات عدداً أكبر من كتب الدليل السياحى لمصر بالفرنسية فاق عدد ما نشر منها بالإنجليزية[302]. وكانت الإمبراطورة أوجينى نجمة احتفالات قناة السويس فى نوفمبر 1869، فجاء ذلك تعبيراً عن المكانة التى إكتسبتها فرنسا على ضفاف النيل.

وبعد ذلك الحدث بعشرة شهور، مزقت بروسيا الجيش الفرنسى ومعه الإمبراطورية الثانية فى موقعة سيدان، وفتحت بذلك الطريق أمام بسمارك لتوحيد ألمانيا، وقيام الرايخ الثانى بقيادة بروسيا. وأدى الحصار الألمانى إلى إحتجاز ماريت فى باريس لعدة شهور،

---

[298] Louca, Voyageurs, 73.

[299] حسن، والدسوقى، روضة المدارس، 219 – 220، 363 – 365.

[300] حسن، والدسوقى، روضة المدارس، 222، 227، 363 – 365، 381.

[301] Oxford English Dictionary, 2nd ed. (1989); Grand Larouse de La langue francaise (Paris, 1971 – 1978).

[302] انظر الجدول رقم (6) بالملاحق.

وعندما استطاع السفر، هرع إلى بولاق ليقف فى وجه أى تحد من جانب الألمان لصدارة فرنسا فى مجال الآثار هناك[303].

ولم يكن البريطانيون يثيرون قلق ماريت فى مجال "المصريات"، فقد كانت اللغة الفرنسية أول اللغات الأوروبية التى صاغت مصطلحات هذا الحقل المعرفى الجديد؛ وبدأ مصطلح "مصرياتى Egyptologue" (أى المشتغل بالآثار المصرية) يظهر عام 1827 الذى شهد افتتاح شامبليون للقسم المصرى باللوفر، ولحق به مصطلح "المصريات Egyptologie" حوالى عام 1850. ولم يستخدم مصطلح "مصرياتى" بهجائه الفرنسى ككلمة مستعارة فى الإنجليزية إلا على يد كاتب إنجليزى عام 1856، وبدأ استخدام الإنجليزية لكلمة "مصريات" (بهجائها الإنجليزى) عام 1859، لينتشر بعد ذلك استخدامها فى الستينات. وقد مثل الإنجليز فى هذا المجال – دون أن يحمل إسماً ما– كل من سولت وويلكنسون وهاى ولين، فى مصر فى العشرينات والثلاثينات. وفى أيام ماريت كان صامويل بيرش أبرز عالم مصريات بريطانى، واحتل مكانه فى التكريم بين رواد علم المصريات على واجهة المتحف المصرى الذى أقيم عام 1902، إلى جانب شامبليون ، وليبسيوس، وروسيللينى رغم أنه لم يزر مصر مطلقاً. وكاد البريطانيون من الدبلوماسيين والتجار والممولين أن يكونوا سلبيين. وكان من سوء طالع فرنسا – ومصر– أن 66 % من البضائع التى تمر عبر قناة السويس – التى رعاها الفرنسيون– فى السنة التالية لإفتتاح القناة، بضائع بريطانية، وبحلول عام 1880 وصلت النسبة إلى 80%، كما بلغت نسبة وارداتها إلى مصر 44%[304].

وشغلت "المشكلة الألمانية" الفرنسيين الوطنيين بعد عام 1870، ولكن لم يستقر الرأى بينهم على كيفية مواجهة التحدى الألمانى، فكان جورج كليمنصو يعتبر التوسع الإمبريالى فيما وراء البحار نوعاً من الإلهاء عن مسألة الحدود الألمانية وإعادة بناء الوطن، وكان جول فيرى ومجالس الوزراء الجمهورية من الإنتهازيين – فى بداية الثمانينات– والحزب

---

303 Maspero, "Mariette", cixxx – xlxxxii.

304 D. A. Farnie, East and West of Suez 1854 – 1956. (Oxford, 1969), 751 – 52; A. G. Hopkins, "The Victorians and Africa: Reconsideration of the Occupation of Egypt, 1882", Journal of African History, 27 (1986), 379.

فيما يتعلق بمصطلح "المصريات" راجع:

Dectionnaire de la langue francaise (Paris 1988), vol. 5 : 97.

الاستعمارى (الذى كان يمثل ائتلافاً من الموانى، والعسكريين والمعمرين، والمبشرين والجمعية الجغرافية) تمسكوا بالتوسع الخارجى فيما وراء البحار كمقوى ضرورى لتفجير طاقة التقدم فى فرنسا ذاتها[305].

وإتخذت "الرسالة الحضارية" لفرنسا طابع العجلة من جديد بعد عام 1870 مع وجود ماريت فى المقدمة، ولابد أن يكون قد استاء من سماع الشائعة التى رددها الألمان دائماً من أنهم سيسعون لجعل زميله القديم هنريش بروجش خلفاً له فى إدارة مصلحة الآثار والمتحف. فقد كان لدى بروجش خبرة بالعمل فى القنصلية البروسية بالقاهرة، كما كان يتولى نظارة "مدرسة اللسان المصرى القديم" بالقاهرة، ووفرت كفاءته العلمية لعلم المصريات الألمانى مكانة فى القاهرة لم تعرفها بلاده منذ أيام ليبسيوس.

وبعد عودة ليبسيوس إلى برلين عام 1846، ما لبث الألمان أن أصبحوا فى وضع يسمح لهم بمنافسة الفرنسيين فى قيادة علم المصريات. واتخذ ليبسيوس من المتحف المصرى ببرلين وجامعة برلين قاعدتين لتكوين وتدريب الجيل الثانى من الألمان المتخصصين فى المصريات. وكرمه القيصر فيلهلم الأول بدعوته لتناول الشاى معه، واجتذبت دائرة تألق ليبسيوس المستشرق ماكس مولر، والأخوان جريم، والجغرافى كارل بيتر، والمؤرخ ليوبولدفون رانكه، والفيلسوف فردريش شيلنج، ومؤرخ الرومان تيودور مومسن[306]. حتى ماسبيرو أشاد به واعتبروه "معلمنا جميعاً"[307].

وبينما كان بسمارك يقوم بتوحيد ألمانيا بزعامة بروسيا، وبلغت حلقات الأبحاث والمعامل الألمانية درجة جعلتها موضع حسد العالم، كان مجال المصريات يبنى نفسه كتخصص أكاديمى، فأنشئت كراسى الأستاذية فى مختلف أنحاء ألمانيا: جامعة جوتنجن (1868 ، وشغله هنريش بروجش)، وجامعة ستراسبورج (1872، وشغله يوهان دوميشن)، وجامعة هايدلبورج (1872، وشغله أوجست إيسنلور)، وانضمت أسماء بروجش ودوميشن

[305] Cristopher M. Andrew and A. S. Kanya – Forstner, The Climax of French Imperial Expansion 1914 – 1924 (Stanford, 1981); Mathew Burrows, "Mission civilisatrice": French Cultural Policy in the Middle East 1860 – 1914", Historical Journal 29 (1986), 109 – 35.
[306] George Ebers, Richard Lepsius, A Biography, trans. Z. D. Underhill (New York 1887), 275 – 76; Suzanne L. Marchand, Down From Olympus: Archaeology and Philhellenism in Germany 1750 – 1970 (Princeton, N. J., 1996) 49, 108.
[307] Ebers, Lepsius, 300.

وإيبرس إلى جانب إسم ليبسيوس على اللوحة التى حملت أسماء رواد المصريات على واجهة المتحف المصرى بالقاهرة[308]. وحمل بروجش هذه الإشراقات الألمانية فى مجال المصريات معه إلى القاهرة، وكان يصغر ليبسيوس بسبعة عشر عاماً، ولم يتعامل معه ليبسيوس كأحد حواريه بل عده منافساً له، فقد حصل بروجش على الدكتوراه من برلين، ولكنه علم نفسه بنفسه أكثر مما تعلمه من ليبسيوس، وبعد أن قام بروجش بعدة دراسات فى باريس، حصل على منحة زمالة بروسية للبحث فى مصر، فأجرى حفائر فى سقارة بجوار حفائر ماريت لمدة ثمانية شهور، وبعد أن قام ببعثة دبلوماسية فى بروسيا، وأسس أول مجلة ألمانية فى المصريات عام 1863، عاد إلى القاهرة قنصلاً عاماً لبروسيا، وأخيراً أسس كرسى للمصريات بجامعة جوتنجن عام 1867 من أجله، ولكنه عاد إلى القاهرة بعد عامين ليتولى نظارة "مدرسة اللسان المصرى القديم"[309].

وشهد عام 1864 حادثاً أدى إلى إساءة علاقة ماريت مع الألمان، فقد نسخ دوميشن لوحة الملوك التى اكتشفها عمال ماريت فى أبيدوس، وأرسل النسخة إلى ليبسيوس الذى نشرها دون أن ينوه بجهد ماريت. واعتبر ذلك ماساً بالشرف الوطنى وسط الصخب الذى أثير حول هذه المسألة، حتى أن دوميشن وصل إلى درجة تحدى ماريت لمبارزته[310].

ولكن صداقة ماريت وبروجش ساعدت على تهدئة العاصفة، وفى أواخر يونيو 1870 استقلا باخرة واحدة من الإسكندرية إلى مارسيليا لقضاء إجازة الصيف. وعندما وصل ماريت إلى باريس فى 6 يوليو، كان لوى أدولف تير يبذل آخر محاولة يائسة لمنع الجمعية الفرنسية من إعلان الحرب على بروسيا، ومع تردد أصداء الحرب الفرنسية – البروسية كان هناك شيخ سودانى يرقبها من بعيد، ويزعم أنه "يعلم جيداً أن ملك الألمان قد توفرت لديه الموارد التى تجعله قادراً على سحق الفرنسيين بفضل الكنوز التى عثر عليها الخواجة ليبسيوس فى مرو وأرسلها إلى بلاده"[311]. وحشد أعداء ماريت جهودهم

---

[308] حول تواريخ كراسى الأستاذية، انظر تحت أسماء هؤلاء موسوعة
Who Was Who 3.

[309] Louis Keimer, "Le Musee egyptologique de Berlin" Chiers d'histoire egyptienne, set3, Fasc. 1 (Nov. 1950), 30 – 36.

[310] Maspero, "Mariette", cxlvi – cli.

[311] Ebers, Lepsius, 157.

أثناء غيابه بباريس بسبب الحصار، داعين إسماعيل أن يستبدل به بروجش، ولكن بروجش نأى بنفسه عن تلك المؤامرات، ورد عليه ماريت قائلاً:

"إنك بالنسبة لى لست ألمانياً، إنك بروجش وحسب، ولست بحاجة لشرح موقفك من تلك الأحداث. لقد أثرت على مشاعرى كمواطن فرنسى، ولكنها لم تبدل من مشاعرى كإنسان، وخاصة نحوك. إننى أحبك كصديق حق، وقد أحببتك دائماً بحماس طبيعى لا يقضى عليه شئ ولن يقضى عليه شئ"[312].

وبعد ذلك بعامين فام ماريت بتوظيف إميل شقيق بروجش الأصغر مصوراً بمصلحة الآثار، وقدرله أن يخدم بمصلحة الآثار سنوات طوال.

وأدت وفاة دى روجيه عام1873 إلى خلو مكانه فى كلية فرنسا ومتحف اللوفر، ولكن ماريت لم يهتم بالسعى لنيل أى من الوظيفتين وتركهما لماسبيرو وفرانسوا شابان وقال أن الواجب يدعوه إلى التمسك بموقعه "فى مصر فى مواجهة النفوذ الألمانى الذى يضغط بمختلف الوسائل"[313].

وعندما قام جورج بانكروفت "مؤلف تاريخ الولايات المتحدة، ثوكيديدس أمريكا" بزيارة مصر، وجده ماريت منحازاً للألمان إلى حد نكران مساعدة فرنسا للأمريكان فى الحصول على الاستقلال[314]. وعندما أصبح بانكروفت سفيراً فى برلين – فيما بعد– إنضم إلى دائرة ليبسيوس، وكانت تلك الروابط "الأنجلو سكسونية" التى تجذب الأمريكان إلى أبناء عمومتهم الألمان أمراً طبيعياً، فقد انضم بريطانيان هما النحات جوزيف بونومى ، والمعمارى جيمس وايلد إلى بعثة ليبسيوس ... وكان الدبلوماسى البروسى البارون فون بونس – عاشق المصريات – ميالاً للإنجليز ومتزوجاً من إنجليزية، وأصبح سفيراً لبروسيا فى لندن[315].

ولم يكن وارداً أن يسعى الطليان لإدارة مصلحة الآثار بالقاهرة، لقد كانت اللغة الإيطالية هى الأكثر شيوعاً فى البحر المتوسط فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، وفى عام

312 Maspero, "Mariette", clxxxii.
313 Maspero, "Mariette", cxc.
314 Mariette, Mariette, 117 – 119.
315 On Bonomi Wild, and Bunson, see Who Was Who 3, 53 – 54, 442, 73.

1845 كانت أول صحيفة "La Spetatore Egiziano" (المشهد المصرى) أول صحيفة ذات شأن فى مصر بعد صحف الحملة الفرنسية التى إنتهى أمرها، وصحيفة "الوقائع المصرية"، وقد صدرت ثلاث صحف إيطالية أخرى بمصر فى الخمسينات[316]. وفى نفس الوقت الذى صدرت فيه ثلاث صحف فرنسية أيضاً، وحتى الستينات كان الفرنسيون يعتبرون اللغة الإيطالية هى لغة التجارة والإرساليات التبشيرية فى شرق البحر المتوسط[317]. وتولت شركة إيطالية إدارة البريد فى مصر، وتولى إيطاليان إدارة الخدمة الصحية، والإحصاء. ولكن إعتباراً من 1867، حلت الفرنسية محل الإيطالية كلغة ثانية على طوابع البريد المصرية، وفى السبعينات أصبحت الفرنسية لغة المحاكم المختلطة، ولغة "الرقابة الثنائية" الأنجلو – فرنسية على المالية المصرية، وكذلك لغة الطبقات العليا من الأجانب فى مصر.

وأضفت أسماء روسيللينى، ولوجى فاسالى، وأماديو بيرون مسحة إيطالية على لوحة التكريم بواجهة المتحف المصرى بالقاهرة. فقد نشر بيرون قاموساً للقبطية عام 1835 قبل أن يركز جهوده فى الدراسات اليونانية. وجاءت وفاة روسيللينى المبكرة لتنهى عمله الذى كان واعداً. وعمل فاسالى (1812 – 1887) مساعداً لمارييت بالمتحف المصرى، وكان أكبر منه سناً، ولا يصلح لخلافته فى منصبه[318]. أما النجم الحقيقى الإيطالى فى علم المصريات فكان جيسب بوتى الذى عين عام 1892 مديراً للمتحف اليونانى – الرومانى بالإسكندرية، الذى أصبح مركزاً للثقافة الإيطالية.

علم "المصريات" للمصريين – بروجش ومدرسة اللسان المصرى القديم

أراد إسماعيل وعلى مبارك أن يكونا فريقاً من الشباب المصرى المتخصص فى الآثار المصرية القديمة للعمل إلى جانب الأوروبيين بمصلحة الأنتيكات (الآثار) والمتحف المصرى. وعارض مارييت هذه الفكرة خوفاً على منصبه، ولكن التنافس الفرنسى – الألمانى فى حقل الآثار المصرية أوجد ثغرة فى صفوف الأوروبيين هيأ للمصريين

316 Angelo Sammarco, Gli Italiani in Egitto (Alexandria 1937) 151 – 53.
317 Jean – Jacques Luthi, Le Francaise en Egypte (Beirut, 1981).
318 L'Egittologo Luigi Vassalli (1812 – 1887, Disegni e documenti nei Civici Istituti Culturali Milanesi (Milan, 1994).

فرصة إيجاد موقع لقدمهم فى مجال "المصريات". وفى خريف 1869 تعاقد على مبارك مع هنريش بروجش للعمل لمدة خمس سنوات ناظراً "لمدرسة اللسان المصرى القديم " براتب قدره خمسمائة فرنك شهرياً[319]. وتضمنت ميزانية عام 1871 – 1872 تخصيص 1009 جنيهاً مصرياً لثلاثة أساتذة، و112 جنيهاً مصرياً للمنح الدراسية للطلاب[320].

ورحب إسماعيل بعودة بروجش إلى مصر، وكان ذلك بحضور على مبارك، حيث تذكرا أيام الدراسة فى باريس، وتحدث مبارك عما حققه من تقدم فى إعداد موسوعته "الخطط التوفيقية". ولابد أن يكون بروجش على صلة بالطهطاوى بحكم كونه عضواً بمجلس تحرير "روضة المدارس" التى تولى رفاعة الطهطاوى رئاسة تحريرها ولعلهما تعاونا معاً فى "المجمع العلمى المصرى".

إفتتح بروجش المدرسة فى بيت كان مهجوراً، بالقرب من متحف بولاق، وبدأت المدرسة بعشرة طلاب تم اختيارهم من بين طلاب المدارس الأخرى من بين أصحاب أعلى الدرجات فى اللغة الفرنسية[321]. ومن الغريب أن يتضمن الأمر الخاص بإختيار الطلاب شرط أن تكون بشرتهم سمراء كأبناء الصعيد والسودان[322]، فهو يعيد فى الأذهان المحاولة الفاشلة التى قام بها محمد على لتزويد جيشه بالسودانيين. وعلق بروجش على ميل بشرة بعض الطلاب إلى البياض بأنهم ربما كانت أمهاتهم من التركيات. ورغم أن الفرنسية كانت لغة التدريس بالمدرسة، فقد عين بروجش أخاه إميل لتدريس الألمانية بالمدرسة، وتولى بروجش تدريس اللغة المصرية القديمة، وأرسل البطريرك القبطى من تولى تدريس القبطية للطلاب[323]، كما تولى أحد الأزهريين تدريس اللغة العربية، وكان بروجش يأخذ الطلاب معه فى رحلات ميدانية إلى الصعيد من حين لآخر. واصطحب معه – فى رحلة علاج إلى أوروبا– طالبين من طلاب المدرسة بهدف توسيع أفقهما،

---

[319] دار الوثائق القومية، فهرست بطاقات الدار، درج 1 آثار، أمر صادر إلى ديوان المالية، دفتر 1939، رقم 140، ص 145 بتاريخ 15 صفر 1289، وأفضل مصدر ثانوى هو كتاب أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على إلى أوائل حكم توفيق 1848 – 1882، 3 أجزاء، (القاهرة، 1945).

[320] Amal Hilal, "Les Premiers egyptologues egyotiens et la reforme", in Entre Reforme social et movement national: Identite et modernisation en Egypte (1882 – 1962 – ed.) Alain Roussillon (Cairo, 1995).

[321] أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم، 2 : 570 – 571 يذكر أسماء الطلاب الذين برز من بينهم أحمد كمال وأحمد نجيب.

[322] ورد فى أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم، 2 : 569.

[323] يذكر أحمد عزت عبد الكريم أن ميخائيل جرجس كان يدرس الحبشية بالمدرسة، تاريخ التعليم، 2 : 569.

تاركاً الآخرين يتابعون الجدول المقرر للدراسة. ولما كانت الرطوبة تمثل إحدى سوءات مبنى المدرسة، فقد تم نقلها إلى مجمع المدارس بدرب الجماميز.

ونهج بروجش نهج ماريت والطهطاوى فى محاولة جعل العقيدة المصرية القديمة تبدو فى صورة مقبولة أمام المسلمين. وعندما اكتشف أن بعض صفات آمون إله طيبة، وبتاح إله منف، وغيرهما من المعبودات تتفق تماماً مع التسعة والتسعين إسماً من أسماء الله الحسنى فى الإسلام، أكد أن قدماء المصريين عبدوا إلهاً واحداً، وأن صفات الرب الواحد تكمن تحت سطح التعددية التى تبدو فى الديانة المصرية القديمة[324].

ولجأ إسماعيل وعلى مبارك إلى ألمانى ليتولى إدارة "الكتبخانة الخديوية" التى أقيمت عام 1870، قبل الحرب الفرنسية – البروسية ببضعة شهور، وهى الحرب التى دعمت مكانة الألمان بالقاهرة.

ففى عام 1872، أصبح لودفيج شتيرن – التلميذ السابق لبروجش، ناظراً للكتبخانة الخديوية. وقد درس شتيرن علم المصريات بجامعة جوتنجن، كما درس اللغات العبرية والعربية، والحبشية وختم حياته العلمية خبيراً بالسلتية، وأميناً للمخطوطات بالمكتبة الملكية فى برلين[325]. وأعقب شتيرن أربعة من المستشرقين الألمان فى إدارة دار الكتب المصرية (الكتبخانة الخديوية) على التوالى، فأصبحت الدار – بذلك– مركزاً للنفوذ الثقافى الألمانى حتى عام 1914.

وتسبب تعيين بروجش مفوضاً عاماً لتمثيل مصر فى "معرض فيينا" عام 1873 إلى التأثير على طاقة عمله فى مدرسة اللسان المصرى القديم. وفى 1876، أصبح – مرة أخرى – مفوضاً لمصر فى "معرض فيلادلفيا الدولى". وأثر قرار الحكومة المصرية بإدخال تدريس الألمانية ضمن برامج الدراسة بالمدارس المصرية فى أعقاب حرب السبعين على طلاب "مدرسة اللسان المصرية القديم" الذى وقع عليهم عبء القيام بتدريس الألمانية بالمدارس بحكم كونهم من أوائل من درسها من المصريين، وإقترح أن يختار بروجش خمسة من الطلاب يوفدون إلى بروسيا أو النمسا ليتم إعدادهم لتدريس الألمانية، ولكن

[324] Brugsch, Leben, 299.
[325] Who Was Who 3, 404.

الإقتراح لم ينفذ، غير أن أحمد كمال وستة من زملائه طلاب "مدرسة اللسان المصرى القديم" عينوا مترجمين ومعاونين بديوان المدارس عام 1872. وأغلقت المدرسة عام 1874 أثناء وجود بروجش بالخارج، وتم نقل ما تبقى من طلابها، وكانوا خمسة أفراد، إلى وظائف بمصلحة السكك الحديد ونظارة الجهادية[326].

واتخذ من غياب بروجش لتمثيل مصر بمعرض فيينا ذريعة لإغلاق المدرسة[327]، ولعل عداء ماريت للمدرسة منذ نشأتها كان من بين أسباب إغلاقها. ويثير تقرير بروجش التساؤل حول مدى إلتزام ماريت بجذب اهتمام المصريين إلى تاريخهم القديم:

> "كان الخديو راضياً تماماً عن عملى، كذلك كان وزير التعليم سعيداً بعملى، مما جعلنى موضع حسد نظار المدارس ... وشعر صديقى القديم ماريت بالقلق من أن يشمر الخديو عن ساعده ويعين خريجى المدرسة فى متحفه، وعبثاً حاولت تبديد مخاوفه، فقد استمرت هواجسه حتى أنه أمر موظفيه بمنع أى مصرى من نسخ النقوش الهيروغليفية، وكان مثل هؤلاء يطردون ببساطة من المعبد"[328].

وقد قرر مفتش سويسرى أن خريجى مدرسة اللسان المصرى القديم ضعاف فى اللغة والتاريخ، وينقصهم "التوافق العلمى"، وأن ما يناسبهم العمل فى الوظائف الدنيا بالمتحف ومصلحة الآثار[329]، وجاء رفض ماريت قبولهم للعمل بمصلحته ليقضى على مبرر وجود المدرسة. وبعد ذلك بسنوات، إلتقى بترى أحد خريجى المدرسة ببنها، كان "يتكلم الإنجليزية بمستوى متوسط"، وكان يعمل سكرتيراً لمهندس إنجليزى ثم لمدير المديرية التى تقع فيها منف، ولكنه كان عاطلاً عن العمل[330]،وقد نجح أحمد كمال وأحمد نجيب فى العودة إلى العمل فى مجال الآثار المصرية القديمة غير أن ماريت نجح – إلى حين– فى

---

326 أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم، 2 : 572، ويذكر أن أمين سامى أخطأ فى كتابه "التعليم فى مصر" (القاهرة 1917) عندما ذكر أن المدرسة استمرت حتى ديسمبر 1876.

327 أحمد عزت عبد الكريم، 2 : 572؛

Maspero, "Mariette", clxxvi, clxxxvi.

328 Brugsgh, Leben, 282.

329 J. Heyworth – Dunne, Introduction to the History of Education in Modern Egypt (London, 1968), 355.

330 Petri, Seventy Years, 64.

إحباط أول محاولة قامت بها الحكومة المصرية لتكوين فريق من المصريين فى مجال "المصريات".

مصر القديمة والجمهور المصرى



الشكل رقم (٢٢) طابع بريد يحمل صورة الأهرام وأبو الهول

كانت هناك مؤشرات تدل على أن اهتماماً متواضعاً مطرداً، أخذ يظهر عند المصريين ، بتاريخ مصر القديمة، وذلك خارج إطار مصلحة الآثار والمتحف المصرى ومدرسة اللسان المصرى القديم، ففى أغسطس 1867 صدرت جريدة "الأهرام" وقد اتخذت من هرمين وأبى الهول شعاراً لها فى قمة صفحتها الأولى، وكان محرراها سليم وبشارة تقلا من الشوام المسيحيين المهاجرين إلى مصر ويميلان لفرنسا . وقدمت الأعداد الأولى للجريدة تاريخاً مشوهاً لأهرام الجيزة، فذكرت ما يقال من أنها شيدت لحفظ المعرفة من الفيضان، أو لخزن الغلال، أو مراقبة النجوم، وأنه يقال أن خفرع إبن خوفو الأول وضع حجر الأساس للهرم الأكبر الذى تم بناءه فى عهد خفرع الثانى[331].

وفى عام 1867 استبدل بالطغراء والزخرفة العربية الإسلامية رسماً لهرم وأبى الهول على طوابع البريد المصرية التى صدرت قبل ذلك بعام واحد. ولعل الهرم وأبى الهول كانا يعكسان أفكار الأوروبيين عنهما بإعتبارهما رمزاً قومياً لمصر، ولكن كان الأمر يتطلب موافقة الخديو على هذا الإختيار. وكانت هناك شركة إيطالية للبريد تعمل فى مصر قبل تأسيس مصلحة البريد عام 1865 التى تولى إدارتها موتزى مدير شركة البريد الخاصة القديمة. وكانت الخطابات الواردة من مصر إلى الغرب حاملة الهرم وأبى الهول فيما بين 1867 – 1914 تؤكد الصفة القومية لتلك الرموز. وقد حملت تلك الطوابع إسم

[331] يونان لبيب رزق، الأهرام ديوان الحياة المعاصرة، 12 – 18 أغسطس 1993. وإبراهيم عبده، جريدة الأهرام، تاريخ وفن 1875 – 1964 (القاهرة 1964).

السلطان العثمانى – صاحب السيادة الشرعية– حتى عام 1914 عندما أعلنت بريطانيا الحماية على مصر، وقطعت بذلك روابطها الإسمية بالدولة العثمانية[332].

وحتى جمال الدين الأفغانى – الفارسى المولد– داعية الجامعة الإسلامية استخدم أحياناً الفخر بمصر القديمة فى إثارة المشاعر الوطنية عند المصريين، إذ يقول: "إنظروا إلى أهرام مصر، ومعابد منف، وخرائب طيبة، وهياكل سيوة، وقلاع دمياط، كلها تشهد بصلابة آباءكم، وعظمة أجدادكم"[333]. وكتب تلميذه الشيخ محمد عبده سلسلة من المقالات عام 1876 يربط فيها بين عظمة مصر القديمة ونهضة مصر فى عهد الخديو إسماعيل[334].

وفى العام 1862، كتب أحد كبار الملاك المصريين ذوى الجذور التركية – الشركسية، نصيحة لولده باللغة العربية، أبدى فيها استياءه من استخدام الزى، والعادات، والطب ، والأفكار الغربية. وحبذ إرتداء الزى الوطنى التقليدى إلا إذا دعت الخدمة فى الحكومة إلى إرتداء الأفندية الزى الغربى، وفضل استخدام التقويم الإسلامى الهجرى، وصنح بدراسة اللغات الإسلامية قبل دراسة اللغات الأوروبية. غير أن قائمة حكام مصر التى أوردها لم تبدأ بالفتح الإسلامى، ولكنها تبدأ بالفراعنة[335]. فحتى هذا الرجل المحافظ الذى ينتمى إلى نخبة كبار الملاك استوعب بالفعل أن مصر القديمة مكون أساسى من مكونات التراث القومى.

---

[332] حول طوابع البريد، انظر مادة Egypt فى:
Scott 2000 Standard Postage Stamp Catalogue, Countries of the World, vol. 2: Countries C – F (Sidney, Ohio, 2000).

[333] Charles Wendell, The Evolution of the Egyptian National Image From Its Origins to Ahmed Lutfi al – Sayyid, (Berkley, Calif., 1972), 169.

[334] Angelo Sammarco, Histoire de l'Egypte modern depuis Muhammed Ali jusqua'a l'occupation britannique 1801 – 1882 (Cairo, 1937), 324.

[335] مخطوط "إرشاد الولد"، لكاشف زاده محمد عقيل بهارالى، ويحمل أيضاً إسم محمد عقيل بن محمد كاشف، دار الكتب المصرية.

علم "المصريات" فى المجمع العلمى المصرى والجمعية الجغرافية الخديوية

بتأسيس "المجمع العلمى المصرى" عام 1859، أقام الأوروبيون المقيمون بمصر جمعية علمية على الطراز الغربى على أرض مصر. وكان المجمع على مدى أربعة عقود منبراً للحديث عن مصر القديمة، واستمر بعدها فى ذلك بتركيز أقل.

وكانت مثل هذه المحافل العلمية فى أوروبا ذات طابع وطنى ودولى معاً. واعتقد فلاسفة القرن الثامن عشر بوجود جامعة أوروبية يطلق عليها "جمهورية الأدب" وهى – عند فولتير "جمهورية عظمى"[336]. وفى القرن التاسع عشر، ناضلت الأوساط الغربية الاشتراكية والدينية والعلمية من أجل إبقاء جسور الصلات الدولية مفتوحة عبر ساحة القوميات المتصارعة. ونظر دعاة النزعة الدولية إلى مجتمعاتهم – غالباً– على أنها "غربية" وحسب.

وقد أدى وضع مصر كبلد شبه مستعمر إلى تعقيد الصورة داخل "المجمع العلمى المصرى"، فقد كان المجمع تحت رعاية الخديو، ولكن الأجانب يسيطرون عليه سيطرتهم على البلاد، وهنا كان على الأوروبيين أن يتواصلوا مع الجاليات الأوروبية الأخرى أكثر مما يفعل زملاؤهم فى أوروبا فى الجمعيات ذات الطابع القومى. كان الأعضاء يعملون "للعلم ذاته"، ولكن أنظارهم لم تتحول عن موضع كل فرد فى التنافس الأنجلو – فرنسى ، أو الفرنسى – الألمانى، وغيرها من المنافسات الأوروبية التى إزدحمت بها الساحة.

وراء تلك المنافسات الأوروبية، قبعت موضوعات الإمبريالية والعنصرية. فقد أدى إفتتاح قناة السويس إلى تدفق الأوروبيين على مصر، ونتج عن ذلك تزايد أعداد كنائسهم ، ومدارسهم، ومستشفياتهم وصحفهم، ونواديهم، وجمعياتهم الخيرية. وقد جرب الأوروبيون الأقل التزاماً باتجاه جالياتهم – حدود نزعتهم الدولية فى المجمع العلمى المصرى، ومصلحة الآثار، والمتحف المصرى، والكتبخانة الخديوية، والجمعية الجغرافية الخديوية، والمصالح الحكومية الأخرى، ولكن خطوط المثالب القومية والأوروبية – المصرية لم تكن بعيدة تماماً عن السطح.

---

[336] David C. Gordon, Images of the West: Third World Perspectives (n. p. 1989), 15.

لقد نظر مؤسسو "المجمع العلمى المصرى" عام 1859 إلى المجمع الذى أسسه نابليون بمصر (على نسق المجمع العلمى الفرنسى بباريس) كإطار مرجعى لهم، وبدرجة أقل وضوحاً إلى "الجمعية المصرية" التى أسست عام 1836. كان المجمع العلمى الفرنسى يضم عدداً من الأكاديميات بكل منها عدد محدد من المقاعد. وكان الإلتحاق به يتم بالإنتخاب، غالباً عند خلو مقعد لوفاة شاغله. وكانت غالبية أعضاء "الجمعية المصرية " من البريطانيين، ولكن عضويتها كانت مفتوحة على الأقل للغربيين. وكان جومار – الذى بلغ الثالثة والثمانين من عمره – هو الصلة الوحيدة بين "المجمع العلمى المصرى" الذى إختفى من القاهرة عام 1801، و"المجمع المصرى" الجديد[337].

فقد كتب من باريس موافقته على قبول العضوية الفخرية، وفى عام 1861 أصبح رئيساً فخرياً للمجمع. ولعل لينان دى بلفون كان الوحيد من بين أعضاء "الجمعية المصرية " السابقين، الذى إنضم إلى المجمع الجديد[338].

ورغم رعاية الحكومة المصرية للمجمع العلمى الثانى، ونزعته الدولية، فإن قائمة العضوية تكشف عن تفرد الفرنسيين وتهميش الوجود المصرى لعدة عقود من الزمان . واحتل الأمير نابليون رأس قائمة الأعضاء الفخريين عام 1859. وتعاقب على الرئاسة الشرفية للمجمع أربعة من الفرنسيين يليهم الأرمنى المتمصر (يعقوب أرتين) فيما بين 1861 – 1917، كما تولى الفرنسيون الرئاسة الفعلية ومنصب نائب الرئيس طوال الأعوام الثلاثين الأولى من عمر المجمع، وكانت الفرنسية هى لغة التعامل والعمل بالمجمع، مع قبول الإنجليزية، والإيطالية والألمانية.

ويشير الجدول رقم 10 (انظر الملاحق) إلى أنه فى عام 1859، بلغت نسبة العضوية الشرفية للفرنسيين 60%، ونسبتهم بين الأعضاء المقيمين 43%، والمراسلين من خارج الشرق الأوسط 38%. وجاء بعدهم الإيطاليون – عشية توحيد إيطاليا– بمسافة كبيرة .

---

337 كان جومار فى الحادية والعشرين من عمره عام 1798، ولم يكن عضواً بالمجمع العلمى المصرى، ولكنه كان وثيق الصلة به، انظر:

J. E. Gorby, "Travaux de premier Institut d'Egypte (1798 – 1801)", Bulletin de la Societe Francaise d'egypto logie, 66 (March, 1973), 36.

338 Jacques Ellul, Index des Communications et memoires publies par l'Institut d'Egypte (1859 – 1952), (Cairo:IFAO, 1952).

وشغل أنطونيو كولو تشى – طبيب العائلة الخديوية– مركز نائب الرئيس لخمس سنوات، وتولى الرئاسة لمدة عشر سنوات. وكان اختيار كونج بك – سكرتير سعيد ومعلمه السابق الألزاسى المولد– أول رئيس للمجمع تأكيد لرعاية الوالى له. فقد زار سعيد المجمع ، وامتدحه لأنه "بعث المعرفة على ضفاف النيل التى يكمن فيها سر عظمة مصرنا القديمة، مهد الآداب والعلوم والفنون"[339]. وكان ماريت أحد أول نائبين للرئيس، أما الآخر فكان بريطانياً.

واتخذ المجمع مقره الأول بالإسكندرية، الميناء الرئيسى للبلاد، حيث تقيم جاليات أوروبية كبيرة، وكان الثغر قد تطور فى عهد محمد على، وأعادت قناة السويس البحر المتوسط إلى المجرى الرئيسى للتجارة الدولية. ويسر خط القاهرة – الإسكندرية الحديدى لرجل يقيم بالقاهرة مثل ماريت أن يصبح من الأعضاء المقيمين. وكان وراء اختيار الإسكندرية مقراً للمجمع – بالطبع– ذكريات مكتبة الإسكندرية القديمة ومتحفها.

وأعلن المجمع أن عضويته متاحة للجميع بغض النظر عن الأصل العرقى والاجتماعى – دون أن يشمل ذلك النوع– كما أنه مفتوح لكل الحقول المعرفية. وتعهد المجمع بتقديم النصائح العلمية للحكومة فيما يتعلق بالمحاصيل، والماشية، والأمراض التى تصيب الإنسان، شأنه فى ذلك شأن المجمع الأول، والسان سيمونيين الذين أرادوا استعمار مصر فى الثلاثينات[340]. وعقد المجمع اجتماعاً شهرياً من الخريف إلى الربيع، وهو الوقت الذى يسافر فيه الأثرياء من الأجانب المقيمين فى البلاد لقضاء الصيف فى أوروبا.

واستطاع المجمع أن ينجو بنفسه خلال الأزمة المالية والسياسية التى عانتها مصر فيما بين 1875 – 1882، بصعوبة بالغة. وفى عام 1880 عدل المجمع لائحته، وانتقل إلى القاهرة فى موقعه الحالى بالطرف الشمالى من شارع القصر العينى فى مواجهة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وكان يضم خمسين عضواً من المقيمين ونحو المائة من الأعضاء الفخريين، وعدد غير محدود من الأعضاء المراسلين. وجأر ماريت – رئيس المجمع عندئذ – بالشكوى لأن إفلاس الدولة حرم المجمع من الإعانة السنوية التى كانت تبلغ

[339] Bulletin de l'Institut d'Egypte, I (1859), 2.
[340] Livre d'ore de l'institut egyptien 1859 – 1899 (Cairo 1899), 3.

1500 فرنك منذ عام 1875. وبمجرد استقرار الإحتلال البريطانى فى مصر قام نائب الرئيس إدوارد روجرز – الذى كان موظفاً بالحكومة المصرية– بحث المستشار المالى أوكلاند كالفن على مضاعفة قيمة الإعانة السنوية[341].

ولكن ماذا عن الأعضاء المصريين ؟ كان من بين الأعضاء المقيمين المؤسسين سبعة من المصريين (14%) منهم نوبار باشا الذى أصبح – فيما بعد– رئيساً للوزراء، ومحمود الفلكى، ورفاعة الطهطاوى[342]. وكان محمود الفلكى هو العضو المصرى الوحيد بمجلس الإدارة المكون من 18 عضواً، وخدم الطهطاوى فى لجنة النشر مع عضوين آخرين من الأوروبيين، وهو الموقع الذى خلفه فيه محمود الفلكى، وانضم على مبارك إلى المجمع فيما بعد، ولكنه لم يلعب دوراً فعالاً[343].

ومن الغريب أن "الرجل الأمريكى المقيم بالقاهرة الذى يرد ذكره فى كل كتاب عن المدينة" فى الستينات، لم ينتم إلى المجمع[344]. أما يوسف حككيان فقد كان فريداً بصحبة الأعضاء الغربيين "بالجمعية المصرية"، مغترباً عن مصر، البلد الذى تبناه، وكان حريصاً على كشف مستوره أمام أصدقائه الأوروبيين. وعندما وقع "التمرد" فى الهند (ثورة 1859)، كتب حككيان إلى صديق بريطانى: "لابد أن تعملوا على نزع سلاح الهنود، وتجبروا الأهالى على العمل فى مد الخطوط الحديدية، وإقامة خطوط البرق، وشق القنوات المحلية فى كل إتجاه، واملأوا الأنهار بالبواخر، إننى لا أقبل أن يكون أبناء البلاد جنوداً، عليكم حشد مائة ألف جندى بريطانى بالجبال على أهبة الاستعداد للتحرك بالقطارات إلى الوادى كما تنهمر السيول من الجبال ..."[345]. وقد صادق حككيان ماريت عندما كان ينقب عن الآثار فى منف، وقام بتقديم إدوارد نافى، وبروجش لفردنان ديلسبس، وتبادل الرسائل مع السير شارلز لايل عن الجيولوجيا، وأرسل إلى لوسى دف جوردون قاموساً عربياً، والتقى أمير ويلز عند زيارته لمصر، وحتى المستكشف هنرى

---

341 دار الوثائق القومية، محافظ الأبحاث، 132 ب، المجمع العلمى المصرى.

342 وكان الآخرون: يوسف حزان حاخام الإسكندرية، والطبيب شافعى بك، ومحمد على، وعبد الله أفندى سعيد مأمور مصلحة التجارة بالإسكندرية.

343 Bulletin de l'institut, ser. 2,5 (1884 – 85), 167.

344 المتحف البريطانى، أوراق حككيان، 37، 463 وغيرها.

345 المتحف البريطانى، أوراق حككيان 34، 463، 16، 67.

ستانلى استعان بحككيان للاستعلام عن أحوال أسرة إمرأة يونانية كان يأمل الزواج بها . وقد لعب قريبه يعقوب أرتين – فيما بعد– دوراً مشابهاً، وكذلك فعل مرقص سميكة.

وقد بدأ تركيز المجمع العلمى المصرى على مصر القديمة منذ كان مارييت نائباً للرئيس بقراءة تقارير الآثار فى الموسم الأول، وتولى مارييت رئاسة المجمع لمدة سبع من سنواته الإحدى والعشرين الأولى، وكان رئيساً فخرياً لمدة أحد عشر عاماً أخرى، واستخدم مارييت المجمع للإعلان عن الكشوف الأثرية التى تقوم بها مصلحة الآثار، وحذا حذوه من خلفوه فى إدارة المصلحة. وقد ألقى بروجش بحثاً بالمجمع كما ألقى ليبسيوس ثلاثة بحوث، وتولى رئاسة المجمع واحد من غير العاملين فى مجال المصريات، خلفاً لماريت بعد وفاته لفترة قصيرة، ثم تولى ماسبيرو الرئاسة حتى عودته لفرنسا عام 1886.

وكانت إثنتان من الأوراق الخمسة التى ألقاها محمود الفلكى بالمجمع تتصل بالمصريات، إحداهما عن أحد الفروع القديمة للنيل، والأخرى عن الإسكندرية القديمة، وتولى محمود الفلكى مهام نائب الرئيس لمدة إثنى عشر عاماً. وقد حصل محمود الفلكى على فرصة متأخرة للدراسة بفرنسا عندما رشحه تلميذه السابق بالمهندسخانة، على مبارك لعباس الأول لدراسة الفلك. ومكث محمود الفلكى بأوروبا تسع سنوات، وعاد إلى مصر فى نفس السنة التى شهدت تأسيس المجمع العلمى المصرى. وأبحاث الفلكى التى نشرها بالفرنسية مبعثرة فى عدد من المجلات الأوروبية، ومن بينها بحث عن التقويم عند العرب قبل الإسلام، والموازين والمكاييل فى مصر الإسلامية، وحفائر وخريطة الإسكندرية القديمة، والجدول الزمنى للهرم وعلاقته بالشعرى اليمانية. وتولى نظارة المعارف فى الوزارة التى شارك فيها عرابى عام 1882، ولكنه نجا بنفسه سياسياً عند وقوع الإحتلال البريطانى، وعاد لتولى نفس المنصب فى وزارة نوبار 1884 – 1885، ومات خلالها فى مكتبه. وامتدح أرتين – رئيس المجمع– محمود الفلكى إلى جانب مارييت، وماسبيرو وجورج شفاينفورت باعتبارهم من أعضاء المجمع الذين يستحقون خلافة مونج وجاك

ليبير، وكلود برتوليه أعضاء المجمع الذى أقامه نابليون فى مصر[346]. وبعد وفاة الفلكى لم يقم المصريون بالمساهمة فى الحديث عن المصريات بالمجمع حتى تم انتخاب أحمد كمال عام 1904.

وتم تهميش "المصريات" بصورة أكبر فى الجمعية العلمية الرئيسية فى ذلك العصر، وهى "الجمعية الجغرافية الخديوية"، غير أن هذه الجمعية جديرة بالذكر لكونها كانت تمثل ملمحاً بارزاً من المشهد الثقافى، وتلعب دور المنبر الأصغر لعلم المصريات. وقد أسسها إسماعيل عام 1875 لإضفاء الشرعية على توسعه فى أفريقيا، وبث الدعاية له. وكان أول رئيس لها المستكشف الألمانى جورج شفاينفورت عالم التاريخ الطبيعى. وقد تولى أيضاً رئاسة المجمع العلمى المصرى، وكتب فصلاً عن "أصول الأوضاع الحالية للمصريين " نشر بدليل بايدكر[347].

وقد اختلف الأعضاء الأول للجمعية الجغرافية الخديوية عن المجمع العلمى المصرى فى أمرين: غلبة الإيطاليين، والوجود الأمريكى لأول مرة. وكما يتضح من الجدول رقم 10 (بالملاحق) فقد فاق عدد الإيطاليين عدد الفرنسيين الذين احتلوا المركز الثانى بين المؤسسين، واحتكر إيطاليان رئاسة الجمعية لفترة طويلة، فتولى الرئاسة الدكتور أونوفريو أباتى (1890 – 1915)، وفردريكو بونولا (1881 – 1912)، فقد كان المستشارون الإيطاليون أصحاب حظوة عند الأسرة الحاكمة طوال تاريخها، وكان أباتى طبيب الأسرة الحاكمة منذ عهد سعيد، وكان أيضاً واحداً من نائبى رئيس المجمع العلمى المصرى من 1882 حتى 1910[348].

وإذا كان المجمع العلمى قد خلا من الأمريكان، فإن الضباط الأمريكيين الذين خدموا فى جيش إسماعيل كان لهم حضور بارز فى السنوات الثمانى الأولى من عمر الجمعية. فقد ساعد هؤلاء الضباط فى اكتشاف السودان ورسم خريطته، وأصبح الجنرال تشارلز ستون

---

346 Livre d'or, 9; On al – Falaki see Pascal Crozet, "La Trajectoire d'un scientifique egyptien au XIXe siècle: Mahmoud al – Falaki (1815 – 1885), in Entre Reforme Sociale, ed. Roussillon, 285 – 310.

347 Donald M. Reid, "The Egyptian Geographical Society: From Laymen's Society to Indigenous Professional Association "Poetics Today 14 (1993) 539 – 72".

348 On Abbate and Bonola, see L. A. Balboni, Gl'Italiani nella civilta Egiziana de socolo XIXo, 3 vols. (Alexandria 1906) 3 : 28 – 30, 30 – 34.

رئيساً لأركان الجيش المصرى. وقد أجبرت الأزمة المالية إسماعيل على الاستغناء عن الضباط الأمريكان، ولكن ستون استمر موجوداً، ورأس الجمعية الجغرافية من 1879 حتى 1883، ولم يعد إلى بلاده إلا عندما أبلغته سلطات الإحتلال البريطانى أنه لم يعد له مكان بالجيش المصرى[349].

وكان عدد المصريين 25 عضواً من بين مؤسسى الجمعية البالغ عددهم 140 عضواً . ويشير فهرس مجلة المجمع العلمى المصرى (1881 – 1887) إلى أن المصريين قدموا أربعة بحوث من مجمل ما قدم من البحوث التى بلغ عددها 32 بحثاً. وحضر محمود الفلكى المؤتمر الجغرافى الدولى بفيينا عام 1881، وكان نائباً لرئيس الجمعية الجغرافية مرتين، وتولى رئاستها خلفاً للجنرال ستون.

وقد بدأت "الجمعية الجغرافية الخديوية" بمجموعة من الهواة مع القليل من المتخصصين فى مختلف المجالات الأخرى، شأنها فى ذلك شأن الجمعيات الجغرافية التى نشأت بالغرب. وكانت تلقى بها أحياناً بحوثاً فى الآثار، فقد تحدث بروجش أمامها عن اللغة النوبية، وعن المحاجر الفرعونية بوادى الحمامات. وقد منحت الجمعية عضويتها الشرفية لمارييت قبل وفاته بشهور، كما منحتها لديلسبس وآخرين[350]. وتضمن فهرس مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية (1888 – 1893) قائمة بخمسة بحوث عن مصر فى العصر الفرعونى، والعصر البطلمى ضمن البحوث التى شملتها القائمة وعددها 32 بحثاً[351].

وعلى عكس المجمع العلمى المصرى الذى كان عملاً أوروبياً، كان تأسيس الجمعية الجغرافية الخديوية "وجمعية المعارف" – التى أنشئت بمباركة من إسماعيل– نابعاً من مبادرات محلية، ولم تكن معنية بالآثار والمصريات. واعتمدت "جمعية المعارف" على اشتراكات الأعضاء، واشترت مطبعة، ونشرت كتب التراث العربى والإسلامى، وقد

---

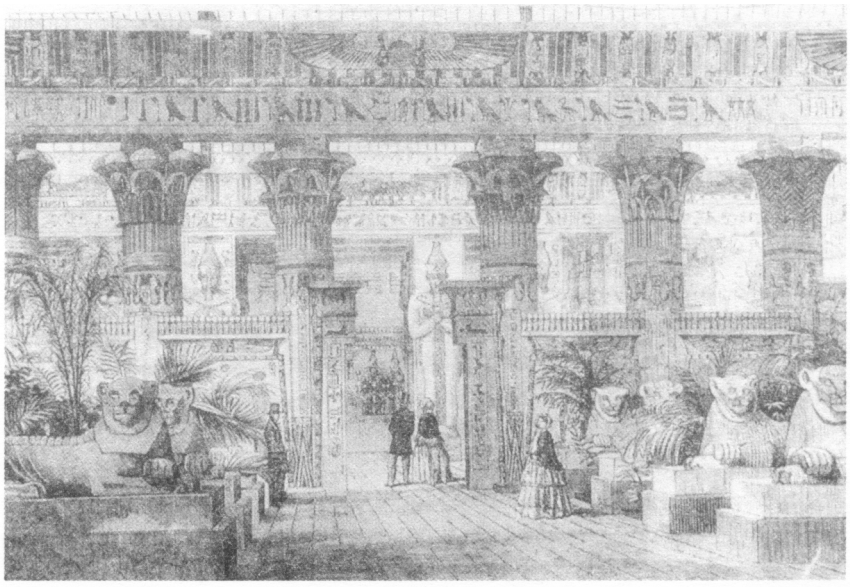
[349] David Shavit, The United States in the Middle East: A Historical Dictionary (New York 1988), 337.
[350] Bulletin dea Societe Khedivial geographique, 8 (May 1880), 34.
[351] Bulletin de la Societe Khedivial geographique, 6 (Nov. 1879) 5; 8 May 1880), 34; 12 (July 1893), 847 – 49.

انهارت الجمعية عندما حصل إسماعيل على فرمان توريث العرش لأبنائه، وعندما فر بعض أفراد الأسرة والحاشية إلى إستانبول ممن كانوا يدعمونها مادياً[352].

تمثيل مصر فى المعارض الدولية، روائع الفراعنة

كون الكثير من الغربيين إنطباعهم المباشر عن مصر من خلال المعارض الدولية التى أقيمت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. ولعب ماريت وهنريش بروجش الدور الرئيسى فى تنظيم المعروضات المصرية فى عدد من تلك المعارض التى كان الغرض من إقامتها خدمة التقدم الصناعى، والرأسمالية، وتنمية النزعة الاستهلاكية. وكان "معرض لندن الكبير للصناعات الدولية" الذى عقد عام 1851 الأول فى ذلك المجال الذى إختار له الإنجليز والفرنسيون إسم "المعارض الدولية"، وسماه الأمريكان "الأسواق الدولية" وكانت تلك المعارض مفتوحة أمام الجمهور العريض الذى يتجاوز حدود الجمعيات العلمية والمتاحف، ولذلك جمعت تلك المعارض بين مجالات مختلفة، فهى تتضمن بعضاً من صفات المتحف، والسوق، كما تتضمن حديقة للملاهى، كذلك لعبت تلك المعارض دوراً تمهيدياً للسياحة الخارجية.

وكانت "الجمعية الملكية للفنون" فى بريطانيا تعرض المصنوعات فى معارض محلية منذ العام 1756، كذلك يرجع تاريخ المعارض المحلية الفرنسية إلى العام 1797. وإتجه الأمير ألبرت – رئيس الجمعية الملكية للفنون– وهنرى كول، الكاتب والموظف الحكومى، إلى التحرك نحو الساحة الدولية بإقامة "معرض لندن



الشكل رقم (٢٣) مدخل الجناح المصرى بمعرض لندن – كريستال بالاس ١٨٥٤

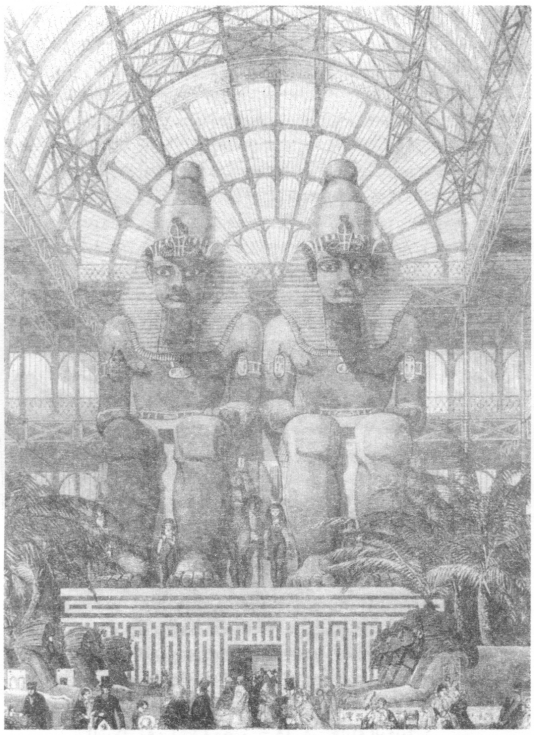
[352] عبد الرحمن الرافعى، عصر إسماعيل، مجلدان، (القاهرة 148)، 1 : 242 – 243.

الكبير" عام 1851. كان شأن مدرسة مانشستر للعمل الحر مرتفعاً، وتمت تغطية معظم تكاليف المعرض من التبرعات والشركات الخاصة، ورسوم الدخول. وخشى المحافظون من سوء تصرف جمهور العامة، ولكن الطبقة العاملة، أو من كانوا يسمون "أهل الشلن " حضروا المعرض فى جماعات التزمت الهدوء. وأقيم حفلا الإفتتاح والختام بقصر "جوزيف باكستون كريستال بالاس" المقام من الصلب والزجاج، وحضرت الملكة فيكتوريا فى مقصورتها الخاصة عند نهاية المحور الرئيسى للمعرض لتتلقى التقدير الإمبراطورى الرمزى عند الجناح الهندى الذى اختير له موقع إستراتيجى عند ملتقى المحاور، وانتشرت المعروضات البريطانية فى مختلف أرجاء المعرض، وكان لكل دولة غربية أخرى جناحها الخاص بها. وتردد على المعرض ستة ملايين زائر على مدى 140 يوماً، وعندما نقل المعرض إلى سيدينام بقيت معروضات كريستال بالاس حتى احتراق المبنى عام 1936. وتفيض كتب التاريخ فى وصف الزينات التى شهدتها سيدينام فى الأجنحة اليونانية، والرومانية، والبومبية، والبيزنطية، والرومانسيكية، والقوطية، وفنون عصر النهضة، والصينية، والمغربية، والمصرية[353].

وقد أرسلت تونس و"تركيا" – وهوما اصطلح الأوروبيون على إطلاقه على الدولة العثمانية – مفوضاً عن كل منها للمعرض الكبير[354]، وحضر شاه فارس المعرض بنفسه، ولم يكن الجناح المصرى رسمياً، لأن الدولة العثمانية اعترضت على المشاركة المصرية المستقلة، كما أن عباس الأول لم يكن فى موضع يجعله مضطراً إلى إبهار الغرب بالآثار والفنون المصرية كدليل على التقدم. واختار الدليل الرسمى للمعرض فاتحة له التحنيط والنماذج الإثنولوجية مع صورة "القائمين بالتحنيط من المصريين". واحتوى الجناح المصرى على مطبوعات بولاق، وملابس، وسروج، ومحاصيل غذائية، وشرائح من "المرمر الشرقى" وذكر الدليل أن "الطبيعة حبت مصر بالزراعة والتجارة وليس

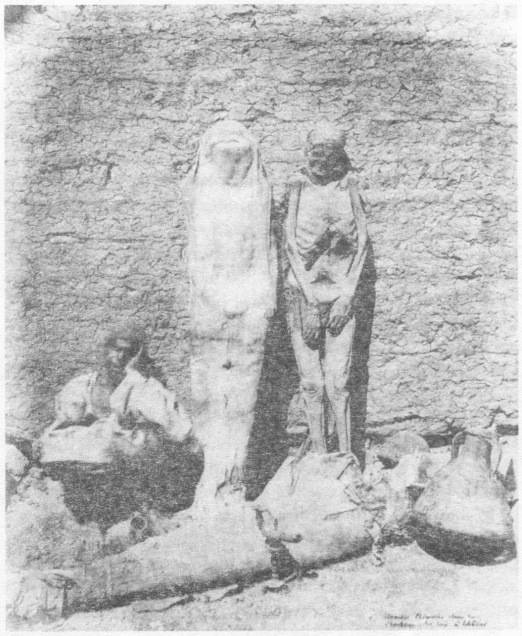
[353] هناك العديد من الكتب حول هذا المعرض وغيره من المعارض الدولية نشرت بالإنجليزية والفرنسية، ولكن فيما يخص مشاركة مصر راجع:
Timothy Mitchell, Colonising Egypt (Cambridge, 1988); Zeynep Celik, Displaying the Orient, Architecture of Islam at Nineteenth – Century World's Fairs (Berkeley. Calif 1992); Owen Jones and Joseph Bonomi, Description of the Egyptian Court (London, 1854).

[354] History and Description of the Great Exhibition, 1 : 46.



الشكل رقم (٢٤) نسخة لتمثالى رمسيس الثانى بأبو سمبل
١٨٥٤ كريستال بالاس لندن

الصناعة، فى إطار تقسيم منطقى للعمل"[355] . وبرزت الآثار الفرعونية وحدها مع انتقال المعروضات إلى سيدينام، فهناك طريق للأسود يقود إلى واجهة معبد على الطراز البطلمى ، كتب عليه بالهيروغليفية "فى العام السابع عشر من حكم فيكتوريا، ملكة الأمواج (البحار) أقيم هذا القصر الذى زود بألف تمثال، وألف من النباتات، وغيرها، ليكون بمثابة كتاب يطلع عليه أهل جميع البلاد"[356]. وأقام جوزيف بونومى نسخة من التمثال المزدوج بأبى سمبل توسط الجناح المصرى (انظر الشكلين 24 و25).



الشكل رقم (٢٥) مصر – هل هى قابلة للتغيير ؟
أوهام الاستشراق

وجاءت الاستجابة الفرنسية لتحدى "المعرض الكبير" فى عهد نابليون الثالث عندما أقيم "المعرض الدولى" فى شامب دى مارس عام 1855، حيث قام السان سيمونى فردريك لوبلاى بتقديم مشروع سوسيولوجى لعرض المصنوعات البشرية. ألقت وفاة الأمير ألبرت بظلالها على معرض لندن الدولى الثانى الذى أقيم عام 1862، عندما أرسلت كل من مصر واليابان معروضاتها رسمياً لأول مرة، ولما كان مارييت مفوضاً رسمياً من قبل سعيد بذلك المعرض، فقد أرسل إلى لندن قطعاً أثرية من المجموعة التى كونها

[355] History and Description of the Great Exhibtion, 3 : 150, 147 – 52, 257.
[356] Nicholas Warner, ed., An Egyptian Panorama: Reports From the 19th Century British Press (Cairo, 1994), 190.

ببولاق من أجل المتحف الذى لم يكن قد إفتتح بعد، ورافق ماريت سعيداً فى زيارته لباريس، وأقام معه بقصر التويلرى، ثم صحبه إلى لندن لمشاهدة المعرض[357].

وحقق معرض باريس الدولى عام 1867، إنتصاراً لكل من نابليون الثالث، ورائد التجديد الحضرى البارون هاوسمان، والخديو إسماعيل، وماريت، وفى تلك المرة أقام لوب‌لاى دائرة عرض خارجية بالمبنى الرئيسى خصصت للآلات، وأخرى داخلية تستعرض تطور التقدم الحضارى من العصر الحجرى حتى ذلك الوقت، وجمع القسم "الشرقى" بين الجناح المصرى، وحرملك باى تونس، والحمامات التركية، والكشك العثمانى، وبيت الشاى الصينى، فى مكان واحد[358].

ولما كان إسماعيل حريصاً على ذيوع لقب الخديو الجديد الذى حصل عليه، وتأكيد استقلاله عن إستانبول، فقد أوكل إلى ماريت مهمة تقديم معروضات تحقق الإبهار، فخصص قسماً محدداً من الجناح المصرى لكل من مصر القديمة والوسيطة، والحديثة، كما عرض ديليسبس ما أحرزه العمل فى قناة السويس من تقدم متسارع. وصمم ماريت القسم الفرعونى على طراز مقصورة الإمبراطور تراجان بجزيرة فيلة، مع إضفاء لمسات عليه من الدولة القديمة والدولة الحديثة وعصر البطالمة. وقام طريق أبى الهول ليقود الزائر إلى ذلك القسم الذى توسطه تمثال خفرع الشهير المصنوع من الديوريت والتمثال الخشبى "شيخ البلد" من متحف بولاق.

وزين السلاملك الإسلامى، أو حجرة استقبال الرجال بمشكاوات يعلوها هلال ذهبى ، ووضعت به تماثيل نصفية لإسماعيل. وقدم محمود الفلكى لوحات الخرائط الخاصة بالإسكندرية قديماً وحديثاً، وخرائط بينت الجيولوجيا والصناعة والتجارة والرى، كما تضمن الجناح المطبوعات العربية والتركية التى صدرت من مطبعة بولاق تعبيراً عن التنوير والصحوة الثقافية فى ظل الأسرة الحاكمة. أما القسم الثالث فإتخذ شكل الوكالة ذات المشربيات التى تميز بيوت القاهرة. ووضعت عشر لوحات مصورة لمناظر لرجال

---

[357] David, Mariette, 144 – 46.

[358] Auguste Mariette, Description du parc egyptien: Exposition universelle de 1867, (Paris 1867); Charles Edmond, L'Egypte a l'exposition Universelle de 1867 (Paris, 1867); Mitchell, Colonising, 17.

ونساء يعملون بالزراعة والصناعة. واحتوى قسم السويس الفرعونى الحديث على نموذج مجسم للبرزخ ولوحات للخرائط مبين عليها مدن القناة.

ولكن، ما الذى كان معبراً عن الحقيقة، وما الذى كان شكلياً ؟ ضمت الوكالة بعض الحرفيين وزوج من الجمال، وآخر من الحمير. وشارك الخديو إسماعيل وديليسبس فى العرض، فقد وقف ديليسبس فى القسم الخاص بالسويس، واستقبل الخديو إسماعيل نابليون الثالث وأوجينى فى السلاملك.

واعتذرت الإمبراطورة عن عدم قبول دهبية فخمة حملت إسم "بنت النيل"، هدية من إسماعيل، وانتهى بها المطاف إلى أن تهدى للأمير نابليون، ورغم أن الكاتب الرومانسى تيوفيل جويتييه حضر افتتاح قناة السويس فيما بعد، إلا أنه أعلن أن زيارته للجناح المصرى كانت رحلته الحقيقية إلى مصر. وفى باريس، شاهد جوتييه فتح إحدى المومياوات، كما شاهد خمسمائة جمجمة إنتزعت من المومياوات ورتبت زمنياً حسب النظرية الأنثروبولوجية الشائعة عندئذ !.

وعندما أبدت الإمبراطورة أوجينى ميلها إلى أخذ مجوهرات إحدى الملكات الفرعونيات وبعض التماثيل الفرعونية، أحالها إسماعيل إلى ماريت، فعرضت عليه إدارة المطبعة الإمبراطورية الفرنسية أو المكتبة الوطنية، أو مقعد بمجلس الشيوخ، أو إدارة اللوفر أو أن يلعب دوراً فى مساعدة زوجها فى كتابة سيرة قيصر. ولكن ماريت رفض صراحة أن يعطيها أى من آثار مجموعة بولاق، مضحياً بما قدمته له من عروض مؤقتة. وقد عاد إسماعيل وديليسبس، وماريت، وعلى مبارك من باريس بأفكار حول تنظيم احتفالات افتتاح قناة السويس التى أقيمت بعد ذلك بعامين.

وكانت احتفالات قناة السويس التى أقامها إسماعيل وديليسبس، وماريت، وعلى مبارك فى خريف عام 1869، بمثابة رد مصرى على المعارض الكبرى، فقد حشدت الإحتفالات موراد الدولة والموارد الخاصة من أجل إبهار العالم، تضمن إقامة أجنحة مؤقتة، وجذب مجموعة من النجوم الدولية. وأعد ماريت دليلاً بهذه المناسبة، وصحب ملوك وأمراء أوروبا – بنفسه – فى جولتهم بصعيد مصر. كما اقترح الإطار لما أصبح يعرف فيما بعد

بأوبرا عايدة لفردى، فرسم الحوادث منذ عهد رمسيس الثالث، وصمم الملابس على ضوء المناظر التى جاءت بالمقابر الفرعونية، ورسم بنفسه، بالألوان المائية، الستائر الخلفية للعرض الدولى الأول بدار الأوبرا بالقاهرة فى ديسمبر 1871[359].

وفى عام 1873، أقامت فيينا أول معرض دولى فى البلاد المتحدثة بالألمانية، فـاختار إسماعيل هنريش بروجش – الذى عمل مساعداً لمارييت فى باريس 1867 – مفوضاً عاماً لمصر فى ذلك المعرض، وكان مارييت مرتاحاً تماماً وهو يرافق أوجستا – إمبراطورة الهبسبورج– فى زيارتها للجناح المصرى، بعدما إحتاط للأمر، فلم يرسل إلى فيينا سوى نماذج مقلدة للآثار والقليل من القطع ذات القيمة المحدودة، ولكن انتشار وباء الكوليرا أدى إلى إلحاق الفشل بذلك المعرض الدولى.

وعبر الولع بالمعارض المحيط الأطلنطى، فأقيم معرض مئوية فيلادلفيا عام 1876 ، وتولى الأنثروبولوجيون من معهد سميثونيان تنظيم معروضات المبنى الرئيسى على أساس عرقى، فوضعوا فى المركز الأول الأنجلو سكسون (الإنجليز والأمريكان)، واللاتين (وخاصة فرنسا)، والتيوتون. وظهر الأمريكان السود بصورة مهينة يؤدون دورهم فى الجنوب. وقامت حشود من الأوغاد البيض بمضايقة الزوار الأتراك ، والمصريين والأسبان، واليابانيين، والصينيين[360]. ورغم معاناة الأزمة المالية، حرصت مصر، وتونس والدولة العثمانية على المشاركة فى المعرض، ونظم بروجش الجناح المصرى تحت شعار "من أقدم الشعوب إلى أحدثها". وكان للجناح المصرى واجهة معبد فرعونى، وقدمت مبطوعات بولاق – مرة أخرى – الدليل على التقدم الحديث.

وجاء معرض باريس الدولى عام 1878 استمراراً لدائرة من المعارض الفرنسية على مدى أحد عشر عاماً، بلغت ذروتها عام 1900. وفى محاولة لنسيان كابوس الحرب البروسية الفرنسية، وكوميونة باريس، والإنقلاب الذى دبره الرئيس ماكماهون عام 1877، قامت فرنسا بإنشاء بناء ضخم فى شامب دى مارس، على مساحة 44 إكر .

---

[359] فيما يتعلق بأوبرا عايدة، انظر: David, Mariette, 201 – 4.

[360] Robert Rydel, All the World's a Fair: Visions of Empire at American International Expositions 1876 – 1916 (Chicago, 1984), 9 – 32; Ibrahim el – Mouelhy, "L'Egypte a l'exposition de Philadelphia (1876)" Cahiers d'histoire egyptienne 1 (1948), 316 – 26.

وقامت الأجنحة مختلفة الطرز بجوار بعضها البعض على "طريق الأمم Avenue Nations" لمسافة تقرب من نصف الميل، وبلغ عدد زوار المعرض 13 مليوناً[361].

وكاد إسماعيل أن ينسحب – تقريباً– من المعرض بسبب الحرب التركية – الروسية التى أرهقت ميزانيته المتداعية أصلاً، وتبددت أحلام مارييت فى إقامة أقسام مصر القديمة والوسيطة والحديثة، ولكن ديليسبس وشركة قناة السويس شاركا بجناح على الطراز الفرعونى الحديث، واقتصر وجود مصر على مساحة محدودة بسراى تروكاديرو، فتم عرض مستنسخات من مناظر مقابر بنى حسن، ورأس خفرع ونموذج لبيوت الحرفيين القديمة، وواجهة منزل بالمشربيات، وبعض الخزف، والسيوف والدروع التى صنعت على أنها تمثل العصور الوسطى، وقدمت المجوهرات، والسجاد، والمطرزات على أنها تمثل العصر الحديث. وجاء بدليل المتحف "يمكن القول أن البلاد تخلو تماماً من الصناعة"[362]، وعكست الخرائط التى علقت بالجناح ضم مصر للأراضى السودانية عند خط الإستواء، فى وقت كانت فيه مصر ذاتها على وشك التعرض للغزو الغربى.

تقديم "المصريات"، المؤتمر الدولى للمستشرقين

ساعدت الثورة التى حدثت فى مجال النقل والمواصلات، على جعل إقامة المعارض الدولية، والرحلات السياحية التى نظمها كوك، أمراً ممكناً. ولكنها أطلقت – أيضاً – حركة المؤتمرات الدولية التى بلغت النضج فى السبعينات، وكان المتطلب الآخر لنجاح تلك الحركة هو وجود شبكة من المنظمات الوطنية – وهى هنا الجمعيات الآسيوية، والشرقية، والجغرافية– وقد ظهرت تلك المنظمات منذ العشرينات. وبحلول عام 1870 كانت الجمعيات الاستشراقية قد تم تأسيسها جميعاً؛ فقد أنشئت الجمعيات الجغرافية القومية، والجمعيات الأسيوية بباريس (عام 1822)، وفى بريطانيا العظمى وأيرلندا (عام 1823)، وفى أمريكا (عام 1842)، وفى ألمانيا (عام 1845). وبوجود مصلحة الآثار، والمتحف المصرى والمجمع المصرى والجمعية الجغرافية الخديوية، أصبح إسماعيل مستعداً – أو على الأقل الأوروبيون فى مصر– للمشاركة فى حركة المؤتمرات الدولية.

---

[361] Auguste Mariette – Bey, Exposition Universelle de Paris 1879: La Galarie de l'Egypte ancienne (Paris, 1878); Louca, Voyageurs, 190 – 92.
[362] Mitchell, Colinising Egypt, 8 – 9.

وتبلورت فكرة عقد مؤتمر دولى للمستشرقين فى الجمعية الإثنوجرافية بباريس[363] ، وشهدت تلك المدينة عقد أول مؤتمر عام 1873، وشكلت "المصريات" قسماً مهماً من اجتماعات المؤتمر لمدة قرن من الزمان من تأسيسه، وإن كان الشائع فى القرن العشرين الفصل بين "المصريات" والاستشراق ولكن مؤسسات مثل "الجمعية الشرقية الأمريكية " و"المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة"، و"المعهد الشرقى بجامعة شيكاجو" أبقت على التداخل بين المجالين، وفى عام 1973 إنفصل علماء المصريات عن "المؤتمر الدولى للمستشرقين" الذى إضطر لمجاراة الظروف المتغيرة، فحول إسمه إلى "المؤتمر الدولى للدراسات الأسيوية والشمال أفريقية".

وقد ظهرت كلمة "مستشرق" بمعنى المتخصص فى اللغات والآداب الشرقية ظهرت فى اللغة الإنجليزية عام 1781، ولم تظهر كلمة "مصرياتى" حتى عام 1859، ولم يشع استخدامها إلا فى السبعينات عندما بدأت "المصريات" تقف على أقدامها كتخصص مستقل[364].

وبدأ الأوروبيون المشتغلون بالآثار المصرية فى مصر يغيرون من عادات لباسهم حوالى منتصف القرن التاسع عشر، فقد كان الرواد من المستشرقين الآثاريين: شامبليون ، وروسيللينى، وويلكنسون، ولين، وبريس دافين يطلقون لحاهم، ويرتدون الملابس التركية. وكان ذلك المظهر مفيداً وموفراً للأمن فى أيامهم، رغم أنهم عندما كانوا يعرضون هذا الزى فى بلادهم تبرز دائماً تساؤلات حول الهوية، والتخفى، وادعاء الخبرة بالثقافات الأجنبية. وعندما أصبحت "المصريات" تخصصاً محدداً، وزاد قدوم الغربيين إلى مصر، ولم يعد علماء المصريات من أمثال ماسبيرو وبترى يظهرون بالزى "الشرقى". ولم يكن المشتغلون بالمصريات بحاجة إلى اللغة العربية حتى يثبتوا كفاءتهم. غير أن المستشرقين الذين اختبروا أنفسهم بالإندماج مؤقتاً داخل المجتمع "الآخر" الذى لازال موجوداً، استمروا فى التخفى فى الزى المحلى لفترة أطول.

---

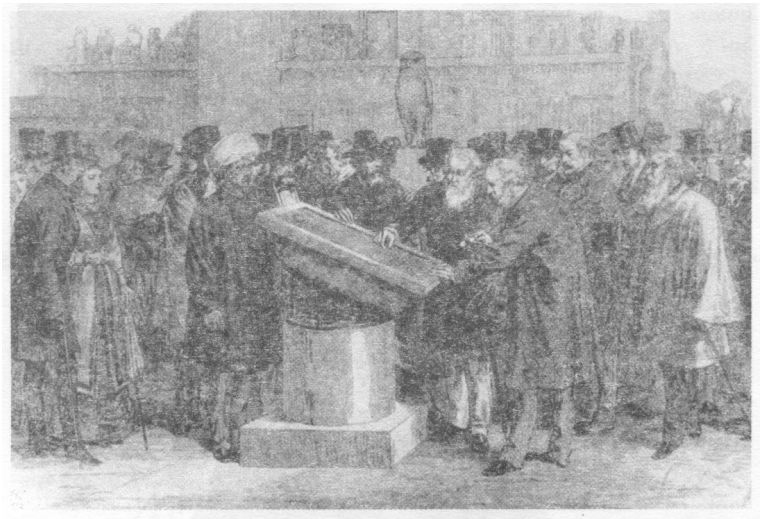
[363] K. Vollers, "Le IXme congres international des Orientalistes tenu a Londres du 5 au 12 Septembre 1892", Bulletin d'Institut egyptien, Set 3, 3 (November 1892), 193.
[364] Oxford English Dictionary, 2nd, ed., (1989) vol. 10 : 931, vol. 5 : 97.

وثمة ملاحظة لا تبعث على الإرتياح بالنسبة لمسألة التعريف: فالمصريات كانت ولا تزال تعنى دراسة مصر القديمة، والمصطلح يعنى بوضوح استبعاد مصر الإسلامية ومصر الحديثة من دائرة الدراسة، وهناك فكرة غربيّة أخرى تؤكد الاستمرارية فى تاريخ مصر وتعارض الإنقطاع، وهى بدورها لا تبعث على الإرتياح، فهى تفترض أن جوهر الفلاح المصرى لم يتغير منذ العصور القديمة. فهذه الفرضية تصب فى فكرة الشرق الراكد غير المتغير الذى يعد نقيض الغرب الحركى المتغير. ويبدو أن هذا ما كان يعنيه أحد المستشرقين عندما التقط صورة لفلاح مسترخى الرأس ليؤكد التشابه بينه وبين مومياء تم إكتشافها فى طيبة (انظر الشكل 25).

وتضمنت أعمال "مؤتمر المستشرقين الدولى الأول" الذى عقد بباريس عام 1873 سبعة أوراق بحثية فى المصريات، وواحدة فى الدراسات القبطية؛ وكان من بين الثمانية أصحاب تلك الأوراق سبعة من الفرنسيين منهم ماسبيرو وشاباس، أما الثامن فكان صامويل بيرش. وكانت القوات الألمانية لازالت تحتل الأراضى الفرنسية حتى 16 سبتمبر 1873، ولذلك لم يكن منظمو المؤتمر فى حالة مزاجية تسمح لهم بدعوة الألمان للمشاركة. ورغم ذلك سدد 35 ألمانياً اشتراك المؤتمر (لم يحضر المؤتمر كل المشتركين الذين بلغ عددهم 1064 مشتركاً)، واشترك ليبسيوس فى المناقشات وهو جالس بين صفوف الحضور. وكان الخديو إسماعيل، ومحمود الفلكى، ويعقوب أرتين وستة آخرين من المصريين، ضمن قائمة المشتركين من مصر الذين بلغ عددهم عشرين مشتركاً، وكان من بين الأحد عشر الآخرين ماريت، وهنريش بروجش، وألبرت دانينوس. ويلفت النظر أن إسم شفاينفورت ورد كممثل للجمعية الجغرافية التى لم تكن قد تأسست بعد[365].

ويختلف الباحثون حول رد فعل المصريين على تمثيل بلادهم فى المعارض الدولية و"مؤتمر المستشرقين الدولى" فيذهب تيموثى ميتشل – الذى استخدم مدخلاً صعيدياً أو ما بعد الحداثة– إلى تأكيد عدم ارتياح المصريين وإحساسهم بالحرج، بينما يرى كارتر فيندلى أن رد فعل المصريين والعثمانيين كان إيجابياً وباهتاً. ويستقى كل من ميتشل وفيندلى أدلتهما من مؤتمر المستشرقين الدولى الذى عقد فى ستوكهلم وكريستيانا (أوسلو

[365] Memoires du Congres international des Orientalistes, 1 re Session, 3 vols. (Paris 1873) 1 : 114 – 115, 3 : Cvii, cxxxvii, 42 – 43.



الشكل رقم (٢٦) «شرقى» فى مؤتمر المستشرقين الدولى
من صحيفة الإستراند لندن نيوز سبتمبر ١٨٧٤

الآن) والمعرض الدولى بباريس عام 1889 الذى يقع فى الفترة التى يعالجها الفصل السادس من هذا الكتاب[366].

وكان باحث يابانى نشيط، شارك فى مؤتمر المستشرقين الدولى قد دحض الفكرة القائلة بأن المستشرقين الغربيين وحدهم هم القادرون على مناقشة "الشرقيات"، وأشاد الجنرال نزار أغا – السفير الفارسى– بالمستشرقين لاكتشافهم أن لغة الفردوسى ودارا وكسرى تنتمى إلى عائلة اللغات الأوروبية، قائلاً: "بفضل تقدم فقه اللغة المقارن أصبح باستطاعة الفرس اليوم أن يفصحوا عما كانوا يوقنون به من قبل، وهو أنهم ينتمون إلى نفس العنصر الذى ينتمى إليه الأوروبيون، وأنهم أشقاء الأمة النبيلة التى افتتحت هذا العام الأعمال الدولية الكبيرة العظيمة لمؤتمر المستشرقين"[367].

وقد تولى صامويل بيرش – عالم المصريات– رئاسة مؤتمر المستشرقين الدولى الثانى الذى عقد بلندن عام 1874 (انظر الجدول 11 بالملاحق، وانظر أيضاً الشكل 26)، ومزج فى كلمته بين الزهو الإمبريالى ودولية العلم عند حديثه عن لندن قائلاً:

"إنها متميزة لتوسعها ولانكبابها على دراسة الشرق الذى تربطها به آلاف الروابط: المصالح التجارية، ونشر الحضارة، وأعمال التبشير، وواجب حكم البلاد الشرقية التابعة لها ذات اللغات المتعددة والمواقع المتباينة فى الشرق...

والمستشرقون أيضاً جميعهم رجال ينتمون إلى عائلة واحدة ... طلاب علم، تختفى وتنسى عندهم كل أنواع التمييز على أساس العرق والدين والجنسية. وحتى النقد لا

366 Lonca, Voyageurs, 181 – 208; Mitchell, Colonising, 1 – 2, 180 – 81; Findley "Ottoman Occidentalist" American History Review 103 (1998): 15 – 49.
367 Memoire du Congres international, 2 : 315, III ff.

يجب أن يكون أو أن يصبح ذاتياً، طالما كان غرض العلم توسيع آفاق العقل ، والتماس الحقيقة التى يصعب الوصول إليها فى معظم الأحوال، ولا لوم إن أخطأ الطريق إليها"[368].

وقد عكست أقسام المؤتمر التصنيف السائد على أساس لغوى عرقى، فإلى جانب قسمى الآثار والإثنولوجى، هناك الأقسام السامية، والحامية، والطورانية، والآرية. وأعلن بيرش أن "قسم الحامية سوف يمثل التقدم الذى أحرزه علم المصريات منذ تم اكتشاف طريقة حل وقراءة اللغة التصويرية لمصر القديمة عام 1817"[369]. ويعنى هذا التاريخ اعترافاً بجهد توماس يانج، وإغفالاً لشامبليون، ولكن لم يكن هناك فرنسى بين الحضور حتى يعلن احتجاجه على ذلك. واستحوذ ليبسيوس وخمسة من الألمان الآخرين، على قسم المصريات، تماماً كما فعل الفرنسيون فى الدورة الأولى للمؤتمر فى العام السابق. وكان بروجش يمثل مصر رسمياً بالمؤتمر، بينما كان بيرش لا يزال عالم المصريات البريطانى الوحيد بالمؤتمر وقد دعا زملاءه السبعة إلى ورشة عمل بمنزله[370]. وانتقل مؤتمر المستشرقين الدولى الثالث إلى سان بطرسبورج عام 1876، ومثل مصر فيه ماريت كعضو مراسل فى اللجنة التنظيمية للمؤتمر، وفى المؤتمر الرابع الذى عقد فى فلورنسا عام 1878 إنتهى التنافس الفرنسى – الألمانى، وتولى ماريت رئاسة "قسم المصريات واللغات الأفريقية" الذى اختص بمصر وحدها من الناحية العلمية. وكان أصحاب الأوراق البحثية التى ألقيت هم ألمانى، وسويسرى (نافى)، وإيطاليان (أحدهما أرنستوشيا باريللى)، ولم يكن بينهم مصرى أو أوروبى مقيم بمصر[371].

هكذا وفر "مؤتمر المستشرقين الدولى" – منذ بدايته حتى الإحتلال البريطانى فى عام 1882– منبراً مهماً لتخصص المصريات حديث النشأة. فإلى جانب كبار المتخصصين من أمثال ماسبيرو، وبيرش، وليبسيوس، وبروجش الذين وضعوا أصوله، غامر القليل من الهواة بتقديم أوراق بحثية، وكان التنافس الفرنسى – الألمانى ماثلاً على مسرح المؤتمر

---

368 Samuel Birch, "Inaugural Address", International Congress 2 London.

369 Birch, "Inaugural Address", 13.

370 كان الشخص الثامن نرويجى يدعى جينس ليبلين Jens Lieblein.

371 Saint Petersburg, Travaux, 2 : vi.

وخارجه، بينما افتقر المصريون إلى من يوصل صوتهم إلى قسم المصريات بالمؤتمر، فلم يكن قد ظهر بعد متخصص مصرى فى ذلك العلم.

نذر العاصفة، إسماعيل وماريت فى السبعينات

حقق إسماعيل وماريت إنتصارات فى أول الأمر، ثم منيا بالنكبات فيما بعد. كيف يستطيع شخص واحد أن يكتشف السرابيوم ويؤسس مصلحة الآثار والمتحف المصرى، ويرتب العروض المصرية فى المعارض الدولية، ويضع ترتيبات احتفالات إفتتاح قناة السويس ؟، كانت المآسى فى حياة الرجل تترى، أزهقت الكوليرا روح زوجته، ومات ستة من بين أولاده العشرة فى حياته، وعانى من مرض السكر عدة سنوات حتى قضى نحبه[372].

ولم يكن ماريت يحظى بالأمان فى وظيفته، فكما قال أحد الفرنسيين "ماريت بك جزء من الأسرة الخديوية فى السراء والضراء، فى نفس مستوى ناظر الإسطبلات وكبير الأغوات. كان عالم مصريات يقف فى طريق يحتاج إلى منجم منظم استعراضات بارع ، وجد نفسه فى موقع بين الأحمق والطبيب"[373]. وبعد وفاة ماريت، فقدت مصلحة الآثار وضعها الخاص تحت جناح الخديو، ففى عام 1883 أصبحت تابعة لنظارة الأشغال العمومية.

وكان خصوم ماريت يرددون – همساً– أن ماريت عميل للرقيب الفرنسى، يبيع الآثار سراً، وأنه كان يكدس الآثار فى بولاق ليزيد من ثروته الشخصية. وتأثر إسماعيل بذلك ، فـانتزع الباخرة من ماريت وألغى صلاحياته فى تسخير العمال[374]. وفى عام 1867 كانت لديه مخصصات مالية لا تكفى سوى لاستئجار بضع مئات من العمال.

وفى عام 1873، لم يكن هناك مال يكفى للحفائر، والمطبوعات وتوسعات المتحف ، وتأخر صرف راتبه زمناً طويلاً، إضافة إلى فقده للباخرة، فألف كتاباً حقق رواجاً، عنوانه "رحلة فى صعيد مصر" يقع فى مجلدين (1878 – 1880) استخدم عائده فى سداد

---

[372] انظر شجرة العائلة فى David, Mariette, 274.

[373] David, Mariette 233 – 34.

[374] Maspero, "Mariette", xcliii.

ديونه – وفى عام 1878 قام وزير الأشغال الفرنسى بوزارة نوبار بتوفير ألف جنيه لينفقها مارييت على أهم الحفائر التى كان بحاجة لاستكمالها، وقدمت له وزارة التعليم العام الفرنسية معونة قدرها عشرة آلاف فرنك[375].

كانت أحلام مارييت فى النشر عظيمة مثل حفائره الأولى بمصلحة الآثار، ولكنها جميعاً تحطمت على صخرة التمويل والوقت. فالحفائر وأعمال المتحف، والأسفار، والتخطيط للمعارض الدولية، والمغامرات الدبلوماسية، كل ذلك لم يترك له وقتاً كافياً للعمل العلمى . وحرمته وفاة ديفريا المبكرة من العون الذى كان فى أمس الحاجة إليه لطباعة النقوش.

وأعلنت الحكومة عن عطاءات فى مارس 1873 لتشييد متحف كبير بالجيزة، متجاهلة نذر الإفلاس التى لاحت فى الأفق. وكان من المقرر أن يتم البناء فى أول أكتوبر بتكلفة قدرها 186 ألف فرنك. وخصصت أكاديمية النقوش والفنون بباريس جائزة قدرها عشرين ألف فرنك لتصميم واجهة المتحف. ولكن بعد إعلان حقيقة الحالة المالية لمصر فى صيف ذلك العام خلال معرض فيينا، إختفى مشروع المتحف المقترح مثلما اختفت مدرسة اللسان المصرى القديم من الوجود[376].

ووفقاً لما يذكره كرومر: "بلغت الفوضى المالية وبؤس الناس الذروة فى صيف وخريف عام 1878"[377]. وقامت بريطانيا وفرنسا بتجريد إسماعيل من أملاك عائلته، وأجبرته على تعيين نوبار رئيساً للوزراء مع تولى بريطانى وزارة المالية وفرنسى وزارة الأشغال العمومية، وغمر الفيضان متحف بولاق ومقر إقامة مارييت فى أكتوبر 1878 مما أدى إلى دمار الكتب والمخطوطات والآثار. ولم يتحقق اقتراح نقل المتحف إلى مدرسة البنات – التى لم يكتمل بناؤها– بمجمع وزارة الأشغال العمومية، وهو – على ما يبدو– المكان الذى حصل عليه المجمع العلمى المصرى عام 1880.

وفى صيف 1879، أجبرت بريطانيا وفرنسا السلطان عبد الحميد الثانى على خلع إسماعيل وتولية ولده توفيق حكم مصر. وبذل مارييت جهوداً فى إصلاح وتنظيف

---

375 Maspero, "Mariette", ccii, ccxiii.
376 Maspero, Mariette, cxccvi – vii.
377 Cromer, Modern Egypt (New York 1908), 28.

المتحف الذى أعيد إفتتاحه عام 1880. ولم يكن قد بلغ الستين عندما مات فى يناير 1881 بسبب السكر، وذلك قبل عام ونصف العام من قيام ثورة عرابى، ووقوع الإحتلال البريطانى. وشهدت سنى عمره الأخيرة بعض النقاط المضيئة، فقد إنتخب عام 1878 عضواً بأكاديمية النقوش والفنون الجميلة بباريس، ومنح رتبة الباشوية فى 5 يونيو 1879 قبل خلع إسماعيل ببضعة أسابيع، وأخبره الأخوان بروجش – وهو على سرير الموت – بنصوص الأهرام العجيبة التى عثر عليها بهرم أوناس بسقارة.

إنتهى عصر إسماعيل وماريت الذى كان متوهجاً. وبعد العام الذى شهد الثورة العرابية والغزو البريطانى، جاء كرومر وماسبيرو وإلى جانبهما بترى – صاحب الفكر المستقل – ليضعوا مساراً جديداً للآثار المصرية فى ظل الحكم الاستعمارى. ودخل التنافس الأنجلو – فرنسى فى مصر مرحلة جديدة، دافعت فيه فرنسا عن وجودها فى ميدان الآثار وفى غيره من الميادين ... ومع غياب الطهطاوى أخذ أحمد كمال وبعض زملائه على عاتقهم خوض المعركة لتأسيس علم مصريات مصرى.

الباب الثانى
ظهور الإمبريالية وفجر الوطنية
1914 – 1882

الفصل الرابع
كرومر والكلاسيكيات
التوظيف الأيديولوجى للتاريخ اليونانى – الرومانى

يبدأ هذا الكتاب بمشهد احتلال نابليون بونابرت مصر، وقد تجسدت فى وعيه صورة الإسكندرية وقيصر، ويختتم الكتاب باللورد كرومر متقاعداً يتحدث عن حكمه لمصر، مقارناً بحكم نائب القنصل (الحاكم العسكرى) فى روما القديمة، وجاء – بين المشهدين – القنصل هنرى سولت الذى وزع وقت فراغه بين قراءة المخطوطات اليونانية والآثار المصرية، وكان فلوبير يقرأ الأوديسة باليونانية بينما كان مسترخياً على صفحة النيل فى طريقه من الصعيد إلى القاهرة، ووقف الموظفون الإنجليز الذين تخرجوا لتوهم من أكسفورد وكامبردج على ضفاف النيل يسترجعون هيرودوت[378]. وأسس الأوروبيون المتحف اليونانى الرومانى والجمعية الأثرية عام 1892، ونظموا الاجتماع الثانى للمؤتمر الدولى للآثار الكلاسيكية بالقاهرة عام 1909.

وعنوان هذا الفصل غربى الميل، لأن أحداً من المصريين لم يحاول – حتى 1914– أن يجعل التراث اليونانى – الرومانى أساسياً فى تكوين الهوية القومية المصرية. وأعار المصريون، الذين عاشوا فى مطلع القرن، آذاناً صماء للجدل الأوروبى حول الكلاسيكيات، تماماً كما فعل الأوروبيون بالنسبة لإعتبار عمرو بن العاص فاتحاً عظيماً أو أبى نواس شاعراً خالداً. فقد صاغ المسلمون المتدينون أفكارهم فى إطار النبى محمد والخلفاء الراشدين، بينما كان العالم يبدى اندهاشه لعظمة بغداد أيام هارون الرشيد، والقاهرة زمن المماليك. ولم تكن المسحة الكلاسيكية عند بونابرت تعنى شيئاً عند الجبرتى. وفى الثمانيات كان هناك حديثان ذاتيان على طرفى نقيض، فقد لعب كرومر

[378] J. J. Halls, The Life and Correspondence of Henry Salt, 2 vols. (London 1843) 2 : 196; Francis Steegmuller, Flaubert in Egypt: A Sensibility on Tour (Boston, 1972), 33.

دور نائب القنصل فى القاهرة، واستدعى محمد أحمد المهدى سيرة النبى محمد فى الخرطوم. ولعل شارلز جوردون – الذى كان يفضل استخدام الشواهد الإنجيلية وليس الكلاسيكية– كان أقدر على فهم المهدى من كرومر[379].

ولم تخرج الدراسات الكلاسيكية (اليونانية – اللاتينية القديمة) مصرياً يتطلع لأن يكون أميناً للمتحف اليونانى – الرومانى بالإسكندرية حتى العام 1914، فلم يكن هناك – فى هذا المجال– أى مصرى يناظر أحمد كمال، أو على بهجت أو مرقص سميكة، غير أن بعض كبار الموظفين، والكتاب والسياسيين الذين لهم شهرة وتنوع اهتمامات الطهطاوى، قدموا إشارات عن التراث اليونانى الرومانى منهم الطهطاوى ذاته، ومحمود الفلكى ، وعلى مبارك، وجرجى زيدان، وقاسم أمين، وأحمد لطفى السيد، ومصطفى كامل، ومحمد فريد، ومهد ذلك الطريق لما شهدته العشرينات من القرن العشرين عندما أضاف طه حسين وأحمد لطفى السيد الدراسات اليونانية – اللاتينية القديمة باعتبارها أحد المكونات الحيوية للهوية القومية المصرية.

ومع استثناء المغرب – جزئياً– لم يدرك أهل الشرق الأوسط فى القرن التاسع عشر التعبير المجازى الكلاسيكى الذى استخدمه الأوروبيون عند الحديث عن الشرق الأوسط، إلا إدراكاً محدوداً، ونادراً ما تذكر كتب التاريخ العامة عن مصر الأفكار المصرية الحديثة عن التراث اليونانى – الرومانى الذى كان أقل جاذبية من الحديث عن التراث الإسلامى أو العربى أو الفرعونى.

الخطاب الكلاسيكى فى الهوية الغربية

منذ أيام بترارك حتى سارتر، نافست الكلاسيكيات حتى الإنجيل من حيث الإنتشار، باعتبارها أداة مرنة للفكر الغربى[380]. كانت تقرأ أعمال اليونان باعتبارها محافظة وليبرالية، راديكالية ورجعية، متدينة وملحدة، عقلانية ورومانسية. ودخلت الجمهورية الرومانية فى مواجهة مع الإمبراطورية، كذلك اليونان مع الرومان، وأثينا مع إسبرطة،

[379] The Journals of major – General C. G. Gordon, C. B., at Kartoum, ed., Egmond Hake, 2 vols. (London 1885).
[380] Hugh Lloyd – Jones, Blood for the Ghosts: Classical Influences in the Nineteenth and Twentieth Centuries, (London 1982).

أفلاطون مع أرسطو، وحتى الأرسطيين ضد بعضهم البعض[381]. واتخذت الثورتان الفرنسية والأمريكية رموزاً رومانية، وامتدح ماركس إنكار بروميثيوس للآلهة حتى أنه أعاد قراءة إيخليوس كل عام باليونانية[382].

غير أن بقاء الكلاسيكيات كمحور للتعليم الليبرالى الغربى فى مطلع القرن التاسع عشر، يعود إلى الإتجاه المحافظ وليس الراديكالى. ففى مواجهة التحديات الديمقراطية والاستحقاقية التى جاءت من الطبقة الوسطى، رفعت المدارس البريطانية العامة من مستويات التدريس بها، ووضعت وزارتا الداخلية، والهند، أسساً للإمتحانات[383]. وفى إطار الحصار الذى ضرب حول المحسوبية والإمتياز الطبقى، أصبحت اليونانية واللاتينية بمثابة مفتاح الوصول إلى مستوى الطبقة العليا.

ولم تكن الكلاسيكيات موضع تقدير كل المتعلمين فى بريطانيا، فقد شعر تشرشل بالأسى عندما حال جهله باليونانية بينه وبين الإلتحاق بأكسفورد. وكان تعلم الكلاسيكيات عند ثاكيراى يذكره بزيت الخروع، وسبق ذلك سياحة مارك توين المبتذلة فى اليونان، عندما قال ساخراً فى أثينا: "إننى أفضل أن أكسب مائتى جنيه فى السنة فى فليت ستريت، على أن أصبح ملكاً لليونانيين، تسبق إسمى كلمة باسيليوس حول عملتهم التعسة ... إن رثاثة هذا المكان غلبت أيرلندا، وكلمة (رثاثة) أقوى من الواقع"[384].

ومنذ العصور الوسطى حتى الثورة الفرنسية، حدد الغربيون هويتهم فى إطار روما وليس اليونان، وقد أطلق الآثارى البروسى يوهان فنكلمان حركة جمالية ثقافية عظمت من شأن المجتمع اليونانى بإعتباره مجتمعاً حيوياً وشاباً، على نقيض روما التى أضناها التمزق والإرهاق. وأصدر فنكلمان كتاباً عام 1764 بعنوان "تاريخ الفن القديم" جعل منه مؤسساً لتاريخ الفن الحديث، ورائداً لعلم الآثار الكلاسيكية، وغالباً ما خدم اتخاذ اليونان مثالاً، أهداف دعاة القضايا البورجوازية والليبرالية.

---

381 Turner, Greek Heritge in Victorian Britain (New Haven 1981) Francois Hartog, The Mirror of Herodotus: The Writing of History, trans. Janet Lloyd (Berkeley, Calif. 1988).
382 Lloyd – Jones, Blood for the Ghosts, 144.
383 Turner, Greek Heritage, 5.
384 William Makepeace Thakeray, The Paris Sketch Book of Mr. M. A. Titmaray, The Paris Sketch Book and Notes of a Journey from Cornhill to Grand Cairo (New York, n. d.) 630, 626; C. M. Bowra, Memoires 1898 – 1939 (London 1966), 331.

وفعل كل من جوته، ووزير التعليم الـبـروسى المصلح ألكسندر فون همبولد الكثير لنشر هذا التحمس لليونان القديمة فى ألمانيا[385]. ووعى الفرنسيون عظمة اليونان القديمة، ولكن لغتهم ذات الأصل اللاتينى وإحساسهم بأنهم ورثة التاريخ الرومانى، أبقاهم بعيداً عن طريق التحمس لليونان القديمة الذى اتجه إليه الألمان[386].

وأصيب البريطانيون أيضاً بحمى اليونان القديمة، يندفعون لمشاهدة مجموعة إيلجن بالمتحف البريطانى، ويقيمون مبانى تبعث الطراز اليونانى من جديد، وتسعدهم أشعار بايرون فى عشق اليونان، وكتب جون ستيورات مل "إن معركة الماراثون كحدث فى التاريخ الإنجليزى تفوق معركة هاستنجز أهمية"[387]. وإعتبر البريطانيون الإمبراطور أغسطس مستبداً مولعاً بالمكائد، وفيرجيل مجرد أحد أفراد حاشية الإمبراطور. وجاء هوميروس وأفلاطون فى بؤرة الضوء، ورفع أصحاب الفكر الإصلاحى ديمقراطية أثينا إلى مرتبة أعلى من سلطوية إسبرطة. وعلى كل، أظهرت دراسة حديثة تأثير روما القديمة فى مختلف دوائر الثقافة البريطانية حتى القرن التاسع عشر[388]. وإن كانت الإمبراطورية الرومانية قد استعادت رونقها فى أعين الكثير من البريطانيين مع تصاعد "الإمبريالية الجديدة" فى الثمانينات والتسعينات من القرن التاسع عشر.

مصر من خلال عدسات الأوروبيين الكلاسيكية

تعكس صفحة العنوان فى "وصف مصر" صوراً كلاسيكية قوية، فنابليون فى عربته الحربية مثل أبوللو والإسكندر، فالإلهام والفنون والعلوم عائدة إلى مصر، والنسر على رايات المعركة. وفى إشارة حافلة بالرموز، يحمل سقف قسم المصريات باللوفر اللوحة التى رسمها فرانسوا – إدوارد بيكو تحت إسم "دراسة وإلهامات الفنون تكشف أسرار مصر القديمة لأثينا" (انظر الشكل 27)[389]. حيث تبدو أثينا إمرأة ترتدى ثوباً ملكياً

---

[385] Donald Prezioisi, The Art of Art, History: A Critical Anthology (Oxford, 1998), 21 – 30; L. Marchand, Down from Olympus: Archaeology and Philhellenism in Germany 1750 – 1970 (Princeton. N. J., 1996).

[386] Fritz Ringer, Fields of Knowledge: French Academic Culture in Comparative Perspective 1890 – 1920 (Cambridge, 1992), 144.

[387] ورد الإقتباس فى Turner, Greek Heritage, 188.

[388] Norman Vance, The Victorians and Ancient Rome (Oxford, 1997).

[389] Description, vol. 1, Antiquites Planches (Paris 1809), Frontipiece; D'un Orient l'autre, 2 vols. (Paris 1991).

كلاسيكياً، ومصر إمرأة ترتدى ثوباً مثيراً يكاد ينزلق من على جسدها، وهى تشم باسترخاء زهرة اللوتس.



الشكل رقم (٢٧) كشف أسرار مصر القديمة لأثينا – لوحة ١٨٢٧ فرانسوا – إدوارد بيكو

وحمل نابليون معه فى حملته إلى مصر نسخة من الإلياذة (تماماً كما فعل الإسكندر)، ونسخة من أناباسس (حكاية الأبطال الإغريق الذين شقوا طريقهم بالقوة وسط حشود الأسيويين للعودة إلى بلادهم)، كما حمل معه نسخة من كتاب بلوتارخ "حياة متوازية"[390]. وقال بونابرت لجنوده: "إن المدينة الأولى التى سوف نراها بناها الإسكندر، وسنرى فى كل خطوة نخطوها آثار أعمال علينا نحن الفرنسيين أن نحذو حذوها"[391]. ولما كانت الهيروغليفية لا تزال مجهولة، فقد رأى علماء مصر بعيون هيرودوت، وإسترابو، وديودور الصقلى، وبلينى العجوز، فإقتبسوا منهم على التوازى بين اليونانية واللاتينية التى ترد نصوصها فى "وصف مصر". وحتى الفنانين الذين رسموا الآثار الفرعونية كان اتجاههم كلاسيكياً . فالميدالية التى سكت عام 1826 بمناسبة صدور الطبعة الثانية من "وصف مصر" تصور محارباً غالياً – رومانياً يعرى إمرأة مغرية تمثل مصر (انظر الشكل 28).



الشكل رقم (٢٨) جول المنتصر يكتشف مصر القديمة – ميدالية من تصميم بار ١٨٢٦

وبعد استكمال نشر "وصف مصر " عام 1828 بعامين، غزت فرنسا الجزائر. وقيل إن ورثة روما القديمة عادوا إلى شمال أفريقيا لنشر الحضارة فيها، يعد "فترة عربية " مدمرة. وقيل للضباط الفرنسيين فى مراكش (المغرب) "دعوا السكان

390 مارتن برنال، أثينا السوداء، المجلد الأول.

391 الإقتباس ورد فى J. C. Herold, Bonaparte in Egypt, 26.

المحليين يعلمون أننا الرومان كنا هنا قبل العرب"[392]. وعلى مدى ما يزيد على القرن من الوجود الفرنسى فى الجزائر، عكست التماثيل، والعمارة، والمتاحف، وأسماء الشوارع، والأدب، وطوابع البريد، وبطاقات البريد، تلك النظرة[393].

وبعد أن فتح شامبليون الطريق المباشر للتعرف على الفراعنة من النصوص الهيروغليفية، بوقت طويل، كان الأوروبيون المشتغلون بالمصريات مازالوا يتمسكون بالكلاسيكيات. ففى برلين، درجت مجموعة ليبسيوس على قراءة الأعمال اليونانية المهمة فى لغتها الأصلية فى مساء كل جمعة. وكان من بين من يداومون على الحضور: تيودور مومسن المتخصص فى اللاتينية، واللورد راسل السفير البريطانى، ورانجاب السفير اليونانى. وفى عام 1903 حصل ألكسندر موريه على الدكتوراه فى المصريات وكانت تلك آخر رسالة قدمت فى فرنسا مكتوبة باللاتينية[394].

ولا يستطيع المرء أن يقرر – أحياناً– ما إذا كانت الكلاسيكيات قد وضعت رؤية الأوروبيين لمصر الحديثة فى إطار مشوه، أم أن الأمر كان عكس ذلك تماماً ؟ يقول القس سايس:

"يتم تدريس جميع العلوم المحمدية بالأزهر على أساس القرآن، تماماً كما يحدث فى القاهرة الحالية، وكذلك كانت الحال فى عين شمس عندما زارها هيرودوت، فكانت كل ألوان المعرفة المصرية تدرس هناك ... ولا شك أن نظرة الرحالة اليونانى إلى الأساتذة وتلاميذهم تماثل نفس النظرة عند السائح الإنجليزى الذى يمر عبر الجامع الأزهر"[395] . وهكذا تتداخل المرايا، مع تداخل الخطابين الاستشراقى والكلاسيكى.

---

[392] Paul Mac Kendrick, The North African Stones Speak, (Chapel Hill, N. C., 1980), 319.
[393] Abdallah Laroui, The History of the Maghrib: An Interpretation (Princeton, N. J., 1977); Jean – Claude Vatin., ed., Connaissan ce du Maghreb: Sciences Sociales et colonisation (Paris. 1984); David Prochaska, Making Algeria French: Colonialism in Bone 1870 – 1920 (Cambridge, 1990).
[394] George Ebers, Richard Lepsius, A Biography, trans. Z. D. Underhill (New York, 1987) 274 – 75.
[395] Rev. A. H. Sayce, The Egypt of the Hebrews and Herodotus (London, 1897), 242.

ولم يكن جميع المتخصصين فى المصريات يتأثرون فكرياً بالكلاسيكيات، فقد كان اهتمام ماريت بالمواقع الأثرية اليونانية والرومانية محدوداً، وقد استنكر مقولات هيرودوت:

"عجباً لذلك الرحالة الذى جاء إلى مصر فى زمن كان الناس فيه يتحدثون اللغة المصرية، ورأى بعينيه كل المعابد قائمة فى أماكنها، وكان باستطاعته أن يسأل أول من يقابله عن إسم الملك الذى يحكم البلاد، وإسم الملك الذى سبقه، والذى كان عليه أن يشير إلى أول معبد من أجل التاريخ والدين، وكل ما هو مهم فى ذلك البلد المبهر للعالم. ولكنه بدلاً من ذلك كله يخبرنا – بكل أسف– أن خوفو بنى الهرم من ثمار الدعارة"[396].

ولم يتقن بترى الكلاسيكيات مطلقاً. ويقول أن أمه ظنت أن "من الطبيعى أن تحشو ذهنه بقواعد اللغات الإنجليزية والفرنسية واللاتينية واليونانية معاً، وهو فى سن الثامنة من عمره"، وبلغت محاولاته فى اللاتينية عشر محاولات، وفى اليونانية ست محاولات، باءت جميعاً بالفشل عندما بلغ العاشرة من عمره، فترك الدراسة ليتولى أمر تعليم نفسه[397].

وكان ماسبيرو عكس ذلك تماماً، فبعد بونابرت بقرن من الزمان، أعطاه العثور على لوحة لاتينية فى فيله دفعة من الحماس الوطنى، ويذكر النص كيف أن كورنيليوس حاكم مصر فى عهد أغسطس، أخضع وادى النيل للحكم الرومانى حتى جزيرة فيله – وعندما لاحظ ماسبيرو أن كورنيليوس ولد على أرض غالية:

"تذكر على الفور النصوص الأخرى الأحدث التى نجدها على الجهة الداخلية من بوابة فيله الكبيرة، فبعد مرور 18 قرناً على الغالى كورنيليوس، جاء غاليون آخرون إلى النوبة صدفة، وحاولوا أن يتركوا تذكاراً لوجودهم هناك، فنقشوا على الصخر كيف أنه فى العام السادس للجمهورية يوم 12 ميسيدور، نزل الجيش الفرنسى إلى الإسكندرية بقيادة بونابرت، وبعد ذلك بعشرين يوماً حارب المماليك

396 H. V. F. Winstone, Uncovering the Ancient World (New York, 1986), 121.
397 W. M. F. Petrie, Seventy Years in Archaeology (London, 1931), 6 – 7.

عند الأهرام، وقام ديزيه – قائد الفيلق الأول– بدفعهم جنوباً إلى ما وراء الشلال الذى بلغه فى 18 من نيفوس، العام السابع للجمهورية.

ويجب أن يرى المرء فى رحلة دينون، ومجلدات وصف مصر كيف أكسبتهم ذكريات الماضى القديم حيوية وقوة، والإعتزاز والفخر الذى شعروا به وهم يرفعون أعلامهم فوق الصخور التى قامت عندها الفرق الرومانية بإنجاز ما كان من قبيل المستحيلات ... "[398].

آراء المسلمين عن الإغريق والرومان قبل الطهطاوى

لم يكن الأدب اليونانى واللاتينى القديم يمثل "الكلاسيكيات" عند مسلمى العصور الوسطى، وكان بونابرت يعلم جيداً أكثر من علمه عن الظهور أمام المصريين بمظهر الإسكندر أو قيصر، فبدلاً من ذلك جعلته دعايته العربية – دون نجاح– يبدو كمسلم معاد للكهنوت، هاجم البابا العدو اللدود للإسلام، وأنه صديق للسلطان العثمانى، وأن هدفه الوحيد تحرير مصر من طغيان المماليك.

ولم يكن ذلك يرجع إلى جهل الجبرتى ورفاقه من علماء الأزهر بالحضارة اليونانية – الرومانية. فقد كانت الترجمات العربية الأولى من الفلسفة اليونانية، والعلوم، والرياضيات أساسية فى تحقيق التقدم الإسلامى فى تلك الميادين، وأصبح المنطق الأرسطى أداة ضرورية للفقه الإسلامى[399]. ونسج الأدب الإسلامى روايته الخاصة لأسطورة الإسكندر. ولكن مسلمى العصور الوسطى لم يرثوا الدراما أو الأساطير اليونانية (الميثولوجيا)، كما لم يهتموا بالتاريخ الباكر لليونان، فقبل الفتوح الإسلامية كانت المدارس المسيحية قد أهملت هذه الجوانب بإعتبارها وثنية. وعلى أى حال، جلب العرب معهم من الجزيرة العربية تراثهم الشعبى وأشعارهم، والدين الجديد. ولذلك لم تظهر ترجمة الإلياذة إلى العربية فى بغداد على عهد هارون الرشيد عام 804، ولكنها ظهرت فى القاهرة أيام كرومر عام 1904[400].

---

[398] Maspero, "Une Inscription trilinguo de C. Cornelius", in his Causeries d'Egypte, 2nd. ed. (Paris, 1907), 95 – 101.
[399] Dimirti Gutas, Greek Thought, Arabic Culture: The Graeco – Arabic Translation Movement in Baghdad and Early Abbasid Society (London, 1998).
[400] Albert Hourani, Islam in European Thought, (Cambridge, 1991), 174 – 87.

ولم يشعر المسلمون الأوائل بتهديد من جانب الوثنية اليونانية – الرومانية، فقد انقضى أجلها قبل زمانهم. وفى القرن الحادى عشر، ذكر البيرونى فى كتابه عن الهند آلهة اليونان والهنود. وهكذا استطاع المسلمون أن يرشدوا ما أخذوه عن اليونان الوثنية، فأهملوا الفكر الدينى المشرك لعدم قدرة الناس على التفكير فيه بشكل مجرد بحيث يضمون اليونان إلى فئة الصابئة التى ورد نص قرآنى بشأنها وضعها فى عداد المؤمنين بالله، أو النظر إلى الأفلاطونيين الجدد على أنهم موحدين على نمط التراث اليهودى[401].

ويعد مؤرخو العصور الوسطى من المسلمين بتواريخهم عن عصور ما قبل الإسلام عن اليهود، والنصارى، والوثنيين العرب والتراث الفارسى. ولم يكن الطبرى يعرف شيئاً عن تاريخ اليونان قبل فيليب ملك مقدونيا، واكتفى بذكر البطالمة فى قائمته، وبدأت معرفته بالتاريخ الرومانى بيوليوس قيصر الذى جاء بالرومان إلى مصر. وقطع استرسال الطبرى فى سرد قائمة الملوك من هرقل، فالمسيح ولد فى عهد أغسطس، ونيرون قام بذبح بطرس وبولس، وقام تيتيوس بسحق ثورة اليهود وتحطيم بيت المقدس[402].

ولم يكن للاتينية جذور – على الإطلاق– فى شرق البحر المتوسط الذى صارع المسلمون البيزنطيين للسيطرة عليه، وليس ثمة استثناء واحد لنصوص لاتينية تمت ترجمتها إلى العربية فى العصور الوسطى[403]. وعند معظم المسلمين كانت "الروم" و"قيصر" ترتبط بالبيزنطيين، وليس بالرومان الذين إختفوا من الوجود فى الغرب.

اليونان وروما القديمة عند الطهطاوى

أبدى الجبرتى إعجابه بمكتبة "المجمع العلمى المصرى"، ولكن مر جيل قبل أن يصبح شيخ أزهرى آخر فى وضع يمكنه من أن يقدم لأبناء بلاده اللمحات الأولى عما كان يعنيه اليونان والرومان عند الأوروبيين، ونتيجة انكبابه على الكتب التى أوصاه معلمه الفرنسى بقراءتها فى العشرينات من القرن التاسع عشر، إلتقى رفاعة الطهطاوى باليونان والرومان عند كل منعطف. فقرأ كتاباً عن فلاسفة الإغريق، وتاريخاً يتضمن فصولاً عن

---

401 John Walbridge, "Explaining away the Greek Goods in Islam" unpublished, MESA, Washington, D. C. December 1995.

402 الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، المجلد الرابع.

403 Charles Issawi, "Ibn Khaldoun on Ancient History: A Study in Sources", Priceton Papers in Near Eastern Studies, no. 3 (1994), 127 – 50.

الأساطير اليونانية "زمن جاهليتهم"، وكتاب مونتسكيو "ملاحظات حول أسباب عظمة الرومان وإنحطاطهم"، وكتاب فينلون "مغامرات تليما خوس"، وكانت الكتب التى اختار الطهطاوى قراءتها: راسيين، وروح القوانين لمونتسكيو، والقاموس الفلسفى لفولتير، والعقد الاجتماعى لروسو، كانت جميعاً تتناول تلميحات كلاسيكية[404].

وقدم العلماء الفرنسيون هدية لتلميذهم اللامع، كتاب جان جاك بارثلمى "رحلات الشاب أناخارسيس فى بلاد اليونان فى منتصف القرن الرابع قبل العصر المسيحى" ويقع فى خمسة مجلدات (باريس 1788)، وكان هذا الكتاب المعبر عن الميل إلى اليونان، والذى طواه النسيان رغم أنه كان واسع الإنتشار فى زمانه، كان يروى قصة خيالية لرحلة فى بلاد اليونان قام بها شاب من شيا (عند بحر الأدرياتيك)، يلتقى خلالها أفلاطون وأرسطو وغيرهما من حكماء اليونان، وقام الطهطاوى – فيما بعد– بتوزيع الكتاب على تلاميذه لترجمته إلى العربية، ولكن المشروع لم يقدر له التنفيذ[405].

وعندما تولى الطهطاوى نظارة قلم الترجمة فى عهد محمد على، ثم فى عهد إسماعيل ، إختار من الكتب التى تترجم إلى العربية تاريخ الفلسفة اليونانية، وكتاب مونتسكيو عن أسباب عظمة الرومان وإنحطاطهم، وكتاب فى تاريخ الشرق الأدنى القديم، واليونان والرومان[406].

لقد لفت كتاب الطهطاوى "أنوار توفيق الجليل" الذى نشر عام 1868، الأنظار إلى مصر الفرعونية[407]. ولكنه خصص للعصور اليونانية والرومانية والبيزنطية ضعف ما خصصه للعصر الفرعونى من صفحات الكتاب. واتخذ الطهطاوى موقفاً متعاطفاً مع اليونان منذ أيام الأسرة السادسة والعشرين، عندما جاءوا إلى مصر كجند مرتزقة. ورأى أن بلاد اليونان تعكس كل الحضارات القديمة – بابل، وآشور، وفينيقيا، وفارس، والهند – ما عدا

---

404 Gilbert Delanoue, Moralistes et politiques musulmans dans l'Egypte du XIX siècle (1798 – 1882), 2 vols. (Cairo, 1982) 2 : 619 – 20.
جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على (القاهرة 1951)، 125.

405 Elie Kedourie, ed., Nationalism in Asia and Africa (New York, 1970) intro., 39 – 40.

406 Ibrahim Abu – Lughod, The Arab Rediscovery of Europe, A Study in Cultural Encounters (Princeton, N. J., 1963) 50 – 51.

407 Jack Crabbs, The Writing of History in Nineteenth Century Egypt: A Study in National Transformation (Cairo, 1984). 79.

الحضارة المصرية. واتخذ موقفاً مماثلاً للكتاب الأوروبيين فى القرن التاسع عشر عندما نقل حكاية هيرودوت عن سيزوستريس (رمسيس الثانى) وغزواته الواسعة فى أوروبا وآسيا، كذلك الحكايات الإغريقية عن وجود جاليات مصرية فى عصر ما قبل التاريخ ببلاد اليونان، وأعلن الطهطاوى – ببساطة– "إن اليونان شقيقة لمصر"[408].

وسار الطهطاوى على نهج الإغريق فى الهجوم على فرس الأسرة السابعة والعشرين بإعتبارهم طغاة، هاجموا الكهنة والمعابد المصرية. ذكر أن الأسرات من الثامنة والعشرين حتى الثلاثين حكمت "الوطن" المصرى مستقلة، ثم ما لبثت مصر أن وقعت – مرة أخرى– فى يد الفرس، ومهد ذلك السبيل للإسكندر والبطالمة ليلعبوا دور المحررين، واستقبل كهنة سيوة الإسكندر باعتباره إبناً لأمون رع. وامتدح الطهطاوى الإسكندر والبطالمة لبنائهم المعابد للمصريين ولآلهة اليونان، وبنائهم الإسكندرية كمركز اتصال يربط أفريقيا وآسيا وأوروبا. وذكر أنه خلال عصر الإسكندر الأكبر والبطالمة وأيام الحكم الرومانى السوداء، كانت مصر تحظى بالإحترام لتأثيرها المعنوى والثقافى. وكانت الإسكندرية مقراً للكثير من العلماء والأدباء والفلاسفة الذين برعوا فى مختلف العلوم . وخاصة فى دراسة العادات والتقاليد، ونشرت ثقافتها بين جميع الأمم، وكانت معارفها نافعة للمقيمين فيها والوافدين إليها[409].

ويشير الطهطاوى إلى أن مصر إزدهرت – خاصة– فى عهد أول ملكين من ملوك البطالمة. وقد كتب مانيتو تاريخ مصر القديم باليونانية، وترجم اليهود التوراة إلى اليونانية، وأعيد شق القناة التى ربطت النيل بالبحر الأحمر، وأقيمت المنارات والمدارس ومكتبة الإسكندرية. وعندما ذكر حجر رشيد الذى يحمل أمراً أصدره بطليموس الرابع، عرج الطهطاوى على شامبليون وفك رموز الهيروغليفية، وعندما تناول فكرة كلوديوس بطليموس عن مركزية الأرض للكون، أرجع الطهطاوى مركزية الشمس إلى فيثاغورس وكوبرنيكس والأوروبيين المحدثين، ولكن حذر من أن ذلك يتناقض مع ما

---

[408] رفاعة الطهطاوى، أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل (الأعمال الكاملة، تحقيق عمارة، بيروت 1974) 15، 105.

[409] أورده الشيال فى دراسته The Egyptian Historiography.

جاء بالقرآن[410]. وذكر أن صراعات البطالمة المتأخرين أضرت بمصر، وإن كانت نخبة من الإغريق كانت تفرض حكمها على المصريين.

ومر الطهطاوى على التاريخ الرومانى من رومولوس وريموس إلى يوليوس قيصر فى صفحة واحدة، ولا يكاد يذكر الحروب البونية. ولم يبد الطهطاوى أى عطف على آخر ملوك البطالمة، على عكس الشاعر أحمد شوقى الذى صور كليوباترا فى روايته الشعرية "مصرع كليوباترا" (عام 1928) على أنها كانت وطنية مصرية تعمل على تخليص بلادها من السيطرة الرومانية. وبذل جهداً فى تبرئة الخليفة عمر بن الخطاب من تهمة حرق مكتبة الإسكندرية، فذكر أنها أحرقت فعلاً عند حصار يوليوس قيصر للثغر[411]. ورغم التسامح الدينى الذى اتبعه الرومان وبنائهم المعابد حتى النوبة جنوباً، اعتبرهم الطهطاوى مستغلين ينشدون الاستيلاء على ثروة مصر. وعلى كل، لم يسر الطهطاوى على نهج الغرب – بشكل نمطى– فى تقدير الأباطرة، فالإمبراطور هادريان – مثلاً– كان جيداً، وشهدت مصر الرخاء فى عهده[412].

ويذكر الطهطاوى مولد عيسى بن مريم فى عهد الإمبراطور أغسطس، ولجوء العائلة المقدسة إلى مصر، ونفى القرآن لما يعتقده المسيحيون من موت المسيح وقيامته، وبين كيف أن المسيحية حلت تدريجياً محل ديانة "الصابئة" المصرية القديمة. ويشير إلى إضطهاد الرومان للمسيحيين، وتحول الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية، وبداية الأسرة الخامسة والثلاثين التى حكمت الإمبراطورية من القسطنطينية حتى الفتح الإسلامى، مع تولى ثيودوسيوس الحكم وتحريمه عبادة الآلهة القديمة[413].

كان كتاب "أنوار توفيق" وكتاب "نهاية الإيجاز" الذى أعقبه يغطيان مقرر التاريخ فى السبعينات من القرن التاسع عشر الذى كان يتعلمه طلاب المدرستين التحضيريتين – رأس التين بالإسكندرية، ودرب الجماميز بالقاهرة – بالفرقة الثالثة. وكان مقرر الفرقة الأولى يغطى تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم، والفرقة الثانية يغطى تاريخ اليونان

---

410 الطهطاوى، أنوار توفيق الجليل 185 – 86 و215 – 223 و274 – 79.
411 الطهطاوى، أنوار توفيق، 273 و247 – 272.
412 الطهطاوى، أنوار توفيق، 290 – 291، 343 – 345، 473 – 474.
413 الطهطاوى، أنوار توفيق، 291 – 293، 298 – 299، 334.

والعصر الهللينستى وعصر الجمهورية الرومانية ثم أوائل عصر الإمبراطورية الرومانية. وكان مقرر الفرقة الثالثة يتناول تاريخ الإمبراطورية الرومانية حتى إعتلاء ثيودوسيوس العرش، وغزو البرابرة، وتاريخ ما قبل الإسلام، وتاريخ أوائل العصر الإسلامى، كذلك يتضمن تاريخ الأندلس وصقلية الإسلامية. أما الفرقة الرابعة فكانت تدرس التاريخ الإسلامى فى العصور الوسطى والحروب الصليبية، والدولة العباسية، والمماليك حتى الغزو العثمانى[414]. ورغم أن مقررات التاريخ أسقطت مصر بعد عام 1517، ومعظم آسيا، والتاريخ الأفريقى والأمريكى، فقد فتح مجالاً واسعاً للرؤية أمام المصريين المحدثين.

وكان مقرر التاريخ فى السنوات الأربع بدار العلوم يعطى اهتماماً بعصر ما قبل الإسلام، واهتماماً أكبر بالتاريخ العثمانى بعد عام 1517، وتاريخ أوروبا الحديث. وفى تقرير عن عام 1911، وجه اللوم إلى دار العلوم لتركيزها على التاريخ الأوروبى على حساب التاريخ الإسلامى[415].

وقد تناول الطهطاوى اليونان وروما القديمة فى أعمال أخرى غير كتابه "أنوار توفيق الجليل"، ففى مقال نشر فى "روضة المدارس" عن عادات اليونان والرومان، قرر الطهطاوى أن معاملة النساء هى معيار تقدم المجتمع[416]. وفى عام 1869 كلف الخديو إسماعيل الطهطاوى بالإشراف على ترجمة رواية أوفنباخ "هيلانة الجميلة" ليتم تمثيلها على المسرح الكوميدى بالقاهرة[417].

وفى كتابه "مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية" مزج الطهطاوى بين معرفته باليونان والرومان والفراعنة، بما استمده من القرآن والحديث والمصادر الإسلامية الأخرى، فأشار إلى سولون والإسكندر والبطالمة، وامتدح وطنية البطالمة،

---

414 أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم فى مصر (القاهرة 1945)، 2 : 431.

415 Lois Aroian, The Nationalization of Arabic and Islamic Education in Egypt: Dar al "Ulum and al – Azhar, Cairo Papers in Social Science, vol. 6, Monograph 4 (Cairo 1983), 44 – 48, 54.

416 روضة المدارس، 4، عدد 10، 9.

417 Philip Sadgrove, The Egyptian Theatre in the 19th century (1799 – 1882) (Reading, Berkshire 1996) 47 – 48, 61.

والرومان، وأبطال الإسلام، وذكر الحديث القائل: "حب الوطن من الإيمان" ليربط بين الإسلام والوطنية عند مواطنيه، كما أورد المثل القائل "مصر أم الدنيا"[418].

ورغم تبريره لإقدام محمد على على سحق ثورة اليونان من أجل الاستقلال، على أساس أن اليونانيين هاجموا المسلمين والمساجد، اعتقد أن هجرة اليونانيين إلى مصر سوف تؤدى إلى رخائها كما حدث فى الماضى، وربط بين محمد على والإسكندر، فكلاهما ولد خارج مصر، وجاء إليها ليحكمها حكماً يقوم على التسامح والعدل[419]. وبعد أن تناول حكم أسرة الإسكندر الثانية والثلاثين، أو "الأسرة المقدونية الأولى" قال أن الله أكرم مصر بفاتح مقدونى آخر هو محمد على باشا[420]. وربما كان عليه أن يذكر أن (بللا) – بلدة الإسكندر– كانت تقع على بعد مائة ميل فقط من قولة التى جاء منها محمد على.

اليونان والإيطاليون ونهضة الإسكندرية فى القرن التاسع عشر

كانت الخبرة المقدونية – العثمانية التى إكتسبها محمد على فى شبابه – فى بلاده الأصلية– قد جعلته على دراية بعالم التجارة والسياسة فى البحر المتوسط. لقد نقل البطالمة والرومان عاصمة مصر نحو ساحل البحر إلى ثغر الإسكندرية، ولكن الحكام العرب أعادوها إلى الداخل فى الفسطاط (قرب القاهرة)، التى وقعت فيما بين منف وعين شمس. وعندما وصلت حملة بونابرت إلى الإسكندرية كانت قد اضمحلت، وهبط سكانها إلى 8000 نسمة. وعمل محمد على على إحياء الثغر باعتباره بوابة مصر إلى الاقتصاد العالمى الذى تتحكم فيه أوروبا، وذلك مع الإبقاء على القاهرة عاصمة للبلاد. وبنى "المقدونى الثانى" قصراً فى رأس التين، كان يقضى فيه جانباً من وقته، وسخر الفلاحين فى حفر ترعة المحمودية لمد الإسكندرية بالماء العذب من النيل، وإقامة خط اتصال نهرى يربطها بالنيل، كما بنى أسطولاً بحرياً فى الترسانة التى أقامها هناك، وأرسل منها قواته لإخماد الثورة فى بلاد اليونان التى قامت ضد الحكم العثمانى، وبدأ الإهتمام بزراعة القطن باعتباره محصولاً نقدياً يمكن استخدامه فى سداد قيمة الورادات الأوروبية.

---

[418] See, Crabbs, Writtings, 74 – 79.
[419] Crabbs, Writtings, 77; Wendell, The Evolution of the Egyptian National Img, 128 – 130.
[420] الطهطاوى، أنوار توفيق الجليل، 194 – 195.

وفى العام 1821، كانت الإسكندرية لا تزال مدينة صغيرة، يترواح تعداد سكانها بين 12 – 13 ألف نسمة، وعند نهاية حكم محمد على – عام 848 – وصل تعدادها إلى 104 ألف نسمة، وعند وقوع الإحتلال البريطانى – عام 1882– كان قد بلغ 231 ألف نسمة، وعند استقالة كرومر عام 1907، كان التعداد قد وصل إلى 403 ألف نسمة. وتغيرت تبعاً لذلك نسبة الأوروبيين والمتمتعين بحمايتهم بين سكان المدينة، من أقل من 5% عام 1848 إلى 25% عام 1882[421]. واستمدت النخبة التجارية، التى اجتذبها الاقتصاد المزدهر، شرعيتها بالإسكندرية من الماضى اليونانى – الرومانى، تماماً كما حدث فى إيطاليا عصر النهضة، وعلى كل، كانت غالبية ملوك التجارة بالإسكندرية من الأجانب تقريباً، وكان هؤلاء هم الذين يعتبرون أنفسهم استمراراً للماضى القديم للإسكندرية، وليس المصريين.

وكان إسم الإسكندرية ذاته يبقى على ذكرى مؤسسها حية فى الأذهان، ومع وجود الآثار اليونانية – الرومانية مطمورة هناك، كان التراث الكلاسيكى أكبر حجماً منه بالقاهرة . وعلى كل فقد كانت الفسطاط والقاهرة الفاطمية إسلاميتان من حيث النشأة، وكان الأوروبيون يمثلون 5% من سكانها عام 1897[422]، وهى نسبة لا تقارن بالوجود الأوروبى بالإسكندرية. وحجبت الآثار الإسلامية بالقاهرة، والآثار الفرعونية بالجيزة على مقربة منها، الأثر الرومانى المتمثل فى حصن بابليون بمصر القديمة.

وكان اليونانيون يمثلون أكبر الجاليات الأوروبية بالإسكندرية، فبلغت نسبتهم إلى الرقم الإجمالى للأجانب 33% عام 1897، و41% عام 1907[423]. وفى الإسكندرية – كما فى غيرها من المدن المصرية– أصبح اليونانيون منتشرين فى تجارة البقالة، والحانات ، وعملوا كمرابين يقرضون الأموال للفلاحين، ووسطاء فى تجارة القطن. وجاء نمو الوجود اليونانى وانتعاش أحوال الجالية اليونانية تحت مظلة الحماية التى وفرتها لهم أسرة محمد على، والقناصل الأوروبيين، ثم الإحتلال البريطانى، فى حين كانت اليونان

---

[421] عن الإسكندرية فى القرن التاسع عشر راجع كتاب:
Michael Reimer, Colonial Bridgehead: Government and Society in Alexandria. Egypt 1907 – 1882 (Boulder, Colo; 1997).

[422] Janet Abu Lighod, 1001 Years of the City Victorians (Princeton, N. J. 1971), 98, 115.

[423] Robert Ilbert, Alexandrie 1830 – 1930: Histore d'un Communaute citadine, 2 vols. (Cairo, 1996) 1 : 395, 2 : 609 – 15; Alexander Kitroeff, The Greeks in Egypt 1919 – 1937: Ethnicity and Class (London, 1989) First Chapter.

المستقلة تعانى الضعف والإنقسام، مشغولة بالبلقان وبحر إيجه والأناضول، عن التفكير فى إحياء ادعاءاتها الإمبريالية فى مصر، مكتفية بالحصول على حقوق الإمتيازات الأجنبية عام 1854، وعلى مقعد بمحكمة الاستئناف المختلطة عام 1889.

ووجد اليونانيون فى مصر أنه من الصعوبة بمكان تخليص تراثهم القومى من الأرثوذكسية، وتراثهم الكلاسيكى من الحنين إلى بيزنطة، تماماً كما حدث لمواطنيهم فى اليونان المستقلة حتى القرن العشرين[424]. فقد كان اليونانيون المقيمون بمصر فى القرن الثامن عشر يرون أنفسهم – ببساطة– كأفراد ينتمون إلى "الملة" الأرثوذكسية اليونانية، التى كان لها بالإسكندرية بطريركية، وكنيسة، ودير، وتكية، وخان للمسافرين.

وأصبحت الهوية اليونانية أكثر تعقيداً مع استقلال اليونان عام 1830، وفتحت اليونان قنصلية لها بالإسكندرية عام 1833. وبعد ذلك بعشر سنوات تكونت الجالية اليونانية الأرثوذكسية بصفة رسمية، وتم انتخاب مسئوليها، وإقامة مدرسة، ومستشفى. وعبثاً حاول البطريرك اليونانى الإحتجاج خشية أن يؤدى ذلك إلى تناقص سلطته. وجاء اختيار الطراز القوطى الحديث – وليس البيزنطى– لكنيسة إيفانجليموس التى بدأ العمل بها عام 1844 بالإسكندرية وتم عام 1856، جاء ذلك الإختيار ليعكس الإتجاه نحو الغرب. وفى العام 1887، غيرت الجالية إسمها إلى "الجالية الهللينية" لتميز نفسها عن غيرها من رعايا الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية من العرب. وسارت الجالية اليونانية بالقاهرة على نفس الدرب، ولكن بخطى أبطأ فكونوا الجالية الأرثوذكسية اليونانية عام 1856 ثم أعادوا تسميتها بالجالية "الهللينية" عام 1904.

وحتى قيام الأتراك بطرد اليونانيين من الأناضول عام 1923، كان اليونانيون السكندريون – مثلهم فى ذلك مثل مواطنيهم ببحر إيجه– تداعبهم أحلام إقامة (إيديا الكبرى) أى إعادة تكوين الإمبراطورية البيزنطية بشرق البحر المتوسط والبلقان. أما سكان بلاد اليونان أنفسهم، فكانوا منقسمين من بين من أضناهم الحنين إلى الماضى البيزنطى، ومن يحلمون بالعصر الذهبى لليونان القديمة فى القرن الخامس قبل الميلاد الذى خلب لب أهل الغرب .

---

[424] Gerasimos Augustinos, Consciousness and History: Nationalist Critics of Greek Society 1897 – 1914 (Boulder, Colo. 1997); G. P. Henderson, The Revival of Greek Thought 1620 – 1830 (Albany, N. Y., 1970).

ولكن اليونان السكندريون – مثل الشاعر قسطنطين كفافى– كانوا يحنون إلى العصر البطلمى الهللينيستى[425]

وكان من بين اليونان السكندريين المهتمين بالآثار الطبيب تاسوس ديمتريوس نيروتسوس (1826 – 1892)، والتاجران الكبيران الكونت إستيفان زيزنيا (1794 – 1868)، والسير جون أنطونيادس (1818 – 1895). درس نيروتسوس الطب بجامعة ميونخ، ولكنه – أيضاً– أعد رسالة عن أسماء آلهة الرومان، وألقى أوراقاً بحثية عن الإسكندرية القديمة أمام "المجمع العلمى المصرى"، وأهدى إلى المجمع مجموعة الآثار الخاصة به. ولكن انتقال المجمع إلى القاهرة أدى إلى ضعف مشاركة اليونانيين فيه بعد وفاة نيروتسوس[426]. وتمثلت فى زيزنيا الهوية القومية المركبة عند بعض السكندريين المنفحتين على العالم . ولد زيزنيا بجزيرة خيوس، وحصل على الجنسية الفرنسية أثناء عمله فى مارسيليا، ولكنه أصبح رئيساً للجالية اليونانية بالإسكندرية، وقنصلاً عاماً لبلجيكا. ومنحت الملكة فيكتوريا وسام الفارس لأنطونيادس – الراعى الرئيسى للمتحف اليونانى – الرومانى – الذى ترك قصره وحديقته لبلدية الإسكندرية[427].

وكانت الإسكندرية قد فقدت بعض المجموعات الرائعة من آثارها اليونانية – الرومانية التى ذهبت إلى أثينا وإلى غيرها من البلاد، ولكن جليمونوبولو أعلن عام 1907 أن مجموعته "تخص – من ناحية الحق– متحف الإسكندرية، لأنه تم العثور عليها فى مصر، وتم الحصول عليها لأغراض علمية بأموال اكتسبت من نفس البلد الكريم المضياف ، ولهذا السبب أرسلها إلى مستقرها، ولا أعد ذلك هبة منى، ولكنه ببساطة ردها لأصلها"[428].

وأسست بالإسكندرية عام 1909 "جمعية رجال علم الهللينية بالإسكندرية بطليموس الأول"، لتخليد ذكرى مؤسس الأسرة البطلمية، كان أعضاؤها من الأطباء. وفى القاهرة

---

[425] On Cavafy, see John Rodenbeck, "Alexandrian Literature", the American Research Center in Egypt, nos. 156 – 57 (Winter / Spring 1992) 7 – 10.
[426] Athanase G. Politis, L'Hellenisme et l'Egypte moderne, 2 vols, (Paris 1929 – 1930), 2 : 405 – 6.
[427] Who Was Who 3, 457, 18.
[428] Ilbert, Alexandrie, 2 : 679.

أسست "جمعية هللنيون" – التى لم تعمر طويلاً– وحملت إسم معبد قديم أقيم فى نوكراتيس بالدلتا حيث جاء مستوطنوها من ست مدن يونانية جمعتهم أرومة واحدة[429].

واتجه نستور جناكليس – ملك تجارة وصناعة التبغ– إلى محاولة استرجاع حضارة شمال أفريقيا اليونانية التى قرأ عنها فى النصوص القديمة. ومازالت مرزعة كروم جناكليس قرب الإسكندرية – التى أممها عبد الناصر وتم تخصيصها أخيراً– تنتج نوعان من النبيذ أحدهما: فيض البطالمة، والآخر الملكة كليوباترا. وقد أنقذ غياب الزراعة المعتمدة على المطر مصر من التعرض للخسارة الفادحة – مثلما فعل الفرنسيون– جرياً وراء وهم أن شمال أفريقيا كان مصدر إمداد روما بالغلال، فقد فشل الفرنسيون فى تحويل المغرب إلى مصدر رئيسى للغلال[430].

وكان للإيطاليين حضور قوى فى المركز الثانى بعد اليونانيين بين المقيمين الأجانب بالإسكندرية (إذ بلغت نسبتهم 25% من إجمالى المقيمين الأجانب عام 1897)[431]. وكان الإيطاليون يعملون بالبناء، والحرف اليدوية، وإصلاح الآلات الميكانيكية، وكانت الأسرة الحاكمة – من إسماعيل حتى فؤاد– تتخذ مستشاريها من الإيطاليين الذين كانوا يحتلون مكانهم بين رجال الحاشية. ولما كانت إيطاليا ضعيفة، تحتل المركز السادس بين دول أوروبا فلم يكن لديها أمل فى التطلع لإشباع ميولها الإمبريالية فى مصر. وبعد أن أزاحتها فرنسا من تونس، ولحقت بها هزيمة منكرة فى عدوا بالحبشة عام 1896، لم يبق أمام إمبراطورية روما الجديدة التى تحلم بها إيطاليا سوى ليبيا وإرتريا – التى قامت بإحياء أسماءها القديمة– وكذلك جزء من الصومال. وقام موسولينى وحده بإرساء نظامه الفاشى على رموز رومانية، وحلم – فيما بعد – بغزو مصر[432].

وأكدت إدارة المتحف اليونانى – الرومانى – التى ظلت بيد الإيطاليين لمدة نصف قرن – الإدعاءات الإيطالية الحديثة بنسبة تراث الإسكندرية القديم إليها. فقام عدد من أعيان الجالية الإيطالية السكندرية بجمع الآثار اليونانية – الرومانية والفرعونية، تداعب

---

[429] Politis, L'Hellenisme, 2 : 420 – 24.

[430] J. Dean O'Donnell Jr., Lavigerie in Tunisia: The Interplay of Imperialist and Missonary (Athens, Ga., 1979), 169; Kitroeff, The Greeks, 114.

[431] عن الإيطاليين فى مصر، انظر Ilbert, Alexandrie, 2 : 616 – 23.

[432] Claudio Serge, Fourth Shore, The Italian Colonization of Libya. (Chicago, 1974).

أحلامهم ذكريات يوليوس قيصر، ومارك أنطونيو، وأغسطس، وهادريان. وعلى سبيل المثال، قام بيترو يوجيولى (1831 – 1902) بتكوين مجموعة، بعثرت فيما بعد بين متاحف القاهرة، وبولونا، وفيينا، ونيويورك[433].

وجاءت الجاليتان البريطانية والفرنسية فى المركزين الثالث والرابع – بعد اليونان والإيطاليين بفارق كبير– بالإسكندرية عند نهاية القرن[434]. (وكان الكثير ممن ذكروا بالتعداد كبريطانيين فى حقيقة الأمر مالطيين، كما كان الكثير ممن ذكروا كفرنسيين من التوانسة والجزائريين). ولكن الإحتلال البريطانى لمصر، والمكانة الثقافية لفرنسا ، وهيمنة الفرنسيين على مصلحة الآثار، أعطى لآراء رعاياهما فى مجال الآثار وزناً لا يستهان به.

محمود الفلكى، حفائر وخرائط الإسكندرية القديمة

كان محمود الفلكى (1815 – 1885) المصرى الوحيد الذى حظى بـاعتراف الأوروبيين بعلمه – قبل الحرب العالمية الأولى– فى مجال الكلاسيكيات، رغم أنه لم يتخصص – مثلهم– فى اليونانية واللاتينية. وكان محمود الفلكى عالماً تتسع دائرة اهتمامه إتساعاً كبيراً، شأنه فى ذلك شأن الطهطاوى وعلى مبارك.

لقد كان محمود أحمد حمدى الفلكى مصرياً كعلى مبارك، صعد من أصوله الريفية عن طريق المدارس الحديثة التى أقامتها الدولة حتى وصل إلى الوزارة، فى وقت كانت فيه النخبة التركية – الشركسية تحتكر السلطة. ترك قريته بالدقهلية ليلتحق بالمدرسة البحرية التى أقامها محمد على بالإسكندرية، ثم بمدرسة المهندسخانة بالقاهرة، وبدأ عمله بالتدريس بالمدرسة الأخيرة عام 1839، الذى شهد التحاق على مبارك بها طالباً، فتعلم الأخير على يديه (ولم يكن قد أضيفت صفة الفلكى إلى إسمه بعد)، وذهب على مبارك إلى فرنسا ليكمل دراسته هناك، وعاد ليكسب ثقة عباس الأول. ويعزى إلى مبارك فضل إقناع عباس بإيفاد معلمه السابق محمود أحمد حمدى إلى فرنسا لدراسة الفلك، وكان – عندئذ– فى الخامسة والثلاثين من عمره، وكان إسماعيل مصطفى – واحد من إثنين أوفدا

[433] Who Was Who 3 : 345.
[434] Ilbert, Alexandrie, 1 : 395.

معه فى هذه البعثة– حريصاً على إضافة صفة "الفلكى" مثله بعد العودة من فرنسا، وقد قضى محمود أحمد حمدى أربع سنوات بمرصد باريس، وخمساً أخرى تنقل فيها بين مراصد أدنبره، وبرلين، وفيينا، ودابلن، وبروكسل، قبل أن يعود إلى مصر، وهو فى منتصف الأربعينات من عمره ليصبح مسئولاً عن مرصد العباسية[435].

وإنفرد محمود الفلكى بين العلماء المصريين فى عصره بنشر بحوثه فى مجموعة متنوعة من المجلات العلمية الأوروبية، ومثل مصر فى المؤتمر الجغرافى الدولى المنعقد بباريس عام 1875، وفى البندقية (فينسيا) عام 1881. ويبدو أن محمود الفلكى قبل بالإجماع الأوروبى الواضح الذى يذهب إلى أن أوروبا كانت المركز العالمى "للعلوم البحتة"، وأن على علماء بلاد الأطراف أن يركزوا جهودهم على الأعمال الثانوية مثل جمع المادة، وحل المسائل التطبيقية. فكانت مساهماته لا تتصل بالفلك تحديداً، ولكنها تتعلق بمجالات عملية مثل: الطقس، الجيوديسيا (دراسة شكل وسطح الأرض)، المغناطيسية الأرضية، الكرونولوجيا (التحقيب الزمنى)، وعلم الخرائط، والآثار. وناقش تثليث الهرم مع فلندر بترى، ونشر بحثاً حول الموضوع. وقام بإجراء حفائر بالإسكندرية، ورسم خريطة للمدينة فى العصور القديمة، وإهتم المستشرقون بدراسته للتقويم الإسلامى.

ولم ينافسه أحد من معاصريه المصريين فى الأنشطة التى قام بها فى "المجمع العلمى المصرى" الذى يهيمن عليه الأوروبيون، أو فى "الجمعية الجغرافية الخديوية"، أو "لجنة حفظ آثار الفن العربى"، فكان نائباً للرئيس فى المجمع، ورئيساً للجمعية الجغرافية، التى ألقى بها محاضرات، على عكس غيره من قيادات الجمعية. وعكف محمود الفلكى على رسم خريطة للدلتا لمدة عشر سنوات، طبعت بمطبعة بولاق عام 1871.

وأجرى حفائر بالإسكندرية فى موسم 1865 – 1866 فى محاولة للكشف وإيضاح نقاط لتحديد خريطة المدينة فى العصور القديمة، ونشر النتائج التى توصل إليها بمجلة المجمع العلمى المصرى، وفى كوبنهاجن[436]. ولم يهتم بذلك إلا القليل من المصريين، ولكن

---

[435] هذه المعلومات مستقاة من:

Paccal Crozet, "La Trajectoire d'un scientifique egyptien au XIXI Siecle: Mahmoud al – Falaki (1815 – 1885), in Entre Reforme social et movement national, ed. Alain Rousillon (Cairo, 1995), 285 – 310.

[436] Crozet "Trajectoire", 21.

المشتغلين بالآثار الكلاسيكية استخدموا عمله – منذئذ– كأساس لمعرفة الطبوغرافية القديمة للمدينة[437].

جلادستون وكرومر والإمبريالية قديماً وحديثاً

لولا الكلاسيكيات لكان رئيس الوزراء البريطانى الذى أمر باحتلال مصر عام 1882 ، والقنصل البريطانى العام بالقاهرة، يفتقران إلى الفصاحة، فقد ألف وليم جلادستون سبعة مجلدات عن هوميروس، وكان يلقى محاضرات عنه كلما التمس إلى ذلك سبيلاً[438] . وإنتخبه مؤتمر المستشرقين الدولى التاسع، المنعقد بلندن عام 1892، رئيساً لقسم العلاقات بين الشرق والأرخبيل اليونانى[439]. وكان سبعة من بين أعضاء أول وزارة شكلها جلادستون من البارزين فى دراسة الكلاسيكيات بأكسفورد وكامبردج، وكانت الإقتباسات من اللاتينية شائعة فى مجلس العموم فى زمانه. وكان جلادستون، وسولسبرى، ووزير الخارجية جرانفيل قد تلقوا الدرس الأولى فى الكلاسيكيات بمدرسة إيتون ثم فى كريست تشيرش كولدج بأكسفورد. وفى الجيل الثانى تأكدت سمعة أوكسفورد كمهد للإمبراطورية على يد رئيس الوزراء أسكوبث، وحاكم جنوب أفريقيا ألفرد ملنر، ونائب الملك فى الهند جورج كيرزون[440].

ويذكر جلادستون الآن كمؤمن بالهيمنة الإمبريالية غير الرسمية، بسبب حديثه المضاد للإمبريالية. فقد كان نموذجاً لرجال منتصف العصر الفيكتورى فى تعظيمه لهوميروس وتحقيره من شأن فرجيل – شاعر الإمبراطورية الرومانية– ومن شأن سيده أغسطس . ولكن فرجيل، وأغسطس، والإمبراطورية الرسمية عادت من جديد مع "الإمبريالية الجديدة" فى أواخر القرن التاسع عشر، وبدا جلادستون العجوز بعيداً عن الإدراك. فقد لمست نبوءة أنخيسس بأن العظمة الثقافية من نصيب اليونان والإمبراطورية من نصيب روما، لمست وتراً حساساً: "فعندما كان يقرأ ذلك رجل إنجليزى ممن عاشوا فى القرن

---

[437] على سبيل المثال:
Christopher Haas, Alexandria in the late Antiquity: Topography and Social Conflict, (Baltimore, 1997), 360.

[438] Kenneth Rose, Superior Person: A Portrait of Curzon and his Circle (New York, 1969), 55.

[439] K. Vollers, "Le IXme congres international des orientalistes tenu a Londres, Bulletin del'intitut egyptien, ser. 3, no. 3 (November 1892) : 200.

[440] Richard Symonds, Oxford and Empire: The Last Lost Cause ? (New York, 1986).



الشكل رقم (٢٩) بريطانيا فى عباءة كلاسيكيه
رسم بصحيفة باتش (١٨٩٨)

الماضى، فكيف لا ينصرف تفكيره إلى بلده ؟ إلى حظ بريطانيا، أو كما اعتقد الفيكتوريون المتأخرون – على نحو متزايد– أن القدر قد خص بريطانيا بعظمة وأعباء الإمبراطورية"[441].

وكتب جون سيلى الأستاذ بجامعة كامبردج: "لا شك أنه كان ينظر فى وقت ما بعدم اكتراث إلى الإمبراطورية الرومانية لإتسامها بالطغيان، ولأنها كانت – أحياناً – كئيبة ونصف بربرية ... (ولكن) هناك أشياء أخرى فى السياسة إلى جانب الحرية، فهناك مثلاً الجنسية، وهناك الحضارة"[442]. وكلمات مثل: مستعمرة "Colony " واستعمار "Colonialism" وسيادة "Dominion" وإمبراطورية "Empire" وإمبريالية "Imperialism" كلها مشتقة من جذور لاتينية[443].

وبدت بريطانيا مرتدية رداءها الكلاسيكى، مدعمة بالمعرفة والقوة، تستعرض إمبراطوريتها من فوق وزارة المستعمرات فى هوايتهول[444]. ولم يكن باستطاعة فوكو أن يشرح ذلك بصورة أوضح مما فعلته مجلة بانش عندما رسمت بريطانيا فى صورة أثينا وقد ارتدت خوذة مقاتل – التى أصبحت صورة نمطية لبريطانيا[445]– فى (كارتون) بمناسبة تكريم كتشنر كغاز للخرطوم عام 1898 (انظر الشكل 29).

أصاب جلادستون الإجهاد من صقور الحرب – داخل وخارج وزارته– خلال الأزمة المصرية عام 1882، ولعله أقنع نفسه بأن الإحتلال المؤقت ممكن، ولكنه عندما أرسل القوات البريطانية إلى مصر، كان يقرأ كتاب توماس ماكولاى "خطط روما القديمة" (نشر

---

441 Richard Jenkyns, The Victorians and Ancient Greece (Cambridge, Mass., 1980, 331).
442 J. R. Seeley, The Expansion of England (Chicago, 1971), 187 – 88.
443 Vance, Victorians, 222.
444 Thomas R. Metcalf, An Imperial Vision: Indian Architecture and Britains Raj (Berkeley, Calif., 1989), 5, 176 ff.
445 Raphael Samuel, ed., Patiotism: Making and Ilnmaking of British National Identity, vol. 3 (London 1989), 26 – 49.



الشكل رقم (٣٠) كليوباترا أمام قيصر ، أو مأزق مصر
رسم بصحيفة باتش (١٨٨٢)

عام 1842)[446]. واستعاد كرومر معارضة سكبيو وكاتو للغزو التوسعى خشية أن يؤدى ذلك إلى إفساد المجتمع "ولذلك ناضل الرومان، أو ناضل بعض عقلائهم بشرف ورجولة لضبط شهوة تعظيم الذات، كما فعل السيد جلادستون، واللورد جرانفيل اللذان كافحا من أجل إزاحة العبء المصرى عام 1882"[447].وقبل ذلك بعام واحد، اتهم صحافى بريطانى فرنسا بشن "آخر الحروب البونية" بإحتلالها لتونس[448]. والآن وقد أصبحت هناك حامية بريطانية على ضفاف النيل، تتحدى بريطانيا إدعاء فرنسا أنها الوريث الوحيد للإمبراطورية الرومانية فى شمال أفريقيا. وبأسلوب مجلة "بانش" المعهود، قدمت رسماً لكليوباترا تقف أمام قيصر الذى يحمل ملامح جلادستون يتحير عما يفعل، بينما الجنرال ولسلى يقدم له مصر عارية الصدر. (انظر الشكل 30).

كان من الممكن أن تنسب إلى كرومر مقولة سيسل رودس المفضلة "تذكر دائماً أنك رومانى"[449]. ولد كرومر فى عائلة تشتغل بالمصارف – هى عائلة بيرنج– بإسم إيفلن بيرنج، وتلقى تعليماً عسكرياً فى مدرسة وولوتيش. ومن بين خلفاء كرومر فى مصر لورد كيتشنر وريجنالد ونجت تخرجا أيضاً فى وولوتيش (وكذلك شارلز جوردون)، بينما درس كل من هنرى ماكماهون والفيلد مارشال اللنبى فى سائد هيرست. وقد أحس كرومر دائماً بالأسى لعدم تلقيه تعليماً كلاسيكياً، فعلم نفسه بنفسه اليونانية واللاتينية، وتشهد اليونانية واللاتينية التى أوردها – دون ترجمة– بكتابه "مصر الحديثة" بإنضمامه إلى زمرة من يتقنون الكلاسيكيات، وقد انتقد الرق فى الإسلام بنص يونانى، واستنكر معاملة المسلمين للنساء بنص لاتينى، وأبدى إشمئزازه من تيجران باشا – ناظر الخارجية المصرى– لأن عقليته "فرانكو – بيزنطية"، ولأنه محدود الثقافة[450].

---

446 H. C. G. Matthew, ed., The Gladstone Diaries, vol. 10 (January 1881 – June 1883) Oxford, 1990, Ixxii.
447 The Earl of Cromer, Ancient and Modern Imperialism (New York, 1910), 22.
448 A. M. Broadley, Tunis Past and Present: The Last Punic War, 2 vols. (London 1882).
449 Jenkyns, The Victorians, 333.
450 Cromer, Modern Egypt, 566, 633 – 34.

تلقى كرومر تدريبه الإمبريالى بالهند فى الأطراف البعيدة عن العالم الكلاسيكى، وحتى هناك كان البريطانيون يلجأون إلى التراث الكلاسيكى ليعينهم على فهم كيفية حكم الهند[451]. وبعد ذلك بسنوات "فى الجو الحار ولياليه الخانقة فى صيف مصر، عندما كان كل فرد يبذل ما فى وسعه لالتماس نسمات الهواء البارد فى أى مكان، كان كرومر وهارى بويل (السكرتير الشرقى) يجلسان بعد تناول العشاء فى شرفة القنصلية البريطانية بالقاهرة، يقرآن بصوت عال – بالتناوب– فقرات من الإلياذة"[452].

وتولى كرومر – بعد تقاعده– رئاسة الجمعية الكلاسيكية بلندن، حيث امتدح بأنه "شخص تجمعت فيه صفات الذكاء اليونانى ممتزجاً بالقدرة الرومانية على الإدارة البناءة"[453] . والكتيب الذى نشره بعنوان "الإمبريالية قديماً وحديثاً"، يمثل نص الخطاب الذى ألقاه بالجمعية عند توليه رئاستها. وكتب إثنان من معاصرى كرومر – أيضاً– كتباً قارنوا فيها بين الإمبراطورية البريطانية والإمبراطورية الرومانية، وكان ناقده فى البرلمان – النائب جون روبرتسون– يصر على أن الإمبراطورية أفسدت بريطانيا تماماً كما فعلت فى روما[454].

ورفض كرومر كل موازنات غير سوية بين اليونان والإمبريالية البريطانية، ونفر من الإسكندر لأنه "لم يكن يونانياً حقيقياً ... وكان غازياً أكثر منه مؤسساً للإمبراطورية"، ورأى أن "الإمبرياليين البريطانيين يجدون نوعاً من السلوى فى أن ما تعكسه تجربة أثينا لا يمكن استخدامه فى الجدل الذى يهدف إلى تأكيد أن المؤسسات الديموقراطية لا تتوافق بالضرورة مع أى سياسة إمبريالية عاقلة، ولكنها تبين الآثار الفادحة التى تترتب على ديمقراطية أصابها الجنون"[455]. وقد رجع إلى الكلاسيكيات ليؤكد الفكرة الشائعة عن فقدان الشرق الإحساس بالزمن، وتقديم دروس أخلاقية عامة: "يؤكد لنا الرومان أن المصريين يفخرون بالعلامات الغامضة التى ساعدتهم على التدليس فى الضرائب. وكما

---

451 J. W. Mc Crindle, Ancient India as Described in Classical Literature (Westminster 1901).
452 Zetland, Lord Cromer (London, 1932), 287.
453 J. W. Mackail, Classical Studies (London, 1825), 12.
454 C. P. Lucas, Greater Rome and Greater Britain (Oxford, 1912).
455 Cromer, Imperialism, 7 – 8, 10 – 11.

كانت الحال فى زمن أغسطس كانت كذلك فى عهد إسماعيل، وقد وقع إسماعيل ضحية الغش والرعونة فى استخدام القوة، فحاقت اللعنة بالطاغوت المصرى"[456].

ولعب ألفرد ملنر – الذى خدم مع كرومر– بالعبارات الكلاسيكية عند وصفه لظاهرة التناقض فى مصر: "لازالت مصر كما هى، مصر التى عرفها هيرودوت، المواطن المختار لكل ما هو غريب، غير قابل للتفسير، ومتناقض". وبعد بضع سنوات يسأل القارئ أن "يتخيل شعباً من أكثر الشعوب فى العالم رقة وطيبة فى قبضة أكثر الأديان عزوفاً عن التسامح وتعصباً"[457].

ولاحظ كرومر أن كلاً من بريطانيا وروما توسعتا بحثاً عن حدود طبيعية، وحققتا الإنتصار على صعاب كبيرة، وجندتا قوات من الشعوب المغلوبة، وأسبغتا السلام على رعاياهما. وسار على نهج توماس أرنولد فى القول بأن ما كان يعيب الرومان هو كونهم غير مسيحيين، فقد كانت بيزنطة خارجة عن نطاق اهتمامه. ولذلك رأى الرومان أقل منزلة من بريطانيا الحديثة فى مسألة الرق والنزعة الإنسانية، ولم يشارك كرومر إدوارد جيبون إنبهاره بالموضوع الممل الخاص بسقوط الإمبراطورية الرومانية.

وذهب كرومر إلى أن روما استوعبت رعاياها شرق اليونان، بينما عجزت بريطانيا عن استيعاب رعاياها الأسيويين والأفارقة، ورأى أن مرد ذلك أن روما واجهت قبائل، ولم تواجه أمماً لديها وعى ذاتى، وأن الديانة الرومانية أفسحت مكاناً لمعبودات الشعوب المغلوبة، بينما عجزت المسيحية عن تحقيق ذلك، كما أن الرومان واليونان لم يعرفوا أبداً مشكلة التحيز للون (التمييز العرقى)، وطمأن نفسه بالقول أن أياً من الدول الأوروبية لم تنجح فيما فشلت فيه بريطانيا، وأنه حتى اليونانيين المحدثين لم يتزاوجوا مع المصريين إلا نادراً[458].

---

[456] Cromer, Modern Egypt, 586. 112.

[457] Milner, England in Egypt (New York, 1970) reprint of 1920 edition, 2, 4.

[458] يقرن شارل عيساوى بين نظرة الفرنسيين لأنفسهم كمتابعة لرسالة الرومان الحضارية "بالسيف والمحراث"، ونظرة الإنجليز إلى الهند ومصر من حيث عدم إقامة استيطان بريطانى مع فرض "سلام رومانى" جديد.
Charles Issawi, Empire Builders, Culture Makers and Cultural Imprinters, Journal of Interdisciplinary History 20 (1989), 189.

وأشار إلى أن "العالم لم يتغير كثيراً فى ألفى عام، ... وعندما أقرأ فى تاريخ الدكتور أدولف هولم الشهير أن اليونانيين بالإسكندرية حصلوا فى العهد البطلمى على امتياز الضرب بالعصى بدلاً من الضرب بالسياط، ذكرنى ذلك بأن أحفادهم، شأنهم شأن غيرهم من الرعايا الأجانب، يتمتعون بإمتيازات ذات أهمية بالغة"[459].

وعندما بدأ رونالد ستورس العمل فى دار المقيم البريطانى قبيل نهاية عهد كرومر، كان يستيقظ فى السادسة والنصف صباحاً ليقرأ هوميروس قبل الإفطار، ويذكر أن "الليدى كرومر سلمتنى دعوة باللاتينية تلقاها اللورد من جامعة أبردين ... وطلب منى أن أعد رداً على الدعوة بنفس اللغة، وتعهدت بإنجازها وأنا أشعر بالغبطة، ولم يكن لدى كتب من أى نوع، ولكنى أعددت رداً رومانياً جيداً، وسلمته لها عندما حان وقت تناولها الشاى. ولم تغب سوى أقل من ساعة بعد تسلمها الرد، وجاءت لتدعونى لتناول الغداء وأخبرتنى أن اللورد رأى الرد بالغ الجودة، وقد وجدت الرجل العجوز بالغ السرور بها، وقال إنه أحس بشعور المنافق عند توقيعه لها ... وقدم لى ترجمة مختارات يونانية، وتمنى الإبقاء على اليونانية"[460].

وعندما استقال كرومر أمام الضغوط الهائلة، وعاد إلى بلاده، رد على منتقديه بمقولة يوريبيدس: "ألا ترى كيف أن البلاد، عندما تلام على رغبتها فى التروى، تنظر بحدة إلى من يهاجمها ؟ لأنها تحقق العظمة من خلال الكدح" وحتى لا تغيب وجهة نظره عن أحد، أضاف ترجمة إنجليزية إلى النص اليونانى الأصلى[461].

وكان كرومر فخوراً كأى رومانى عندما يتفوق على قصيدة يونانية، ولكن منطلقاته الكلاسيكية ضيقت مجال الرؤية عنده. ولم يحاول الرومان تعلم لغات الشعوب المغلوبة فيما عدا اليونانية، وكذلك فعل كرومر الذى كان يفخر دائماً بأنه يعرف عن مصر كل صغيرة وكبيرة، ولكنه لم يحاول أن يتعلم العربية.

---

459 Cromer, Imperialism, 3 – 4.
460 Ronald Storrs, The Memoires of Sir Ronald Storrs (New York, 1937), 43.
461 Cromer, Imperialism, 7 – 11.

وكغيره من الكثيرين الذين عشقوا اليونان القديمة، وجد كرومر أنه من الصعب التسامح مع اليونانيين المعاصرين، فبعد أن أكد مراراً أن "الكثيرين من اليونانيين ذوى النفوذ والإعتبار" جلبوا لمصر منافع عدة، ألقى خطبة عصماء ضد: "الطبقة الدنيا من اليونانيين التى تمارس الربا، وبيع الخمور ... فاليونانى من هذه الطبقة يضحى بحياته من أجل كسب ضئيل، فلا ينتشر المرابون والبقالون اليونان فى كل قرية مصرية تقريباً فحسب ، بل يشقون طريقهم فى مناطق نائية كالسودان والحبشة ... لقد زرت سراس جنوب وادى حلفا عام 1889، وكانت عندئذ آخر نقاط تواجد الجيش المصرى، وتقع وسط منطقة واسعة قفرة، ولم يكن قد مضى أكثر من بضعة أيام على إقامة تلك النقطة، ورغم ذلك وجدت هناك يونانياً يبيع السردين والبقسماط ... فى حفرة داخل الصخور إتخذ منها محلاً مؤقتاً"[462].

وأعلن أن أولئك المرابين اليونانيين الذين ينتمون إلى الطبقة الدنيا "يغرون الفلاح المصرى حتى يقترض منهم بفائدة باهظة، ثم يحكمون – بعدئذ– قبضة القانون عليه ، ويحولونه من مالك إلى وضع القن ... وبسبب أعمال اليونانيين وبتأثيرهم أقبل الفلاحون المصريون على شرب الخمر... لقد قال السيد جلادستون ذات مرة أنه من الأفضل للترك أن يجمعوا أغراضهم ويغادروا أوروبا ... ولكنه قد يكون من الأفضل لتركيا والولايات التابعة لها لو جمع بعض من ينتسبون إلى الطبقة الدنيا من اليونان أغراضهم وغادروا الأراضى التركية (العثمانية)".

المتحف اليونانى – الرومانى وجمعية آثار الإسكندرية

كتب فورستر: "الإسكندرية الحديثة تكاد تكون مدينة بلا روح، فهى تعتمد على القطن والبصل والبيض"[463]. فليس بالإسكندرية جامع له مكانة الأزهر، ولم تنشأ بها جامعة إلا عام 1940، كما أن جريدة "الأهرام" تركتها إلى القاهرة عام 1898.

وفيما بين 1859 – 1880 قدم "المجمع العلمى المصرى" للسكندريين – وخاصة الأوروبيين – منبراً جاهزاً للحوار فى الكلاسيكيات. وغالباً ما كان المتحدثون يقدمون

---

[462] هذا الإقتباس والذى يليه من: Cromer, Modern Egypt, 654 – 55.

[463] E. M. Forster, Alexandria: A History and a Guide, (New York, 1961).

أوراقاً فى موضوعات يونانية – رومانية، ينشرها المجمع فى مجلته، وفى الستينات أشار المجمع إلى حاجة الإسكندرية إلى متحف، وأسس "اللجنة الدائمة للآثار" لحماية الآثار من الدمار الذى تتعرض له، ومن نهب الرحالة والسياح (ولكن ما لبثت اللجنة أن أثبتت أنها أقل من أن تكون دائمة). وحصل المجمع على مجموعة متواضعة من الآثار. ورغم أن المجمع لم يحتك سوى بقطاع صغير من النخبة الأوروبية وبعض المصريين، فإن انتقاله للقاهرة مع مكتبته ومجموعة الآثار ترك فراغاً فى الحياة الثقافية السكندرية[464].

وعندما كان القس سايس فى زيارة للقنصل البريطانى السير شارلز كوكسن عام 1889 ، إلتقى جيسب بوتى مدير المدرسة الإيطالية بالإسكندرية. وكان بوتى منذ وصوله قبل خمس سنوات، يقضى وقت فراغه فى مطابقة الأوصاف الواردة بالمصادر الكلاسيكية على ما بقى من آثار المدينة القديمة. وتحدث ثلاثتهم حول حاجة الإسكندرية إلى متحف . وبعد ذلك اللقاء بعامين، أسس كوكسون – عام 1891– بالاشتراك مع مجموعة من الأفراد "الجمعية الأثينية" التى نجحت فى حشد مجموعة من المجلس البلدى وراء فكرة إقامة متحف يونانى رومانى[465].

وفى عام 1892 عملت مجموعة من أعيان الأوروبيين والمهنيين من خلال البلدية الجديدة لإقامة المتحف اليونانى – الرومانى، ومكتبة بلدية الإسكندرية. واعترضت الحكومة على فكرة إقامة متحف بديره "هواه"، وربما كان يوجين جريبو ومصلحة الآثار وراء ذلك الإعتراض، ولكن الحكومة تراجعت عن موقفها فى إطار تعويض الإسكندرية عن الأضرار التى لحقت بالمدينة نتيجة مد الخط الحديدى، الإسماعيلية – بورسعيد الذى أدى إلى تحول جانب من التجارة عن ميناء الإسكندرية، وأصدرت قرارها بالموافقة على المتحف[466]، على أن تتولى مصلحة الآثار الإشراف على المتحف، وتتحمل بلدية الإسكندرية جميع تكاليفه. وأصبح بوتى أول مدير للمتحف.

---

464 Alan Rowe, "Le Cinquantenaire de la Societe royale d'archeologyie 1893 – 1943" Bulletin de la Societe archeologique d'Alexandrie, 36. (1946), 108 – 9.
465 Rev. A. H. Sayce, Reminiscences (London, 1923), 274 – 75.
466 G. Botti, Catalouge des monuments exposes au Musee Greco – romani d'Alexandrie (Alexandria, 1900) iii – xiii.

وكانت البلدية – التى تأسست عام 1890– تـقع تحت سيطرة النخبة التجارية الأوروبية، وكان نصف أعضاء المجلس الذى كان يتكون من 28 عضواً يحتلون مقاعدهم بصفتهم الرسمية أو بالتعيين من الحكومة. وتولى التجار وأصحاب الأملاك من الأجانب إنتخاب النصف الآخر وكان ثلاثة أرباع الناخبين من الأوروبيين، وقامت البلدية بفرض رسوم أنفقتها على البنية الأساسية للمدينة[467].

وكان من الطبيعى أن يلعب مؤسسو مكتبة البلدية والمتحف اليونانى – الرومانى بمشاعر الحنين إلى الماضى القديم للإسكندرية ومكتبتها. وقام كل من المتحف الحديث وجمعية الآثار ببناء مكتبتها العلمية الخاصة، وتركوا لمكتبة البلدية مهمة خدمة القراء العاديين للكتب بمختلف اللغات الأوروبية. إضافة إلى اللغة العربية. وتعاقب المديرون السويسريون على إدارة القسم الأفرنجى من المكتبة الذى كان يفوق القسم العربى من حيث الأهمية مدة خمسين عاماً (1892 – 1943)[468].

وكان لأعضاء "الجمعية الأثينية" دور بارز إلى جانب إثنى عشر متحمساً، فى إنشاء "جمعية آثار الإسكندرية" عام 1893 لتوفير الدعم للمتحف الجديد. وكانت عضوية الجمعية تعبر عن الطابع المختلط للمدينة (الكوزموبوليتانى) وإن خلت الجمعية من المصريين، أقباطاً كانوا أم مسلمين. وكان البريطانيون يمثلون الجانب الأكبر من الأعضاء:

القنصل كوكسون، والأميرال بلومفيلد (مأمور الميناء)، وموظفان بريطانيان آخران ، والمصرفى جون ريفز. ومن الإيطاليين بوتى والمعمارى مانوساردى، والسويسرى نوريسون، والمصرفى اليونانى جورج جوسيو، وجاك دى منشه اليهودى المصرى الذى يحمل جنسية النمسا والمجر، وعالم المصريات ألبرت دانينوس الذى كان يونانياً ذا خلقية جزائرية – فرنسية[469]. وفى العام 1897 أقامت الجمعية حفل تأبين لرئيسها جوسيو الذى مات فى الحرب العثمانية – اليونانية، ولكن عزاءهم أنه عاش ليرى "حلماً يتحقق، فقد

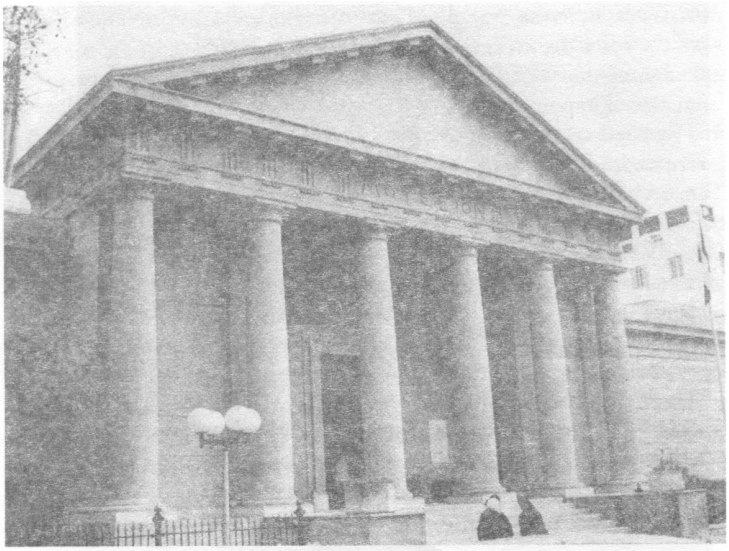
---

[467] Ilbert, Alexandrie, 1 : 278 – 300.
[468] Municipalite d'Alexandrie, Catalouge de la Bibliotheque municipal (section europeen 1892 – 1926), vol., (Alexandria, 1926) xii – ix.
[469] Bulletin de la Societe archeologique d'Alexandrie, 4 (1902), 3, lists of the Founders.

اتصلت إسكندرية الخديويين الجديدة بإسكندرية البطالمة وقد شعر بالسعادة لتحقيق هذا الحلم"[470].

كان المتحف اليونانى – الرومانى فريداً فى نوعه بين متاحف الآثار المصرية الأخرى من حيث تمتعه بدعم جماعة منظمة، فقد رعت "جمعية الآثار" المحاضرات والرحلات ، وبدأت عام 1898 نشر مجلتها العلمية التى إحتوت على مقالات بالفرنسية والإيطالية والإنجليزية والألمانية، ولكن العربية واليونانية لم تلقيا قبولاً عند الأوروبيين كلغتين للبحوث العلمية، كذلك كانت رئاسة الجمعية للأوروبيين وحدهم: بريطانى، وفرنسى ، وإيطالى، ويونانى، وأسبانى، وأمريكى، وذلك من تأسسها حتى 1952، فلم ينتخب أى مصرى رئيساً لها، وإن كان الأمير عمر طوسون قد أختير رئيساً فخرياً للجمعية.

وإتخذ المتحف اليونانى – الرومانى لنفسه مقراً له فى أحد أركان مبنى البلدية الذى كان يقع شرقى وسط القسم الحديث من المدينة. وافتتح الخديو عباس حلمى الثانى المتحف فى 17 أكتوبر 1892، وعاد بعد ثلاث سنوات ليفتتح مبناه الجديد. وجاءت واجهة المبنى الجديد على الطراز الدورى (الإغريقى) الكلاسيكى الحديث لتلائم الفكرة الغربية الخاصة بالطراز المعمارى الملائم للمتحف، والوسط السكندرى، والآثار المحفوظة بالمتحف (انظر الشكل 31)[471]، وامتلأ المتحف الجديد تدريجياً بالآثار التى جاءت من الحفائر التى قام بها المتحف بالإسكندرية الكبرى، والهبات التى قدمها المواطنون ذوى العقلية الحضارية، وما تم نقله من المتحف المصرى من الآثار اليونانية – الرومانية.



الشكل رقم (٣١) المتحف اليونانى – الرومانى بالإسكندرية

[470] Bulletin de la Societe archologique d'Alexandrie, 1 (1898), 5.
[471] Botti, Catalouge, viii – xiii.

وتولى بوتى إدارة المتحف حتى وفاته عام 1903، قام خلالها بحفائر حول الإسكندرية الكبرى، ونشر العديد من المطبوعات. وجاء اختيار إيفاريستو بريشيا (1876 – 1967) خلفاً له ليجعل من المتحف جيباً ثقافياً لإيطاليا فى مصر الخاضعة للاستعمار. وقد درس بريشيا التاريخ القديم بجامعة روما، وعاون عالم المصريات إرنستو شيابارياللى فى حفائره بالأشمونيين (عين شمس الكبرى)، وسار فى إدارته للمتحف (1904 – 1931) على نهج بوتى فى القيام بحفائر من حين لآخر، وفى إصدار المطبوعات. وعندما انتقل بريشيا أستاذاً لكرسى الآثار الكلاسيكية بجامعة بيزا عام 1931، أبقى اختيار أخيل أدريانى (1982 – 1905) مديراً للمتحف، إدارته فى أيدى الإيطاليين[472].

ولم تكن الخبرة بالآثار الكلاسيكية قاصرة على المتحف اليونانى – الرومانى وحده، فقد كان هناك متخصصون بهذا المجال فى كل من المتحف المصرى، والمعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، وفى العام 1894، بدأ عالم الهلينيات بيير جوجيه العمل على البرديات اليونانية، واستمر ناشطاً فى هذا الحقل لنصف قرن من الزمان[473].

وكان "صندوق الكشوف المصرى Egypt Exploration Fund" يتزعم العمل فى استكشاف كنوز البرديات اليونانية التى حفظتها رمال مصر الجافة من عاديات الزمان ، ووضعت لائحة الصندوق الآثار اليونانية فى المرتبة التالية للعبرانية فيما يتم البحث عنه من أغراض. فقد بدأ الصندوق حفائره فى "أرض جوشن" شرق الدلتا، إهتداء بالكتاب المقدس، ولكن العثور على المدينة اليونانية نوكراتيس – التى تلقى الضوء على فترة غامضة من تاريخ الفن اليونانى– جاء فى المرتبة الثانية من حيث الأهمية[474]. وقام بترى بـاكتشاف نوكراتيس لحساب "صندوق الكشوف المصرية" عام 1884 – 1885، وتابع حفائره – مستقلاً– على مدى عقد من الزمان، فاستخرج لفافة بردية هوميروس فى هوارة، وصناديق مومياوات بطلمية مصنوعة من البردى المغطى بالنقوش فى جروب .

---

472 On Botti, see Who Was Who 3 : 75 – 83; on Breccia, Who Was Who 3 : 63; On Adriani, Who Was Who 3 : 6.

473 كان من بين المتخصصين فى الكلاسيكيات بمصلحة الآثار إدجار، وجوستاف ليفييفز، انظر: Who Was Who وعن جوجيه نفس الموسوعة 221 : 3.

474 T. G. H. James, ed., Excavating in Egypt: The Egypt Exploration Society 1882 – 1982 (London, 1982), 9.

ودخل إرنست بادج السباق للحصول على البرديات للمتحف البريطانى، فاشترى برديات تحتوى على دستور أثينا المفقود[475].

وأصبح كل من برنارد جرينفل وآرثر هانت – اللذان درسا الكلاسيكيات فى كوينز كوليدج بأكسفورد– من أبرز صيادى البرديات لحساب "صندوق الآثار المصرية"، ففى 1895 – 1896 عثرا فى البهنسا بالفيوم على ما يزيد على ثلاثة آلاف بردية كان أغلبهابرديات يونانية متنوعة، وكان القليل منها برديات لاتينية، وقبطية، وعربية، واستجاب الصندوق لهذا النشاط فخصص له "حساب البحوث اليونانية – الرومانية " (الفرع اليونانى – الرومانى الآن) الذى ساند حفائرها مالياً لما يزيد على إثنى عشر عاماً، ورتب أمر نشر ما تم العثور عليه.

وخلال فترة الحرب العالمية الأولى التى توقفت خلالها الحفائر، نشر جرينفل وهانت إكتشافاتهما الغنية. ولا زال "مشروع نشر برديات أوكسيرنخوس" (البهنسا) – الذى قاده إدجار لوبل– مستمراً حتى اليوم.

واتهم جرينفل وهانت بأن همهما الأول كان اصطياد البرديات على حساب أى شئ آخر، فلم ينشرا خرائط المواقع التى تم العثور فيها على البرديات. ويشير من تصدوا للدفاع عنهما أن البرديات فى البهنسا كانت فى أكوام من القمامة لم يبق فيها حجر فى موضعه ، وأنه كانت لهما أولوياتهما فى وقت كان فيه الحفر العشوائى يلتهم المواقع بسرعة.

المهاجرون الشوام المسيحيون والكلاسيكيات اليونانية ـ الرومانية

فى العام 1902، كان هناك أربعة مصريين فقط من بين أعضاء "جمعية الآثار " بالإسكندرية البالغ عددهم 102 عضواً، وكان بعض أولئك المصريين (مثل إسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء فيما بعد) أعضاء بحكم وظائفهم. وكان الأمير عمر طوسون المصرى الوحيد من تسعة من أعضاء الشرف[476]. ولم تكن اللاتينية أو اليونانية تدرس

[475] On Grenfell and Hunt see, James, ed., Excavating, 161 – 76.
[476] Bulletin dela Societe archologique, 4 (1902), 3 – 8.

بأى مدرسة مصرية حكومية[477]، كما أن المصريين وجدوا صعوبة فى الإنتساب إلى الحقبة اليونانية – الرومانية من تاريخهم قياساً إلى العصور التاريخية الأخرى.

وساعد الشوام المسيحيون – حيناً من الزمان– على تقديم التراث اليونانى الرومانى للمصريين، فقد عمل هؤلاء فى مجالات الترجمة، والمسرح، والصحافة، والتجارة منذ السبعينات من القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى، كانت الفرص فى مصر متاحة، كما أن صرامة الرقابة فى بلاد الشام فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى أجبرت بعضهم على الرحيل إلى مصر، وكان الشوام محل ترحيب إسماعيل ثم الإحتلال البريطانى، فراحت أحوالهم فى مصر، سواء من كان منهم مدافعاً عن الإحتلال مثل فارس نمر وجريدته "المقطم"، أو كان معارضاً له مثل أصحاب "الأهرام" أو من كان ميالاً لفرنسا، أو من وقف بحذر على الحياد مثل جرجى زيدان صاحب "الهلال"، وبلغ صعود نجم الشوام المسيحيين مداه حتى العام 1900 عندما دخل الكثير من المصريين الميادين التى كانت مرتعاً لهم[478].

قام الشوام المسيحيون بترجمة، وتعريب وإخراج المسرحيات الفرنسية التى تتناول موضوعات يونانية – رومانية. فقد جاء سليم النقاش وأديب إسحق من لبنان منتصف السبعينات، وكونا فرقة مسرحية بدعم من إسماعيل، وارتبطا بمجموعة جمال الدين الأفغانى، واتجها لإصدار صحف عربية. وقام سليم النقاش بتعريب رواية لكورنيل بعنوان "مى وهراس" تضمنت إيحاءات عن آلهة الرومان، وعندما ترجم إلى العربية الأغنية التى كتبها أنطونيو جيلا نزوى لأوبرا عايدة لفردى، أخذ النقاش حذره بإسقاط الإشارة إلى إيزيس وأوزيريس من الترجمة العربية، وأعلن النقاش فى إهدائه العمل أن أعمال الخديو إسماعيل فاقت أعمال الإسكندر، وخسرو، وقيصر، كما قدم شكره لأنطونيادس الثرى اليونانى على رعايته[479].

---

[477] انظر قوائم المواد الدراسية فى كتاب: أمين سامى، التعليم فى مصر فى سنتى 1914 و1915 (القاهرة 1917)، وكانت هناك مدرستان أجنبيتان (عام 1875) تدرسان اللاتينية، وثمان مدارس تدرس اليونانية انظر:
Hey worth – Dunne, Introduction, 423.

[478] Thomas Philipp, Syrians in Egypt 1775 – 1975 (Stuttgart, 1985).

[479] Sadgrove, Egyptian Theatere, 130 – 31, 140 – 41.

وقبل قدوم أديب إسحق من بيروت إلى القاهرة، قام بترجمة "أندروماك" لراسين إلى العربية فى نثر مسجوع بتكليف من القنصل الفرنسى، وتعالج قصة أندروماك أرملة هيكتور الذى قتل أثناء دفاعه عن طرواده، ووقعت فى يد بيروس ضمن سبى الحرب، ثم قتل بيروس فيما بعد على يد أورستس. كما قام أديب إسحق بتعريب رواية راسين "الطيبى أو الإخوة الأعداء" لإخراجها كمسرحية عربية تم عرضها بالإسكندرية والقاهرة عام 1878، وفيها يلقى أبناء أورستس حتفهم أثناء الصراع على عرش طيبة اليونانية.

وأخذ آل البستانى – البيروتيون– على عاتقهم مشروعين طموحين يتصلان بالتراث اليونانى – الرومانى هما: دائرة المعارف (ونشرت فى 11 مجلداً بين عامى 1876 – 1900)، وترجمة الإلياذة إلى اللغة العربية، وكانت مصر حاضرة فى المشروعين[480].

كان بطرس البستانى (1819 – 1883) من الجيل الذى انتمى إليه على مبارك، وكتب – مثله– دائرة معارف تكشف عن اتساع نطاق المعرفة عنده، وقد ولد بطرس البستانى لأسرة مارونية لبنانية، وتعلم فى معهد لاهوتى مارونى فى عين ورقة، وتميز عن معاصره مبارك بدراسته للاتينية، وعمل بالقنصليتين البريطانية والأمريكية فى بيروت ثم تحول إلى البروتستانتية، وقام بالتدريس فى مدارس الإرسالية التبشيرية الأمريكية، وساعد المبشرين فى ترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية، وتولى – أيضاً– تحرير مجلات عربية، ثم أسس مدرسة خاصة به فى بيروت سماها "المدرسة الوطنية"، ووضع قاموساً عربياً.

عاش بطرس البستانى حياته كلها فى لبنان، ولكن مشروع دائرة المعارف الذى بدأه، كان من بدايته حتى نهايته مشمولاً بالرعاية المصرية. فقد اعتذر إثنان من أعيان العثمانيين عن دعم المشروع مقدماً، ولكن الخديو إسماعيل وعد بشراء ألف نسخة من دائرة المعارف، وأضاف ولى عهده توفيق، والوزير المصرى مصطفى رياض باشا دعمهما للمشروع. وجاء العنوان الفرنسى للموسوعة تالياً للعنوان العربى "دائرة المعارف" على صفحة الغلاف ليكشف عن المصادر الغربية التى استلهمها محرر هذا العمل، وقد أصدر

---

480 التحليل التالى يعتمد على ما كتبه ألبرت حورانى عن موسوعة البستانى وعن سليمان البستانى والإلياذة فى كتابه:
Albert Hourani, Islam in European Thought (Cambridge, 1991) 164 – 73, 174 – 87.

البستانى ستة مجلدات ببيروت، ولكنه مات عام 1883، فتولى إبنه سليم تحرير مجلدين آخرين، ثم أدركته الوفاة فى العام التالى، فتولى متابعة العمل إثنان من أخوة سليم هما نجيب وأمين البستانى، وعاونهما قريبهما سليمان البستانى. وظهر المجلد التاسع عام 1898، والحادى عشر عام 1900، وقام جرجى زيدان بطباعة المجلدين الأخيرين بمطبعة "الهلال" بالقاهرة. وهنا توقف المشروع بعد أن غطى ثلثى حروف الأبجدية العربية.

وركزت "دائرة المعارف" على العلوم الحديثة، والتكنولوجيا والتاريخ الأوروبى والتاريخ العربى، وتبدأ مادة "التاريخ" بهيرودوت واليونانيين، وبذلك نقلت التاريخ الإسلامى من مركز التميز، لتجعل منه أحد مكونات تاريخ العالم. وكان البستانى مشايعاً للمركزية الأوروبية، فوصف أوروبا بأنها: "من أصغر القارات، ولكنها أكثرها أهمية فى تاريخ الحضارة"[481].

وكما قال ألبرت حورانى، ربما كان كاتباً مسلماً ممن عاشوا فى العصور الوسطى يعيد ترتيب ثيودوسيوس بين ستة مداخل وثيقة الصلة ببعضها البعض من العالم الكلاسيكى فى مجلد واحد، ويجعل المداخل الخمسة الأخرى لكل من ثيمستوكليس، وثوكيديدس ، وثسييوس، وثيوفراستوس، وثيوكريتوس.

ودعا بطرس البستانى إلى ترجمة هوميروس وفرجيل إلى العربية فى وقت مبكر (عام 1859)، وقدم فى مادة "هوميروس" بدائرة المعارف الجدل الذى دار بين الأوروبيين حول أصالة الشاعر وتاريخيته. واستجاب سليمان البستانى (1856 – 1925) – قريب بطرس– للدعوة عام 1886، وخلال السنوات الثمانى عشر التالية أنجز ترجمة الإلياذة إلى العربية شعراً.

وفى جولات جديرة بالأوديسة، بدأ سليمان البستانى فى مدرسة البستانى "المدرسة الوطنية" ببيروت، وعمل ترجماناً بالقنصلية الأمريكية، وطوف بالعراق وإيران والهند مشتغلاً بالتجارة، وألقى عصا الترحال فى التسعينات فى إستانبول، وفى عام 1893 أصبح مفوضاً عثمانياً لمعرض كولومبيا بشيكاجو، وقضى بالقاهرة السنوات العشر السابقة على

[481] دائرة المعارف، مادة "أوروبا"، 4 : 172 – 173.

الإنقلاب العثمانى عام 1908، وعاد إلى بلاده ليتم انتخابه ممثلاً لبيروت فى مجلس المبعوثين العثمانى. وفى إستانبول أصبح عضواً بمجلس النواب ثم بمجلس الشيوخ ، فوزيراً للتجارة والغابات، قبل أن يستقبل احتجاجاً على الإنقلاب المشئوم الذى وضع العثمانيين فى جانب الألمان فى الحرب العالمية الأولى، وفضل سليمان أن يقضى فترة الحرب فى سويسرا، ثم عاد إلى مصر، وأخيراً ذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

وبالإضافة إلى نشر المجلدين الأخيرين من دائرة المعارف قام جرجى زيدان بنشر الترجمة العربية للإلياذة فى مطبعة "الهلال" بالقاهرة، وكان زيدان شامياً مسيحياً آخر له اهتمامات موسوعية، وأسس مجلة "الهلال" الأدبية الرصينة بالقاهرة وفى عام 1899 نشر كتابه "تاريخ اليونان والرومان" بالعربية[482].

وتعرض المقدمة التى تقع فى 200 صفحة من مجلد "الإلياذة" ترجمة البستانى الذى يقع فى 1260 صفحة، والجدل الأوروبى حول "المسألة الهوميرية"، وانتهى إلى تغليب الرأى القائل بأن هوميروس كان شاعراً فرداً، وقال أن الإلياذة عند الإغريق لها ما للشعر الجاهلى من مكانة عند العرب، وذكر أنه بدأ الترجمة من الطبعتين الإنجليزية والفرنسية قبل أن يقرر العودة إلى الأصل اليونانى.

شارك المسلمون المصريون إخوانهم الشوام فى الإحتفال الذى أقيم بفندق شيبرد بمناسبة الترجمة العربية للإلياذة وكان من بين الحضور من الشوام: زيدان، وفارس نمر، ويعقوب صروف (محرر المقتطف)، وجبرائيل تقلا (محرر الأهرام)، والشاعر خليل مطران ، وإبراهيم اليازجى. أما المصريون المسلمون فكانوا: الشاعرين أحمد شوقى وحافظ إبراهيم، ورئيسا الوزراء – فيما بعد– سعد زغلول وعبد الخالق ثروت، واعتذر محمد عبده عن عدم الحضور، ولكن تلميذه رشيد رضا – وهو مسلم شامى– ألقى كلمة إحتفالية طويلة.

[482] Thomas Philipp, Gurgi Zaidan: His Life and Thought (Beirut 1979), 237.

التجريب المصرى للكلاسيكيات اليونانية الرومانية

أدرك الطهطاوى ورفاقه ما تعلقه أوروبا على الكلاسيكيات من أهمية، وجاء هذا الإدراك مستقلاً عن الشوام، وكان باستطاعة المصريين المضى قدماً فى استكشافهم للكلاسيكيات – ربما بإيقاع أبطأ– دون حاجة إلى وساطة الشوام. فبالإضافة إلى ما سبق ذكره من أعمال مدرسة الطهطاوى، قام تلميذه عثمان جلال بترجمة عمل عن الإسكندر الأكبر لراسين إلى العربية، نشره فى كتاب من تحريره عام 1893 – 1894[483].

وأورد على مبارك معلومات عن العصر اليونانى – الرومانى جاءت مبعثرة فى الخطط التوفيقية. فعند حديثه عن "أخميم" مثلاً، يعرف المدينة بأنها "بانوبولس" الإغريقية، ويسير على نهج تقى الدين المقريزى فيما ذكره عن المعبد الذى كان قائماً هناك فى العهد اليونانى الرومانى حتى القرن الرابع عشر، وهنا يقحم أسطورة كادموس – الفينيقى – الذى جلب الحضارة إلى اليونان عصر ما قبل التاريخ، ويذكر مبارك الزيارات التى قام بها لمصر هوميروس، وهيرودوت، وأفلاطون، وليكورجوس، وقد جره ذلك إلى الخوض فى مناقشة حول سقراط وأفلاطون ومدرسته، وحول فيثاغورث وأناكساغورث[484].

وقدم مبارك أكثر معلوماته عن العصر اليونانى تفصيلاً فى المجلد السابع من الخطط التوفيقية الخاص بالإسكندرية، وأورد تاريخ مصر منذ الإسكندر حتى الفتح العربى فى عشر صفحات، تناول فيها حكم كل ملك بطلمى إنتهاءً بكليوباترا، ثم الغزو الرومانى ، وبواكير العصر المسيحى. وفى القسم الطبوغرافى الذى تلاه، إعتمد على مبارك على المقريزى، والمصادر الفرنسية، ومحمود الفلكى فى معالجة الشكل القديم للمدينة، والمواقع المميزة لها مثل: الميناء، والمنارة، والمسلات، وقبر الإسكندر، والمتحف ، والمكتبات[485].

كذلك تعرف المصريون على التراث الكلاسيكى الغربى من خلال القانون الرومانى الذى جاء من خلال قوانين نابليون، والذى كان يدرس بمدرسة الحقوق المصرية الحكومية، وبمدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة، ومن خلال ممارسة العمل القانونى بالمحاكم

---

[483] Sadgrove., Egyptian Theatre, 102 – 4.

[484] على مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، 20 مجلد (القاهرة 1886 – 1889) 8 : 35 – 37.

[485] مبارك، الخطط، 7 : خاصة 2 – 13.

المختلطة والقضاء الأهلى، فالقاضى قاسم أمين – تلميذ محمد عبده الذى اشتهر عند مطلع القرن العشرين بكتابيه عن تحرير المرأة– ضمن فى دفاعه عن الإسلام فى مواجهة منتقديه الإشارة إلى الكلاسيكيات . وقد رفض قاسم أمين القصة القائلة بأن الخليفة عمر بن الخطاب أمر بحرق مكتبة الإسكندرية[486]، تماماً كما فعل الطهطاوى من قبل.



الشكل رقم (٣٢) شريف باشا – رئيس الوزراء – وخلف تمثال نصفى لإمبراطور رومانى

ومثلما فعل الأوروبيون منذ عصر النهضة، لعب الزعماء السياسيون المصريون بفكرة الماضى اليونانى – الرومانى كوسيلة لتأصيل تراثهم وسنداً للشرعية . فنجد صورة فوتوغرافية لمحمد شريف باشا وخلفه تمثال نصفى من العصر الكلاسيكى ، ولعله من ترتيب المصور ذاته، ولكنه لا يخلو من دلالة (انظر الشكل 32).

وجرب المحامون الذين تزعموا الحزب الوطنى باستخدام الخطاب الكلاسيكى فى مواجهة الغرب، فقد قام مصطفى كامل – الذى أصدر "اللواء" عام 1900، وأسس الحزب الوطنى عام 1908– بعقد مقارنة بين الرق فى الإسلام، والرق عند الرومان. وألف محمد فريد – خليفة مصطفى كامل– كتاباً بالعربية عن "تاريخ الرومانيين" استخدم فيه تاريخ الغرب القديم سلاحاً ضد المحتل البريطانى، ومن اللافت للنظر أن محمد فريد قام بتغطية تاريخ الجمهورية بالكتاب حتى نهاية الحرب اليونية، مسقطاً بذلك عهد الجمهورية المتأخرة وعهد الإمبراطورية (وهى الفترة التى وقعت فيها مصر تحت نير الحكم الرومانى) التى

[486] Kassem Amin, Les Egyptiens Response a M. le Duc d'Harcort (Cairo, 1894) 69, 60, 240.

يراها كرومر غنية بالدروس. ودعا محمد فريد قراءه إلى الإقتداء بما تميز به الرومان من "حب الوطن" والإتحاد ضد الغزاة الأجانب[487].

وفى عرضه الساخر لكتاب محمد فريد "تاريخ الرومان" على صفحات جريدة "المقطم " المؤيدة للإنجليز، ذكر فارس نمر أن الكتاب يوضح السبب الذى جعل رجال الحزب الوطنى يهاجمون فى مصر المسيحيين الشوام باعتبارهم "دخلاء". ترى من هم المعتدون الأجانب المعاصرين الذين يعنيهم محمد فريد ؟ – كتب نمو متسائلاً – هل هم العائلة الخديوية ؟ أم العثمانيون ؟ أم الأمة العربية التى غزت بلاد الأقباط ؟ أم أنه – ببساطة – كل أجنبى إتخذ من مصر موطناً له؟.

وكما ذكرنا من قبل، شهد عام 1902 حدثاً يسجل الإختلاف بين الأوروبيين والمصريين من حيث علاقة كل منهم بالتراث اليونانى – الرومانى. فقد افتتح الخديو عباس حلمى الثانى المتحف المصرى بحضور كرومر وماسبيرو. ولم يشغل بال كل من كرومر وماسبيرو تلك الكتابات التى جاءت على واجهة المتحف، لأنهما لم يشعرا بغربة وهم يشاهدون الكتابة اللاتينية التى درج الغرب على أن يستخدمها فى العمائر ذات الدلالة التاريخية، وربما استطاع عباس الثانى أن يقرأ إسمه مكتوباً باللاتينية، فقد درس بمدرسة تريزيانم بفيينا حيث لم يكن التلاميذ يتعلمون الكتابة والقراءة باللاتينية وحسب، بل كان عليهم الحديث بها (انظر الشكل 6)[488]. ولكن نفراً قليلاً من المثقفين المصريين قد عرفوها، فلم تكن تدرس بأى مدرسة حكومية مصرية.

المؤتمر الدولى للآثار الكلاسيكية فى القاهرة

وجاء إنعقاد "المؤتمر الدولى الثانى للآثار الكلاسيكية" بالقاهرة عام 1909 إعترافاً ببروز مصر فى الخطاب الكلاسيكى الغربى. واحتلت مصر مكاناً رمزياً شرفياً بين اليونان وروما كبلد قديم، فقد عقد المؤتمر الأول فى أثينا عام 1905، ثم عقد المؤتمر الثالث بروما عام 1911. ولكن أعمال المؤتمر بالقاهرة عكست هامشية المصريين بالنسبة للدراسات القديمة اليونانية – الرومانية عند الغرب.

---

[487] عبد الرحمن الرافعى، مصطفى كامل (القاهرة 1962)، 36؛ محمد فريد (القاهرة 1962) 30 – 32. نشر عرض كتاب محمد فريد "تاريخ الرومانيين" بمجلة المقتطف 27 (أول أغسطس 1902) 805 – 806.

[488] رسالة شخصية تلقاها المؤلف من جون رودنبك.

وعند انعقاد المؤتمر الأول، قامت "المدارس الأثرية" الألمانية والنمساوية، والبريطانية، والفرنسية، والأمريكية فى أثينا بمعاونة الحكومة اليونانية على استضافة المؤتمر، وتولى ماسبيرو رئاسة قسم عن آثار ما قبل التاريخ والآثار الشرقية. وكان من علماء المصريات الآخرين بين الحضور بترى ولودفيج بوركارد. كما حضر المؤتمر كل من بيير جوجيه وألان ويس، عالما الكلاسيكيات اللذان عملا طويلاً فى مصر. ومثلت بالمؤتمر مؤسسات علمية من 16 دولة أوروبية، والولايات المتحدة، وتركيا. وكان السفير العثمانى بأثينا وقرينته هما التركيان الوحيدان بين الحضور بينما لم يكن هناك مصرياً واحداً[489].

تولى ماسبيرو رئاسة اللجنة التنفيذية للمؤتمر التى خططت لعقد المؤتمر الثانى بالقاهرة . وكان معه باللجنة بيير لاكاو من مصلحة الآثار المصرية، ومديرى المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة (إميل شاسينا)، والمعهد الألمانى للآثار الذى أنشئ حديثاً بالقاهرة (بوركارد)، وكذلك إيفارستو بريشيا مدير المتحف اليونانى – الرومانى، وموظف بريطانى. وبذلك كانت اللجنة تتكون من ثلاثة فرنسيين، وبريطانى، وألمانى، وإيطالى . وقدمت بلدية الإسكندرية وجمعية الآثار بالإسكندرية مساعدتهما للجنة. وتضمن جدول المؤتمر ثلاثة أيام لجلسات العمل ألقيت فيها الأوراق البحثية، وجولة بالإسكندرية، وستة أيام بالقاهرة، ثم أربعة أيام فى زيارة للأقصر، ووعدت الحكومة المصرية بدعم المؤتمر بمبلغ يتراوح بين ألف وألفى جنيه مصرى، وقدمت شركة كوك باخرة لرحلة الأعضاء بالصعيد وتخفيضات بالفنادق[490].

وشكل قسم الآثار السابقة على العصر الكلاسيكى نوعاً من الإلتفات نحو الآثار الفرعونية، وجاءت الآثار البيزنطية لتمثل ما بعد العصر الكلاسيكى، أما الأقسام الأخرى فكانت: الآثار الكلاسيكية، وعلم البرديات، والنقوش، الآثار الدينية، والنميات (العملة)، والجغرافيا. وقدمت الأوراق البحثية بالفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية، ولم تكن اليونانية أو العربية من بين لغات المؤتمر.

---

[489] Congres international d'archeologie: Premiere session, Athens 1905, 5, 7, 12, 24, 43, 46 – 49, 238 – 41.

[490] Comotes rendus du Congres international d'archeologie classique: 2 me session – Le Caire (1909), 7, 53 – 57, 60 – 61, 74 – 77, 93 – 97.

وقد ترأس عباس حلمى الثانى لجنة التنظيم، وألقى خطاب الإفتتاح بدار الأوبرا الخديوية. وكان من بين أعضاء اللجنة رئيس النظار (الوزراء) بطرس غالى باشا، ورئيس النظار الأسبق مصطفى فهمى باشا، والناظرين سعد زغلول وإسماعيل سرى، وأحمد زكى (سكرتير مجلس النظار)، ويعقوب أرتين الذى تولى الترحيب بالضيوف بحكم موقعه كنائب لرئيس "المجمع العلمى المصرى". وكان من بين أعضاء لجنة التنظيم أيضاً المستشارون الإنجليز الأربعة بالوزارات المصرية، وماكس هرتز ممثلاً للجنة حفظ الآثار ومتحف الفن العربى، وبرنارد مورتز مدير الكتبخانة الخديوية[491].

ولم يكن لدى مصر متخصصين من أبنائها فى الكلاسيكيات، ولم يتقدم بورقة إلى المؤتمر سوى مصرى واحد هو عطية وهبى الذى قدم تفسيراً وطنياً للفن القبطى، مؤكداً على عمق جذوره فى الفن الفرعونى وليس البيزنطى[492]، وكان من بين من سجلوا من حضور المؤتمر البالغ عددهم 906 شخصاً، كان هناك 21 مصرياً فقط، كان من بينهم على بهجت من متحف الفن العربى، وخمسة من المتخصصين فى المصريات منهم أحمد كمال ومحمد شعبان. وكان الأرمنى البارز بوغوص نوبار (نجل رئيس الوزراء الأسبق) حاضراً، كما حضر ثلاثة من الأقباط على الأقل هم: عطية وهبى، وكلوديوس لبيب ، ومرقص حنا المحامى الوطنى الذى أصبح وزيراً فيما بعد. واستضافت الجامعة المصرية الجديدة بعض الجلسات وترأس مديرها الأمير أحمد فؤاد (الملك فيما بعد) حفل الختام[493] . وبعد الحرب العالمية الأولى، سيعمل فؤاد على تلميع صورته باستضافة العديد من المؤتمرات الدولية فى مصر.

التراث اليونانى – الرومانى عشية الحرب العالمية الأولى

بعد المؤتمر الدولى الثانى للآثار – الكلاسيكية، نشر محمود فهمى – خريج المدرسة التوفيقية للمعلمين، والمدرس بمدرسة القضاء الشرعى– كتابه "تاريخ اليونان". وسوف يتولى تدريس تاريخ الشرق القديم بالجامعة المصرية من 1913 حتى وفاته عام 1916 . وكان الغرض الذى دفع محمود فهمى لتأليف الكتاب هو تعريف القارئ العربى بتاريخ

---

491 Congres, 1909, 58 – 60, 156 – 58, 172.
492 Congres, 1909, 262 – 63.
493 Congres, 1909, 9 – 52, 262 – 63, 294.

البلاد التى بدأت فيها الحضارة الغربية والأدب الغربى. وقال: إننا أخذنا عنهم الكثير زمن هارون الرشيد والمأمون، ولكننا لا نعرف إلا القليل عن تاريخهم. وقد اعتمد فهمى على الكتب المدرسية التى ألفها مدير المدرسة اليونانية بالقاهرة ومدرسى التاريخ بالمدرسة، وقد بدأ الكتاب بالجغرافيا، وتحدث عن هوميروس، ثم تتبع تاريخ اليونان حتى هيرودوت "أبو التاريخ" وسقراط "سيد الفلسفة"، وختم الكتاب بتقسيم إمبراطورية الإسكندر بين ورثته من قادة جيوشه[494].

ومن بين المقررات الأخرى بالجامعة المصرية، قدم طه حسين للطلاب لمحات من تاريخ العالم الكلاسيكى، وقام بيرس وايت بتدريس مسرحية شكسبير "أنطونيو وكليوباترا" فى إطار دراسة الأدب الإنجليزى، ومن المفترض أن تكون دروس الأدب الفرنسى قد أسهمت أيضا فى إبراز الأدب الكلاسيكى[495].

وكان أحمد لطفى السيد – محرر "الجريدة" وعضو مجلس الجامعة عام 1915 والذى تولى إدارة الجامعة بعد تحولها لجامعة حكومية عام 1925، كان يرتاد – بدوره– التراث اليونانى، ففى مقال نشره بالجريدة عام 1913، دعا إلى الإقتداء باليونانيين الذين لم ينسوا هويتهم القومية خلال القرون التى خضعوا فيها للحكم العثمانى، وقادهم ذلك إلى تحقيق الاستقلال الوطنى. وكانت ملاحظته جديرة بالنظر فى وقت كانت فيه مصر خاضعة إسمياً للسيادة العثمانية. فقد رأى معظم المصريين والعثمانيين فى ثورة اليونان فى العشرينات من القرن التاسع عشر ضربة للدولة العثمانية وللدولة الإسلامية[496]. وفى العشرينات من القرن العشرين ركز أحمد لطفى السيد جهوده على ترجمة أرسطو.

وفى عام 1912، نشر محمد لطفى جمعة ترجمة عربية لكتاب مكيافللى "الأمير" الذى يتضمن الكثير من الإشارات الكلاسيكية. بعدما أوقف محمد على ترجمته ببضع عقود على أساس أن أهل فلورنسا ليس لديهم ما يمكن أن يتعلمه منهم[497].

---

[494] محمد فهمى، تاريخ اليونان (القاهرة 1910) 3 – 4. وأحمد عبد الفتاح بدر، الأمير أحمد فؤاد ونشأة الجامعة المصرية (القاهرة 1950) 131، 153، 155.

[495] أرشيف جامعة القاهرة، محفظة 14، ملف 170، قسم الأدب، 25 أكتوبر 1910.

[496] Wendell, Evolution, 258 – 59.

[497] إلياس سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة (القاهرة 1928) 1692. والشيال، تاريخ الترجمة 79 – 81.

ومع وجود السكرتير الشرقى لدار المعتمد البريطانى رونالد ستورس فى هذا الموقع عام 1914 بما عرف عنه من اهتمام بالكلاسيكيات، أصبح استخدام التراث اليونانى – الرومانى لإضفاء الشرعية على سيطرة الغرب على مصر منذ بونابرت إلى كرومر فى أيدٍ أمينة. ترى، من كان يتخيل ما حدث فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، عندما قامت أوكسفورد وكامبردج بإسقاط اليونانية كمتطلب أساسى للدراسة، أو يصدق أن اثنين من علماء الكلاسيكيات مثل فورستر وروبرت جريفز يدعوان إلى إرخاء بريطانيا لقبضتها الإمبريالية فيما وراء البحار ؟ ترى من كان يتوقع أن يتجه طه حسين النجم الصاعد فى سماء الأدب العربى، بعد عودته من باريس عام 1919، إلى إدخال الدراسات اليونانية – اللاتينية القديمة فى التعليم المصرى، وأن الجامعة المصرية الحكومية عام 1925 سوف تفتح قسماً للدراسات الكلاسيكية ؟[498].

[498] طه حسين، مستقبل الثقافة فى مصر (القاهرة 1937).

الفصل الخامس
علم المصريات فى عهد ماسبيرو وأحمد كمال

فى عام 1923، إقترح أحمد كمال أن تتاح للمصريين فرصة التدريب على فهم آثار بلادهم والإشتغال بها تمهيداً لتوليهم إدارة شئونها، ولكن المدير العام لمصلحة الآثار لاحظ أنه – باستثناء أحمد بك – لم يبد إلا القليل من المصريين اهتمامهم بالآثار، فرد أحمد كمال قائلاً: "نعم يا مسيو لاكاو، خلال السنوات الخمس والستين التى أدار فيها الفرنسيون المصلحة، ما هى الفرص التى أتحتموها لنا ؟! "

John A. Wilson, Signs and Wonders upon Pharoh

قبل هذه المحادثة بإثنين وأربعين عاماً، أتاح موت ماريت عام 1881 وتولى ماسبيرو – الأكثر مرونة– إدارة مصلحة الآثار خلفاً له، أتاح الفرصة لأحمد كمال ليجد لقدمه موضعاً فى علم المصريات. هذا التغير فى الأجيال كان حاداً على غير العادة على نحو ما نرى فى الجدول رقم (3).

فقد لاحظ ماسبيرو أنه بعد وفاة ماريت، أصبح شابا Chabas الآن "آخر الأحياء (من الفرنسيين فى حقل المصريات) من أبناء عصرنا البطولى"[499]. ومات شابا خلال عام، ثم لحق به ليبسيوس فى ألمانيا عام 1884، وبيرش فى بريطانيا عام 1885.

وإلى جانب ماسبيرو وأحمد كمال، ضم الجيل الجديد من المشتغلين بالمصريات فلندز بترى، الذى بدأ عمله فى منطقة الأهرام بالجيزة عام 1880، وأدولف إرمان الذى بدأ الإشتغال بالتدريس فى برلين عام 1881، وإرنست بادج الذى خلف بيرش فى المتحف البريطانى. وفى العام 1882 الذى شهد الإحتلال البريطانى وتأسيس "صندوق الكشوف المصرية"، بلغ ماسبيرو السادسة والثلاثين من عمره، بينما كان أحمد كمال فى الحادية

[499] أرشيف الخارجية الفرنسية بنانت، ملف IFAO رسالة من ماسبيرو بتاريخ 20 سبتمبر 1881.

والثلاثين، وبترى فى السابعة والعشرين، وإرمان فى الثامنة والعشرين، وبادج فى الخامسة والعشرين، وفى الحقل السياسى كان إيفلن بيرنج (لورد كرومر فيما بعد) وأحمد عرابى فى الحادية والأربعين، بينما بلغ الخديو توفيق الثلاثين من عمره.

ومن منظور هذه الدراسة، كان إرمان خارج المسرح فى برلين، وكانت غزوات بادج الطائشة فى مصر قصيرة الأمد، أما بترى فكان يقوم بالتنقيب كل شتاء تقريباً فى مصر لمدة أربعين عاماً، وأوجد ثورة فى الأسلوب العلمى للتنقيب، ودرب الكثير من العاملين فى حقل المصريات من المصريين، كما درب عمال الآثار، ولكنه أقل ظهوراً فى المركز من ماسبيرو بالنسبة لهذا الفصل. فقد تولى ماسبيرو منصب المدير العام لمصلحة الآثار لما يقرب من العشرين عاماً، ومن أحمد كمال الذى ناضل بلا كلل لإرساء دعائم الوجود المصرى فى علم المصريات، وإقناع أبناء بلاده بأهمية هذا المجال.

وإنتهت هذه الحقبة فجأة عام 1914، عندما تقاعد كل من ماسبيرو وأحمد كمال، وهرع كتشنر إلى بلاده ليدير المجهود الحربى البريطانى. واستبدل الإنجليز بعباس الثانى عمه حسين كامل، لين العريكة، وقطعوا الروابط الإسمية التى كانت تربط مصر بالدولة العثمانية، وأعلنوا الحماية على مصر، ومات كل من كتشنر وماسبيرو عام 1916، ولحق بهما كرومر عام 1917، وأحمد كمال عام 1923، بينما عمر بترى حتى عام 1942 ، ولكنه لم يعد بين طليعة علماء المصريات، واتجه للتنقيب فى فلسطين.

ماسبيرو والمعهد الفرنسى للآثار الشرقية، ومصلحة الآثار حتى 1886

كان ماسبيرو المتميز النابه فى الثامنة والعشرين عندما وصل إلى مركز الأستاذية فى فقه اللغة المصرية والآثار فى الكوليج دى فرانس. ولد بباريس، وشق طريقه صعوداً فى سلم التعليم من ليسيه لوى لوجران إلى مدرسة المعلمين العليا،ثم السوربون، فمدرسة الدراسات العليا. وعندما بلغ الثامنة والعشرين، كان سلفه فى إدارة مصلحة الآثار ماريت – الذى تلقى تعليماً متوسطاً– قد أصبح مساعداً مؤقتاً فى متحف اللوفر، بينما كان أحمد كمال لازال يبحث عن عمل يتصل بالآثار.

وأهمل ماريت اقتراحاً تقدم به ماسبيرو لإقامة "مدرسة" فرنسية للآثار بالقاهرة، خشية أن يؤثر تأسيسها على وضعه ومكانته. ولكن عندما كان ماريت على سرير الموت تأثراً بمرض السكر فى أواخر عام 1880، بعث مسئولو التعليم فى فرنسا الإقتراح من مرقده . وكان ماسبيرو قد أشار إلى المدرسة الفرنسية بأثينا (تأسست 1846)، والمدرسة الفرنسية بروما (تأسست 1875) كنموذج يحتذى، وحذر من أن المنافسين الأجانب يتجاوزون الفرنسيين فى حقل الآثار بالشرق الأوسط. فقد قام بوتا فى الأربعينات بإثراء اللوفر بالتماثيل والألواح الأشورية، ولكن نشاط الفرنسيين توقف فى العراق، بينما استمر المتحف البريطانى فى إثراء مقتنياته من آثار العراق القديم، وفى فلسطين يتقدم علماء العبرانية والفينيقية من الإنجليز والألمان، وفى القاهرة قد تحاول ألمانيا أن تدفع بهنريش بروجش لخلافة ماريت فى إدارة مصلحة الآثار. وبإقامة وريث فرنسى فى الموقع تستطيع مدرسة القاهرة "تأكيد التفوق الفرنسى"[500].

[500] حول تأسيس المعد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، وتاريخه، راجع:
IFAO, Livre du centenaire 1880 – 1980 (Cairo, 1980), vii – x; IFAO, Un Siecle de fouilles Francaises en Egypte 1880 – 1980 (Cairo, 1981).

الجدول رقم (3)

الآثاريون فى عهد ماسبيرو وأحمد كمال 1881 – 1914

علماء مصريات غربيون	علماء مصريات مصريون	آثاريون آخرون	علماء آخرون وشخصيات سياسية
هـ . بروجش 1827 – 1894		فرانز 1831 – 1915	على مبارك 1823 – 1893
إدواردز 1831 – 1892			نوبار 1825 – 1899
إ . بروجش 1842 – 1930		بوتى ؟ – 1903	أحمد عرابى 1841 – 1911
نافيل 1844 – 1926			يعقوب أرتين 1842 – 1914
ماسبيرو 1846 – 1916			محمد عبده 1849 – 1905
بترى 1853 – 1942	أحمد نجيب 1847 –1910		توفيق (الحكم) 1879 – 1892
إرمان 1854 – 1937	أحمد كمال 1851 – 1923		كرومر (قنصل) 1883 – 1907
شيابارياللى 1856 – 1928		هرتز 1865 – 1919	عباس الثانى (حكم) 1892-1914
بادج 1857 – 1930			كتشنر (قنصل) 1911-1914
دى مورجان 1857 – 1924		على بهجت 1858 – 1924	سعد زغلول 1860 – 1927
لوريه 1859 – 1946		برشم 1863 – 1921	
بوركارد 1863 – 1938		سميكة 1864 – 1944	
دارسى 1864 – 1938			
برستد 1865 – 1935			
ريسنر 1867 – 1942			
لاكاو 1873 – 1963			
كارتر 1874 – 1939		بريشيا 1876 – 1944	
جانكر 1877 – 1962			

وفى 28 من ديسمبر 1880، أصدر رئيس الوزراء الفرنسى جول فيرى قراراً بإنشاء "بعثة دائمة بإسم المدرسة الفرنسية بالقاهرة". وبعد ذلك التاريخ بعقد من الزمان، أثيرت مطالب أخرى لإقامة "المدرسة الإنجيلية والآثارية الفرنسية بالقدس"، وفى عام 1898 أصبحت المدرسة الفرنسية بالقاهرة، والتى كانت تعرف أيضاً بالبعثة الآثارية، "المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة"، وبدأ المعهد حفائره الأولى فى نفس السنة.

ووصل ماسبيرو إلى القاهرة ليصبح أول مدير "للمدرسة الفرنسية"، وذلك قبل وفاة ماريت ببضعة أسابيع، وجاء بصحبته طالبان من طلاب المصريات، ومعمارى يستمد

إلهامه من الفن العربى، ومستعرب. وعندما خلف ماسبيرو ماريت مديراً عاماً لمصلحة الآثار المصرية، تولى أحد الطالبين (أوروبان بوريان) إدارة المدرسة، وفيما بين 1881 – 1936 قدم المعهد الفرنسى للآثار الشرقية لمصلحة الآثار المصرية من تولوا إدارتها فيما عدا واحداً فقط هو دى مورجان[501]. ولعبت مطبعة المعهد التى أنشئت عام 1898 دوراً مهماً فى إبراز الصورة العلمية للمعهد، وبحلول عام 1910، كان مديرو وباحثو المعهد قد وصلوا إلى عشرين من المتخصصين فى المصريات، وثمانية من المستعربين، وستة من المتخصصين فى الهلينيات أو البيزنطيات، وجيولوجى واحد، وستة من الفنانين المعاونين[502].

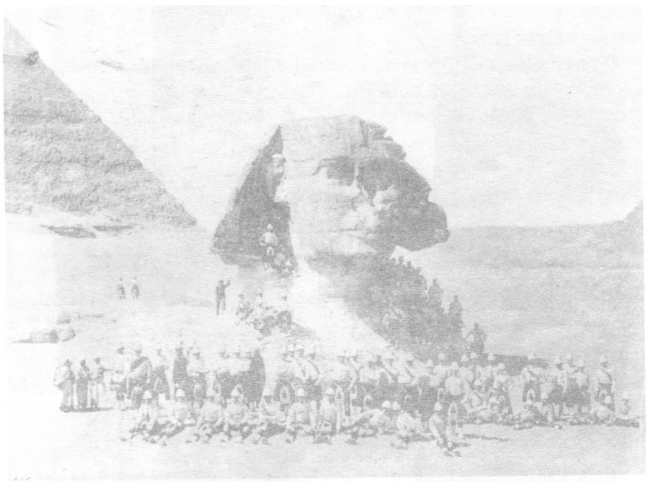
وخلال مدة السنوات الخمس الأولى من إدارته لمصلحة الآثار، أعاد ماسبيرو تنظيم المصلحة بالكامل، واستمر فى أعمال فتح أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة بالجيزة وسقارة، وقام بنشر متون الأهرام، كما تابع العمل فى تنظيف المعابد المصرية بالصعيد.

ونص قانون الآثار – الصادر فى عام 1883– على أن جميع الآثار والمتاحف ملكية عامة للدولة، وألحق مصلحة الآثار بوزارة الأشغال العمومية. وعلى نقيض ذلك نص قانون الآثار الصادر فى إستانبول المستقلة عام 1884على تبعية مصلحة الآثار ومتاحفها لوزارة المعارف[503]، واعتبر الآثار جزءاً من الإرث الوطنى. وظلت مصلحة الآثار المصرية تابعة لوزارة الأشغال العمومية حتى حصلت مصر على الاستقلال المنقوص ، مما سمح بإنتقال تبعية مصلحة الآثار لوزارة المعارف عام 1929، وبقيت كذلك حتى إنتقلت تبعيتها إلى وزارة الثقافة والإرشاد القومى عام 1958[504].

عودة علماء المصريات البريطانيين – بترى وصندوق الكشوف المصرية

إتخذت القوات البريطانية من ثكنات قصر النيل – جنوبى متحف بولاق– عام 1882 ، مقراً لقيادتها. وكما فعلت قوات بونابرت قبلهم، قام الإنجليز بتسجيل استحواذهم الرمزى

[501] Livre du centenaire, xxi.
[502] Michel Dewachter & Alain Fouchard, eds., L'Egyptologie et les Champollion (Grenoble, 1994), 367.
[503] Stephen Vernoit, "The Rise of Islamic Archaeology", Muqarnas 14 (1997), 2.
[504] A. Kjater, Le Regime juridique des Fouilles et des antiquites en Egypte (Caoro, 1960), 77.



الشكل رقم (٣٣) جنود إسكتلنديون يحتلون أبو الهول فى الثمانينات

على آثار مصر (انظر الشكل 33). وكان على ماسبيرو أن يحشد كل مهاراته الدبلوماسية للحفاظ على "الآثار محمية فرنسية"[505]. وغازل البريطانيين بوضع نهاية لإحتكار ماريت للتنقيب ، وشجع "صندوق الكشوف المصرية"، وبترى وآخرون على القيام بالتنقيب ، ورتب لهم الإحتفاظ بنصيب سخى مما يعثرون عليه من آثار، ولم يكن البريطانيون قد عملوا فى حقل المصريات منذ أيام ويلكنسون، وريتشارد فايس، وجون بارنج فى الثلاثينات، فيما عدا حالات استثنائية محدودة مثل حفائر ألكسندر ريند فى طيبة، وبيازى سميث وواينمان ديكسون فى الجيزة، وقام على الجابرى بتقديم نوع من الرابطة الشخصية مع البريطانيين على مدى نصف قرن، وكان قد بدأ عمله فى الحفائر كصبى يحمل السلة مع فايس، ثم أصبح مساعداً لسميث وديكسون، ووصفه بترى بأنه "رفيقى الممتاز فى كل أعمالى"[506].

وإزدهرت أعمال كل من بترى وماسبيرو تحت الإحتلال البريطانى، كل بطريقته الخاصة الفريدة، وقد اشتركا فى قضاء مواسم الشتاء الطويلة فى مصر، وإجازات الصيف الطويلة فى بلديهما، وفيما عدا الدراسة، كان الرجلان على طرفى نقيض. كان بترى يعيش حياة خشنة فى الخيام بين المقابر، ويأكل الطعام المعلب، وكان ماسبيرو يعمل من مكتبه بالمتحف أو على ظهر باخرة المصلحة، وتلقى تعليماً راقياً رفيعاً فى أفضل مدارس فرنسا، بينما فشل بترى فى دراسة اللاتينية واليونانية، واضطر أن يعلم نفسه من خلال جمع العملات، ودراسة الآثار، ومسح المواقع البريطانية القديمة.

وعلى السواحل الشمالية للبحر المتوسط، أصبحت الحفائر أكثر علمية فى السنوات الأخيرة من عمر ماريت، فقد حدثت ثورة فنية فى هذا المجال لم يستطع اللحاق بها. ففى الستينات، قام فيوريللى فى بومبى، وروسا فى روما بوضع الحفائر على أسس علمية .

---

505 Margaret Dower, Flinders Petrie: A Life in Archaeology, (Madison, Wis. 1995), 312.
506 Flinders Petrie, Seventy Years in Archaeology (New York, 1969 reprint of 1932 ed.), 22.

وقام النمساويون (كونتزى) فى ساموثراس – فى بحر إيجه فى السبعينات– والألمانى (كورتيوس) فى أوليمبيا، بتسجيل دقيق للطبقات الأرضية أثناء الحفر. ووافق كورتيوس على أن يترك كل ما عثر عليه فى اليونان مستعيضاً عن الحصول على القطع الأثرية باستعادة ما يتعلق بها من معلومات. وحتى شليمان الذى أزاح الأثرية فى طروادة وميسيناى برعونة تماثل رعونة ماريت، حسن من مستواه فى الثمانينات، بمساعدة فيلهلم دورفيلد المعمارى الأولمبى السابق[507].

وإتسم بترى بالنزعة العلمية، فلم يستعر مباشرة مثل تلك النماذج، ولكنه اعتمد فى الحفر على أساس علمى على جهده الخاص. فكان يرسم خرائط الموقع، وسجل مواضع الأغراض التى يتم العثور عليها، مبرزاً أهمية الأدوات الصغيرة التى تستخدم فى الحياة اليومية، وطور طريقة تحديد عمر الفخار، وأسرع بنشر تقرير عن كل موسم من مواسم الحفائر. ووضع الأسرتان الأولى والثانية، كما وضع عصر ما قبل التاريخ فى مصر، على الخريطة الأثرية (بالإضافة إلى جهد جاك دى مورجان فى هذا المجال). ولعل ثراء الآثار التاريخية المصرية يفسر تأخر وصول التقدم الإنقلابى فى آثار عصر ما قبل التاريخ فى أوروبا، إلى مصر. وقام بترى بتدريب عمال من قرية قفط، الذين قاموا بعد ذلك فى العمل معه ومع غيره فى جميع أنحاء مصر، وكان يفضل العمل مباشرة مع رجاله بدلاً من الإعتماد على "ريس" عمال، وبذلك قلل من تسرب القطع الأثرية إلى التجار بمكافأة من يعثر على القطع بجهده الخاص. وعلى كل، فهو لم يهتم بتسجيل الطبقات الأرضية إلا قليلا، فيما عدا حفائر تل الحصى بفلسطين عام 1890[508].

ولم يكن بترى متخصصاً فى الدراسات الإنسانية، مدرباً على الكلاسيكيات، بل كان فنياً أثرياً، ومساحاً، فقد أولى الأغراض المنقولة مثل شقافات الآنية، أهمية خاصة. على حين كان "الأرستقراطى نافيل يميل إلى قضاء الوقت فى طرح أسئلة تاريخية بنسخ وتفسير النقوش، وبالنسبة له كان يفضل عدم الحديث كثيراً عن قاعدة العمل فى الحفائر، وعن

[507] Bruce G. Trigger, A History of Archaeological Thought (Cambridge, 1975), 196.
[508] Drower, Petrie, 429 – 30.

جمع المعلومات عن الفخاريات وما شابهها، فقد يلائم ذلك متخصص فى العلوم، ولكنه ليس عمل الرجل المتخصص فى الإنسانيات"[509].

وإنتقد بترى الطريقة التى عمل بها ماريت، ولجوئه إلى استخدام الديناميت، واعتبرها عملاً وحشياً، كما انتقد عمل معاصره إميل أميلينو الذى شوه مقابر الأسرات الملكية المبكرة فى أبيدوس، وكانت سعادته محدودة بالأعمال الميدانية التى يقوم بها ماسبيرو، وإدوارد نافيل وإميل بروجش. ورغم ذلك، ظل ماسبيرو ودوداً معه، يحذره من أن يجلب القطع الثمينة التى يعثر عليها إلى المتحف حتى لا يستولى عليها إميل بروجش، واقترح عليه أن يحتفظ بها فى جيوبه حتى يستطيع تهريبها من الجمارك[510].

وقد رفض بترى الإفتراضات المتفائلة المبكرة القائلة بوجود خط واحد للتطور الثقافى ، مثله فى ذلك مثل الكثير من معاصريه. وربط بين التطور الثقافى والتغير البيولوجى ، معزياً التقدم إلى هجرة مبدعى الثقافة. واتفقت مثل هذه المعتقدات مع النزعة العسكرية المتشائمة والعنصرية عند كثير من القوميين الأوروبيين فى زمانه، وزادتها إشتعالاً[511].

وفضل بترى أن يعمل مستقلاً من خلال مؤسساته الخاصة – حساب البحوث المصرى، "والمدرسة البريطانية للآثار بمصر" التى كانت موجودة عندئذ– ولكنه قام بحفائر لحساب "صندوق الكشوف المصرية" من حين لآخر خلال إثنى عشر عاماً، وكان وراء تأسيس الصندوق عام 1882 رجل البر الطبيب الجراح السير إراسمس ويلسون، وريجنالد ستيوارت بول – قريب إدوارد لين، وخبير النقود (العملات) بالمتحف البريطانى – والأديبة إميليا إدواردز.

ورغم إنبهار إميليا إدواردز منذ طفولتها بألف ليلة وليلة، وكتاب ويلكنسون "قدماء المصريين"، إلا أنها كونت لها إسماً فى عالم الصحافة وفن الرواية. وفى الثانية والأربعين من عمرها قامت برحلة إلى مصر – وصفتها فى كتابها "ألف ميل صعوداً فى

---

509 T. G. H. James, ed., Excavating in Egypt: The Egypt Exploration Society 1882 – 1982 (London, 1982), 28.

510 Petrie, Seventy Years, 34, 77, 80.

511 حول المظاهر الإمبريالية والعنصرية فى مجال الآثار فى ذلك العصر، راجع:
Trigger, History, 110 ff.

النيل (1877)"– ودفعتها الرحلة إلى دراسة الهيروغليفية، وتوجيه نشاطها كله إلى حقل المصريات، وكان – حتى ذلك الحين– وقفاً على الرجال، وبرعت إيمليا فى الدعاية للمصريات وجذب الإهتمام إليها، ولولا إدارتها الحكيمة لما استطاع "صندوق الكشوف المصرية" الاستمرار[512].

وكان إفلاس مصر عام 1879 قد أدى إلى انقطاع كل المخصصات المالية التى كان ماريت يعتمد عليها فى حفائره، وأشار نافيل إلى أن الألمان ينقبون عن الآثار فى أوليمبيا وما كان باليونان دون أن يعدهم أحد بأخذ قطع أثرية لمتاحفهم. وأنه ربما كان من الممكن أن يحث المتبرعين البريطانيين على دعم الحفائر بغرض الحصول على المعلومات وليس القطع الأثرية، وخاصة إذا كانت تلك الحفائر تلقى الضوء على ما جاء بالكتاب المقدس، وأن الأطراف الشرقية للدلتا التى يذكرها الكتاب المقدس بإسم "أرض جوشن" تمثل أفضل التطلعات لمثل هذه الحفائر[513]. وسرعان ما غيرت "جمعية النهوض بالحفائر الأثرية بدلتا النيل" إسمها ليصبح "صندوق الكشوف المصرية" فى أبريل 1882 ، وأعلنت أن هدفها توثيق حقبة القرون الأربعة التى عاشها العبرانيون بمصر والتى أدت إلى الخروج. وفى عام 1919 تغير إسم الصندوق ليصبح "جمعية الكشوف المصرية".

وانتقد صامويل بيرش، الأخصائى بالمتحف البريطانى، صندوق الكشوف المصرية لأنه يمثل "دعائم الآثار العاطفى"، ولم يكن مرد ذلك إلى معارضته للأهداف المرتبطة بالكتاب المقدس، فقد كان بيرش نفسه الرئيس المؤسس "لجمعية علم آثار الكتاب المقدس" عام 1870. وكان وجه الإعتراض – عنده– أن صندوق الكشوف المصرية سوف يثرى متحف بولاق الذى يديره الفرنسيون، ولن ينال المتحف البريطانى شيئاً مما يتم العثور عليه[514]. فقد كان بيرش يأخذ على ماسبيرو وبخله فى السماح بالحصول على الآثار المصرية، وقد طلب ماسبيرو من "صندوق الكشوف المصرية" أن يشير فى طلبه للترخيص بالتنقيب أن ذلك يتم "لأغراض علمية محضة"، دون الإشارة إلى الرغبة فى الحصول على ما يتم الكشف عنه من آثار. ولكنه عاد إلى "حث" الحكومة المصرية –

[512] Joan Rees, Amelia Edwards, Traveller, Novelist and Egyptologist (London, 1998).
[513] Margaret – Drower, "Gaston Maspero and the Birth of Egypt Exploration Fund (1881 – 83)", Journal of Egyptian Archaeology 68 (1982), 300.
[514] Peter France, The Rape of Egypt, 151 – 54.

التى كانت قد أصبحت فى قبضة الإحتلال البريطانى– على أن تعطى للمكتشفين نصيباً سخياً مما يعثرون عليه من الآثار على سبيل الهدية.

وفى عام 1883، قام نافيل بالتنقيب فى تل المسخوطة لحساب صندوق الكشوف المصرية، وذكر فى تقريره أن "الوفاق الودى مع ماسبيرو لا غبار عليه، ولا يمكن أن تكون الأمور أفضل من ذلك، والحق أنه مسموح لى بالحفر فى أى مكان أريد من الدلتا"[515]. وعند نهاية الموسم حاول الخديو ومجلس النظار إعاقة طريق "الهدية" المقترحة لصندوق الكشوف المصرية، ولكن مناورات ماسبيرو نجحت فى تمريرها. وعند نهاية الموسم سارع نافيل إلى نشر تقريره بعنوان "مدينة بيتوم المخزنية وطريق الخروج (1885)"، وقد بعث التقرير السرور فى نفوس من يرون أن تل المسخوطة هى مدينة بيتوم التى ورد ذكرها بالكتاب المقدس (وهو استنتاج لم يعد يحظى بالقبول)، وأن جانباً من وادى الطميلات هو أرض جوشن. وأصبحت بعثات "صندوق الكشوف المصرية " معلماً دورياً من معالم المواسم الشتوية للحفائر فى مصر بفضل جهود نافيل، وبترى، وغيرهما.

واستمرت صداقة بترى لإميليا إدواردز بعد انفصاله عن أعمال الصندوق وقيامه بالتنقيب مستقلاً، وعند وفاتها عام 1892، أوقفت ما يقوم بتمويل كرسى الآثار بالكلية الجامعية بلندن من أجله، ليصبح بذلك أول كرسى أستاذية للمصريات فى بريطانيا. وبذلك كانت الحفائر البريطانية فى مصر، وأول كرسى للمصريات فى بريطانيا مبادرات شخصية، على نقيض ما حدث فى بلاد القارة الأوروبية.

الأهرام والتقدم، مصر القديمة عند على مبارك

وفى العام 1886 – 1887، بينما كان ماسبيرو بباريس عند انتهاء سنوات عمله الخمس الأولى، وكان بترى وصندوق الكشوف المصرية يدعمان وجودهما فى مصر، قام على مبارك بنشر "الخطط التوفيقية الجديدة"، وهى موسوعة طبوغرافية تقع فى عشرين مجلداً، تربو صفحاتها المكتظة على الألفى صفحة. وغالباً ما يتخذ المؤرخون من الخطط

[515] Drower, "Gaston Maspero", 314.

التوفيقية مرجعاً للعصر الإسلامى أو للقرن التاسع عشر، ولكنها – أيضاً – تناولت مصر القديمة[516].

واتخذ على مبارك من أعمال المقريزى والسيوطى نموذجاً، كما أن عنوان "الخطط" يعكس صدى خطط المقريزى، ويأتى عمل مبارك – أيضاً– بمثابة استجابة للعمل الفرنسى "وصف مصر" (ويسميها الخطط الفرنسية)، وهو محاولة لتصوير ماضى مصر وحاضرها وتقديمها لأبناء بلاده[517]. فذهب إلى أن القاهرة لم تعد كما كانت من قبل بسبب تغير العهود وتقلبات الأزمان، فلا يوجد بين أبناء مصر من يستطيع تفسير تلك التغيرات أو يقف على أسبابها، أو يوجه الناس لفهم الآثار العظيمة للبلاد، التى ننظر إليها ولا نعرف الظروف التى دعت إلى إيجادها، ونتجول بينها ونحن نجهل من صنعها، فكم من المساجد نسبت إلى غير من تولى بنائها، وكم من المعابد نسبت إلى من لم تقع عيونه عليها. ولكن من واجبنا معرفة ذلك، لأننا لا يجب أن نظل نجهل بلادنا ونهمل آثار أجدادنا، فهى درس لمن يتعظ، وتذكار لروح فعالة؛ لأن ما تركه أجدادنا من آثار ينظر إلينا ويدعونا أن نقتفى أثرهم، وننتج لزماننا مثل ما أنتجوه لزمانهم، وأن نكافح من أجل أن نكون نافعين، تماماً كما كافحوا هم[518].

ونشر مبارك عمله الأدبى "علم الدين" عام 1882، الذى يقول فيه البطل – الذى جعل منه إبناً لشيخ أزهرى– إنه يشعر بالحرج فى أوروبا عندما يعجز عن الإجابة على سؤال عن مصر القديمة[519]. وقد بدأت "الخطط" معالجة هذه المشكلة استناداً إلى مصادر إسلامية وأوروبية، فخصص مواقع طويلة من الكتاب لطيبة ومنف، وتناول الكثير من المواقع القديمة الأخرى بقدر أكبر من الإختصار، مثلما فعل مع عين شمس (هليوبوليس) تحت مادة "المطرية"[520].

---

[516] تعتمد هذه النقطة بصفة أساسية على دراسة:
Darrell Dykstra, "Pyramids, Prophets and Progress: Ancient Egypt in the Writtings of Ali Mubarak" Journal of the American Oriental Society 114 (1994) 54 – 65.

[517] J. E. Campo, "Mubark's Khitat", Unpublished Paper, MESA meeting, Beverly Hills, Calif., November 1989.

[518] مبارك، الخطط، 1 : 2 – 3.

[519] مبارك، علم الدين، 4 أجزاء (الإسكندرية 1882)، 2 : 634 – 636.

[520] على مبارك، الخطط، 13 : 69 – 90 (طيبة)؛ 16 : 2 – 47 (منف)؛ 15 : 47 – 69 (هليوبوليس).

وتعبر مادة "منف"، التى تحدث فيها عن الأهرام، عن هوية مبارك كعالم مسلم، فهو يورد مقتطفات طويلة من المقريزى والسيوطى عن الأهرام فى كتابات العصور الوسطى . وكان للأوروبيين – أيضاً– تخميناتهم عن الأهرام التى ظنوا أنها ربما كانت صوامع للغلال، أو مخابئ للكنوز، أو ملاجئ للحفاظ على المعرفة من خطر الفيضان. وذكر مبارك أن جومار وماريت وغيرهما من العلماء الأوروبيين رأوا أن الأهرام مقابر ملكية. ويميل مبارك قليلاً نحو هذه النظرية، ولكنه لا يتخلى تماماً عن الأفكار التى رددها المقريزى والسيوطى.

وبإعتباره مهندساً، أبدى مبارك إعجابه الشديد بنظام المقاييس الذى اتبعه بناة الأهرام ، وأعتقد أنه كان أساساً لكل مستويات القياس القديمة، وذكر الحسابات التى قام بها جون تيلور وبيازى سميث عن الهرم. ولكنه لم يحذ حذوهم – كمل فعل حككيان – بالقول بأنهم ألهموا الحكمة التى جعلتهم يحددون نسب الآثار القديمة. ولم يترك مبارك مجالاً للشك فى أن مصر القديمة كانت مصدر الحضارة الإنسانية فى يوم من الأيام، تماماً كما فعل الطهطاوى من قبل، وأن مصر كانت مصدر إشعاع للعالم فى العصر البطلمى، ثم عادت لتلعب نفس الدور فى العصر الإسلامى، وقد شارك الطهطاوى نظرته إلى العصر العثمانى كعصر تدهور وإضمحلال، ولكنه إمتدح محمد على وخلفائه لإعادتهم مصر إلى طريق التقدم. واعتقد الرجلان أن التفاخر بمصر القديمة يشكل مكوناً أساسياً للهوية الوطنية الحديثة. وعلى كل، كان على الجيل التالى لمبارك والطهطاوى أن يواجه بشكل مباشر المعوقات التى وضعتها الإمبريالية البريطانية والفرنسية فى طريق محاولة المصريين إكتشاف واسترجاع تاريخهم القديم.

المناوشات فى حقل المصريات فى الطريق إلى فاشودة 1886 – 1899

استقال ماسبيرو من مصلحة الآثار عام 1886، وعاد إلى باريس بسبب الحالة الصحية لزوجته، وخلفه فى منصبه ثلاثة من الفرنسيين لمدة 13 عاماً قبل أن يعود إلى منصبه القديم مرة ثانية. وخلفاؤه هم: أوجين جريبو (1886 – 1892)، وجاك دى مورجان (1892 – 1897)، وفيكتور لوريه (1897 – 1899) (انظر الجدول 12 بالملاحق). وخلال

تلك السنوات التى غاب فيها ماسبيرو تصاعد التنافس الإمبريالى الأنجلو – فرنسى حتى بلغ ذروته فى أزمة فاشودة بالسودان عام 1898.

كان جريبو (1846 – 1915) يتولى إدارة البعثة الأثرية الفرنسية بالقاهرة عام 1886 ، عندما استقال ماسبيرو – أستاذه السابق– وعاد إلى باريس. فصمم جريبو أن يدافع عن الهيمنة الفرنسية فى قطاع الآثار بالقاهرة مهما كان الثمن. وإصطدم بإرنست بادج – صنيعة صامويل بيرش– الذى جاء من المتحف البريطانى عام 1886 ليشترى الآثار، وليقوم بالتنقيب فى المقابر الصخرية بأسوان لحساب الكولونيل سير فرانسيس جرينفل ، سردار بالجيش المصرى، الذى كان من هواة الآثار – مثل خليفته كتشنر[521].

وكان السير إيفلن بيرنج – الذى أصبح لورد كرومر عام 1892 – يفضل التنازل لفرنسا فى مسألة الآثار مقابل الحصول منها على تنازلات فى أمور أخرى. فـاعترض بحزم على نوايا بادج وأساليبه. وإحتد بيرنج ذات مرة قائلاً: "أتمنى ألا تكون هناك آثار فى هذا البلد، فهى تثير المتاعب فيها أكثر مما يحدث فى غيرها"[522]. وقام باستدعاء بادج على الفور، وحذره من القيام "بأى مشروع للتنقيب بواسطة أى ممثل لأمناء المتحف البريطانى ... لأن الحفائر التى يقوم بها أى موظف بريطانى فى مصر تؤدى إلى تعقيد العلاقات السياسية، وأن الإحتلال البريطانى لمصر لا يجب أن يتخذ مبرراً لتسريب الآثار من البلاد سواء كان ذلك إلى بريطانيا أو إلى غيرها"[523].

وقام البعض بتأييد بيرنج، ولكن بادج "بين له أن كل دولة كبرى (والكثير من الدول الصغرى) فى أوروبا لها ممثل فى مصر يشترى الآثار لحساب متاحف بلاده، وأن لبريطانيا الحق أن يكون لها – على الأقل– ممثل يجمع الآثار لحسابها ... واضطررت أن أذكره أننى لست واحداً من موظفيه، وأننى أنوى الاستمرار فى تنفيذ تعليمات أمناء المتحف البريطانى، وهنا إنتهت المقابلة فوراً"[524].

---

[521] E. A. Wallis Budge, By Nile and Tigris: A Narrative of Journies in Egypt and Mesopotamia on Behalf of the British Museum between the Years 1886 and 1913, 2 vols., (London 1920) 1 : 74 – 117.
[522] A. H. Hayce, Reminiscences (London 1923), 285.
[523] Budge, Nile, 1 : 81.
[524] Budge, Nile, 1 : 117.

ولكن بادج لجأ إلى الإلتفاف حول قرارات جريبو وبيرنج. فقد تحفظ رجال مصلحة الآثار على مخزن بالأقصر – بأمر من جريبو– كان بادج قد كدس فيه مجموعة من الآثار التى جمعها. ولكن بادج ورجاله قاموا بنقب حائط المخزن من جهة مبنى تابع لفندق الأقصر المجاور له، وقاموا بتفريغ المخزن – الذى شددت الحراسة عليه من الخارج. وقام البريطانيون المتحمسون فى الجيش والبوليس وشركة النقل بمساعدة بادج على تهريب المجموعة خارج مصر[525]. وكان لدى بادج مبرراً جاهزاً: "فهذه الآثار كانت ستهرب من مصر بنفس الطريقة، ولكن الفرق الوحيد هو اتجاهها إلى أحد المتاحف الأخرى بدلاً من المتحف البريطانى، أو إلى بعض أصحاب المجموعات الخاصة بأوروبا وأمريكا"[526].

لقد كان "صندوق الكشوف المصرية" وبترى موضع ترحيب ماسبيرو، ولكن جريبو أعلن رفضه "ترك الآثار المصرية للجمعيات البريطانية، وأن يصبح مجرد خادم مطيع للسياح الإنجليز"[527]. واعترض على اقتراح بيرنج السماح للبعثات الخاصة ببيع جانب من الآثار التى يقومون بـاكتشافها لتمويل أعمالهم فى التنقيب. ورفض اقتراحاً بتعيين مفتش آثار إنجليزى بالصعيد وآخر فرنسى بالدلتا؛ واعتبره حيلة إنجليزية للسيطرة على المواقع الأثرية الغنية[528]. ورد على اقتراح تعيين مدير مساعد لمصلحة الآثار، تتحمل راتبه الجالية البريطانية، ما دام معظم السياح من الإنجليز، رد بأن زوار المتحف المصرى من المصريين يفوقون الزوار الغربيين عدداً، كما أن السياح الأمريكان قد تزيد أعدادهم على أعداد السياح الإنجليز، وأنه فى حالة تعيين مدير مساعد إنجليزى، فهل يطالب الأمريكان بتعيين آخر بدورهم ؟[529].

وفى العام 1888، أسست بلندن "جمعية المحافظة على آثار مصر القديمة" لتمارس الضغوط على بيرنج والفرنسيين[530]. وكان بيرنج قد نجح فى فرض "اللجنة الاستشارية

---

[525] Budge, Nile, 1 : 130 – 31, 140 – 44, 147 – 48, 241, 334, 2 : 152.
[526] Budge, Nile, 1 : 334.
[527] Grange, "Archeologie", 364.
[528] الأرشيف الفرنسى، وزارة الخارجية، نانت، رسالة من جريبو إلى الخارجية فى 13 يناير 1891.
[529] دار الوثائق القومية، محفوظات مجلس الوزراء، نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، 3 / 4 متاحف 1879 – 1890، رسالتان من سكوت مونكريف وجريبو، 22 فبراير 1890.
[530] James, Excavating, 29 – 30.

للآثار" (أو "لجنة المصريات") على جريبو فرضاً. وفى عام 1889، ضمت اللجنة الكولونيل فرانسيس جرينفل، وثلاثة آخرين من البريطانيين، وجريبو، وفرنسى آخر، ومثل مصر الأرمينيان يعقوب أرتين وتيجران، إضافة إلى مصطفى فهمى رئيس مجلس النظار، وأبدى بترى استياءه لأن الأرمينيين سينضمان إلى جريبو فى تذليل العقبات التى تعترضه. ولم يكن ذلك هو كل ما حدث بالفعل، ففى 1890 أكد تيجران شفهياً لباريس أن مصر لن تعين مديراً بريطانياً للآثار المصرية فى مقابل موافقة فرنسا على قرض كانت مصر بحاجة إليه[531].

وقامت "جمعية المحافظة على آثار مصر القديمة"، بحشد الجهود – فى لندن– للمطالبة بتوفير الحماية للمواقع الآثرية بصورة أفضل، وإقامة مبنى جديد يضم آثار متحف بولاق. ولا شك أن السياح كانوا يقومون بأعمال تخريبية. ففى 1890 نشرت مجلة "جرافيك " صورة سائحات يحفرن على أعمدة المعبد بأزميل (انظر الشكل 34)، وأنحت المجلة – المعروفة بإتجاهها الشوفينى – باللائمة على أولئك الذين يشوهون الآثار "من ذلك النوع من النساء الذين هم عامة أمريكيات"[532].



الشكل رقم (٣٤) جميلات يحفرن أسماءهن على آثار مصر
مجلة جرافيك يوليو ١٨٩٠

كان الفيضان قد أغرق متحف بولاق عام 1878، وحتى فى الظروف العادية "كان المبنى يغطيه الضباب الأبيض فى الصباح الباكر فى فصل الشتاء". ولم يكن من النادر أن ترى قطرات الماء تجرى إلى أسفل على زجاج فاترينات العرض (من الداخل) التى تضم مومياوات ملوك مصر"[533]. وكان

[531] دار الوثائق القومية، مجلس الوزراء، الأشغال، مصلحة الآثار، متاحف، مذكرة بتاريخ 9 نوفمبر 1889 "مشروع اللائحة الداخلية".

[532] The Graphic, 26 July, 1890, 13.

[533] E. A. Budge, Cook's Handbook for Egypt and the Sudan, 2nd. Ed. (London 1906), 427.

الحريق يثير القلق كالفيضان، فمع ضيق المكان كانت المومياوات القابلة للإشتعال مكدسة فى توابيت فوق بعضها البعض من الأرض إلى السقف.

وعارضت "جمعية المحافظة على آثار مصر القديمة" قرار الحكومة المصرية الصادر عام 1887 لنقل المتحف بصفة مؤقتة إلى قصر بالجيزة. ولكن بيرنج أعلن صراحة أنه ليست هناك أموال لبناء متحف جديد، فـانتقل المتحف إلى الجيزة. ولم يتورع دليل كوك السياحى عن ذكر بناء إسماعيل لقصر الجيزة بتكلفة باهظة "لسكنى حريمه"[534]. وكان القصر – على الأقل – بمنجاة من الفيضان، وأقل تعرضاً للحريق، وبه ساحات للعرض أوسع كثيراً من مبنى بولاق[535]. وفى 12 يناير 1890، افتتح الخديو توفيق متحف الجيزة (انظر الخريطة 2)[536].

وأخيراً وافق القنصل العام الفرنسى – سراً– على ضرورة ترك جريبو – غير الدبلوماسى– لمنصبه، ولكنه عندما إقترح نافيل إسم دانينوس، المساعد السابق لمارييت ، خلفاً لجريبو، رد القنصل الفرنسى بأن دانينوس كان جزائرياً وأصبح "شرقياً كما أنه لا يحمل إسماً فرنسياً، ولم أتيقن بعد من ولائه لفرنسا"[537]. ولما كانت البعثة الأثرية الفرنسية تخلو من بديل ملائم لجريبو، قدم الفرنسيون جاك دى مورجان، صنيعة إجزافييه شارم أحد كبار موظفى وزارة التعليم بفرنسا، ولكن جريبو العنيد رفض الاستقالة من منصبه ، مما تطلب من شارم ودى مورجان والقنصل الفرنسى تنسيق جهودهم للقيام بمناورة انتهت بإبعاد جريبو من منصبه، وعن مصر. وكان دى مورجان من خريجى مدرسة التعدين الفرنسية Ecole des mines، وارتحل كثيراً، وقام بالتنقيب فى الهند، والملايو، والقوقاز، وفارس، ورغم عدم تخصصه فى المصريات، سرعان ما "أثبت قدرته على حماية مصالح المتحف المصرى بالقاهرة ومصلحة الآثار عامة، دون أن يسرق أهل البلاد أو يضطهدهم، أو أن يجعل إسمه ملعوناً فى كل مكان من الإسكندرية إلى وادى حلفا". وتغاضى دى مورجان عن القيام بحملات مداهمة ليلية لتجار الآثار، كما كان يفعل

---

534 Budge, Cook's Handbook, 427 – 28.
535 James, Excavating, 29 – 30.
536 Dia Abu – Ghazi, "The Journey of the Egyptian Museum From Boulaq to Kasr e-Nil" ASAE 67 (1991), 16.
537 الأرشيف الفرنسى، وزارة الخارجية، نانت، رسالة من وزير التعليم للخارجية.

جريبو "واعتمد على خبرته السابقة فى التعامل مع الشرقيين التى اكتسبها فى فارس وغيرها من بلاد الشرق، فوصل إلى ترتيبات قائمة على الأخذ والعطاء للأهالى الذين يزودونه بالمعلومات التى تقوده إلى موقع يحقق نتائج جيدة"[538].

وسارع دى مورجان بفتح قاعات عديدة فى متحف الجيزة الجديد أمام الزوار، ولكنه كان أميل إلى الحفائر من العمل بالمتحف، بحكم كونه أصلاً مهندس مناجم، فبنى لنفسه بيتاً فى دهشور، وكشف مصطبة مروروكا فى سقارة، واكتشف مجوهرات ملكية من عصور الدولة الوسطى فى دهشور، ونقب فى معبد كوم أمبو، وكلف جورج ليجران بالتنقيب فى معبد الكرنك، ويعزى إليه وإلى بترى فضل فتح صفحة عصر ما قبل التاريخ فى مصر بالحفائر التى أجراها فى عدة مواقع بالصعيد. وعلى أية حال، جلب دى مورجان على نفسه عداء البعض، فـانتقد ماسبيرو طرقه العلمية فى الحفائر، واتهمه بتدمير ستين مكعباً صخرياً بكوم أمبو (كانت خالية من النقوش) لإقامة جسر يقى المعبد فيضان النيل، كما إصطدم دى مورجان بجورج فوكار – المفتش بمصلحة الآثار– متهماً إياه بالتجسس لحساب الإنجليز، وإقامة علاقات غير سوية مع النساء المسلمات، ووصلت أصداء هذا الصدام إلى أثينا وباريس. فقد كان بول فوكار – والد جورج– مديراً لمدرسة الآثار الفرنسية بأثينا، وعضواً بالمجمع العلمى الفرنسى، وله اتصالات واسعة. فأوحى البعض إلى ناظر الأشغال العمومية بأن حفائر ما قبل التاريخ التى يقوم بها دى مورجان بحوث جيولوجية لا صلة لها بالآثار، فأمره بالتوقف عن إنفاق أموال الوزارة على تلك الأعمال[539].

كان كرومر، و"صندوق الدين العام"، قد نجحا فى كسب المعركة ضد الإفلاس، وبدأ التخطيط لإقامة متحف جديد. ولكن بعض الفرنسيين اتهموا دى مورجان بالمبالغة فى صداقة الإنجليز[540]، ففاض به الكيل، وترك منصبه عام 1897، ليرأس بعثة آثار فى فارس، حيث قضى خمسة عشر عاماً فى العمل هناك.

---

538 On de Morgan, see Who Was Who 3 : 297.
539 David, Maspero, 188 – 90.
540 Sayce, Reminiscens, 306.

وخشى الفرنسيون أن يسعى الألمان لترقية إميل بروجش مساعد أمين المتحف المصرى ليحل محل دى مورجان، ولكن مخاوفهم لم يكن لها ما يبررها[541]، وتم تعيين فيكتور لوريه مديراً عاماً لمصلحة الآثار، وكان تلميذاً سابقاً لماسبيرو وعضواً سابقاً بالبعثة الفرنسية للآثار. ويذكر بترى أن لوريه "كان واقعاً تماماً تحت تأثير عارف أفندى الموظف الشاب الذى كان يرتدى معطفاً أنيقاً يزيحه للخلف ليكشف عن بطانته القرمزية البديعة بصورة تترك أثراً واضحاً على من حوله"[542]. كما كتب بترى أن "لوريه عديم الذوق، مكروه من الجميع: موظفى المتحف، والمصلحة، والأهالى ... فهو رجل محدود الرؤية، فعندما أبلغته أن موقعاً قد نهب، رد قائلاً: مستحيل، إن هناك قانوناً يمنع ذلك"[543]. وقد إنضم الفرنسيون إلى الأمريكان والبريطانيين وحتى الروس فى الضغط من أجل التخلص منه[544].

وأكد القنصل الفرنسى العام كوجوردو الحاجة الملحة "لاستعادة حقل المصريات هنا، الذى يعد حقاً طبيعياً لنا بحكم كونه علماً فرنسى الأصل، وما حقق ماريت من إنجازات، فقد صنعت تضحيات فرنسا المعرفة بمصر القديمة، من حملة الجنرال بونابرت حتى إقامة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة"[545].

وطلب كرومر من سايس أن يفاتح ماسبيرو[546]، الذى كانت عودته إلى منصبه السابق مديراً عاماً لمصلحة الآثار عام 1899، مبعث إرتياح عام للجميع.

البحث عن موضع قدم فى "المصريات"، أحمد كمال وجيله

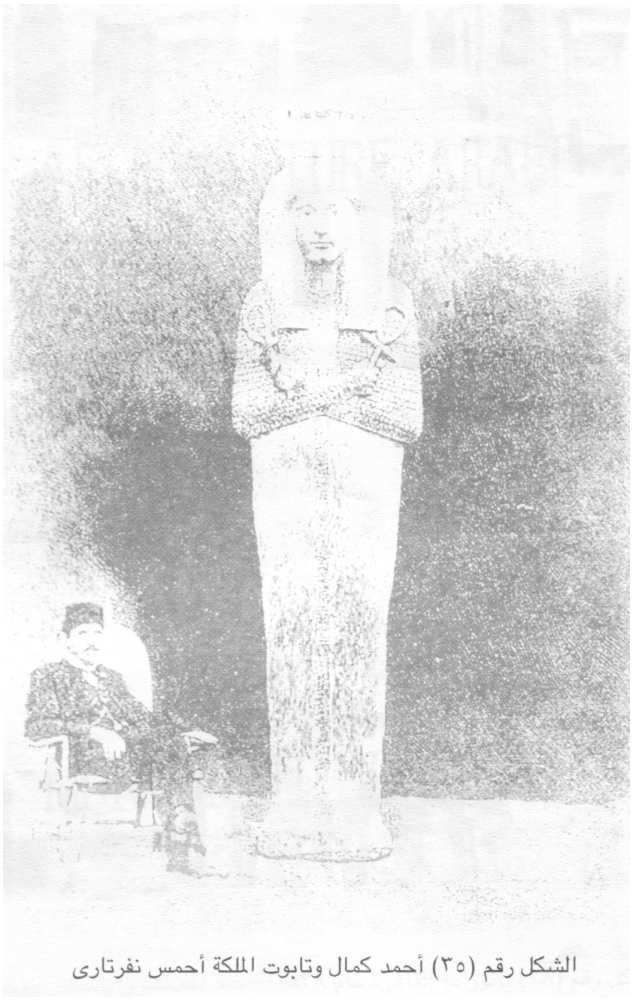
أدت الصرعات بين القوى الأوروبية وبعضها البعض فى ذورة عصر الهيمنة الغربية، إلى إتاحة الفرصة – أحياناً– للمصريين. فالوجود الألمانى بالقاهرة ممثلاً فى هنريش بروجش، مكن أحمد كمال وعدد قليل من المصريين من دراسة المصريات رغم اعتراض ماريت. وفى التسعينات نهج جريبو نهجاً آخر، فقام بترقية أحمد كمال من

---

[541] Warren R. Dawson, "Letters from Maspero to Amelia Edwards" Journal of Egyptian Archaeology 3 (1947), 76.
[542] Petrie, Seventy Years, 183; on Loret, see Who Was Who 3 : 260.
[543] Petrie, Seventy Years, 186.
[544] الأرشيف الفرنسى، وزارة الخارجية، نانت، رسالة من القنصل بالقاهرة إلى الخارجية بتاريخ 16 مارس 1898.
[545] Grange, "Archeologie", 356.
[546] Sayce, Reminiscences, 306; David, Maspero, 192 – 201.

وظيفة سكرتير بالمتحف ليصبح أميناً مساعداً، وذلك حتى لا يفسح الطريق لتعيين بريطانى فى هذه الوظيفة. فقد زعم جريبو أن عدد المصريين الذين يزورون المتحف يعادل عشرة أضعاف زواره من الأجانب، ونوه بعلم أحمد كمال، ومقدرته على مصاحبة زوار المتحف من المصريين والأوروبيين على السواء[547].

ولد أحمد كمال بالقاهرة عام 1851[548]. جاء والده من أصول كريتية ربما للعمل فى خدمة محمد على. وتعلم بمدرسة المبتديان ثم المدرسة التجهيزية، وأتاح له تفوقه فى اللغة الفرنسية فرصة الإلتحاق بمدرسة اللسان المصرى القديم. وأقبل أحمد كمال على دراسة المصريات بشغف كبير. ولكن رفض ماريت تعيين خريجى المدرسة بمصلحة الآثار دفع أحمد كمال للعمل مدرساً للغة الألمانية بالمدارس، والعمل مترجماً لنظارة المعارف، ثم بمصلحة البريد، ومصلحة الجمارك.



الشكل رقم (٣٥) أحمد كمال وتابوت الملكة أحمس نفرتارى

وكان قد بلغ الثلاثين من عمره عندما استطاع الإلتحاق بمصلحة الآثار بتزكية من رياض باشا رئيس النظار[549]، فشغل وظيفة سكرتير مترجم بمتحف بولاق . وبعد ذلك بشهور قليلة، عندما كان ماسبيرو يقضى إجازة الصيف فى باريس، قام أحمد كمال بمساعدة إميل بروجش فى تنظيف التوابيت الضخمة للمومياوات الملكية التى عثرت عليها عائلة عبد الرسول قبل ذلك بسنوات فى

[547] دار الوثائق القومية، مضابط مجلس الوزراء، نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، أ 3 / 4، متاحف 1879 – 1890، مذكرة جريبو 22 نوفمبر 1890، انظر ترجمة أحمد كمال، المقتطف 63، (نوفمبر 1923) 273 – 277.

[548] إختلفت المصادر فى تحديد تاريخ مولده، فذكرت عام 1849، وعام 1851، ولكننا نرجح عام 1851.

[549] تذكر إليزابيث دافيد فى ترجمتها لماريت باشا (باريس 1994)، 248 أن ماريت طلب أن يحل أحمد كمال محل مترجمه القديم، وذلك فى 25 فبراير 1880.

تبة فوق الدير البحرى، وقد قام بروجش – فيما بعد– بإلتقاط صورة لأحمد كمال بجوار تابوت الملكة نفرتارى (انظر الشكل 35).

وخصص ماسبيرو خمسمائة جنيه مصرى لأحمد كمال ليتولى تجهيز مدرسة صغيرة – تلحق بالمتحف– لتدريس المصريات، وقد تم افتتاحها فى فبراير 1882 كمدرسة داخلية بها خمسة تلاميذ. وتولى كمال إدارة المدرسة، وتدريس المصرية القديمة، والفرنسية، والتاريخ، براتب شهرى قدره ثمانية جنيهات. وقام معلمون مصريون بتدريس اللغة العربية، والحساب، والجغرافيا[550]. وفى أبريل 1882، إقترح ناظر الأشغال العمومية إضافة عشرة تلاميذ آخرين من بينهم أربعة أقباط "من أبناء أعيان الطائفة القبطية الذين يهتمون بالهيروغليفية لكونها لغة أجدادهم، ولازالوا يحتفظون ببعض تعبيراتها، مما يسهل لهم دراستها"[551]، وسوف يعالج الفصل السابع من هذا الكتاب مسألة الميل القبطى تجاه "المصريات".

وقد استمرت مدرسة الآثار قائمة بعد الثورة العرابية والإحتلال البريطانى، وتم تخريج الفصل اليتيم عام 1885. وكان السبيل الوحيد، أمام ماسبيرو لتشغيل الخريجين هو إغلاق المدرسة، وتخصيص ميزانيتها لتغطية مرتبات المفتشين الجدد. وقبل عودته إلى باريس عام 1886 دبر ماسبيرو لأحمد كمال 38 جنيهاً مصرياً ليشترى بها كتباً لاستخدامه الشخصى[552].

ويتضح من حجم الرواتب عند نهاية 1885 محدودية حجم مصلحة الآثار، فقد كان المرتب السنوى للمدير العام ماسبيرو ألف جنيه مصرى، بينما كان مرتب مساعدى أمين المتحف: إميل بروجش 420 جنيهاً سنوياً، وأوروبان يوريان 300 جنيهاً سنوياً، وحصل خمسة من المفتشين المصريين بالدرجة الثانية على 90 جنيهاً سنوياً لكل منهم، وخمسة مفتشين درجة ثالثة (هم خريجو مدرسة المتحف) حصل كل منهم على 60 جنيهاً سنوياً .

---

[550] دار الوثائق القومية، مضابط مجلس الوزراء، وزارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، أ / 1 / 4 متاحف 1879 – 1914، مدرسة الآثار 1881 – 1886، مذكرة بتاريخ 16 أكتوبر 1881.
[551] دار الوثائق، المصدر السابق، وثيقة 99 بتاريخ 17 أبريل 1882.
[552] دار الوثائق، المصدر السابق، رقم 406، 21 يوليو 1886.

وكان راتب الناظر محمد خورشيد 240 جنيهاً، والسكرتير أحمد كمال 240 جنيهاً، وأمينا المخزن (مخزنجية) حصل أولهما على 72 جنيهاً، والآخر 45 جنيهاً سنوياً[553].

وعندما استقال بوريان عام 1885 ليتولى إدارة البعثة الفرنسية للآثار، طلب جريبو أن تتوفر فيمن يخلفه مؤهلات أخرجت المصريين من المنافسة هى: معرفة الهيروغليفية، والهيراطيقية، والديموقراطية، والقبطية، واليونانية، واللاتينية (وهى مؤهلات لا تتوفر حتى لبترى) ولا تتوفر فى خريجى مدرسة بروجش، ومدرسة أحمد كمال الذين تعلموا كل هذه اللغات ما عدا اليونانية واللاتينية، وليس من الغريب أن يحصل على الوظيفة جورج دارسى، تلميذ جريبو[554].

وعلى كل، غير جريبو رأيه، وقام بترقية أحمد كمال – عام 1891– إلى وظيفة مساعد أمين ليسد الطريق على الإنجليز[555]. وبعد ذلك بوقت قصير، عندما كان أحمد كمال فى الأربعين من عمره، سمع أن إميل بروجش سيستقيل من وظيفته التى تعد أرقى من الوظيفة التى حصل عليها أحمد كمال، وأن الأجانب تتجه أنظارهم إلى الحصول على هذه الوظيفة، فقدم أحمد كمال إلتماساً إلى مصطفى فهمى – رئيس مجلس النظار– مطالباً بالحصول على الوظيفة لأنه "المصرى الوحيد المتخصص فى المصريات، وتلميذ بروجش باشا. لقد انتظرت طوال 22 عاماً فى خدمة الحكومة حتى أصبح أميناً مساعداً . بالنظر إلى خدمتى، واستحقاقى، والقانون المصرى، أتشرف بالتقدم إليكم بصفة شخصية طالباً مساعدتى فى الحصول على الوظيفة رغم كل المطالب الأجنبية"[556].

قدم أحمد كمال هذا الإلتماس بالفرنسية، وأضاف إليه مذكرة قصيرة بالعربية ذكر فيها أن دارسى الأمين العام المساعد الفرنسى له نفس المؤهلات العلمية، ولكنه لا يعرف العربية، ومدة خدمته لا تتجاوز ست سنوات بينما تبلغ سنوات خدمة كمال 22 عاماً. وختم المذكرة بمناشدة وطنية رئيس النظار مساندة المصرى بدلاً من الفرنسى أو الإنجليزى. ولم يترتب

---

[553] دار الوثائق، المصدر نفسه، رقم 321، 28 ديسمبر 1885، مفتشو الدرجة الثانية هم: على حبيب، وأحمد كخيا، ومحمد مرزوق، وتادرس، وموتفيان، وأحمد الساقى. ومفتشو الدرجة الثالثة هم: محمد شعبان، وأحمد نجيب، ومحمود حمدى، وعبد الرحمن فهمى، وحسن حسنى.

[554] دار الوثائق، المصدر نفسه، رقم 454، 29 ديسمبر 1885.

[555] دار الوثائق، المصدر نفسه، رقم 16، 21 فبراير 1891.

[556] دار الوثائق، المصدر نفسه، 4 / 3 ب، 28 أكتوبر 1892.

على ذلك الإلتماس شيئاً، لأن بروجش ظل فى وظيفته حتى عام 1914. وفى ظل إدارة دى مورجان خليفة جريبو، كان أحمد كمال محظوظاً لإحتفاظه بوظيفته، فقد قيل أن جريبو كان يسعى للتخلص منه، ولم يتحدث إليه مدة عام كامل[557]. وبعد عودة ماسبيرو وضع ثقته فى أحمد كمال، وأسند إليه أعمال التنقيب والنشر، ولكنه لم يقم بترقيته ، وتخطاه دارسى فى الترقية إلى منصب سكرتير عام المصلحة عام 1913. كان أحمد كمال يكبر دارسى وجيمس كيبل الذى أصبح أميناً عام 1914، بإثنى عشر عاماً[558].

وهناك خريج آخر من مدرسة بروجش، لمع إسمه، هو أحمد نجيب (1847 – 1910). وكانت ترجمته لكتاب بروجش فى نحو اللغة الهيروغليفية، أول كتاب دراسى فى هذا المجال باللغة العربية. وأمام موقف ماريت من خريجى المدرسة، اضطر أن يعمل مدرساً للتاريخ بالمدارس الحكومية، وكان لا يزال بتلك الوظيفة عام 1882 عندما كتب مقدمة لكتاب أحمد كمال "تاريخ مصر القديمة". وفى عام 1892 فتح التنافس الأنجلو – فرنسى الطريق أمامه ليشغل إحدى وظيفتى المفتش العام للآثار (وشغل الوظيفة الثانية فوكار)، وحصل نجيب على البكوية وتقاعد عام 1905 بسبب حالته الصحية، وأصدر لفترة قصيرة مجلة "المنظوم"[559].

وتتضمن قائمة بأسماء مفتشى الآثار عام 1899 إثنين من خريجى مدرسة الآثار 1881 – 1885 (تلاميذ أحمد كمال) هما: محمد شعبان، الذى خلف أحمد كمال فى وظيفة الأمين المساعد، بعد تقاعده والآخر حسن حسنى. وكان على حبيب – مفتش آثار الدلتا– أقدم وأفضل المفتشين القدامى الذين عملوا مع ماريت وكان معظمهم من العسكريين السابقين، وقد تقاعد على حبيب عام 1907. أما بقية المفتشين فكانوا من صف الضباط بالجيش الذى تكون بعد 1882، أو صغار الموظفين، بل إن أحدهم كان خادماً[560].

---

[557] توفيق حبيب "تاريخ الكشف عن الآثار المصرية وأعمال المرحوم أحمد كمال باشا"، الهلال، 3 (نوفمبر 1923)، 135 – 141.

[558] On Daressy and Quibell, see Who Was Who 3 : 116, 435.

[559] عن أحمد نجيب انظر: الموسوعة المصرية، تاريخ مصر القديمة وآثارها، وزارة الثقافة والإرشاد القومى (القاهرة د . ت)، 82، وكذلك Who Was Who 3, 306.

[560] Gaston Maspero, Reports Sur la marche du Service des antiquites de 1899 a 1910 (Cairo, 1912) xxiii – xxvi.

علم المصريات والوجود المصرى فى "المجمع العلمى المصرى"

أخذ ماسبيرو وخلفاؤه الثلاثة بالتقليد الذى وضعه مارييت باستخدام "المجمع العلمى المصرى" ومجلته منبراً للمصريات. وفيما بين 1885 – 1899، خصصت مجلة المجمع جانباً كبيراً من صفحاتها لتقديم كشاف عن مجموعات المتحف المصرى، وإشتملت سلسلة المذكرات المنفصلة التى أصدرها المجمع على موضوعات فرعونية. واختار المجمع ماسبيرو رئيساً فخرياً له عند عودته إلى القاهرة عام 1899، ولكن إصدار "حوليات مصلحة الآثار" قلل من اعتماد المصريات على مجلة المجمع[561].

وفى العام 1890م، تضاعفت نسبة المصريين من أعضاء المجمع لتصبح 31%، بعد أن كانت 14% عند تأسيسه[562]. وكان المصريون أكثر بروزاً فى قيادة المجمع، وخاصة إذا اعتبرنا يعقوب أرتين (1842 – 1914م) مصرياً، فقد كان يلعب دور الوساطة بين المصريين والأوروبيين، تماماً كما فعل خاله يوسف حككيان من قبل. وكان أرتين كاثوليكياً فرنسى الثقافة، يتمتع بالحماية الفرنسية فى مصر، وكان ولده – أرتين سكياس– ضمن البعثة التعليمية فى باريس التى كان الطهطاوى عضواً بها، وخدم محمد على فى "ديوان التجارة والأمور الإفرنجية". وقضى يعقوب أرتين حياته كلها موظفاً بالحكومة المصرية، وتولى رئاسة المجمع لعشرين عاماً فى الفترة الواقعة بين (1889 – 1914 م)، وألقى تسعة أوراق بحثية أمام المجمع، وأتاح للمستشرقين الزائرين فرصة استخدام مكتبته الخاصة الضخمة[563].

وكان يعقوب أرتين، وحسين فخرى رفيقين متميزين، فقد عمل حسين فخرى إلى جانب يعقوب أرتين نائباً لرئيس المجمع لمدة إثنى عشر عاماً، وفى (1905 – 1906، و1909م) ترك أرتين الرئاسة لفخرى. وفى مجال العمل، خدم حسين فخرى طويلاً فى عهد كرومر، ناظراً للأشغال العمومية والمعارف، وبذلك كان رئيساً لوكيل نظارة المعارف يعقوب أرتين الذى كان يده اليمنى فيها. وكان حسين فخرى، ورئيس مجلس النظار نوبار

---

[561] Nicolas Grimal, "L'institut d'Egypte et l'institut Francaise d'aecheologie Orientale", Bulletin de L'institut d'Egypte 70 (1989 – 90) 29 – 42.

[562] Bulletin de L'institut d'Egypte, ser. 3, Fasc. 1 (1890) 219 – 24.

[563] حول سيرة حياة يعقوب أرتين، راجع: Stevenson بأرشيف متحف جامعة بنسلفانيا، محفظة 1، ملف 2 ك، وحول حسين فخرى، راجع:
Goldschmidt Jr., Biographical Dictionary of Modern Egypt (Boulder, Colo., 2000), 52.

باشا، وناظر الخارجية تيجران يتخذون من عضوية المجمع العلمى المصرى نوعاً من الاستحقاق الأرستقراطى والوجاهة الاجتماعية، ولا يجدون أنفسهم بحاجة إلى إبراز قدراتهم العلمية بتقديم أوراق بحثية، كما كان يفعل أرتين، الذى إختلف عنهم تماماً. وكان تيجران يهوى جمع الآثار، شأنه فى ذلك شأن غيره من الأعيان[564].

وجاء إختيار على بهجت عضواً بالمجمع عام 1900م، وأحمد كمال عام 1904م إعترافاً ببروز سمعتهما العلمية. وفى عام 1903م، إختار المجمع كيرلس مكاريوس ليصبح أول عضو قبطى بالمجمع، وقد قدم دراسات فى التقويم القبطى[565]، وبالإضافة إلى عضوية المجمع، إنضم أحمد كمال إلى عضوية "الجمعية الجغرافية الخديوية". ونشر بحوثاً بمجلتها.

وكان الأوروبيون لازالوا يوجهون دفة المجمع، فطوال الفترة (1883 – 1914م)، كان الأمين العام، ومساعد الأمين العام، وأمين الصندوق، وأمين المكتبة منهم. وكان متوسط ما يقدمه المصريون من أوراق بحثية، ورقة واحدة فقط فى العام. وهبطت نسبة المصريين فى عضوية المجمع عام 1909م هبوطاً طفيفاً لتصل إلى 27% بعد أن كانت 31% عام 1891م.

تمثيل مصر القديمة فى المعارض الدولية ومؤتمر المستشرقين الدولى

لعب كل من ماريت، وديليسبس، وبروجش الدور الأكبر فى تشكيل صورة مصر فى المعارض الدولية فى الستينات والسبعينات، وإن كانت مقاليد الأمور بيد الخديو إسماعيل. ولكن تحت الإحتلال البريطانى، لم تعد مصر تملك تحديد ملامح صورتها فى المعارض الدولية حتى بشكل غير مباشر. ولما كانت الحكومة المصرية الخاضعة للإحتلال لا ترغب فى توفير النفقات اللازمة للاشتراك فى المعارض الدولية، لم يستطع توفيق وماسبيرو وخلفائهما منافسة الخديو إسماعيل وماريت فى قدراتهما. ففى معرض باريس الدولى عام 1889م وقع تمثيل مصر خطأ على عاتق منظم فرنسى، عكس "شارع القاهرة" الذى عرض النظرة الغربية تجاه الشرق، التى سنناقشها فى الفصل السادس من

564 "Daninos", Who Was Who 3 : 115.
565 Bulletin de L'institut d'Egypte, ser. 5, Fasc. 3 (1909), 176 – 77.

هذا الكتاب. وعرض توماس كوك نموذجاً دقيقاً لمعبد إدفو[566]. وقد تسبب هذا المعرض الذى أقيم إحتفالاً بمئوية الثورة الفرنسية فى إثارة قلق الأنظمة الملكية؛ ولذلك لم تشترك فيه ألمانيا، والدولة العثمانية، وإكتفت بريطانيا، وإمبراطورية النمسا، والمجر، وروسيا، وإيطاليا، والصين بتمثيل غير رسمى، وترك المعرض لباريس "برج إيفل".

وفى معرض كولومبيا بشيكاغو – الذى أقيم عام 1893م متأخراً عن موعده بعام – أقيمت بوابة معبد فرعونى ومسلة أمام "شارع القاهرة" ذى الطراز العربى الإسلامى، وتولى تنظيم الجناح المصرى منظمان أحدهما بلجيكى والآخر يونانى[567]. وفى عام 1900م ، إعتذرت الحكومة المصرية – مرة أخرى– عن عدم المشاركة فى معرض باريس الدولى، وتولى هذه المهمة لبنانى متمصر هو فيليب بولاد، استخدم معمارى المتحف المصرى الذى كان يشيد بالقاهرة – مارسيل دورنو– الذى قام بتصميم جناح مصرى، مزج فيه بين ثلاثة أقسام فى بناء واحد: قسم على الطراز الفرعونى (يجمع بين طيبة ومنف)، وقسمان على الطراز العربى الإسلامى[568]. وقد تجاوب المصريون الذين زاروا المعارض الدولية التى أقيمت فى أواخر القرن مع تمثيل مصر الحديثة، وليس القديمة، كما سنرى فى الفصل السادس.

وفى معرض لويزنا للمشتريات الذى أقيم بسانت لويس عام 1904م، قامت مصر وتركيا، وفارس، ومراكش بإختيار مفوض عام (أجنبى) ومندوب (مصرى). وهيمنت الأنثروبولوجيا على ذلك المعرض الذى ضم نماذج حية من أهل الفليبين التى استحوذت عليها الولايات المتحدة حديثاً، وعينة "عجيبة من اليابانيين قصار القامة البدائيين من الأينو" الذين وصفوا "بالأدب الجم والنظافة"، وكان عنوان مصر البريدى بالمعرض "طرف قسم الأنثروبولوجيا". واشتملت المعروضات فى قسم "مصر وإنسان ما قبل التاريخ" على أدوات من العصر الحجرى جلبت من مصر، كما كان هناك قسم "أرض اللوتس" التى وضعت فيها الحضارة بذرتها الأولى، عرضت مقبرة كاملة، ومومياوات

---

566 Thomas Cook Archives, Excur sionist, 25 May (1889).

567 هذه المعلومات مستقاة من مراسلات القنصل الفرنسى بالقاهرة المودعة بالأرشيف الفرنسى، وزارة الخارجية، نانت.

568 Richard D. Mandrell, The Great World's Fair (Torinto, 1967).

وتوابيت لشخصيات ملكية، وقط محنط، إضافة إلى الجعارين وغيرها من الرموز المقدسة لحضارة غابرة"[569].

وعلى الصعيد العلمى، استمر "مؤتمر المستشرقين الدولى" يطوف عواصم الدول الأوروبية الكبرى، فعقدت اجتماعاته فى: فيينا، لندن، باريس، روما، مع اجتماعات فى مراكز أوروبية أقل شأناً هى: ليبزج، جنوا، هامبورج، كوبنهاجن، أثينا. وعقد المؤتمر السادس اجتماعه فى المدينة الهولندية ليدن بعد وقوع الإحتلال البريطانى لمصر بعام واحد. وقام المؤتمر ذات مرة بالتوجه إلى موضوع دراسته، فعقد اجتماعاً فى الجزائر[570].

واستمرت "المصريات" غالبة على أقسام الدراسات الأفريقية بالمؤتمر. وقد أورد جاك دى مورجان ذكر أحمد كمال بصورة إيجابية فى تقريره للمؤتمر العاشر الذى عقد بجنيف عام 1894م، ولكن لم يقم أى مصرى بإلقاء بحث أمام المؤتمر قبل سامى جبره الذى شارك فى المؤتمر الثامن عشر المنعقد فى ليدن عام 1931م. أما فى مجال الدراسات العربية الإسلامية، فقد أسهم المصريون ببحوثهم منذ الثمانينات كما سنرى فى الفصل السادس.

مارسيل دورنو وتصميم المتحف المصرى بالقاهرة

استقر رأى اللجنة التى اختارت – عام 1895م– تصميم المتحف المصرى الجديد بالقاهرة على "الفنون الجميلة" الكلاسيكية الجديدة. وكان إسناد مهمة التصميم إلى معمارى مصرى أو التفكير فى طراز مصرى محلى، أمراً مستبعداً. كان كرومر فى ذروة سلطته، والمتاحف مؤسسات مستوردة، والمعماريون يسيطرون على ميدان التشييد والزخرفة. والعمارة الإسلامية التقليدية تراجعت، والطراز الإسلامى الحديث كان لا يزال بى بداياته. وجاءت لجنة التحكيم من الفرنسيين والبريطانيين والإيطاليين. وجاءت غالبية المشاركين من هذه البلاد الثلاثة: 26 متسابقاً إيطالياً، و16 فرنسياً، و15 من جنسيات

[569] John Wesley Hansen. Official History of the Fair, Saint Louis (St. Louis, 1904), 51.
[570] أسقطنا هنا الاجتماعات التى غلبت عليها أعمال الهواة وليس العلماء (لندن 1891 – لشبونة 1892م).

أخرى ممن تقدموا لمسابقة تصميم المتحف، ولكن المشروعات الخمسة فى التصفية النهائية كانت جميعها فرنسية[571].

وكان باستطاعة لجنة التحكيم النظر إلى حصاد قرن من الطرز المتنافسة فى الغرب؛ بما فيها الكلاسيكية، والقوطية، وبصيص من الفرعونية والإسلامية[572]. واستمد مصممو المتاحف التى أقيمت فى أوروبا، إلهامهم من روما واليونان. وارتبطت المتاحف بالكلاسيكية الجديدة فى أذهان أهل الغرب بتأثير المتاحف الأوروبية التى أنشئت على هذا الطراز: متحف الفن القديم الذى صممه كارل فردريش شنكل، ومتحف الفن الحديث الذى صممه فردريش ستولر، فى برلين، ومتحف الفنون الزخرفية الذى صممه ليوفون كلنتز، فى ميونخ، والمتحف البريطانى الذى صممه السير روبرت سميرك، بلندن. ترى، كيف يستطيع المرء أن يشاهد رخام إيلجن فى مكان أفضل من واجهة المتحف البريطانى ذات الطراز الأيوبى التى تردد منحوتاتها المثلثة أصداء "تقدم الحضارة"[573].

على كل، فقد واجهت سيادة الكلاسيكية الجديدة تحدياً من جانب النزعة الرومانية، بما فى ذلك تناسخ "الفنون الجميلة" بالطراز القوطى الفيكتورى "الوطنى"، والعودة المثالية للطراز القوطى على يد أوجين إيمانويل فيوليه لودوك، وازدهرت صحوة الطراز القوطى فى بناء الكنائس، والكليات فى الولايات المتحدة بصفة خاصة، وأعلنت عن نفسها فى متحف العلم الجديد بأكسفورد (1855 – 1859م)، وفى متحف الفنون الجميلة ببوسطن (1876م).

وكان باستطاعة من يشتغلون بالطراز الرومانى الذين وجدوا فى الطراز القوطى طرازاً طبعاً، أن يحاولوا إحياء الطرازين الفرعونى والإسلامى، ومن سخرية القدر أن الطرازين الأخيرين جاءا إلى مصر كواردات أوروبية، ولم ينبتا من التربة المحلية. ويبدو أن "القاعة المصرية" التى أقامها وليم بالوك على الطراز الفرعونى الجديد ببيكا ديللى، قد تم

---

571 المعلومات حول المشاركين فى المسابقة استقاها المؤلف من خطاب شخصى تلقاه من إريك جادى فى 16 يناير عام 2000م، وعن نتيجة المسابقة من مراسلات القنصل العام الفرنسى مع وزارة الخارجية.

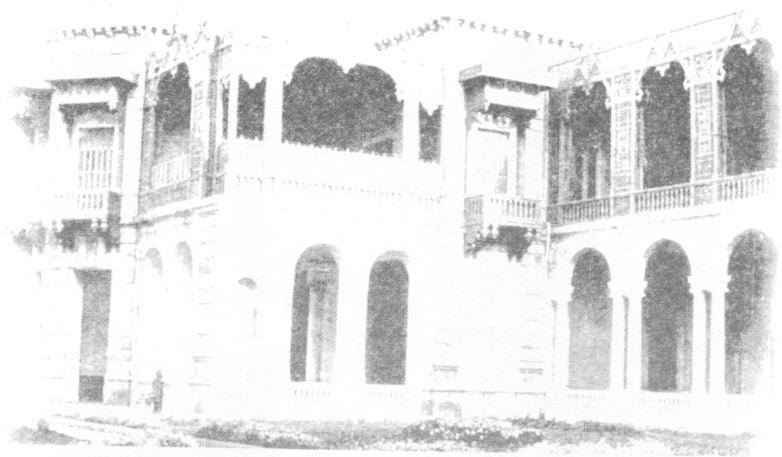
572 Zeynep Celik, The Remaking of Istanbul: Portorait of an Ottoman City in 19th Century (Seattle, 1986), 126.

573 James J. Sheehan, Museums in the German Art World from the End of the Old Regime to the Rise of Modernism (Oxford, 2000).

تصميمها خصيصاً لأول عرض للآثار المصرية بلندن، على يد بلزونى عام 1821[574] . وإحتج شامبليون على خطة زخرفة غرف القسم المصرى باللوفر بزخارف يونانية رومانية بدلاً من الفرعونية[575]، ولكن قبضة الكلاسيكية كانت قوية (شأنها شأن الاستشراق) حتى أن أحد السقوف تمت زخرفتها بعمل فرانسوا إدوارد بيكو "آلهة الحكمة يكشفون مصر القديمة لأثينا"[576].

وتخفى الزخارف الخارجية لمتحف برلين الجديد (1850م) غزلاً فرعونياً مذهلاً[577]، كما أن الزخارف الفرعونية والإسلامية إختلطت دون تمييز فى أجنحة المعرض الدولية، فأشرف ماريت على إقامة نماذج للمعابد المصرية فى معارض باريس الدولية فى 1867 و1878. وأدخل الطراز الفرعونى الجديد على زخرفة واجهة متحف بولاق. ورغم أن المتحف المصرى الذى صممه دورنو على الطراز الكلاسيكى الجديد، كان يشيد بالقاهرة، فقد أظهر المعمارى دورنو – نفسه– مهارته فى الجناح الفرعونى – الإسلامى الذى أقيم عام 1900م بمعرض باريس الدولى.

كان المتحف المصرى فى مقره المؤقت بقصر إسماعيل بالجيزة فى التسعينات، يحمل زخارف "نصف فرنسية، نصف شرقية" الطراز (انظر الشكل 36). ويذكر بادج أنه "ليس من الممكن أن تحصل (الآثار المصرية) على مكان منقطع الصلة بها مثل هذا المكان، فكانت المومياوات الضخمة لرمسيس الثانى وغيره من الملوك العظام، تعرض فى وسط يدعو للأسى، حيث



الشكل رقم (٣٦) قصر الخديو إسماعيل بالجيزة – مقر المتحف المصرى ١٨٩٠ – ١٩٠٢

[574] Jean – Marcel Humbert, Michel Pantazi and Christiane Ziegler. Gler Egyptomania: Egypt in Western Art 1739 – 1930 (Ottawa, 1994).
[575] Humbert, Egyptomania, 334.
[576] Humbert, Egyptomania, 334 – 36.
[577] Humbert, Egyptomania, 342.

طليت حوائط الغرف باللون الأزرق، ذات كرانيش وردية اللون مذهبة، وزينت السقوف بأطر تحمل رسوماً لكيوبيد وفينوس ... إلخ"[578].

وقد دعمت النزعة الكلاسيكية الجديدة فى "الفنون الجميلة"، وجودها فى الغرب ومستعمراته عند نهاية القرن. وصاحب ذلك الصعود الإمبريالى الذى ارتبط بكيرزون وملز، وفردريك لوجارد، ورودس، وكرومر، وكتشنر. فقد أقيم النصب التذكارى المتباهى بالقوة "فيكتوريا ميموريال" بمدينة كلكتا كأول نصب كلاسيكى فى الهند على مدى نصف قرن من الزمان، إحياءً لذكرى أبطال بريطانيا فى الهند فى زى كلاسيكى[579]. وأقيمت واجهة كلاسيكية (عام 1902م) لمتحف متروبوليتان للفنون بنيويورك، وفى العام (1907 – 1909م)، استبدل متحف بوسطن للفنون بواجهته القوطية القديمة، أخرى على الطراز الكلاسيكى الجديد. وفى إستانبول، وقف متحف الآثار الذى صممه أنطوان فالورى على الطراز الكلاسيكى الجديد (1891 – 1907م)، غريباً إلى جانب كشك شنلى المزين بالزخارف، فى حرم قصر طوب قابى[580].

وحال وضع مصر الخاص فى ظل "الحماية المقنعة"، دون إقامة نصب إمبريالية مثل تلك التى أقيمت بكلكتا أو بنيودلهى. لقد احتلت دار المعتمد البريطانى موقعاً بارزاً على ضفة النيل، ولكن بناءها كان متواضعاً نسبياً. وجاء المتحف المصرى (الذى يطل الآن على ميدان التحرير) وثيق الصلة بالمبانى العامة ذات الهيئة الإمبريالية، ولكن تلك الهيئة لم تكن بريطانية خالصة.

ولد مارسيل لازار دورنو (1858 – 1911م) فى نفس العام الذى أسس فيه سعيد وماريت "مصلحة الأنتيكات (الآثار)"، تخرج فى مدرسة الفنون الجميلة بباريس، وقضى 12 عاماً فى شيلى يعمل معمارياً فى خدمة الحكومة هناك. وفى المرحلة المصرية من حياته قام

---

578 E. A. Wallis Budge, The Nile: Notes For Travellers in Egypt, 4th. Ed., (London 1895), 154.

فيما يتصل بقصر الجيزة، راجع كتاب نهال تمراز:

Nihal S, Tamraz, Nineteenth. Century Cairene Houses and Palaces (Cairo, 1998), 30.

579 Metcalf, Imperial Vision, 176 – 210.

580 Celik, Remaking of Istanbul, 139 – 40.

بتصميم مبنى المتحف المصرى، ومبنى المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، والمستشفى الفرنسى، كما صمم جناح مصر فى معرض باريس الدولى عام 1900م[581].

وفى مطلع القرن العشرين، كانت ثكنات قصر النيل – التى يحتلها الإنجليز– تنافس المتحف المصرى فى اجتذاب الأنظار، ورغم أنها بنيت فى عهد سعيد، فقد كانت ترمز إلى العصر الاستعمارى. وجاء المتحف ليضفى على الحى صفة أثرية: هناك شارع ماريت باشا الذى يمر بجوار المتحف حتى ميدان ماريت باشا، وشارع الأنتكخانة المصرية يتجه شرقاً خلف مبنى المتحف. وفيما وراء المتحف عبر شارع الأنتكخانة، كان المعهد الفرنسى للآثار الشرقية – الذى صمم دورنو مبناه يقدم خدماته للمشتغلين بالآثار (انظر الخريطة 2).

وجاء القوس المركزى للمتحف، والقبة، والأعمدة الأيونية، والأعمدة البارزة من الحوائط، والأجنحة المتوازنة، والكرانيش، والقاعات التى تلتف حول فناء تضيئه السماء، جاء ذلك كله ليتفق تماماً مع تقاليد مدرسة "الفنون الجميلة" (انظر الأشكال 2 و5 و6). وقدمت التصميمات التى اتخذت شكل الجرة مع تواريخ الإنشاء لمسة من طراز الباروك فوق المدخل. وأنقذت الزخرفة الداخلية ذات الطابع الفرعونى محتويات المتحف من معاناة الغربة. وجاء القوس الرومانى والأعمدة الأيونية للمدخل على شكل بوابة، بينما تقف حاتحور أو إيزيس حامية حجر العقد، وتقف الآلهة التى ترمز للصعيد فى جانب، وتلك التى ترمز للدلتا فى الجانب الآخر من المدخل.

وقد قام الخديو عباس الثانى بوضع حجر الأساس للمتحف فى أول أبريل 1897م[582] ، ولكن حالت بعض الصعوبات دون إفتتاح المتحف، حتى تم ذلك فى 1902م. وبلغت تكاليف إنشائه 251 ألف جنيه مصرى، وعزى القنصل الفرنسى العام دورنو التأخير فى الإفتتاح إلى سلوك الإنجليز. زعم دى مورجان أن الإنجليز انتهزوا فرصة غيابه عن القاهرة فى بعثة أثرية بسيناء لتبرير تدخلهم. واتهم دورنو وزارة الأشغال العمومية بمساندة شركة المقاولات الإيطالية التى أسند إليها البناء. وعندما كتب إسم دورنو على

---

581 J. S. de Sacy, "Dourgnon" Dictionnaire de biographie Francaise (Paris, 1933), II (1967), 691.

582 أحمد شفيق، مذكراتى فى نصف قرن (القاهرة 1936م) المجلد 2، الجزء الأول، 243.

باب ثانوى، وليس على الواجهة، رفع قضية على الحكومة المصرية مطالباً بثلاثمائة جنيه مصرى زيادة على أتعابه البالغ قدرها ألف جنيه[583]. وهكذا عكس المتحف مدى اهتمام أوروبا بماضى مصر الفرعونى إلى حد إسقاط المصريين المحدثين من حسابهم ، بقدر ما عكس الصراع الأنجلو – فرنسى طويل الأمد فى المجالين السياسى والآثارى، على ضفاف النيل.

ماسبيرو والوفاق الودى

تنفس علماء المصريات والدبلوماسيون – البريطانيون والفرنسيون على السواء– الصعداء عندما عاد ماسبيرو إلى القاهرة عام 1899م. وعدل ماسبيرو عن خطة سلفه فى النضال من أجل إبعاد البريطانيين عن مصلحة الآثار، فمنحهم تمثيلاً سخياً، وأخيراً كسب اعترافهم الرسمى بأن للفرنسيين اليد العليا فى مجال الآثار فى مصر. وقد سجل نقطة لصالحه عام 1899م، عندما لم يبد قلقه لوجود ثلاثة من البريطانيين فى "لجنة المصريات" إلى جانبه، وفرنسى آخر، وألمانى واحد، وثلاثة من المصريين[584]. ولكن إلى أى مدى يمكن اعتبار الأرمينيين المتمصرين أرتين وتيجران ورئيس مجلس النظار – الأداة فى يد الإحتلال– ممثلين لمصر ؟ يظل سؤالاً يبحث عن إجابة.

وأجرى ماسبيرو فحصاً لأوضاع مصلحة الآثار المضطربة، فوجد أن هناك مفتشين عامين بمقر المصلحة بالقاهرة هما: جورج ليجران، وأحمد نجيب، وثمانية من المفتشين المصريين يتصفون بالإهمال لأنهم نادراً ما يغادرون القاهرة للتفتيش على المناطق التابعة لهم. فقام ماسبيرو بتعيين مفتشين عامين بريطانيين هما: كيبل للدلتا وهوارد كارتر للصعيد. وفى عام 1911م، عين ماسبيرو خمسة مفتشين: ثلاثة بريطانيين، وفرنسى واحد، وإيطالى واحد، فتولى بريشيا – مدير المتحف اليونانى الرومانى– مسئولية منطقة الإسكندرية الكبرى، وكامبل إدجار الدلتا، وكيبل منطقة سقارة، وليففر منطقة أسيوط، وويجول الأقصر[585]. ولكن ظل التوتر الأنجلو – فرنسى قائماً، يصل أحياناً إلى درجة الإحتقان، مثل اصطدام السياح الفرنسيين مع حراس منطقة سقارة التى يشرف عليها

---

[583] الأرشيف الفرنسى، وثائق الخارجية، نانت، مراسلات من دى مورجان، ودورنو للخارجية الفرنسية (1894 – 1896م).

[584] Maspero, Rapports., 1899 a 1910, v – vi.

[585] Maspero, Rapports … 1899 a 1910, xx – xxii.

كارتر. وحاول ماسبيرو معالجة الأمر بأن يقدم كارتر إعتذاراً، ولكنه رفض، وفضل الاستقالة[586].

وحظيت حفلة إفتتاح النصب التذكارى تخليداً لمارييت فى حديقة المتحف (مارس 1904م) بتقدير دولى كامل[587]. ففى أوروبا كانت بريطانيا وفرنسا تقتربان من إبرام الوفاق الودى الذى تم بعد أسابيع، وكانت إحدى مواده تؤكد أن يكون مدير عام مصلحة الآثار المصرية فرنسياً. واستمر الود بين الطرفين قائماً فى عهد السير ألدون جورست (1907 – 1911م) فحصل ماسبيرو على وسام فارس من بريطانيا عام 1909م، وعندما استقال كرومر من عمله فى مصر وتولى رئاسة "صندوق الكشوف المصرية" جامل فرنسا بوصفها "أم علم المصريات"[588]. وعدلت فرنسا عن إدعائها حق الحصول على المسلة الباقية بمعهد الأقصر، وتركت بريطانيا إدعاءها حق الحصول على تمثال رمسيس الثانى الضخم بميت رهينة، وكان محمد على قد أهداه لكافيجليا، وستون عام 1818م[589]. وأثناء تقاعده، نصح كرومر حكومة بلاده بعدم إقامة معهد بريطانى للآثار فى مصر، لأن ذلك قد يستثير عداء الفرنسيين، وكذلك "صندوق الكشوف المصرية"[590].

وأدى سقوط عمود ضخم بالكرنك بعد عودة ماسبيرو ببضعة أيام فى 1899م، إلى تأييد قراره بالتركيز على صيانة الآثار والنشر العلمى، وترك معظم أعمال التنقيب للبعثات الأجنبية[591]. وكان دى مورجان قد أسند إلى ليجران العمل بالكرنك عام 1895م، ولا زالت "إدارة أعمال الكرنك" مستمرة إلى اليوم بإسم "المركز الفرنسى المصرى لدراسة وترميم معبد الكرنك"[592]، وسارع ماسبيرو بإصدار "حوليات مصلحة الآثار" التى كان لوريه قد بدأ إعدادها، كما نفذ خطة بوركارد للتعاون الدولى فى إعداد "كتالوج عام " للمتحف المصرى[593].

---

[586] حول وجهات النظر الفرنسية، راجع: وثائق الخارجية الفرنسية، مراسلات القنصل العام بالقاهرة إلى الخارجية.
[587] See Pamphlet Ceremonie d'inauauguration du monument (IFAO 1904).
[588] Egyptian Exploration Fund, Report on the 23rd Meeting 1908 – 1909 (London 1909), 18.
[589] David, Maspero, 225 – 27.
[590] Fo 633 / 201 pp. 123 – 26, 131, 256 – 57, December 1911.
[591] Maspero, Rapports … 1899 a 1910, viii – xxx.
[592] C. Traunecker and J. – C. Golvin, Karnak, (Paris 1989).
[593] Maspero, Rapports … 1899 a 1910, Xiii, 25.

وجاء كتشنر (1911 – 1914م) لينهى هذه الفترة من الوفاق فى مجال الآثار بمناوراته العنيفة ضد الآثاريين الفرنسيين. وكان كتشنر يهوى جمع الآثار (على عكس كرومر) فأعاد مرة أخرى عهد القناصل جامعى الآثار الذى بدأه سولت قبل ذلك بقرن. وفى العام 1913م خلق منصب سكرتير عام مصلحة الآثار على أمل أن ينجح فى تعيين كيب فيه[594]. وفى ربيع 1914م أصاب الإرهاق ماسبيرو، فـاقترح على كيتشنر إسم من يخلفه من الفرنسيين[595].

عودة الألمان والطليان

غلب احتكار الفرنسيين والبريطانيين لأعمال التنقيب عن الآثار المصرية فى الثمانينات والتسعينات، ولكن ما لبث الألمان والأمريكان والطليان أن دخلوا الميدان. وجاءت نقطة التحول فى (1905 – 1907م) بوصول العديد من البعثات الأمريكية، وتأسيس "المعهد الألمانى للآثار". فرغم الطموح الدولى لألمانيا بعد تحقيق وحدتها، ومكانة جامعاتها، وقيادتها لفقه اللغة المصرية، لم يتم ترجمة ذلك كله بتحقيق وجود ألمانى دائم بالقاهرة فى حقل المصريات إلا بعد ستين عاماً من بعثة ليبسيوس. وقد تم تكريم إيبرس، ودوميشن ، وهنريش بروجش، على واجهة المتحف المصرى، جنباً إلى جنب مع ليبسيوس رغم أنهم لم ينظموا بعثات تنقيب ذات بال[596]. أما إستانبول والعراق التابع لها، حيث كان للألمان نشاط فى الجيش وبناء الخطوط الحديدية، فقد كانت لألمانيا اليد العليا فى مجال الآثار، فكان مدير مصلحة الآثار والمتحف فى إستانبول ألمانياً فى السبعينات. ولكن ما قام به الألمان من أعمال التنقيب فى برجامون عام 1878م، وبعد ذلك فى بابل، ثم فى بوغاز كوى (عاصمة الحيثيين) فيما بعد، أثار حفيظة الفرنسيين[597].

كان إيرمان يعمل من برلين، ولكن مشروع القاموس المصرى العظيم، الذى بدأه عام 1895م، كان يحتاج إلى دراسات ميدانية للنقوش، وزاد من الحاجة إلى معهد ألمانى للآثار بالقاهرة مثل معهدى روما وأثينا. وتولت "الجمعية الشرقية الألمانية" التى تأسست عام

---

[594] Grange, "Archeologie", 369 0 70.
[595] Fo 633 / 23 / p. 36, Maspero to Cromer, 12 May 1914.
[596] On Ebers and Dumichen, see, Who Was Who 3, 136, 131 – 32.
[597] حول أعمال التقيب الألمانية والإنجليزية والفرنسية فى آسيا الصغرى والعراق والشام، راجع: وثائق الخارجية الفرنسية – أرشيف نانت.

1898م مسئولية أعمال التنقيب فى الشرق الأوسط[598]، وبدأ لودفيج بوركارد، وفردريش بيسنج التنقيب فى معبد الشمس بأبى جروب فى نفس السنة. وفيما بعد، قام بوركارد بالعمل لحساب الجمعية فى حفائره بأبى صير، وتل العمارنة. وجمع مشروعه الطموح لإعداد كتالوج علمى لمقتنيات المتحف المصرى، علماء المصريات من الألمان، والفرنسيين، والإنجليز، والأمريكان، معاً للعمل فى ذلك المشروع[599]. وكان بوركارد – أيضاً– ملحقاً ثقافياً بالقنصلية الألمانية بالقاهرة، وعضواً بلجنة المصريات الحكومية، وتم إفتتاح "البيت الألمانى" على الضفة الغربية فى طيبة عام 1904م، وبعد ذلك بثلاث سنوات أصبح بوركارد أول مدير لأعمال المعهد الألمانى للآثار فى مصر[600].

وجاءت الحرب العالمية الأولى لتجهض هذه البداية المبشرة بالخير، فقد فرضت الحراسة على الممتلكات الألمانية، واشتعل بعد الحرب النزاع حول قيام بوركارد بتصدير التمثال النصفى لنفرتيتى دون أن يشعر بذلك أحد. ورفض المصريون السماح بقدوم بعثات تنقيب أثرية ألمانية أو إعادة فتح المعهد الألمانى للآثار حتى عام 1929م، عندما احتل هيرمان يونكر مكان المنبوذ بوركارد. وكان يونكر ألمانياً حصل على الدكتوراه من جامعة برلين، ولكن كان يعمل بجامعة فيينا منذ عام 1907م. وقد رعت الأكاديمية البروسية حفائره الأولى بالنوبة، ولكن أكاديمية فيينا رعت حفائره بالجيزة فى (1912 – 1914 م)، ثم فى (1925 – 1929م)، وأصبح أستاذاً للآثار المصرية القديمة بالجامعة المصرية فى الثلاثينات، وظل فى هذا المنصب حتى عام 1939م، رغم اتهام الإنجليز له بالعمل لصالح النازية[601].

كانت إيطاليا الوحيدة الباقية من دول ما قبل الحرب العالمية الأولى التى لها تطلعات محتملة فى مصر، وكان تولى بوتى إدارة المتحف اليونانى – الرومانى بالإسكندرية عام 1892م إنقلاباً ثقافياً، وجاءت خلافة بريشيا له عام 1904م تأكيداً لتحول المتحف إلى معقل إيطالى ثقافى. وبينما قام كل من بوتى وبريشيا بالتنقيب فى الإسكندرية الكبرى عن

---

598 Volkmar Fritz, "Deutche Orient – Gessellschaft"; Oxford Ency. Of Archaeology in the Middle East, 5 Vols (N. Y. 1957) 2 : 146 – 47.

599 Fo 141 / 440 / 206, Reisner to Allenby, 24 September 1921.

600 مذكرة بتاريخ 17 أبريل عام 1921م بوثائق الخارجية الفرنسية، نانت بعنوان Note sur la Situation de l'IFAO.

601 On Junker, see Who Was Who 3 : 222 – 23.

الآثار اليونانية – الرومانية، امتدت حفائر عالم المصريات الإيطالى – أرنستو شيابارياللى (1856 – 1928م) إلى جميع أنحاء مصر فى إثنى عشر موسماً فيما بين (1903 – 1920م)، وكان أشهر إكتشاف له هو مقبرة نفرتارى بوادى الملكات، وقد درس فى تورين، وتتلمذ على ماسبيرو، ثم أصبح رئيساً للقسم المصرى بمتحف فلورنسا، ثم بمتحف تورين[602].

وقد أثار استخدام الأمير أحمد فؤاد للأساتذة الإيطاليين بالجامعة المصرية قلق القنصلية الفرنسية. وفى عام 1909م، حذت إيطاليا حذو الدول الأوروبية الأخرى، فأسست معهداً للآثار بأثينا، وكان هناك كلام عن النية فى إقامة معهد إيطالى للآثار بالقاهرة، ولكن الغزو الإيطالى لليبيا عام 1911م غطى على المشروع الأخير، وأدى إلى إبعاد الإيطاليين من الجامعة المصرية[603].

الظهور الأول للأمريكان

لا تظهر أسماء أمريكية على واجهة المتحف المصرى بالقاهرة؛ فقد كان إدوارد روبنسون رائد علم آثار الكتاب المقدس منذ الثلاثينات من القرن التاسع عشر، كما أن "الجمعية الشرقية الأمريكية" يعود تاريخها إلى عام 1842م، ولكن الإتجاه نحو قيام الجامعات الكبرى والمتاحف برعاية علم الآثار جاء بعد الحرب الأهلية الأمريكية، وفى السبعينات، إنضم أثرياء الصناعة الجدد إلى النخب القديمة المعنية بالديموقراطية فى تأسيس متاحف الفنون الكبرى فى بوسطن، ونيويورك، وفيلادلفيا. وقام الأمريكان الذين حصلوا على درجات الدكتوراه من الجامعات الألمانية بإجتذاب حلقات البحث والمعامل بالكليات الجامعية نحو خلق الجامعة الأمريكية الحديثة.

ونحو نهاية القرن التاسع عشر، أصبحت بضع جامعات ومتاحف معنية بالشرق الأدنى القديم وعلم المصريات، واستهلت جامعة بنسلفانيا أعمال التنقيب الأثرى فى نيبور (بالعراق الآن) عام 1888م، بعد أن كانت قد أجرت استكشاف مسحى للرافدين فى العام السابق على ذلك العام. وفى عام 1907م، قام "متحف بنسلفانيا للآثار والأنثروبولوجيا" –

602 Who Was Who 3 : 377 – 78.
603 Donald Reid, Cairo University and the Making of Modern Egypt (Cambridge, 1990), 38 – 39.

الذى تأسس عام 1890م– بمد أعمال التنقيب الأثرى إلى مصر. وقامت "جمعية أدب وتأويل الكتاب المقدس" – التى تأسست عام 1895م– و"المدارس الأمريكية للبحوث الشرقية"[604]، بتجميع الموارد من عدة كليات وجامعات، وفى عام 1900م تولت الأخيرة رعاية أعمال البحث فى فلسطين.

وكما كانت الحال فى فرنسا وألمانيا، سار علم المصريات الأمريكى فى طريق إرتاده من قبل علم الآثار الكلاسيكية، فتولى تشارلز إليوت نورتون – الأستاذ بجامعة هارفارد – رئاسة "معهد الآثار الأمريكى" لمدة أحد عشر عاماً، وكان المعهد مهتماً بالكلاسيكيات ، وتأسس عام 1882م، وهو العام الذى شهد افتتاح "المدرسة الأمريكية للدراسات الكلاسيكية"، ثم أقيمت بروما "المدرسة الأمريكية للعمارة" (1894م)، و"المدرسة الأمريكية للدراسات الكلاسيكية" (1895م). وفى عام 1913م تم إندماج المدرستين فى "الأكاديمية الأمريكية بروما"[605]. وقد استلهم علم المصريات الأمريكى الألمان والبريطانيين أكثر من استلهامه الفرنسيين، إذ توفى إثنان من بين الأمريكان الثلاثة الذين تتلمذوا على ماسبيرو وهما فى ريعان الشباب[606]، وبقى الهاوى الثرى تشارلز ويلبور (1833 – 1896م) على هامش "المصريات" لعزوفه عن النشر، رغم خبرته، وقضائه موسم الشتاء باستمرار على ظهر دهبيته الفخمة فى النيل. وقد درس ويلبور فى برلين وباريس[607]. ولعبت الجامعات الألمانية دوراً فى تكوين الجيل الأول من الأمريكيين المتخصصين فى "المصريات" فى ألمانيا فى التسعينات، ثم بدأوا العمل الميدانى فى مصر.

ولما كانت بداية "المصريات" متواضعة فى الجامعات البريطانية، فقد تأثر المتخصصون بالمصريات من الأمريكان "بصندوق الكشوف المصرية"، وبترى. وجعل أعضاء الصندوق من الأمريكان المتحمسين، من رحلة إميليا إدواردز لأمريكا عام 1889م، لإلقاء الخطب حول نشاط الصندوق، رحلة مكللة بالنجاح. وقبل أن تصبح قادرة على إيفاد

---

604 Bruce Kuklick, Puritans in Babylon : The Ancient Near East and American Intellectual Life 1880 – 1930 (Princeton, 1996).
605 Martha Sharp, "Archaeological Institute of America" "Oxford Ency. Of Arch. in the Near East", 1 : 187 – 88.
606 Nancy Thomas, ed., The American Discovery of Egypt (Los Angles), 1995, 44.
607 Who was who 3: 62, 265, 351-52.

بعثاتها الأثرية الخاصة بها، لجأت متاحف بوسطن للفنون الجميلة، والمتروبوليتان للفنون، وجامعة بنسلفانيا، وبروكلين، إلى تكوين مجموعاتها من الآثار المصرية من خلال مساهماتها المالية فى "صندوق الكشوف المصرية"[608].

وقد حصلت سارة يورك ستيفنسون – أول أمينة (1890 – 1905م) لقسم مصر والبحر المتوسط بمتحف جامعة بنسلفانيا للآثار والأنثروبولوجيا– على قطع الآثار المصرية من خلال بترى وصندوق الكشوف المصرية. وقامت بزيارة مصر عام 1898م لدراسة إمكانية إرسال بعثة أثرية لمتحف الجامعة. وكتبت تقول: "إن البريطانيين هم حلفاؤنا الطبيعيون" فى مجال المصريات، وعرضت إقتراحاً تقدم به يعقوب أرتين لإقامة "محطة علمية لعلماء المصريات والمستشرقين والمتخصصين فى الآثار العربية والمسيحية من الأمريكان والبريطانيين" يمكنها أن توفر "تمثيلاً ميدانياً للعلم الأمريكى ... فالأمم الأخرى حريصة على ذلك، وتناضل بقوة لتنال نصيباً من هذه الغنيمة العلمية الغنية، ولكن أمريكا ليس لها وجود هنا"[609]، ولم يتحقق ذلك إلا عام 1924م عندما قام "المعهد الشرقى" بجامعة شيكاغو بإنشاء قاعدة دائمة أمريكية لعلم المصريات على أن مصر، هى "بيت شيكاغو" بالأقصر. ولم يتم إنشاء "مركز البحوث الأمريكى بمصر" بالقاهرة إلا فى عام 1951م.

وتولى الخيرون من أصحاب الملايين رعاية البعثات الأثرية الأمريكية التى قامت بالتنقيب فى مصر، وهم: فوب هيرست، وتيودور دافيس، وإكلى برنتون كوكس (الإبن)، وجون روكلفر (الإبن)، ومؤسسة روكلفر. وقامت فوب هيرست – زوجة جورج هيرست قطب صناعة التعدين، ووالدة وليم راندولف هيرست بارون الصحافة– برعاية بعثة جامعة كاليفورنيا التى قادها ريسنر (1899 – 1905م)، وقام تيودور دافيس بتمويل حفائره الخاصة فى وادى الملوك (1903 – 1912م) بمساعدة خبراء من أمثال الإنجليزى بيرسى نيوبرى، وآخرين، وقدم كوكس التمويل اللازم لبعثات متحف جامعة بنسلفانيا حتى وفاته عام 1916م، وتولى جون روكلفر (الإبن)، ومؤسسة روكلفر تمويل حفائر برستد، والمعهد الشرقى الذى أسسه بجامعة شيكاجو.

---

608 James, Excavating, 23 – 24.

609 University of Pennsylvania, University Museum Archives, Curatorial Files, Box 1.

وبدأ ريسنر التنقيب فى مصر عام 1899م، ودافيس عام 1903م، ولكن الفترة (1905 – 1907م) شهدت إنطلاق العمل الميدانى الأمريكى على أيدى بعثات من هارفارد – بوسطن (ريسنر)، ومتحف المتروبوليتان للفنون (ليثجو، ثم لحق به هربرت ونيلوك)، ومتحف بروكلن (هنرى دى مورجان)، ومتحف جامعة بنسلفانيا (دافيد راندول ماكلفر، ثم كلارنس فيشر). وكان برستد يعمل ميدانياً لحساب شيكاغو فى المسح الفوتوغرافى للنوبة (1905 – 1907م)، فقد أصر على أن تسجيل النقوش المعرضة للضياع مهمة عاجلة تفوق أعمال التنقيب من حيث الأهمية. وفى عام 1907م – أيضاً– بدأ نورمان وأنا دى جاريس ديفز فى تسجيل مقابر طيبة لحساب قسم النقوش بمتحف المتروبوليتان للفنون.

وانتهت أعمال بعثة بروكلين، وبعثة شيكاغو لمسح النوبة عام 1907م بعد موسمين من العمل، ولكن بعثات هارفارد – بوسطن، ومتحف المتروبوليتان للفنون، ومتحف جامعة بنسلفانيا، استمرت حفائرها حتى الثلاثينات من القرن العشرين، تخللتها فترات توقف قليلة. وقد أصبح معسكر هارفارد (ريسنر) بالجيزة، وبيت متحف المتروبوليتان، وبيت شيكاغو بالأقصر من العلامات المميزة المألوفة فى حقل الآثار بين الحربين العالميتين.

وبرع كل من ليثجو، وبرستد، وريسنر فى أحد مجالات المصريات. فقد كان ليثجو أول أمين لقسم الفن المصرى بمتحف بوسطن للفنون الجميلة (1902م) ومؤسساً لقسم الفن المصرى بمتحف المتروبوليتان (1906 – 1929م). وتميز برستد كعالم ومعلم وإدارى . وكان كرسى أستاذية المصريات بجامعة شيكاغو الذى شغله عام 1905م، أول كرسى للمصريات بأمريكا، وأصبح المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو الذى أسسه بتمويل من روكفـلر، وافتتح عام 1919م، مركز المصريات ودراسات الشرق الأدنى. وجمع ريسنر بين الأستاذية بهارفارد، وأمانة قسم الفن المصرى بمتحف بوسطن للفنون الجميلة، ولكنه اكتسب شهرته من براعته فى التنقيب وتفوقه على بترى فى الأساليب الفنية للعمل، ولم يقبل بأن يكون هذا العمل تجميع الآثار للمتاحف، ولكن التنقيب فى جبانات كاملة، والحفر فى الطبقات الواحدة تلو الأخرى حسب الترتيب الزمنى، مع تسجيل كل خطوة بالرسم والتصوير الفوتوغرافى ونشر التقارير العلمية التى تتضمن الإيضاحات[610].

[610] Michael Hoffman, Egypt Before The Pharaohs: The Prehistoric Foundation of Egyptian Civilization (Austinm 1991), 250 – 254.

وفى مذكرة مشهورة، عرض القنصل العام الأمريكى فردريك بنفيلد – عام 1909م– أن يتحمل نفقات نقل المسلة الباقية بمعبد الأقصر إلى وسط القاهرة، لأنه يجب أن تكون بالقاهرة مسلة كما فى لندن، وباريس، ونيويورك، وروما، وإستانبول؛ لأن المسلة بالأقصر لا يراها إلا عدد قليل من السياح كل شتاء، فإذا نقلت إلى القاهرة "لن يشاهدها الزوار الأجانب وحدهم، بل سيشاهدها أعداد غفيرة من سكان البلاد كل يوم فى غدوهم ورواحهم"، وقد رفض مجلس النظار العرض استناداً إلى آراء الآثاريين[611].

أعمال أحمد كمال

"لم يبلغ المصريون بعد درجة كافية من الحضارة حتى يهتموا بالحفاظ على آثارهم القديمة ... وليس لديهم شعور – أى درجة من درجات الشعور– بالذنب ترتبط بهذا الجرم الذى يعد ذنباً مغفوراً ... نقول للمصريين: إننا حكومات متحضرة، لذلك نهتم بآثاركم القديمة. فإذا تظاهرتم بأنكم أمة متحضرة، فإن عليكم الإهتمام بها أيضاً".

من حديث للورد كرومر، جاء فى:

William Welch Jr., No Country For Genthleman

هذه الملاحظات التى ينحى بها كرومر باللائمة على المصريين، تتجاهل نضال أحمد كمال من أجل جعل علم المصريات للمصريين، فى جو استعمارى عدوانى. حمل أحمد كمال على كاهله مهمتين: تكوين نفسه تكويناً علمياً جاداً فى حقل المصريات، وحث أبناء وطنه على تعريف أنفسهم فى إطار مصر القديمة. وجاءت بحوثه المنشورة بالفرنسية لخدمة المهمة الأولى، أما ما نشره بالعربية فكان لخدمة المهمة الثانية. وقد أبدى ماسبيرو إحترامه لأحمد كمال بضمه إلى الفريق الدولى الذى تولى إعداد "الكتالوج العام" للمتحف المصرى. وقد أنجز أحمد كمال مجلدات عن اللوحات البطلمية والرومانية، وعن منصات

611 دار الوثائق القومية، مضابط مجلس الوزراء، نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار 1891 – 1922م، ب/2/4، بتاريخ 13 فبراير عام 1901م.

القرابين، ومنحته مصلحة الآثار مكافأة قدرها مرتب شهر (33 جنيهاً بالنسبة له) عندما نشر المجلد الأول[612].

وقد نشر أحمد كمال تسعة وعشرين مقالاً بالفرنسية بحوليات مصلحة الآثار خلال سنواتها العشر الأولى، أى ما يزيد على ضعف ما قام بنشره زملاؤه المصريون، فلم ينشر زميله فى الدراسة أحمد نجيب سوى أربعة مقالات فى بضع سنوات منذ صدور المجلة حتى تقاعده. كذلك نشر إثنان من تلاميذ أحمد كمال السابقين (خريجى مدرسة الآثار 1881 – 1885م) أحدهما محمد شعبان، الذى نشر خمس مقالات فى عشر سنوات، وما يزيد عليها قليلاً فى السنوات العشر التالية[613].

ومعظم تلك المقالات عبارة عن مذكرات وتقارير قصيرة حول ملاحظات التفتيش على المواقع الأثرية، وجهود محاربة التنقيب العشوائى، وأحياناً كان أحمد كمال ينشر تقريراً عن متابعة الحفائر، وكان هذا هو كل ما يستطيع عمله فى وقت كان فيه الغربيون يفتحون الأهرام، ويحفرون فى مناطق هامة مثل الجيزة، وسقارة، والكرنك ووادى الملوك، وقد رفض أحمد كمال – من حيث المبدأ– إصدار تصاريح التنقيب لغير المتخصصين فى المصريات، ومن لا يمثلون متحفاً أو مؤسسة علمية. وأقر بأن ذلك يعنى استبعاد المصريين من التنقيب، ولكن هؤلاء كانوا يبحثون عن الكنوز ولا تحركهم "النزعة العلمية"[614].

ولم تكن الأعمال العربية التى نشرها أحمد كمال معروفة لزملائه الغربيين. ويبدو أنه افترض وجود متخصصين، وطلاب، ومهتمين بالمعرفة من بين قراء العربية، غير أن فئة المتخصصين من القراء كادت أن تكون موجودة.

وكان جانباً من أعمال أحمد كمال العربية، ترجمة عن اللغة الفرنسية على طريقة الطهطاوى ومدرسته. وكان انتقال المتحف إلى الجيزة يعنى أن ترجمة عبد الله أبو

---

[612] دار الوثائق القومية، محفوظات مجلس الوزراء، نظارة الأشغال العمومية، مصلحة الآثار، 1891 – 1907م، ب/3/4، بتاريخ 10 يونيو عام 1905م.

[613] أسهم من المصريين الآخرين فى مجلة حوليات مصلحة الآثار: حسن حسنى، وصبحى عارف، وحكيم أبو سيف، ومحمود رشدى، وتوفيق بولس، وجرجس إلياس.

[614] Maspero, Rapports … 1899 a xxx – xxxi.

السعود لدليل المتحف الذى وضعه مارييت قد أصبحت عديمة الجدوى، وقام كمال بترجمة الدليل الجديد الذى وضعه دى مورجان إلى العربية فى (1892 – 1893م)، وبعد ذلك بعقد من الزمان، عندما انتقل المتحف – مرة أخرى– إلى موقعه الحالى، ترجم أحمد كمال الدليل الجديد الذى وضعه ماسبيرو، ولم يكن ذلك عملاً هيناً، فقد جاء النص العربى والصور الملحقة به فى 788 صفحة، كذلك قام أحمد كمال بترجمة الدليل الذى وضعه بوتى للمتحف اليونانى – الرومانى، وجاءت الطبعة العربية فى 639 صفحة[615].

وبحلول عام 1915م، كان قد صدر من دليل ماسبيرو أربع طبعات فرنسية، وخمس إنجليزية، ولكن لم تتكرر طباعته بالعربية[616]، فهل كان ذلك يمثل فجوة فى الإهتمام النسبى بالآثار عند الأوروبيين والمصريين، أو جاء تعبيراً عن ترتيب الأولويات عند مصلحة الآثار المصرية التى يديرها الأجانب ؟ لقد رأينا من قبل شهادة جريبو عن إقبال المصريين على زيارة المتحف فى جماعات كبيرة، وحذر دليل بايدكر السياح قراءه من زيارة المتحف يوم الثلاثاء، لأن رسم الدخول المنخفض (خمسة قروش) يجلب حشوداً من "الزوار العرب من الطبقات الدنيا"، وجرب ماسبيرو السماح بالدخول المجانى فى فصل الصيف بعيداً عن الموسم السياحى، وعندما نتج عند ذلك إندفاع الحشود وقيام البعض بحك أجسامهم بالآثار إعتقاداً منهم أنها تشفى بعض الأمراض، عدل ماسبيرو عن ذلك ، وقرر رسم دخول قدره قرش واحد فى موسم الصيف[617].

وألف أحمد كمال كتاباً بالعربية عن عين شمس القديمة قبل أن يتولى وظيفته الأولى بالمتحف. وعندما تولى التدريس بمدرسة الآثار المتواضعة فى أوائل الثمانينات، ألف كتابين آخرين بالعربية: تاريخ مصر القديم، وقواعد الهيروغليفية. ولسوء الحظ أغلقت المدرسة فى نفس السنة التى صدر فيها الكتاب الأخير. وألف أيضاً كتاباً بالعربية عن منف، ومجلداً ضخماً عن الحرف وغيرها من مظاهر الحياة فى مصر القديمة، ودليل مطول عن النباتات المصرية. وقد زود كتبه برسوم لمناظر المقابر، والنصوص

---

615 أحمد كمال، (مترجم)، الخلاصة الوجيزة ودليل المتفرج بمتحف الجيزة (القاهرة – 1301هـ)، ودليل دار التحف المصرية بمدينة القاهرة (القاهرة عام 1903م)، والخلاصة الدرية فى آثار متحف الإسكندرية (القاهرة 1310هـ = 1901م).

616 Maspero, L'Egyptologie (Paris, 1915), 25 – 26.

617 Baedekeo, Baedeker's Egypt (Leipzig, 1897), 95.

الهيروغليفية، وقدم قراءة لها بالحروف العربية، ثم قدم ترجمة عربية للنص، ولعل أحمد كمال كان يتوقع قراء عرب يمكن مقارنتهم بالقراء الأنجلو أمريكيين الذين أقبلوا على كتاب ويلكسنون "عادات وتقاليد قدماء المصريين" الذى شاع لعدة عقود، قبل أن تصبح الكتابة عن مصر فى يد المتخصصين، وتنتشر أعمالها[618].

ويصف أحمد كمال فى أحد كتبه رحلة قام بها مع طلبة دار العلوم إلى الصعيد "لمعالجة عجز أبناء الوطن" عن تقدير قيمة الآثار، ألف أحمد نجيب كتاباً عن مصر القديمة بتكليف من نظارة المعارف. وتضمن الكتاب نصاً هيروغليفياً لقصة، وقراءة لها بالحروف العربية، ثم ترجمة عربية للنص أسفل كل سطر من سطور النص. كما كتب أحمد نجيب تقارير عن أحداث الحفائر التى قام بها دى مورجان[619].

وبعد عام 1900م نال أحمد كمال إعترافاً بكفاءته العلمية بعد جهد مضن. فقد أصبح معروفاً فى الأوساط الأوروبية من خلال كتاباته فى مجلة حوليات مصلحة الآثار، وعمله فى "الكتالوج العام" للمتحف. وأدى اختياره عضواً بالمجمع العلمى المصرى إلى اتساع دائرة إتصالاته، وزودوه بأداة جديدة لينشر أعماله.

وساعدته المحاضرات التى كان يلقيها بنادى طلبة المدارس العليا فيما بين (1906 – 1908م)، والتى كانت تجتذب حضوراً كثيفاً، على أن يبث أفكاره بين الطلاب وخريجى المدارس العليا. وقد تأسس النادى عام 1905م، وكان عدد أعضائه 240 عضواً، ثم قفز العدد إلى 774 عضواً عام 1909م، وهى السنوات التى شهدت علو مد المعارضة ضد الإنجليز وخاصة ضد المحاكمات التعسفية فى دنشواى، ورحيل كرومر، وظهور الأحزاب السياسية، ووفاة الزعيم الوطنى مصطفى كامل، وتأسيس الجامعة المصرية الأهلية[620].

---

[618] من أعمال أحمد كمال العربية غير ما ذكر آنفاً: ترويح النفس فى مدينة الشمس (القاهرة 1879 - ؟؟؟؟)، والعقد الثمين فى محاسن أخبار وبديع آثار الأقدمين من المصريين (القاهرة 1882 – 1883م)، والفرائد البهية فى قواعد اللغة الهيروغليفية (القاهرة 1885 – 1886م)، والدر النفيس فى مدينة منفيس (1910م)، وبغية الطالبين فى علوم وعوايد وصنائع وأحوال قدماء المصريين (1309)، واللآلى الدرية فى نباتات وأشجار القدماء المصريين (1306).

[619] أحمد نجيب، القول المفيد فى آثار الصعيد، والآثار الجليلة لقدماء وادى النيل (القاهرة عام 1895)، وعن أحمد نجيب، راجع: إلياس سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة (القاهرة عام 1928م)، 402.

[620] حول محاضرات أحمد كمال، راجع: حبيب "تاريخ الكشف"، 137.

وفى عام (1908 – 1909م)، نال أحمد كمال فرصة تدريس مادة تاريخ مصر القديم بالجامعة المصرية الجديدة، ولا شك أن ماسبيرو – الذى كان عضواً بمجلس الجامعة – رشحه للتدريس، وقامت الجامعة بنشر محاضرات أحمد كمال التى غطت تاريخ مصر القديم حتى الأسرة الخامسة عشر[621]. واستهل أحمد كمال كتابه بالبسملة والصلاة على النبى محمد، وقدم تبريراً لنشر الكتاب، وبدأ بالحديث عن عصر ما قبل التاريخ، ولاحظ أن هناك اختلافاً بين الأوروبيين حول أصل البشر، وما إذا كانوا قد إنحدروا من نسل آدم وحواء أم كانوا ثمرة تطور من الحالة الحيوانية، وما إذا كانت جميع الحضارات ذات أصل واحد.

وقد اهتمت الجامعة بنشر محاضراته، لأن "الأمم المتقدمة – كالعرب فى عصر العباسيين، والأوروبيين منذ عصر النهضة، والآن أمريكا واليابان– إستفادوا من حكمة مصر فى عصر الجاهلية، وهو موضوع لازال مجهولاً عندنا"[622]. وإذا كان الأجانب يأتون زرافات ووحداناً لمشاهدة الآثار الفرعونية، فإنه يجب على المصريين أن يقدروا "تراث وطنهم العزيز". وأبدى إفتخاره بأن الكهنة المصريين نظروا إلى اليونان نظرتهم إلى الأطفال، وأن الإغريق أشادوا بمصر باعتبارها مصدراً للكتابة، والفلسفة، والقانون، والفنون والحضارة[623].

وكانت المصادر الثانوية التى استخدمها أحمد كمال تتضمن أعمال بروجش، وليبسيوس ، وماريت، وشاباس، وماسبيرو، وهيرودوت، ومانيتو، وديودور الصقلى. كما أشار إلى عمل على مبارك عند حديث عن النيل، ولكنه أهمل ما ذكره مبارك عن الأهرام نقلاً عن المصادر العربية.

وقد سار أحمد كمال على نهج الطهطاوى، وماريت من حيث اتباع التحقيب الزمنى الطويل، فوضع الملك مينا الذى ذكره مانيتو عند العام 5626 بالسنوات الشمسية قبل الهجرة (5004 ق.م). وفى كتاب تاريخ مصر القديمة الذى نشره أحمد كمال عام (1882 – 1883م) حدد الحوادث بالتقويم الشمسى قبل الهجرة كما فى الكتب الدراسية عند

---

621 أحمد كمال، الحضارة القديمة، المجلد الأول (القاهرة عام 1910م)، ويبدو أن المجلد الثانى لم ينشر.
622 أرشيف جامعة القاهرة، ب/ف، محاضر اللجنة الفنية، 2 مايو عام 1908م.
623 أحمد كمال، الكنز الثمين فى محاسن أخبار وبدائع القدماء المصريين، 3، 4.

الطهطاوى، وماريت، ولكن عند نشر كتابه الذى أصدرته الجامعة كان استخدام تواريخ ما قبل الميلاد شائعاً، فلم يعد أحمد كمال يستخدم تاريخ ما قبل الهجرة.

وقد رتب فصول كتاب محاضراته بالجامعة على أساس موضوعات: النيل، والبيئة على ضفتيه وفى الدلتا، والدين، والتقسيمات الجغرافية إلى ولايات، والنظام الاجتماعى والسياسى، واللغة ونظام الكتابة، وشامبليون، وفك رموز الهيروغليفية. أما الفصول التى رتبت على أساس الحقب الزمنية، فتناولت الأسرات واحدة تلو الأخرى، وحكماً تلو الآخر، مستقياً مادته من الآثار وخراطيش الملوك. وقطع تسلسل تلك الفصول بأخرى لموضوعات مثل: "التجارة فى عصر منف"، و"الفن المصرى القديم".

وكان أهم إنجاز قام به أحمد كمال هو إقناع نظارة المعارف بافتتاح قسم للآثار المصرية القديمة بمدرسة العلمين العليا عام 1910م، حيث قام بالتدريس مرتين أسبوعياً لسبعة طلاب. أخذهم إلى المتحف المصرى، وقادهم فى جولة بين آثار الصعيد. وتخرجت الدفعة الأولى عام 1912م، والتحقت دفعة جديدة بالقسم[624].

وعلى جبهة أخرى، قام أحمد كمال وماسبيرو بتشجيع السلطات الإقليمية على إنشاء متاحف صغيرة بالمديريات. وقد وافق ماسبيرو ولجنة الآثار لأحمد خشبة باشا – أحد أعيان المديرية – بالتنقيب عن الآثار بجوار أسيوط، وقد ذهب بعض ما تم العثور عليه من آثار إلى المتحف المصرى بالقاهرة، وشجع على الإحتفاظ بما تبقى من الآثار لإنشاء متحف محلى. وقد أنشأت بلدية طنطا متحفاً بتشجيع من مصلحة الآثار (عام 1913 م)، وقررت المنيا أن تحذو حذوها[625].

مصر القديمة فى مطلع القرن العشرين – الوعى الوطنى

كما رأينا من قبل، إختارت مجلة "السمير الصغير" عام 1899م شعاراً لصفحة العنوان يمثل فلاحة توجه أولادها نحو "نور المعرفة"، الذى يبرز فوق الأهرام وأبى الهول، بينما الخديو وأربعة من رواد التعليم يشكلون إطاراً لهذا المشهد (انظر الشكل 7). ورغم أن

---

[624] المقتطف 63 (1923م)، 275 – 276.

[625] Alain Roussillon, Entre Reforme Sociale … 344 – 45.

ذلك يكاد يمثل نظرة المصريين للعالم فى ذلك الوقت، فإنه يبين أن أحمد كمال لم يضع وحده قواعد الإنتساب إلى مصر القديمة الذى شاع فى العشرينات من القرن العشرين.



الشكل رقم (٢٢) طابع بريد يحمل صورة الأهرام وأبو الهول

كان الإقتصار على استخدام طوابع البريد التى حملت الأهرام وأبى الهول على الخطابات المرسلة من مصر إلى بلاد الغرب فى الفترة (1867 – 1914م)، توحى هناك بـارتباط خدمة البريد، وكذلك مصر بالآثار المصرية (انظر الشكل 22). وعندما قامت الحكومة المصرية الخاضعة للإحتلال البريطانى – فى يناير 1914 م– بإصدار طوابع بريد متنوعة التصميم، عكست ستة من بين عشرة تصميمات للآثار القديمة. وحملت أوراق النقد (البنكنوت) التى أصدرها البنك الأهلى المصرى فيما بين 1899م والحرب العالمية الأولى مناظر أبو الهول، والأهرام، ومعبد فيلة، بين ما حملته من مناظر أخرى[626]. ولكن العملات التى كانت تمثل رمز السيادة فى العالم الإسلامى، إتسمت بالتحفظ. فحتى العام 1914م، ظلت تحمل طغراء السلطان العثمانى، ونقوش أخرى بالخط العربى، مع زخارف نباتية أو هندسية.

وربما كان الخيار الأصلى لتصميمات طوابع البريد وأوراق النقد أوروبياً أكثر من كونه مصرياً. فقد كان الإيطاليون أول من أسس خدمة البريد بمصر، كما أن حملة الأسهم من البريطانيين سيطروا على البنك الأهلى المصرى، كما انفرد البريطانيون بـاتخاذ القرارات الهامة فى مصر فيما بين (1882 – 1922م). غير أن هذه الرموز التى طال أمدها، كان لها أثرها، فلا زالت طوابع البريد وأوراق النقد فى مصر المستقلة تبرز الرموز الفرعونية حتى اليوم.

---

626 "Egypt", Scott 1991 Standard Postage Stamp Catalogue (Sydney. Ohio, 1990) 2 : 86; Standard Catalogue Of World Paper Money vol 2, General Issues to 1960 (lola, Wis., 1996), 373 – 74.

وقد حرص حكام مصر على الظهور بمظهر حماة الآثار الفرعونية، على الأقل منذ صدور أمر محمد على عام 1835م، وعلى مدى القرن، قاموا بزيارات للمواقع الأثرية ضمن برامجهم الإحتفالية. فقام الخديو توفيق فى مطلع عام 1880م عشية توليه الحكم بزيارة استعراضية للصعيد ضمت موكباً كبيراً من ثلاث بواخر وعدد من القوارب المعاونة، وتوقف لزيارة عواصم الأقاليم وأعيانها على طول الطريق، كما زار معابد دندرة، وإسنا، وجزيرة فيلة، والأقصر، والكرنك[627]. وفى عام 1886م، حضر احتفالاً بمتحف بولاق بمناسبة عرض مومياء أحد فراعنة الدولة الوسطى[628].

وجاءت زيارة توفيق للصعيد 1890م على متن باخرة كوك، فى صحبة سياح من الأمريكان. وكانت المحطة الأولى البدرشين لزيارة آثار منف وسقارة. أما محطات الآثار التالية فشملت دندرة، والكرنك، ووادى الملوك، والرمسيوم، وإسنا، وإدفو، وكوم أمبو، وأسوان، وفيلة. وقد ناقش مع حاشيته سبل تنمية السياحة من خلال شركة كوك[629]. وفى العام التالى إصطحب توفيق مدير عام مصلحة الآثار جريبو فى رحلة نيلية فيما بين الشلال الأول ووادى حلفا (انظر الشكل 37)[630].



الشكل رقم (٣٧) الخديو توفيق وحاشيته بمعبد فيلة

ونظم كوك رحلة مجانية لطلبة دار العلوم ضمت 50 طالباً على متن الباخرة "عباس"، لزيارة الصعيد وآثاره، أملاً فى أن تحظى الشركة فى عهد عباس الثانى بالرعاية الخديوية، كما كانت الحال فى عهد أبيه. وعندما

[627] Alfred J. Butler, Court Life in Egypt (London 1887), 8 – 31.
[628] James Baikie, A Century of Excavation in the Land of the Pharaohs, London, n. d., 161 – 62.
[629] أحمد شفيق، مذكراتى، 1 : 502 – 509.
[630] الأرشيف الفرنسى، وثائق الخارجية، نانت، 16 فبراير عام 1891م.

مرت باخرة الطلاب بجوار باخرة جون كوك، صعد الأخير على متنها وألقى على الطلاب كلمة جاء فيها:

"لقد إلتقيت الخديو الراحل، ووجدته مستاءً، لأن المصريين يتلقون تعليماً جيداً، يؤهلهم لشغل الوظائف الكبرى، ولكنهم مع مرور الزمن لا يقومون بزيارة الآثار القديمة، وقال لى: إن القليل من المصريين يقومون بالسياحة فى بلادهم، بينما نرى السياح يأتون من أمريكا وأوروبا هذه الآثار ... لذلك يجب أن تعرفوا تاريخ أجدادكم وتمارسوا حياتكم العملية أسوة بهم ... ".

وخصص كوك أفضل تراجمته – الحاج محمد أبو عليوة– لمرافقة الطلاب فى هذه الرحلة[631].

وقد أشرنا فيما سبق إلى قيام عباس الثانى بوضع حجر الأساس، ثم إفتتاح كل من المتحف اليونانى – الرومانى بالإسكندرية، والمتحف المصرى بالقاهرة، وقد فعل نفس الشئ بالنسبة لمتحف الفن العربى. ومنذئذ حرص كل حاكم مصرى على الظهور بمظهر حامى التراث الفرعونى والإسلامى.

وعبر رجلان نفيا من مصر عن الحنين للوطن من خلال الإشادة بماضى مصر الفرعونى، رغم إنحدارهما من أصول تركية – شركسية، هما: محمود سامى البارودى، والأمير إبراهيم حلمى. كان البارودى رئيساً لمجلس وزراء الثورة العرابية، وقضى سبعة عشر عاماً فى المنفى بسيلان، وعبر فى أشعاره عن حنينه لمصر ذاكراً الجيزة والأهرام وتحديها للزمن، شاهدة على عظمة بناتها، ويشهد العالم بخلودها[632].

أما الأمير إبراهيم حلمى فكان خريج الأكاديمية العسكرية الملكية (وولوتش)، وشارك الخديو إسماعيل منفاه فى إيطاليا، ونشر عام 1886م كتاباً بالإنجليزية بعنوان: "أدب مصر والسودان من العصور القديمة حتى عام 1885م"، ورتب قائمة المصادر ترتيباً أبجدياً حسب الموضوع والمؤلف، وشملت تلك القائمة المصادر العربية والمراجع بمختلف

631 Thomas Cook Archives, Egypt (General), Nile fleet / 153.
632 Mounah A. Khouri, Poetry and the Making of Modern Egypt (1882 – 1922) (Leiden, 1971), 20.

اللغات الأوروبية التى تناولت جميع العصور، وأهدى الكتاب إلى "الخديو إسماعيل"، وقد جاء بمقدمة الكتاب:

"إن المعرفة المصرية بجميع فروعها كانت ذات قوة جذب ساحرة لكل مؤلف شهير، فى كل عصر من العصور، وسواء كانت مناسبة هذا الإفتتان حكمة وردت فى التعاليم الهيروغليفية لكتاب الموتى، أو تتعلق بمقولة تتصل بمسألة اجتماعية أو اقتصادية، فهناك دائماً معلومات مثمرة عن خلاصة المعرفة الفرعونية، يقع عليها من يعرف كيفية الوصول إليها"[633].

كذلك لعب النفى عقاباً على تأييد الثورة العرابية، دوراً فى شحذ الشعور بالهوية المصرية عند محمد المويلحى، فعندما عاد من منفاه، كتب "حديث عيسى بن هشام، أو فترة من الزمان" نشرها منجمة على صفحات جريدة "مصباح الشرق" التى أسسها مع والده إبراهيم المويلحى عام 1898م. وفى ذلك العمل يصطحب الراوية الخيالى أحد الباشاوات من أيام محمد على فى رحلة فى مصر وأوروبا، معلقاً على مظاهر التغير الذى حدث فى الحياة والمجتمع، بما فى ذلك الموقف من الآثار[634]، وقد ظهر العمل فى شكل كتاب عام 1905م، وأعيد نشره فيما بعد.

وضمن المويلحى آراءه هذا العمل التخيلى، فعند وصفه لزيارة الهرم، يطرح العديد من الآراء: فالأهرام دليل على عظمة حضارة مصر القديمة، وهى رمز للاستعباد والطغيان، وهى مكان للمرح والرقص الفاحش، وهى، مصدر رزق للبدو الذين يتعيشون على الأهرام وابتزاز السياح. وعند وصفه لزيارة المتحف المصرى – وكان عندئذ بالجيزة – يطرح الفكرة القائلة بأن الآثار تقوم شاهداً على عظمة مصر الفرعونية، ويبدى أسفه لعدم وجود كتب بالعربية تحمل هذه الرسالة، ويقدم شخصية أخرى ترى فى تلك الآثار أشياء بالية لا نفع منها سوى بيعها للأجانب، ولا يقبل انتساباً لغير العرب الكرام، وينتقد إنفاق الملايين على الحفائر الأثرية وإقامة المتاحف فى بولاق والجيزة، والمتحف الجديد الذى كان لا يزال فى مرحلة البناء.

---

633 Prince Ibrahim Hilmy, The Literature of Egypt and the Soudan From the Earliest Times to the Year 1885, 2 vols. (London, 1886) 1 : vi.

634 محمد المويلحى، حديث عيسى بن هشام.

وجاء نفى الشاعر أحمد شوقى فيما بعد، عندما خلع عباس حلمى الثانى من منصبه، وكان شوقى من حاشيته يلعب دور شاعر القصر. وقد ألقى قصيدة أمام مؤتمر المستشرقين الدولى بجنيف عام 1894م تناول فيها أحداث وادى النيل، مشيداً بعظمة الفراعنة والبطالمة إلى جانب مجد الإسلام. ونوه بالوحدانية على يد موسى وعيسى ومحمد، ولكنه أشاد أيضاً بإيزيس، ووضع الهكسوس، والفرس، والرومان، والصليبيين فى مصاف الغاصبين الذين ما لبثوا أن أزيحوا من البلاد[635].

ولم تكن أعمال أحمد كمال، وأحمد نجيب هى وحدها فى متناول قراء التاريخ، بل كانت هناك كتب عامة كتبها غير المتخصصين، مثل أحمد حسن الذى كتب تاريخاً عاماً لمصر حتى الفتح العربى (1888م)، وحسين زكى مؤلف كتاب "تاريخ الشرق القديم" (1982م) الذى خصص مجلداً لكل من مصر القديمة، والعراق وبابل، وفارس، وميديا، ومملكة صور[636]. وإسماعيل سرهنك، مؤلف كتاب "حقائق الأخبار عن دول البحار"[637]، وهو كتاب فى تاريخ العالم يركز على الشئون البحرية خصص الملجد الثانى لمصر، كان نصيب العصر الفرعونى منه ثمانى عشرة صفحة فقط من مينا إلى الإسكندرية، وتسعة عشر صفحات أخرى من الإسكندر حتى الفتح الإسلامى. واستخدم سرهنك مراجع عربية وأوروبية من بينها مانيتو، وعبد اللطيف البغدادى، وماريت، وكذلك أحمد نجيب "الأثر الجليل".

وقدم ميخائيل شاروبيم (1853 – 1920م)[638] "الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث " تفاصيل أكثر مما جاء فى سرهنك عن مصر القديمة، فعالج حكم الأسرات الثلاثين حتى الإسكندر فى 178 صفحة مكتظة الأسطر. وشاروبيم قبطى قاهرى، إلتحق فى سن الرابعة عشر بقسم المطبوعات الإفرنجية بنظارة المالية، وعمل قاضياً بالمحاكم الأهلية، وتقاعد عام 1903م. وتناول المجلد الأول من كتابه مصر القديمة من نوح حتى الفتح العربى، وتناول المجلد الثانى الفترة من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى عام 1517م ،

635 أحمد شوقى، الأعمال الشوقية الكاملة. 4 أجزاء فى مجلدين (بيروت عام 1988م).
636 أحمد حسن، لب عن التاريخ العام (القاهرة عام 1888م)؛ حسين زكى، تاريخ الأمم القديم (القاهرة عام 1892م): إلياس سركيس، معجم المطبوعات، 382، 77.
637 إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، 3 مجلدات (القاهرة عام 1895 – 1923م).
638 ميخائيل شاروبيم، رقيب على أحداث مصر: حوليات مصر السياسية (1879 – 1882)، تحقيق يونان لبيب (القاهرة عام 1992م)، 9 – 10.

والثالث من بداية الحكم العثمانى حتى تولية محمد على، والأخير من محمد على حتى وفاة توفيق.

ويشبه المجلد الأول من كتاب شاروبيم كتاب "أنوار توفيق الجليل" للطهطاوى من حيث الترتيب، والنطاق، والمحتوى: فكلاهما يغطى تاريخ مصر حتى الفتح العربى. ويقدم شاروبيم فى الصفحتين الأوليين معلومات مستقاة من الإنجيل عن آدم، ونوح، والطوفان ، واستقرار حام بن نوح فى أفريقيا، ثم مصرائيم بن حام الذى أعطى إسمه لمصر، وهو الإسم الذى عرفت به فى اللغات السامية. وكما فعل الطهطاوى، قام شاروبيم بالربط بين قصص الإنجيل، ومينا الذى ذكره مانيتو "الذى يقال: إنه مصرائيم الذى ورد ذكره بالتوراة"[639]. ويورد شاروبيم ما ذكره ليبسيوس، وهنريش بروجش، ومحمود الفلكى عن عمر الأهرام والغرض من بنائها[640]، واستخدامه لعمل الفلكى يعزز جهد العلماء المصريين المحدثين فى البحث فى مصر القديمة. ويقدم شاروبيم تواريخ ما قبل الهجرة(مقدرة بالتقويم الشمسى)، ولكنه يضيف إلى جانبها تواريخ ما قبل الميلاد على عكس ما فعل الطهطاوى. ومثلما فعل الطهطاوى، تناول شاروبيم الأسرات الثلاثين التى ذكرها مانيتو، ثم الإسكندر، فالبطالمة، والروم البيزنطيين، ثم الفتح الإسلامى، ويقطع السرد بإيراد مقالات فى موضوعات محددة.

ويورد شاروبيم ما ذكره يوسيفيوس من أن المؤرخين الإغريق لا يذكرون "ما جاء بالكتب السماوية" عن الخروج، ثم خصص بضع صفحات لموسى، جاعلاً الخروج فى عهد مونبتاح (الذى يخطئ فى هجاء إسمه) إبن رمسيس الثانى، وقال: إن رمسيس الثانى يعادل سيزوستريس عند الإغريق، ولاحظ أن "بعض المؤرخين" يذكرون "داناوس المصرى" الذى أسس المستعمرات فى اليونان على أنه شقيق رمسيس الثانى[641].

وقد تجاوز الطهطاوى فى محاولة التوفيق بين الفراعنة الأسطوريين فى الفكر التقليدى العربى، وقائمة مانيتو، والآثار، فالغازى الآسيوى مؤسس الأسرة الخامسة عشر – سالاتس – "معروف عند العرب بالوليد بن الرقة"، وأبابى أو أيوفيس من الأسرة السادسة

---

639 ميخائيل شاروبيم، الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث، 4 مجلدات (القاهرة عام 1898 – 1900م) 1 : 24.
640 شاروبيم، الكافى، 1 : 41.
641 شاروبيم، الكافى، 1 : 89 – 97.

عشر يعرفه العرب بإسم الربان بن الوليد الذى كان يوسف وزيراً له. واستخدم شاروبيم علم المصريات فى الرجوع إلى معاهدة رمسيس الثانى مع ملك الحيثيين، ونقوش بيانخى بجبل برقة المودعة بمتحف بولاق وتصف غزوه لمصر[642].

ويشارك شاروبيم الطهطاوى وافتخاره بـاعتراف اليونان بريادة مصر للحضارة، ويسير على نهج الطهطاوى ومؤرخى الغرب فى إبراز طغيان الغزاة الفرس، والترحيب بالإسكندر كمحرر. ويفرد شاروبيم صفحات للفترة من الإسكندر إلى الفتح العربى تعادل ما خصصه للفراعنة.

وفى مطلع القرن العشرين، كان الوطنيون يأخذون على التعليم الخاضع للإنجليز إهماله تاريخ مصر القديمة، وعندما سافر سلامة موسى إلى أوروبا بعد إتمامه الدراسة الثانوية عام 1907م، شعر بالحرج لعجزه عن الإجابة عن أسئلة حول مصر القديمة، وإتهم موسى الإنجليز بإقصاء تاريخ مصر القديمة من برامج الدراسة بالمدارس، حتى لا يؤدى تدريسه فى المدارس إلى تغذية الروح الوطنية والمطالبة بالاستقلال[643]. ورأى مصطفى كامل – مؤسس جريدة "اللواء" والحزب الوطنى– فى مصر أول بلد متحضر فى التاريخ، كانت لها السبق على الجميع[644]. وبعد وفاته فى ريعان الشباب، خلد المصريون ذكراه بتمثال برونزى يستند إلى رأس أبى الهول، لا يزال يزين ميدان مصطفى كامل.

أما لطفى السيد الذى ينتمى إلى حزب الأمة، والذى ركز جهوده على الإصلاح التدريجى وليس الاستقلال الفورى، فقد التمس لرؤيته القومية جذوراً متينة فى مصر القديمة، ودعا إلى زيارة المتاحف والمواقع الأثرية الفرعونية والإسلامية "لأننا فى حقيقة الأمر لا نعرف الكثير عن وطننا وأمجاده بقدر ما يعرف السياح"[645]. وكتب فى هذا السياق:

> "لا أطالب كل مصرى أن يظهر قدرة على الملاحظة كشامبليون، ولا معرفة بالآثار المصرية كماسبيرو، ولا براعة فى الآثار مثل كمال بك. فما نحن بحاجة إليه محاضرات منتظمة، وتعليم مستمر، بالجامعة المصرية وغيرها من المنشآت

---

[642] شاروبيم، الكافى، 1 : 61، 63، 86، 88، 141، 143.
[643] سلامة موسى، تربية سلامة موسى.
[644] Charles Wendell, Evolution, 265, 267.
[645] Wendell, Evolution, 272.

العلمية، من النوع الذى ييسر لأبناء مصر سبيل التعرف على الماضى المجيد، ليس بطريقة علمية متعمقة، ولكن على نحو ما يفعل السائح الأوروبى الذى يزور بلادنا من تحصيل للمعرفة عن تاريخنا وتاريخ أجدادنا"[646].

وإذا أحصينا الكتب العربية التى نشرت عن مصر القديمة نجد أن هناك كتابين نشرا فى السبعينات، وثلاثة فى الثمانينات، وستة فى التسعينات، و24 كتاباً فيما بين (1900 – 1914م). ويوحى الرقم الأخير بزيادة – وإن كانت متواضعة– فى الإهتمام بمصر الفرعونية، لعله كان مشجعاً لأحمد كمال.

غير أن "علم المصريات للمصريين" – شأنه شأن الاستقلال– بدا محيراً عشية الحرب العظمى. فقد أدى رفض مصلحة الآثار المصرية توظيف خريجى قسم الآثار المصرية بالمعلمين العليا، إلى إغلاق القسم عام 1913م. ومنى مشروع متحف أسيوط بفشل ذريع ، فقد تسربت الآثار التى تم الكشف عنها إلى الأسواق، واضطرت مصلحة الآثار إلى إلغاء ترخيص التنقيب الذى أعطته لأحمد خشبة باشا. وفى الجامعة المصرية إبتعدت مادة "الشرق القديم" عن التركيز على مصر الفرعونية. وفى أوائل العشرينات قام طه حسين بتدريس التاريخ اليونانى – الرومانى مع الإهتمام بمصر فى العصرين البطلمى والرومانى[647].

وعند تقاعد أحمد كمال عام 1914م، لم يكن هناك من يخلفه على الساحة من المصريين ، وكان ولده حسن قد ذهب إلى إنجلترا لدراسة المصريات، ولكنه اتجه إلى دراسة الطب هناك. ووجد تلميذا أحمد كمال: سليم حسن، ومحمود حمزة (الذى تزوج إبنة كمال) وجدا نفسيهما يعملان بالتدريس بالمدارس الثانوية، وحاولا الإبقاء على معرفتهما بالمصريات بالتردد على المتحف والإرتباط بأستاذهما أحمد كمال. وحتى شفيق غربال – الذى أصبح مؤرخاً شهيراً لمصر الحديثة– عمل مدرساً بالمدارس الثانوية، وبدا أن المصريات ستفقد جيلاً آخر من المتخصصين[648].

---

[646] الجريدة، 8 ديسمبر عام 1912م.
[647] كان المقرر الذى قدمه محمود فهمى استثناء فى هذا الصدد، أرشيف جامعة القاهرة (ى 6 / ف 87).
[648] عن حمزة وسليم حسن، انظر: Who Was Who 3; 189, 192 – 193.

وجاءت ضربة أخرى عام 1916م، عندما هاجم جورج دارسى – سكرتير عام مصلحة الآثار– مقالاً لأحمد كمال، فلم ينقد ما تناوله من نقاط فحسب، بل شكك فى كفاءته فى فقه اللغة المصرية القديمة، وأدت العداوة الشخصية إلى زيادة حدة الصدام، فقد كان دارسى الذى يصغر أحمد كمال بثلاثة عشر عاماً هو الذى تعرض لمنافسة من جانب أحمد كمال فى الترقية قبل ربع قرن من الزمان، ورغم أن دارسى انضم للمجمع العلمى المصرى قبل أحمد كمال بعشر سنوات، وتخطاه فى الترقيات بمصلحة الآثار.

هاجم دارسى الدراسة التى قدمها أحمد كمال بالمجمع العلمى المصرى، ونشرت بمجلته ، وكانت تعنى بتحليل أصول الرموز الهيروغليفية. ورأى كمال أن الكلمة اليونانية "Aiguptos" التى جاء منها إسم مصر يعود أصلها إلى مدينة قفط بالصعيد "Coptos " وليس إلى إسم معبد بمنف على نحو ما ذهب إليه هنريش بروجش. ويبدو أن وطنية كمال جعلته يبحث لكلمة "مصر" الإسم العربى لمصر عن جذور هيروغليفية بدلاً من أن ينسب المصطلح إلى جيران بلاده الساميين[649].

وقال دارسى: "إن أحمد كمال قدم عدداً من التأكيدات التى لا يقبل بها متخصص بالمصريات"، وأن كمال وقع فى خطأ لغوى وتاريخى فادح عندما جعل للرموز الهيروغليفية ما يقابلها من بعض الحروف العربية، وتعديله لترتيبها حسبما أراد، واتهم كمال بإغفال السياق التاريخى للكلمات الهيروغليفية، والمبالغة فى تأثير الساميين – بما فيهم العرب– على مصر القديمة[650].

وقد تصدى أحمد كمال لدارسى كاتباً ومحاضراً بالمجمع العلمى المصرى، فقال: "إن اللهجات المصرية القديمة اختلفت من حيث درجات الصوتيات لبعض الرموز، وأنه اتبع قواعد فقه اللغة فى تغيير المعانى. ودافع عن القائمة الطويلة للكلمات العربية التى استخلصها من اللغة المصرية، وأعلن أن "اللغة المصرية هى اللغة الأم للعربية، وكذلك العبرية"[651]. وإذا كانت وطنية أحمد كمال قد أثرت على علمه، فإن بترى لا يخلو من

---

649 BIE Ser. 5, 10, Fa Sc 1. (1916) 133 – 76.
650 BIE Ser. 5, 10, Fa sc 2 (1916) 359 – 60, 192 – 93.
651 BIE Ser. 5, 11, Fa sc 1 (1917) 331, 325 – 38.

الذنب من هذه الناحية. ويجب النظر إلى ما فعله دارسى فى السياق الإمبريالى لذلك العصر.

وفى نفس العام – 1916م– أعلن أحمد كمال إنتهاءه من كتابة 16 مجلداً من قاموس اللغة المصرية وما يقابلها من العربية والفرنسية، الذى يقع فى 22 مجلداً. وقابل حسن بن أحمد كمال بين العمل الفردى الذى قام به والده، وعمل الفريق الذى قاده إيرمان فى برلين لإعداد قاموس ضخم للغة المصرية. وإختفت خطة قاموس كمال بوفاته، ولا يعرف مصير ما قام به من عمل يجمع بين العلم والوطنية، وهكذا عندما عطلت الحرب العالمية الأولى الجهود العادية، كان جيل ماسبيرو، وبترى، وإيرمان، وأحمد كمال قد ارتقى بعلم المصريات إلى مدى يفوق ما حققه ماريت، وليبسيوس، وبيرش من قبل. وجاء التقدم الذى تحقق فى مجالات علم المتاحف، وفقه اللغة، والنقوش، وتاريخ الفن، والتاريخ ، والأساليب الفنية للتنقيب عن الآثار. ولكن الصورة من المنظور الوطنى المصرى لم تكن مشجعة. كان الإهتمام بمصر القديمة ينضح عن النخبة المتعلمة، ولكن كفاح أحمد كمال لجعل علم المصريات للمصريين منى بالفشل، وشغل بعد تقاعده بالعمل على إعداد قاموسه. ولم يكن يعلم أن جهوده ستثمر فجأة بعد نهاية الحرب فى إصرار الوطنيين على بسط سيطرتهم على مصلحة الآثار، وإعداد المصريين المتخصصين فى المصريات، وفى الزهو الوطنى بإنجازات قدماء المصريين.

وفى مجال الآثار الإسلامية الأقل تقدماً، قامت "لجنة حفظ الآثار والفن العربى" عام 1914م بوضع خطة للمحافظة على الآثار الإسلامية والقبطية،وعندما حرمت الحرب اللجنة من رئيسها ماكس هرتز فجأة، برز على بهجت بجهده الشخصى كرائد للآثار الإسلامية، وأول مدير مصرى لمتحف الفن العربى، ويعالج الفصل السادس هذه التطورات.

الفصل السادس
الفن الإسلامى والآثار والاستشراق
لجنة حفظ الآثار وعلى بهجت

"لم تبلغ أى أمة الدرجة العالية التى بلغها العرب فى العمائر الحجرية، وبراعتهم فى البناء لا يعادلها سوى عدم اهتمامهم بالحفاظ على ما قاموا ببنائه ... فبمجرد أن ينتهى بناء مسجد أو قصر، يتركونه (دون صيانة) حتى ينهار ... والأتراك هم أقل الأمم على وجه الأرض إحتفالاً بالفن، لقد بنى محمد على، وعباس باشا، وسعيد باشا، وإسماعيل باشا جدراناً أكثر مما فعل جميع من سبقوهم، ولكن أى نوع من الجدران تلك، يا سبحان الله ! لو كان أحدهم قد ألهم فكرة إقامة قصر على الطراز العربى ! ... لوجد حوله أخيراً كل أنواع الحفر على الخشب البديعة الصنع، والسقوف ذات الزخارف الملونة والتصميم المتقن، والمشربيات الرقيقة الأنيقة التى تحاكى أرق الخيوط. ولكنهم أهدروا هذه الكنوز التى كان يمكن جمعها بأقل جهد ممكن ... ولكنهم الأتراك ... حاقت بهم لعنة إله الفنون ! "

Gabriel Charme, Cinq Mois au cairo et dans la Basse – Egypte.

عبر الصحافى الفرنسى جابرييل شارم عن آرائه تلك عام 1880، قبيل تأسيس "لجنة حفظ آثار الفن العربى"، والإحتلال البريطانى لمصر، ويبدو أن تلك الآراء قد فصلت على قياس إدوارد سعيد. فشارم يعظم من شأن الفن "العربى"، بينما ينتقد صناعه انتقاداً مراً، ويصب اللعنات على الأتراك لتفاهة الذوق الفنى عندهم، ويهاجم أسرة محمد على التى تحكم مصر لإهمالها الحفاظ على الموروث التاريخى[652]. فالتدخل الأوروبى وحده كفيل بإنقاذ الموقف. فبالنسبة لشارم يسير الاستشراق، والإمبريالية والحفاظ على التراث التاريخى معاً، يداً بيد.

[652] Gabriel Charme, Cinq Mois au Caire et la Basse – Egypte (Cairo, 1880), 47 – 48, 57 – 58, 111.

ويبدو أن هذا الفصل الذى خصصناه لدراسة التواصل الأوروبى – المصرى فى لجنة ومتحف الفن العربى، يدعم نظرية إدوارد سعيد، ولكن الأدلة التى يقدمها تبدو أقرب إلى مؤرخين من أمثال: جون ماكنزى ومارك كرينسون، الذين يرون الحاجة إلى معالجة أكثر انفتاحاً للتواصل بين الاستشراق والشرق، تقوم على أسس تاريخية[653]. فالإمبريالية فى مصر لم تكن وحدانية الطابع، والأوروبيون من أعضاء "لجنة حفظ آثار الفن العربى" لم يكونوا – ببساطة– أدوات فى خدمة النزعات الإمبريالية لبلادهم. فقد جاءت الشخصيات الرئيسية فى اللجنة فيما بين 1881 – 1914 من بلاد ليس لها فى مصر سوى تطلعات إمبريالية متواضعة، ونعنى بذلك الألمانى يوليوس فرانتز، والنمساوى – المجرى ماكس هرنز.

وعلى الجانب المصرى كان على بهجت يماثل أحمد كمال، ولكن فى مجال الآثار الإسلامية ومتحف الفن العربى، وكان عليه أن يناضل – مثل كمال– معركة الصعود بتكوين نفسه كمتخصص فى الآثار الإسلامية فى ظل سطوة الإمبريالية الغربية. وقد انضم على بهجت فى شبابه إلى جمعية سرية، وكاد يفقد وظيفته نتيجة اصطدامه بمستشار المعارف البريطانى دوجلاس دانلوب. غير أنه تعلم من الأوروبيين – مثلما فعل كمال– وعمل بجد واجتهاد لينال اعتراف الأوساط العلمية الدولية.

وعلاقة على بهجت بيعقوب أرتين تعكس التركيبة التى تجمع بين الأصل العرقى ، والعقيدة الدينية، والوعى الوطنى فى الشرق الأوسط الحديث، فعلى بهجت مصرى مسلم من أصول تركية، بدأ حياته العلمية فى متحف الفن العربى برعاية أرتين، الأرمنى المتمصر الكاثوليكى، وصديقه ورئيسه الوزير حسين فخرى. وقد يرفض الوطنيون أرتين وفخرى بإعتبارهما من المتعاونين مع الإمبريالية، ولكنهما أنقذا على بهجت من طغيان دانلوب، ووجهاه نحو مستقبل لامع فى الفن والآثار الإسلامية.

وعمل على بهجت تحت رئاسة ماكس هرتز النمساوى – المجرى رئيس لجنة حفظ آثار الفن العربى، وأمين متحف الفن العربى، الذى انتهت مدة خدمته فجأة عند وقوع الحرب

653 Edward Said, Orientalism (New York, 1978); John Mackenzie, Orientalism: History, Theory and the Arts (Manchester, 1995); Mark Crinson, Empire Building: Orientalist and Victorian Architecture, (London, 1996).

العالمية الأولى، لأنه أصبح عدواً – فى أعين الإنجليز– بحكم كونه من رعايا دولة معادية لبريطانيا. وكان بهجت قد بدأ بالفعل حفائره فى الفسطاط – أول حاضرة عربية – إسلامية لمصر– تلك الحفائر التى ستجعل من بهجت رائداً للآثار الإسلامية، وبرحيل هرتز أصبح بهجت مرشحاً ليكون أول مصرى يدير متحف الفن العربى.

وتمثل منشورات "لجنة حفظ الفن العربى"، التى لم يهتم أحد بالرجوع إليها عند دراسة تاريخ مصر الثقافى، تمثل مصدراً أساسياً لهذا الفصل. فقد احتفظ أوروبيون من أعضاء اللجنة بمحاضر تغطى الكثير من تاريخها، ولكن الأمر يتطلب قراءة فاحصة للتعرف على وجهات نظر المصريين من الأعضاء.

وكان اختيار المصطلح فى هذا الفصل محيراً، ترى هل من الأفضل استخدام مصطلح "الفن العربى" الذى شاع منذ البداية، أو استخدام مصطلح "الفن الإسلامى" الذى لا يعرف سواه اليوم؟ فى أواخر القرن التاسع عشر، آثر ستانلى لين بول استخدام مصطلح "فن السراقنة" على استخدام مصطلح "الفن العربى"، ومصطلح "المحمدى" على مصطلح "المورى"، وهى جميعاً مصطلحات بائدة اليوم. ولما كان تمييز مارشال هودجسون بين "الإسلامى" و"المتأسلم" لم ينل حظاً من الشيوع، فلا يبقى أمامنا سوى الإختيار بين "الفن الإسلامى" و"الفن العربى". واستخدام مصطلح "الفن العربى" يتضمن مخاطرة الإعتقاد بأن العرب، والترك، والفرس، والبربر، والعناصر الزنجية، واستخدام المصطلح – أيضاً – يتنافى مع واقع الدولة العثمانية متعددة اللغات والأعراق، وولاية مصر التابعة لها، والدول الإسلامية السابقة عليها. وعلى كل، يثير مصطلح "الفن الإسلامى" اليوم نفس النوع من التساؤلات التى حيرت هودجسون من قبل مثل: هل يستطيع المعمارى أو الحرفى المسيحى أن ينتج فناً إسلامياً ؟ لقد فضل هذا الكتاب عدم الإتساق العرضى على الإتساق السطحى الذى يغلف هذه الإشكالية. وسوف نستخدم مصطلح "الفن العربى" أحياناً عندما نتكلم عن المنظور الأوروبى المبكر لهذا الفن، ومصطلح "الفن الإسلامى" عندما نتناول ما يعكس المنظور الحالى[654].

---

[654] Stanley Lane – Poole, Cairo: Sketches of Its History, Monuments, and Social Life (London, 1898 reprinted New York, 1973), 99 – 100; Marshall Hodgson, The Venture of Islam, 3 vols., (Chicago, 1974) 1 : 57 – 60, 95.

إرهاصات حفظ الآثار – القاهرة على طريقة هاوسمان

لو قدر لإدمى فرانسوا جومار أن يزور القاهرة بعد ستين عاماً من رسمه لخريطتها بتكليف من بونابرت، لما وجد صعوبة فى التعرف على المدينة. وكتب آرثر رونيه عام 1863 الذى شهد تولية إسماعيل الحكم: "مدينة القاهرة لازالت على حالها، فعلى الأقل استمرت آثارها فى الوقوع – بهدوء– فى وهدة الخراب على طريقة الشرق الأبدية، وعلى الأقل لم تبذل أى محاولة على طريق الأعمال التى يقال لها]تحسين[أو]ترميم["[655].

ظلت طبوغرافية وسكان القاهرة على حالهما فى حكم محمد على، على نقيض ما شهده ميناء الإسكندرية من إزدهار، ورغم التغيرات بعيدة المدى التى حدثت فى عهده. قام محمد على بردم بركة الأزبكية وأزال المصاطب التى تعوق المرور، وعمل على كنس الشوارع وإزالة النفايات، ووسع شارع الموسكى وزاد من طوله، وبدأ شق شارع محمد على لربط الأزبكية بالقلعة. وأهمل عباس الأول فكرة شق الطرق، وأضاف ضاحية العباسية العسكرية، وسمح لشركة بريطانية ببناء الخط الحديدى الذى يربط القاهرة بالإسكندرية. وبدأ العمل فى حفر قناة السويس فى عهد سعيد – وحملت إسمه مدينة بورسعيد– غير أنه لم يدخل تغييراً جذرياً على القاهرة[656].

وتم تغيير ذلك كله على يد إسماعيل، الذى أدى اهتمامه بالتجديد الحضرى إلى تغير وجه القاهرة، ووضع أسس إقامة "لجنة حفظ الآثار" ومتحف الفن العربى. وراحت إميليا إدواردز تتحسر – عام 1882– على القاهرة القديمة، "قبل عشرين عاماً. كانت قاهرة الخلفاء لا تزال كما هى، فيما عدا عاديات الزمن بمآذنها الجميلة ومساجدها المنمقة، وأسبلتها العامة، وبواباتها العريقة، رغم أنها كانت تتجه ببطء نحو التداعى فى بلد لا يبذل فيه أى جهد لوقف تقدم ذلك التداعى، غير أنها كانت تبدو بديعة فى حالتها البائسة كما كانت فى أيام عزها"[657].

---

655 Arthur Rhone, "Coup d'oeil sur l'etat present du Caire ancien et moderne" Gazette des Beaux Arts 24 (1881) 420 – 32; 25 (1882), 55 – 67.

656 Janet Abu – Lughod, Cairo: 1001 Years of the City Victorious (Princeton, N. J., 1971) 83 – 101; see also Andre Raymond, Le Caire (Paris, 1993), 289 – 305. Doris Behrens – Abouseif, Azbakiyya and Its Environs 1476 – 1879 (Cairo, 1985), 81 – 100.

657 Amelia Edwards, "The Destruction of Cairo" Academy 546 (21 October 1882), 301.

قام مخطط المدن البارون جورج هاوسمان بمرافقة الخديو إسماعيل عند تفقده باريس الجديدة أثناء المعرض الدولى عام 1867[658]. وكان على مبارك بصحبة إسماعيل فى تلك الجولة، ودفع إسماعيل مبارك إلى تقليد عمل هاوسمان بالقاهرة لتناظر باريس نابليون الثالث. وقد ربطت بين إسماعيل ومبارك زمالة دراسة قديمة عندما كانا معاً فى البعثة الدراسية بباريس فى الأربعينات، فقاما بإقحام محمود الفلكى الذى درس – أيضاً – بباريس فى الخطة، فكلف بوضع مخطط لتجديد القاهرة. وتضمن المخطط ميادين محورية تتفرع منها طرق شعاعية، وحدائق عامة، مع إنارة الشوارع بالغاز، ومدها بالمياه، وإقامة جسر عبر النيل، وطريق يربط القاهرة بالأهرام، وحتى دار للأوبرا على نسق لاسكالا فى ميلانو. وعندما استضاف إسماعيل كبار الشخصيات الأوروبية لحضور حفلات قناة السويس عام 1896، كان باستطاعته أن يطلعهم – على الأقل– على ما ستكون عليه القاهرة التى خطط لها أن تعكس صورة باريس[659].

وتضمن حى الإسماعيلية الذى يقع بين الأزبكية والنيل طرقاً متفرعة من ميادين محورية، وكان ميدان قصر عابدين ذو الطراز الكلاسيكى الجديد، واحداً من تلك الميادين. وتدهورت المدينة القديمة المكتظة بالسكان – التى أصبحت تعرف بقاهرة "العصور الوسطى"، أو "بالإسلامية" أو "بالفاطمية"– عندما تبع علية القوم الخديو فى هجرته إلى الأحياء الحديثة. وكانت طرقها الضيقة غير المنتظمة تعج بالمشاة والدواب ، ولكن العربات ذات العجلات عادت إلى طرقها فى القرن التاسع عشر، لأول مرة منذ عهد الرومان. وكان محمد على أول من استخدم عربة ركوب أوروبية الطراز، فى مدينة القاهرة، وبحلول عام 1875 كانت هناك تسعمائة عربة ركوب بالمدينة، وضعف هذا العدد من عربات نقل البضائع[660]. وهنا تم شق الطرق عبر المدينة القديمة لتيسير حركة العربات فيذكر آرثر رونيه:

"يعد شارع محمد على أحد (المنشآت) الكبرى بالقاهرة وموضع الفخر والإعتزاز. لقد خرج كالطلقة من الأزبكية دون أن يدرى أين يذهب، ووجد نفسه بعد كيلو

---

658 Crinson, Empire Building, 172.

659 Abu – Lughod, Cairo, 103 – 13.

660 هناك كتاب يناقش إختفاء العربات ذات العجلات من العالم العربى فيما بين حكم الرومان والقرن 19
Richard Bulliet, The Camel and the Wheel (Cambridge, Mass., 1975).

مترين يصب عند الميدان الذى يحتل جانباً منه مسجد السلطان حسن الذى لم يستطيع تفاديه. وخلال مسيرته جرف فى طريقه تلاً مليئاً بالبيوت والمساجد ... ولاستكمال هذا الطريق بعد تفاديه مسجد السلطان حسن، إقتطع ركناً هائلاً من جامع الأمير قوصون (1329)، أحد أكبر وأجمل المساجد"[661].

وأدان جابرييل شارم الأسرة الحاكمة لإهدارها الناحية الجمالية: "إن ما أخذه إسماعيل باشا على وجه الخصوص – من الفنون يمثل تركيبة غير مستساغة من أكثر الأساليب الأوروبية إبتذالاً، وأكثر الأساليب التركية بشاعة"[662]. وكان الأوروبيون من زوار القاهرة لا يبحثون عن باريس، ولكن عما استقر فى مخيلتهم عن "ألف ليلة وليلة". وعبر لين بول عن حنينه لإنجلترا المفقودة، وأمله فى القاهرة التى مازالت تنتمى إلى العصور الوسطى، ولكنه أضاف:

"إن من حق الفنانين وعشاق القديم، الذين يهتمون مثلى بالماضى أكثر من اهتمامهم بالمستقبل، أن يشعروا بالأسى لتلك التغيرات التى تتم فى مصر بتأثير الأوروبيين، ولكن ... هذه التغيرات لا يمكن تفاديها، وتعد محاولة سد الطريق فى وجه تلاشى النظام القديم فى القاهرة مضيعة للوقت، تماماً كما لو كنا نحاول تبديد انتصار الديمقراطية المعيبة فى إنجلترا"[663].

وحتى عنما حاول إسماعيل أن يبعث السرور فى نفوس الأوروبيين بترميم الآثار، لم يحقق نجاحاً، وفى ذلك تقول إميليا إدواردز:

"هناك طريقتان تتبعان فى الترميم: أولهما أن يهدم البناء القديم ثم يعاد بناءه على أساس تقليد الأسلوب الإيطالى القوطى، والأخرى أن يهدم جزئياً، وتنزع الزخارف الخشبية المحفورة من السقوف، وينزع البلاط القيشانى الجميل من الحوائط، ثم يوضع مكانها الأسمنت والجص، وإحاطة الأخير بشرائح من الجرانيت المصقول أو الرخام. وفى كلتا الحالتين يباع البلاط للسياح وتجار الآثار، وتتحول الزخارف

661 Rhone: Coup d'oeil, 62.
662 Gabriel Charmes, "L'Art arbe au Caire", Journal des debats, 2 August 1881.
663 Lane – Poole, Cairo, 290.

الخشبية المحفورة إلى وقود للعمال ... وقد قم ترميم مسجدى السيدة زينب والحسين حسب الطريقة الأولى، وتقدم مساجد قيصون، والمؤيد، واليوسفى ، وأزبك، كنماذج للطريقة الثانية"[664].

وكان شارم أقسى فى إنتقاده:

"ربما كان التدمير الخالص والبسيط أفضل مائة مرة ! لأننا نستطيع أن نرى الرخام النادر بمسجد السلطان حسن يغطى بطلاء زائف يمثل الرخام ... فقد قام وزراء إسماعيل بطلاء الآثار الرئيسية للفن العربى بهذا الطلاء البشع لاستقبال ضيوف إحتفالات قناة السويس. اللهم إغفر لهم، فهم لا يدرون ما يفعلون"[665].

حفظ المواقع التاريخية فى أوروبا، وتقدير الفن العربى

كان ثمة اتجاهان فى أوروبا، مهدا الطريق لقيام لجنة القاهرة ومتحف الفن العربى، هما : حركة الحفاظ على المواقع التاريخية، وزيادة تقدير الفن "العربى". فقد أطلقت التغيرات التى خلفتها الثورتان الفرنسية والصناعية، شعوراً قوياً بالحنين إلى الماضى، تمثل فى الدعوة إلى الحفاظ على المواقع الأثرية. وسعى فرانسوا جيزو – وزير لوى فيليب– إلى التماس الشرعية لملكية يوليو بدعم مزيج من ذكريات الثورة، ونابليون، والنظام الملكى القديم. وعينت الحكومة الفرنسية مفتشاً للآثار التاريخية عام 1830، وأنشأت عام 1837 "لجنة الآثار التاريخية". وقد كانت جهود فيكتور هوجو وراء إقامة هذه اللجنة، وخدم الروائى بروسبير ميريميه كبيراً للمفتشين باللجنة. وخاض أوجين إيمانويل فيوليه لودوك – كبير المعماريين باللجنة– معركة لإحياء الطراز القوطى فى العمارة ضد دعاة النزعة الكلاسيكية الجديدة الذين إتخذوا من "مدرسة الفنون الجميلة"، ومجلس مبانى الدولة موقعاً لهم. وكانت فلسفة فيوليه لودوك ترمى إلى إنتزاع الإضافات المتأخرة الغربية من الأثر، وأن يتم – عند الضرورة – إعادة بناء أجزاء منه مطابقة للنمط الأصلى.

---

664 Edwards, "The Destruction of Cairo".
665 Gabriel Charmes, Cinq Mois, 130.

وبحلول الخمسينات، إضطر هاوسمان نفسه أن يقدم بعض التنازلات إزاء المواقع الأثرية عند إعادة تخطيط باريس[666]. وفى عام 1887، صدر أول قانون فرنسى يجيز نزع ملكية المنشآت الخاصة ذات الطبيعة التاريخية.

ولم تعرف بريطانيا التى تبنت حرية العمل، لجنة مماثلة للجنة الفرنسية للآثار التاريخية، ولكن قام وليام مورس وبعض أتباع جون راسكين بتشكيل "جمعية الآثار القديمة" عام 1877. ودعا راسكين إلى ترميم الآثار وإبقائها على حالتها الراهنة، متأثراً فى ذلك بفيوليه لودوك. وفى العام 1882 أنشأت بريطانيا "تفتيش الآثار القديمة" برئاسة اللفتنانت جنرال بت ريفرز[667]، وذلك بعد فرنسا بنصف قرن من الزمان. وتبع ذلك صدور قانون ضعيف لحفظ المواقع التاريخية عام 1833، ولم يصدر قانون حازم لهذا الغرض إلا عام 1931. وقد استوردت القاهرة اللجنة متأثرة فى ذلك بالنموذج الفرنسى، مثلما كانت الحال بالنسبة للكثير من المؤسسات، ولم يكن هناك بديل بريطانى فى الأفق بعد[668].

كانت الإشارات الضمنية عن الكتاب المقدس، والكلاسيكيات والفراعنة فى الفن الغربى ، جزء من سعى الغرب إلى الماضى الذى يدور فى مخيلته. فالأفكار الفنية التى صور بها العرب أو الترك أو الفرس، أبرزت – على النقيض– "الآخر الشرقى" الذى يكن مختلف صنوف العداء، كما يعد غريباً. فقد أضاف الرحالة المبشرين الكاثوليك إلى جولاتهم الدينية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، زيارة الخرائب الفرعونية والكلاسيكية، ولكنهم نفروا من زيارة المساجد، واعتبروها معاقل شاذة للتعصب والهرطقة، وحتى لو أرادوا زيارة المساجد لم يكن مسموحاً – عندئذ– لغير المسلمين بدخولها. وقد شذ عن ذلك القنصل الفرنسى بينوا دى ماليه والفنان لوى فرنسوا كاساس اللذان أبديا تقديرهما لمساجد القاهرة، وهو أمر مألوف فى القرن الثامن عشر. فقد كتب دى ماليه: "إن المرء لا يستطيع أن يبدى إعجاباً كافياً بجمال تلك القباب، وعظمتها، ونسبها الهندسية، وشموخها، والفخامة المدهشة لبعضها. والزخارف الداخلية التى تزينها لا تقل جدارة بالإهتمام، بعضها يتخذ طابع الإفريز (الكرانيش)، والبعض الآخر يمثل زهوراً متداخلة،

666 Hans Huth, "The Evolution of Preservtionism in Europe", Journal of the American Society of Architectural Historians (July / October 1941), 5 – 12.
667 Who Was Who 3 : 337.
668 John Pemble, Venice Rediscovered (Oxford, 1995), 126 – 33.

وبعضها من الخشب المعشق ... "[669]. وعلى كل، حذف دى ماليه من لوحاته المبانى الإسلامية، وعبر عن ذوق كلاسيكى متحفظ، عندما اقترح نقل عمود بومبى من الإسكندرية إلى باريس، وليس مسلة كليوباترا المغطاة بالنقوش الهيروغليفية التى قام برسمها. وكانت الأخيرة هى التى جذبت اهتمام خلفائه فى القرن التاسع عشر.

وبين كتاب دينون "رحلة إلى مصر" (1802) المساجد مظللة على البعد[670]. وتضمن "وصف مصر" لوحات تفصيلية عن مسجد السلطان حسن، وغيره من المساجد، ولكن النص لم يحتو إلا على القليل عن العمارة الإسلامية. ويشكو شارم من أن "رفاق بونابرت" شغفوا بالخرائب الكلاسيكية والفرعونية، ولكنهم "ذكروا القليل عن قيمة آثار القاهرة التى وردت باللوحات ... وعندما صوروا مسجد السلطان حسن، نسوا شيئاً واحداً: الإفريز العظيم الذى يتوج هذا الصرح"[671]. ويأتى غياب القاهرة الإسلامية من لوحة الغلاف لوصف مصر مؤكداً لهذه النقطة.

ومع مرور عقود القرن التاسع عشر، كان ثمة نوعان – على الأقل– من الاستشراق سعياً وراء فهم جوهر الثقافة الإسلامية. وأحد هذين النوعين كان إدوارد وليم أستاذاً فيه، يقوم على فهم المجتمع الإسلامى من خلال النصوص العربية مثل القرآن، وألف ليلة وليلة، والنوع الآخر يتمثل فى الرسم والتصوير الفوتوغرافى، ورسم العمارة والشوارع ، والطبيعة، والأشخاص (وتصور غالباً "نماذج" عرقية). وكانت كلمة "مستشرق" عند الفرنسيين تجمع بين الرسام والعالم. ورغم أن لين استخدم النصوص الأدبية لفهم جوهر المجتمع الإسلامى والمصرى، فقد قدم الكثير من الرسومات. ويعتمد كتابه "عادات وتقاليد المصريين المحدثين" على وسيلة استشراقية ثالثة هى التحقيق الشفاهى والملاحظات الإثنوغرافية[672].

وقد اكتسبت "ألف ليلة وليلة" شعبية فى الغرب بفضل ترجمتها الفرنسية التى قام بها أنطوان جالاند (1704 – 1717)، وما تلا ذلك من ترجمتها عن الفرنسية إلى الإنجليزية،

---

669 Carre, Voyageurs et ecrivains, 1 : 62.
670 John Sweetman, The Oriental Obsession: Islamic Inspiration in British and American Art and Architecture 1500 – 1920 (Cambridge, Mass., 1988), 115.
671 Charmes, "L'Art arabe"; Description, vol. 1. Antiquites.
672 Leila Ahmed, Edward W. Lane (London, 1978).

ورجع كل من إدوارد وليم لين، وريتشارد بيرتون إلى النص العربى عند قيامها بتقديم ترجمات منافسة للترجمة القديمة (نشرت فى 1838 – 1841 و1885 على التوالى)، وقد قام لين بحذف الفقرات التى تناولت مشاهد جنسية صريحة، أما بيرتون فقد أبقى عليها . وقام ستانلى لين بول فيما بعد بفصل ملاحظات عمه العظيم لين التى كتبها باستفاضة فى حواشى ترجمته لألف ليلة وليلة عن نص الترجمة، وأعاد نشرها بعنوان: "المجتمع العربى فى العصور الوسطى: دراسات من ألف ليلة وليلة" (1883). وفى مجال الحديث عن التجارب الشخصية فى القاهرة، أعلن لين بول أن إدوارد وليم لين "لم يقع فى أى مفارقات تاريخية: لأن المجتمع العربى الذى تحرك فيه صلاح الدين، وبيبرس، وبرقوق، وقايتباى ... بقى غالباً على حاله دون تغيير حتى عصر محمد على، عندما قضى السيد لين سنوات طويلة من العلاقات الحميمة مع سكان القاهرة ... إن استمرارية التقاليد الاجتماعية العربية لم تنقطع عملياً فى الغالب منذ بداية الخلافة حتى القرن الحالى ..."[673]. ومع وجود علماء يروجون لفكرة جمود الزمن فى الشرق، ندر أن نجد سائحاً يكتب خطاباً لأسرته عن القاهرة المعاصرة دون أن يتمثل "ألف ليلة وليلة".

ولعل تقدير الأوروبيين للفن الإسلامى والعمارة الإسلامية لم يزدهر إلا عندما أرخوا لها، واعتبروها من "العصور الوسطى" وقد صنف "وصف مصر" الآثار الإسلامية على أنها "حديثة" فوضعها ضمن "الدولة الحديثة" وليس "القديمة". وجاء ابتداع مصطلح "أوروبا العصور الوسطى" فى القرن التاسع عشر ليفترض قياساً على ذلك "إسلام العصور الوسطى"، وبذلك لم تعد "الآثار العربية (أو الإسلامية)" تبدو متناقضة[674].

لم يحظ المستشرقون الفنانون من أمثال أوجين ديلاكروا، وجان ليوجيروم، وهنرى ماتيس، بالإهتمام إلا فى وقت متأخر، ولكن ما يهمنا هنا هم الفنانون الذى جاء تناولهم للعمارة الإسلامية بالقاهرة موثقاً بصورة قوية. فـابتداء من الثلاثينات قدمت الكتب التى حفلت بالرسومات توثيقاً تفصيلياً للفن "العربى" الذى أغفله "وصف مصر"، وكان لكتاب باسكال كوست "العمارة العربية أو آثار القاهرة" (باريس 1839) فضل الريادة فى هذا

673 Edward William Lane, Arabian Society in the Middle Ages: Studies from the Thousand and One Nights (London 1987).
674 Irene A. Bierman, "The Time and Space of Medieval Cairo" Unpublished Paper, New York 1998.

المجال، تخرج كوست فى "مدرسة الفنون الجميلة"، والتحق بخدمة محمد على عام 1817 بتوصية من جومار، وأصبح فيما بعد كبير المعماريين فى حكومة الباشا، فحصل على أمر من محمد على يصرح له بدخول وقياس ورسم مساجد القاهرة دون أن يعترض طريقه أحد[675]. وقد زين صفحة غلاف الكتاب برسم لمنظر طبيعى للقاهرة على ضفة النيل، وهو ما تجاهله "وصف مصر" (انظر الشكلين رقم 1 ورقم 38).

وتبع ذلك صدور كتاب روبرت هاى "تصاوير القاهرة" (1840)، ثم كتاب دافيد روبرتس الشهير "مصر والنوبة" (3 مجلدات، 1846 – 1849) وأتاحت السنوات التى قضاها جون فردريك لويس بالقاهرة فى الأربعينات فرصة مواتية له لتسجيل مناظر الشوارع والأحوال الداخلية للقاهرة. وأسهم الفرنسيون بعمل بريس دافين "الفن العربى استناداً إلى آثار القاهرة" (3 مجلدات، 1877) وفيما يتعلق بالآثار الإسلامية خارج مصر تأتى دراسة أوين جونز للحمراء بالأندلس (1842 – 1845) التى كان لها تأثيرها الخاص. وأدى ارتفاع أسعار تلك الكتب وضخامة حجمها إلى قصر إقتنائها على المكتبات والأثرياء . وفى منتصف القرن، إنضمت الفوتوغرافيا إلى الرسم فى تسجيل صور الفن الإسلامى والعمارة الإسلامية وبحلول عام 1890 حملت



الشكل رقم (٣٨) بانوراما القاهرة عام ١٨٣٩ – عند المستشرق باسكال كوست

675 Pascale Coste, Architecture arabe ou monuments du Caire Mesures et dessinees de 1825 (Paris, 1839).

"مناظر الشلن" وبطاقة البريد التى تباع ببنس واحد صور مواقع القاهرة الإسلامية إلى دائرة أوسع من المتلقين[676].

وحتى محبى الفن الإسلامى من أمثال شارم، ولين بول، ويوليوس فرانتز كشفوا عن تحاملهم على الحضارة الإسلامية التى كانت فادحة العيوب، فيعترف فرانتز بأن "إعجابنا بتناسق وذوق الزخارف التى لا تدانيها أى مدرسة فى العمارة، لا يتوازن مع شعور بعدم الإرتياح من الناحية الجمالية ... إن السبب الرئيسى الذى جعل الفن العربى يعجز عن الوصول إلى مستوى رفيع من التطويع الفنى – على نحو ما نرى فى الزخارف– يجب أن نلتمسه فى الإنهيار المبكر لإمبراطورية الخلافة العظيمة، وفى الظروف السياسية التى أعقبت انهيارها، واتسمت بالإضطراب، وإلى الإتجاه الذى يتميز به الشرق الذى يفضل التمسك بالأشكال القديمة، وعدم الميل إلى تغيير ما تم إنجازه من قبل. ولكن الكثير من الأرابيسك قد يكون مثيراً، ومهما كان تأثيره على الفن الصناعى، فلازلنا نفتقد فيه تصوير الكائنات الحية التى تتطلب ذكاءً وحماساً فعالاً"[677].

وتسبب إعجاب الأوروبيين بالآثار الإسلامية – كما كانت الحال بالنسبة للآثار الفرعونية– إلى إسراع وتيرة دمارها. ويشكو شارم من أن "هواة الفن العربى المفرطين فى الحماس" يفقدون مساجد القاهرة مشكاواتها الزجاجية، ومنابرها المطعمة بالعاج. واستنكر لين بول ما يفعله "السياح الهمج بحكم طبيعتهم وعملهم، الذين لا يتوانون عن تدمير كل شئ ليأخذوا معهم تذكاراً لرحلتهم إلى البرابرة من أهلهم"[678].

الإمبريالية ومولد لجنة حفظ الآثار العربية

أشاد جبرييل شارم بإفلاس إسماعيل – الذى كان كارثة عند المصريين– لأن ذلك الإفلاس يعوق إنجاز مشروعات التجديد الحضرى التى تؤدى إلى تدمير الآثار ذات القيمة الفنية العالية. ورأى شارم أن السيطرة الأوروبية وحدها هى التى تستطيع الحفاظ على آثار القاهرة، وأن البلد الذى يهمل آثاره لا يستحق الاستقلال، ورأى أنه:

---

676 Robert Hay, Illustrations of Cairo (London 1840); Sweetman, Oriental Obsession, 112 – 52; Mackenzie, Orientalism, 43 – 70.
677 Julius Franz Pasha, "Buildings of the Mohammedan", Baed. 1908, clix – clx.
678 Charmes, Cinq Mois, 120; Lane – Poole, Cairo, 103.

"من الواضح أن مصر تسعى لتفادى الصدمات التى تهدد الشرق، وواجبه الأول (يقصد توفيق) أن يربط القوة الجديدة لأسرة محمد على بالتراث الوطنى العظيم المديد ... فاليونان يبذلون أقصى الجهد حتى يجعلونا نصدق أنهم من سلالة بركليز وفيدياس، فلماذا لا يحاول المصريون إقناع العالم بأنهم من سلالة صلاح الدين وقايتباى، والسلطان حسن ؟ لقد فعلت الأكروبولس الشئ الكثير لتحقيق استقلال اليونان، أكثر مما فعلته الأشياء الأخرى ... فبفضل كنارس واللورد بايرون كان من حق تلك المملكة الهللينية الصغيرة أن تحظى برعاية أوروبا، فلماذا لا تجلب مساجد القاهرة نفس هذه الخدمة لمصر ؟ وعندما يتم ترميم تلك المساجد يصعب إنكار حق بلد، قادر على الحفاظ على تلك الأعمال، فى الاستقلال"[679].

ولما كان شارم وطنياً فرنسياً، لم يكن انفراد بريطانيا باحتلال مصر هو ما يعنيه بالطبع، فقد احتل البريطانيون مصر، بعد احتلال فرنسا لتونس عام 1881 ببضعة شهور. وعبر زافييه شارم – الضابط الفرنسى الكبير، شقيق جابرييل– عن رؤية استشراقية إمبريالية فرنسية، كغازى ووريث للحضارة "العربية"، قائلاً:

"لقد أنقذنا أوروبا من الغزو العربى ... ونحن البون نجتاح البلاد العربية و ... نحطم دولها التى وصفت بأنها دول "بربرية"، حيث فقدت الحضارة العربية صلاحيتها بأكثر الأعمال الفوضية وحشية. ولكن يجب أن يلى عملنا العسكرى بناء سياسى، وإدارى وعلمى. ولما كنا ورثة العرب، فإن علينا أن نبحث فى تاريخهم عن أعمالهم العظيمة التى تستحق البقاء، وعلينا أن نستعيد فنهم الذى طواه النسيان، وكذلك إكتشافاتهم الأدبية والعلمية"[680].

وتعود أصول لجنة حفظ الآثار ومتحف الفن العربى إلى أمر صدر وسط انشغال إسماعيل بأعمال التجديد الحضرى عام 1869. وكانت الفكرة من اقتراح أوجست سالزمان، وهو معمارى من رعايا النمسا والمجر، كان يعمل بنظارة الأوقاف، وقام يوليوس فرانتز –

---

[679] Charmes, "L'Art arabe", see also Charmes, Cing Mois, 46 – 47.

[680] الأرشيف الفرنسى، وزارة الخارجية، نانت، C 177 / D، بتاريخ 2 يناير 1882.

وهو ألمانى يعمل بنفس الجهة – طلب منه أن يجمع قطعاً أثرية لإقامة متحف فى جامع الظاهر بيبرس الذى كان يعانى الخراب[681]. غير أن هذا الأمر لم ينفذ، وحث القنصل البريطانى إدوارد روجرز مؤتمر المستشرقين الدولى (عام 1874)، على إقامة لجنة لترميم وتسجيل الآثار والأعمال الفنية الشرقية، ولكن لين بول أثار تحفظات عملية: فمثل هذا العمل لا تستطيع الإضطلاع به إلا الحكومات، وقد فشل مرسوم بشأن برنامج مماثل فى بريطانيا. أضف إلى ذلك أن إسماعيل "المذنب الرئيسى فى قضية هدم آثار الفن العربى، قد يتساءل: أليست الطرق الباريسية، والفيلات الإيطالية التى زرعت فى أرض مصر التاريخية أجمل من مساجد الخربة والبيوت المهدمة ؟ وهل باستطاعتنا – حتى لو كنا ملائكة– أن نجيب على مثل هذا السؤال؟"[682].

ولم يأت توقيت إصدار الأمر الخاص بإقامة لجنة حفظ الآثار فى 18 ديسمبر 1881 ، مفاجئاً. فقد كان توفيق محاصراً من العرابيين الذين تحدوا احتكار الأتراك الشراكسة للسلطة، والتدخل الأوروبى معاً. وكان توفيق يبذل جهد اليائس لحشد التأييد الأوروبى لعرشه، فلعل التجمع الصغير لهواة الفن الإسلامى يجعل كفة الميزان تميل لصالحه. وقد كتب شارم: "ما أعجب فكرة هيمنة ورقابة أوروبا على المالية المصرية بشكل مباشر، التى امتدت إلى كل شئ غيرها – بصورة مباشرة أو غير مباشرة– وحتى إلى الفن"[683].

قدم كتاب "القاهرة" للين بول وصفاً تفصيلياً لعمارة المدينة القديمة، وأبدى تقديره "للنتائج البديعة التى حققها النفوذ البريطانى الذى مارسه اللورد كرومر"، ويرى أنه "قد يكون وراء ذلك غرض وطنى خفى، ولكنى مقتنع أنه لا توجد أمة أخرى تصلح لتعليم مصر كيف تمضى على الطريق، سوى الأمة التى زرعت مستعمراتها فى كل مكان على وجه الأرض، وبينت بحكمها الفريد للهند النتائج العظيمة التى يستطيع تحقيقها حكم الإنجليز للملل والنحل الأجنبية"[684].

---

[681] Rhone, Gazette 24 (Annee 25, 1882): 63 – 64.
)، 1945وانظر أيضا: زكى محمد حسن "العناية بالآثار" فى إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاما على وفاته (القاهرة 315.

[682] S. Lane – Poole, "Arab Art Monuments", Academy 6 (1874), 361.

[683] يعتمد هذا الفصل تماماً على:
D. M. Reid, "Cultural Imperialism and Nationalism: The Stuggle to Define and Control the Heritage of Arab Art in Egypt", IJMES 24 (1992) 57 – 76.

[684] Lane – Poole, Cairo, viii, 292.

وتضمن تشكيل اللجنة الذى أصدره توفيق ثلاثة من خبراء الفن الإسلامى هم: إدوارد روجرز – الذى كان عندئذ مستشاراً بالحكومة المصرية– والمعمارى الفرنسى إمبرواز بودرى (الذى أشاد شارم بفيلته التى أقامها على الطراز العربى بالقاهرة)، والمعمارى الألمانى يوليوس فرانتز الذى كان يعمل بنظارة الأوقاف (انظر الجدول 4). كان هناك مستشرقون بريطانيون وفرنسيون وألمان يجمعون بين المعرفة النصية والبصرية، وكانت بلادهم تقترب من مرحلة حرجة فى التعامل مع عرابى. وفى يناير 1882 إنضم جول بورجوان إلى اللجنة، وفى نوفمبر من نفس العام، أضيف إليها بيرجران، كبير مهندسى مصلحة التنظيم (التى تختص بالشوارع والمبانى)، وبذلك ارتفع عدد الفرنسيين من أعضاء اللجنة إلا ثلاثة، وأصبحت الفرنسية – لغة الدبلوماسية والمجتمع المتفرنج فى مصر– هى اللغة المستخدمة فى أعمال اللجنة[685].

[685] Comite de conservation des monuments de l'art arabe, Fascicule premier, Exercice 1882 – 1883, Proces – verbaux des séances, Fascicule no. 1 : 5.

سنورد ذكرها مختصرة فيما بعد على النحو التالى:

Comite 1, 1882 – 1883, PVSI.

الجدول (4)

المهتمون بالفنون والآثار الإسلامية والاستشراق

الأوروبيون فى اللجنة	مستشرقون آخرون – علماء وفنانين	المصريون فى اللجنة
	ب. كوست 1787 – 1879	
	دافيد روبرتس 1796 – 1864	
	ربورت هاى 1799 – 1863	
	إدوارد لين 1801 – 1876	
	بريس دافين 1807 – 1879	
إدوارد روجرز توفى 1884		على مبارك 1823 – 1893
يوليوس فرانتز 1831 – 1915		
إمبرواز بودرى 1838 – 1906		
جول بورجوان 1838 – 1907		
		يعقوب أرتين 1842 – 1914
		حسين فخرى 1843 – 1910
هارى فارنول 1852 – 1929		
ستانلى لين بول 1854 – 1931		
ماكس هرتز 1856 – 1919		مصطفى فهمى 1856 – 1925
		على بهجت 1858 – 1924
		أحمد زكى 1860 – 1934
ماكس فان برشم 1863 – 1921		مرقص سميكة 1864 – 1944

قام بورجوان بالتدريس بمدرسة الفنون الجميلة بباريس، وألف كتابين عن التصميم المعمارى العربى. كما كان زميلاً "بالمدرسة الفرنسية" الجديدة. ورأى أن الفن الإسلامى يمثل إنتاج "الأجناس السامية"، وأن "الساميين" يتضمنون "جنساً عربياً". وكان الشرق عنده ثابتاً لا يتطور "لا يجب أن نتوقع أن نجد فى تاريخ فن الشرق مراحل مختلفة، مماثلة لتلك التى يتميز بها فن الغرب"، وشرح فيوليه لودوك فى مقدمته لكتاب بورجوان "الفنون

العربية"، كيف أن العوامل الدينية والعرقية عند السكان الذين تمتزج أعراقهم، أدت إلى التجريد الهندسى للفن العربى[686].

وعمل إدوارد روجرز – البريطانى الوحيد باللجنة– قنصلاً بالشام ومصر، قبل أن يصبح موظفاً بالتعليم والمالية فى خدمة الحكومة المصرية، وكان يجمع الآثار والعملات. ورغم أن يوليوس فرانتز تعلم جزئياً فى النمسا ودفن بها بعد وفاته، فقد نشأ فى عائلة ألمانية شمالية بروتستانتية، واحتفظ بجنسيته الألمانية حتى وفاته. وبحكم كونه كبير المعماريين بنظارة الأوقاف وعضويته للجنة، أشرف على الإصلاحات التى تمت فى الآثار وبدأ يجمع القطع الأثرية لمتحف الفن العربى. وعلى مدى 12 عاماً بعد تقاعده عام 1888 ، واصل فرانتز قضاء الشتاء بمصر، وحضور اجتماعات اللجنة[687].

ولم تستطع اللجنة أن تجتمع سوى مرة واحدة فى الأول من فبراير 1882 قبل ثلاثة أيام من إسقاط وزارة شريف على يد العرابيين، وتولى محمود سامى البارودى رئاسة مجلس الوزراء الذى دخله عرابى وزيراً للحربية[688]، وحظى الحفاظ على الآثار باهتمام كبير، حتى أثناء تلك الظروف الحرجة، فقد شارك فى اجتماع اللجنة وزيران من بين الوزراء السبعة الذين تشكلت منهم الوزارة: فتولى رئاسة اللجنة مصطفى فهمى ناظر الخارجية، ومحمود سامى البارودى ناظر الحربية عندئذ، بصفته عضواً. ويشير أحد المصادر إلى أن التوصيات التى اتخذتها اللجنة بإصلاح المبانى الأثرية، جاءت بناء على اقتراح البارودى الذى كان لديه "إهتمام مستنير" بالحفاظ على الآثار، غير أن ذلك لم يرد بمضبطة اجتماع اللجنة.

واختير روجرز سكرتيراً للجنة، ويعقوب صبرى – الموظف بالأوقاف– سكرتيراً مساعداً، وفرانتز مسئولاً عن الأرشيف. وليس من الغريب أن اللجنة لم تجتمع مرة أخرى

---

686 Gulru Necipoglu, The Topkapi Scroll – Geometry and Ornament in Islamic Architecture (Santa Monica, Calf., 1995), 66 – 67.

687 On Rogers, see, Who Was Who 3 : 361; Heyworth – Dunne, An Introduction to the History of Education in Modern Egypt (London 1968), 386, 429.

688 William Gregory, "Arab Monuments in Egypt", letter to the Times, reprinted in Architect 4, February 1882, 69; Comite 1, 1882 – 1883, PVSI (1 February 1881) 7 – 13.

حتى ديسمبر 1882 بعد ما انتهت الثورة العرابية، واستقر الإحتلال البريطانى، وعاد الأوروبيون إلى مصر التى لفها صمت الصدمة.

اللجنة فى عهد الإحتلال البريطانى

عقد الاجتماع الثانى للجنة فى 18 ديسمبر 1882، قبل أسبوع واحد من رحيل عرابى ورفاقه إلى المنفى بجزيرة سيلان. ووجد الأوروبيون من أنصار الحفاظ على الآثار فى الإحتلال البريطانى وسطاً ملائماً للعمل، رغم العسر المالى الذى عانت منه اللجنة حتى أواخر التسعينات. ولما كانت اللجنة تابعة لنظارة الأوقاف، فقد رأس محمد زكى ناظر الأوقاف اجتماع ديسمبر، وكان زكى قد ترك منصبه باستقالة وزارة شريف فى فبراير، وعاد إليه فى أغسطس مع تولى شريف الوزارة بالإسكندرية فى حماية المدافع البريطانية. وغاب عن ذلك الاجتماع محمود سامى البارودى الذى كان مسجوناً مع عرابى بانتظار الترحيل إلى المنفى، كما غاب عنه مصطفى فهمى ومحمود الفلكى ، ولعلهما كانا يمران بفترة احتجاب، ولكنهما ظلا عضوين باللجنة، وعادا إلى الوزارة قبل أقل من عام. أما ناظر الأشغال العمومية على مبارك فكان قد تخلى عن عرابى فى الصيف، واختار الوقوف إلى جانب الخديو توفيق بالإسكندرية فى الوقت المناسب لينال نصيبه من وزارة شريف التى شكلت فى أغسطس. وصدر أمر جديد فى نوفمبر بضمه ، وبيير جران، ويعقوب أرتين إلى عضوية اللجنة[689].

ورغم أن عدد المصريين من أعضاء اللجنة زاد على عدد الأوروبيين فيما عدا فترة قصيرة نحو عام 1890، فقد سيطر الأوروبيون تماماً على عمل اللجنة كما سيطرت "الحماية البريطانية المقنعة" على مصر، فكان روجرز صاحب اليد العليا فى اللجنة الفرعية الأولى التى تولت حصر الآثار التى يجب الحفاظ عليها، حسبما رآه الغربيون من الناحيتين الجمالية والأثرية. ورغم اعتقاد المستشرقين بأن جوهر الفن الإسلامى لا يرتبط بزمن محدد، يتعارض مع نظريات التطور، تم إيضاح الأسلوب الفنى بدقة للعهود الطولونية، والفاطمية، والأيوبية، والمماليكية البحرية والبرجية، والعثمانية. وتولى فرانتز

---

[689] Comite 1, 1882 – 1883, PVS2 (16 December 1882), 12;
وانظر أيضاً: ألكسندر شولش، مصر للمصريين، أزمة مصر الاجتماعية والسياسية 1878 – 1882، ترجمة رءوف عباس (القاهرة 1983).

إدارة أمور اللجنة الفرعية الثانية بمعاونة بورجوان، (وهى التى عرفت – فيما بعد – بالقسم الفنى)، التى اختصت بإصلاح المبانى الأثرية وجمع الآثار لمتحف الفن العربى ، فكانت بذلك القلب النابض للجنة الأصلية.

فرض بيرنج على مصر نوعاً من التضييق المالى الصارم، معطياً الأولوية المطلقة لخدمة الدين العام المستحق للدائنين من الأوروبيين، وتغطية تكلفة الإحتلال. ففى العام 1885 ، أنفقت "لجنة حفظ آثار الفن العربى" 3651 جنيهاً من ميزانيتها البالغ قدرها 3889 جنيهاً على إصلاح أربعين من المبانى الأثرية أما باقى الميزانية فخصص لتغطية الرواتب ، وشراء مستلزمات المتحف، وأثاث المكاتب. وتحملت نظارة الأوقاف – فى بداية الأمر – ميزانية اللجنة بكاملها. وبحلول عام 1896، تحسنت ميزانية الحكومة، وأصبح بيرنج (وكان عندئذ اللورد كرومر) مستعداً لأخذ نفقات أخرى فى الإعتبار، فوافق على ما جاء بتقرير ستانلى لين بول – العضو الفخرى باللجنة منذ عام 1890– من التوصية بأن يقوم "صندوق الدين العام" بتخصيص عشرين ألفاً من الجنيهات المصرية للجنة، وجعل كرومر من تقرير لين بول ملحقاً لتقريره السنوى[690].

وعندما بلغت اللجنة العام الخامس والعشرين من عمرها (1906) كانت قد أنفقت ما جملته 205.500 جنيهاً مصرياً، شملت 166 ألفاً من الأوقاف، و39 ألفاً من الميزانية العامة للدولة، و500 جنيهاً من بطريركية الأقباط (بعد ما دخلت المبانى التاريخية القبطية فى اختصاص اللجنة)، منها 29 ألفاً للمرتبات والباقى لإصلاح المبانى التاريخية[691] . واستمرت ميزانية اللجنة بمستوى محترم حتى الحرب العالمية الأولى التى فرضت ضغط الإنفاق الحكومى عامة.

وفيما يتعلق بفلسفة اللجنة الخاصة بالحفاظ على المبانى التاريخية، إقترح كاتب بريطانى مجهول (عام 1882) أنه عند التعامل مع آثار القاهرة "كل ما يمكن عمله الآن هو المحافظة عليها بوضعها الحالى لأطول فترة ممكنة بالاستعانة بكل الوسائل العلمية، لإصلاح الأجزاء التى تحتاج إلى ذلك، وعدم التسرع فى الترميم، ونسخ زخارفها، وعمل

690 Comite 4, 1886, PVS 21 (10 March 1886), xv.
691 Comite 23, 1906, PVS 148 (18 December 1906), 112.

نماذج لها، وشدها بالدعامات، وعمل مسح لها وهى لا تزال قائمة، وبذلك يتم المحافظة على تصاميمها وزخارفها..."[692].

وفى العام 1895، كانت اللجنة تعالج الآثار معاملة مختلفة حسب الفترة التى تنتمى إليها . فالآثار "المبكرة والفريدة" مثل مساجد إبن طولون والفاطميين، تم تثبيتها على حالتها الراهنة – ولعل ذلك جاء تلبية لراسكين– بينما تم إجراء إصلاحات أساسية للمبانى المماليكية والعثمانية العديدة[693]، وفقاً لما ذهب إليه فيوليه لودوك. وعلى كل، تم فيما بعد تفكيك بقايا مسجد الصالح طلائع الذى ينتمى إلى العصر الفاطمى، وأزيلت مئذنته التى ترجع إلى العصر العثمانى، وتمت إعادة بنائه بالكامل وفق الطراز الفاطمى[694].

وسواء تم الحفاظ على الآثار بحالتها الراهنة حسب الشق الأول من سياسة اللجنة، أو أعيد بناؤها وفق الشق الثانى، فقد تم عزل المبانى الأثرية وحدها، فتمت إزالة الدكاكين والمساكن التى أقيمت – عشوائياً– حولها، فقد كانت تلك المنشآت – فى نظر الأوروبيين– تحجب تلك المبانى الأثرية عن النظر. وبذلك تحول حفظة الآثار إلى هادمين لغيرها من المنشآت التى ليست لها قيمة أثرية. واعترضت اللجنة – بالطبع– على إقامة أى مبانى تتعدى على تلك الآثار المعزولة. وأتيحت للسياح فرصة الرؤية التامة للآثار وتصويرها فوتوغرافياً، ولكن على حساب النسيج الحى الذى كانت تلك الآثار محاطة به، فلم يدخل فى الحسبان الحفاظ على الأحياء التاريخية أو الإهتمام بالمناطق المجاورة للأثر سواء فى مصر أو فى الغرب.

وأدى تركيز اللجنة على المساجد والأضرحة إلى ترك المنازل الأثرية دون حماية، ونزلت اللجنة – أحياناً– عن موقفها إزاء خطط الهدم التى قامت بها مصلحة التنظيم لشق الشوارع وإقامة المبانى العامة، ولكن ضم بيير جران – مدير عام المصلحة– إلى عضوية اللجنة أتاح لها فرصة سماع رأيها فى تلك الخطط.

---

692 "Protection", Architect, 4 August 1883, 66.
693 Comite 13, 1896, PVS 71 (14 November 1896), 104 – 11.
694 Bierman, "Medieval Cairo", 7.

وحمل رجل الأعمال جورج بانجالو معه إلى بلاده صلاحيات اللجنة ورؤيتها للأمور . وما كان بلزونى – جامع الآثار الفرعونية المغامر الذى عمل لحساب المتحف البريطانى فى العقود الأولى من القرن– ليعترض على ما فعله جورج بانجالو، ولكن سياسة كرومر المالية الصارمة حالت دون اشتراك مصر فى معرض كولومبيا عام 1893 بمدينة شيكاجو، وأدى ذلك إلى فتح الباب أمام بنجالو لإقامة "شوارع القاهرة" بالمعرض كمشروع استثمارى خاص. فقام بالتعاقد مع 250 من المصريين – من المشتغلين بالرقص الشرقى والحمارين إلى المؤذنين– ليلعبوا دور سكان "شوارع القاهرة" فى المعرض ، وجاب أنحاء القاهرة الحقيقية بحثاً عن التراث المعمارى حتى يضفى نوعاً من الأصالة على النموذج الذى يسعى لإقامته بالمعرض، وكتب عن ذلك:

"كان تجار الآثار يخربون القاهرة القديمة خلال العقود الثلاثة الماضية لحساب السياح والفنانين والمتاحف. والآن جاء دورى للإنضمام إلى أولئك المخربين ... ورغم ما أشعر به من خجل عندما أقول ذلك، مضيت فى هذا العمل بهمة تفوق همة الوندال ...

وفى الكثير من الحالات كان من الضرورى أن أقوم بدفع مبالغ مالية مقدماً فى مقابل انتزاع المشربيات من النوافذ والشرفات، وكذلك الأبواب لتستبدل بها نوافذ وشرفات وأبواب جديدة حديثة الطراز. وفى حالات أخرى كنت أشترى المبنى بكامله ثم أنتزع منه مشربياته، وأبيعه من جديد. وهكذا فى حوالى تسعة شهور تم انتزاع كل المشغولات الخشبية مما يزيد على 15 منزلاً، كما أسهم ما يزيد على 50 منزلاً أخرى بمشربياته وأبوابه، وغيرها[695].

وتعاقد ماكس هرتز – حامى حمى التراث الإسلامى المعمارى فى مصر – مع ذلك الذى وصف نفسه "بالوندال" ليكون مستشاراً له فى تصميم مشروعه "شوارع القاهرة"، ولم تعترض اللجنة على ذلك على أساس أن هرتز قدم استشارته فى غير أوقات العمل الرسمية، ولعل هرتز أقنع اللجنة بأنه لا ولاية لها على المبانى غير المسجلة فى قائمتها،

[695] Georges Pangalo, "The Story of Some Old Friends:, Cosmopolitan 23 (1897), 277 – 88.

وأن تلك المبانى تتداعى بالفعل، وأن إعادة تجميع المشغولات الخشبية التى تنتزع منها فى معرض كولومبيا يحفظها من الدمار الفورى.

تكوين على بهجت

عند تأسيس اللجنة عام 1881، كان على بهجت قد بلغ الثالثة والعشرين من عمره، وبدأ يعمل مدرساً للغة الفرنسية بالمدارس. جاء على بهجت من قرية بها العجوز التى تقع على مسافة بضعة أميال من بنى سويف حاضرة المديرية، وكان ينتمى إلى إحدى عائلات الأعيان شأنه فى ذلك شأن على مبارك، ومحمد عبده، وأحمد لطفى السيد، ولكنه اختلف عنهم فى إنحداره من أصل تركى، فقد كان جده لأبيه – على أغا– يتولى منصباً بالشرقية فى عهد محمد على، وحصل على ضيعة بقرية بها العجوز كمعاش له بعد تقاعده، حيث كان مسقط رأس إبنه محمود بك على (والد بهجت) الذى كان موظفاً بمصلحة الدومين (الأراضى الأميرية) وتزوج من إبنة موظف تركى من قرية مجاورة. ويذهب مترجمو بهجت إلى أن العائلات التركية فى الأقاليم نفرت من مخالطة جيرانها من المصريين ، وأن بهجت أحب الوحدة، ولم يتواصل اجتماعياً إلا نادراً، وكان يتسم بالحدة والصرامة[696].

وكانت المدارس الحكومية – أيام إسماعيل– تفتح أمام خريجها طريق الدخول فى زمرة النخبة فى الجيل التالى. وشق بهجت طريقه فى تلك المدارس: المبتديان بالناصرية، المدرسة التجهيزية، المهندسخانة، ومدرسة الألسن. وتركت الدروس العربية التى تلقاها على الشيخ حسونة النواوى – الذى أصبح شيخاً للأزهر فيما بعد– أثراً كبيراً فى نفسه شأنه فى ذلك شأن صديقه أحمد لطفى السيد[697]. ولم يكن بهجت متميزاً فى دراسته، ولكن إتقانه للغات الأوروبية خدمه كثيراً. فقد تخرج فى مدرسة الألسن وقد أجاد العربية والفرنسية والألمانية والتركية، مما يسر له التنافس مع الشوام الذين احتكروا العمل كمترجمين فى عهد إسماعيل وفى عهد الإحتلال البريطانى.

---

[696] حول سيرة على بهجت، راجع: توفيق إسكاروس، "على بهجت وفضله على علم الآثار العربية فى مصر"، الهلال 32، عدد 8 (أول مايو 1924) 856 – 61. وانظر أيضاً: دار المحفوظات العمومية، ملفات الخدمة والمعاشات، مخزن 105، دولاب 37، عين 3، محفظة 767، ملف 21175.

[697] أحمد لطفى السيد، قصة حياتى، (القاهرة 1962)، 25.

وبدأ على بهجت عمله مدرساً للغة الفرنسية بالمدرسة التجهيزية فى 9 أكتوبر 1881، بعد نجاح عرابى فى إسقاط وزارة رياض بشهر واحد، وقبل تأسيس لجنة حفظ الآثار بعشرة أسابيع، وكان راتبه خمسة جنيهات شهرياً. وبعد ذلك بخمس سنوات، أصبح مفتشاً للغة الفرنسية بالمدارس الإبتدائية التابعة للأوقاف، ثم تولى تدريس الفرنسية بمدرسة الخديوية الثانوية، وعند بداية القرن العشرين كان راتبه قد أصبح 28 جنيهاً عندما أصبح كبير المترجمين بنظارة المعارف. وفى عام 1901 ترك خدمة المعارف بعد خدمة عشرين عاماً أهلته للحصول على معاش، وتفرغ للعمل بلجنة حفظ آثار الفن العربى[698].

وقبل ذلك بحوالى العامين – فى يناير 1900– إنضم على بهجت إلى اللجنة إلى جانب أعضائها الأوروبيين التسعة، والمصريين الإثنى عشر وكان من بين المصريين ثمانية من المسلمين وقبطيان وأرمينيان. جاء أربعة من الأعضاء المسلمين من نظارة الأوقاف ، واثنان من النظار (رئيس مجلس النظار مصطفى فهمى الذى كان حضوره اجتماعات اللجنة نادراً، وحسين فخرى)، وواحد من كل من مصلحة السكك الحديدية، ونظارة الداخلية. وكان أحد الأقباط موظفاً سابقاً بالمالية، والآخر موظفاً بنظارة الحقانية (العدل). أما الأرمينيان فهما تيجران باشا ناظر الخارجية السابق، ويعقوب أرتين وكيل المعارف . وكان أعضاء اللجنة من الأوروبيين: ماسبيرو مدير عام الآثار، وبول كازانوفا المستشرق بالمعهد الفرنسى للآثار الشرقية، وفرنسى آخر على الأقل، وألمانيان، وإنجليزى واحد، وإيطالى واحد، وهرتز النمساوى – المجرى. ويتضح مسار حياة على بهجت العملية بعد التحاقه باللجنة من إلقاء نظرة فاحصة على العلاقات بين المصريين والأوروبيين باللجنة ومتحف الفن العربى.

على مبارك وحفظة الآثار من الأوروبيين

كان على مبارك أول من إصطدم بالأوروبيين من أعضاء اللجنة، ورغم إنضمامه إلى توفيق ضد عرابى، ثم مشايعته للإحتلال البريطانى، ينظر المصريون إليه اليوم كبطل وطنى للإصلاح الثقافى. وقد اختلف مبارك مع الأوروبيين من أعضاء اللجنة فى اجتماعها الأول (ديسمبر 1882)، سواء كان ذلك بدافع وطنى، أو بنظرة مهندس ضاق

[698] ملف معاش على بهجت.



الشكل رقم (٣٩) على مبارك المهندس والمصلح والعالم

ذرعاً بحفظة الآثار الذين يعارضون رؤيته للتقدم ، فهو – على أية حال– كان وراء مشروع التجديد الحضرى الذى رعاه إسماعيل، وهو الذى شق شارع محمد على، فـاجتاح فى طريقه مئات المنازل فى منطقة مكتظة بالمبانى. وجاء تكوين اللجنة ليضع حدوداً لحركته. (انظر الشكل 39).

كان أعضاء بعينهم من الأوروبيين يتحكمون فى اللجنة من خلال تركيبة معينة تجمع بين الأهداف السياسية، والخبرة، والعمل الجاد. أما المصريون من الأعضاء، فكان معظمهم أقل اهتماماً بعمل اللجنة، وربما كان مرد ذلك إلى انشغالهم بأمور أخرى لها الأولوية عندهم، أو لضيقهم بالهيمنة الأجنبية، أو ضعف لغتهم الفرنسية، أو افتقارهم إلى الخبرة الفنية. وأدى ذلك إلى تقوية ما أكده الأوروبيون من أن مصر ليست مهيأة للحفاظ على آثارها. وعلى الصعيد الشعبى كانت اللجنة تواجه بالكراهية والمقاومة لهدمها الدكاكين والمنشآت التى أحاطت بالمبانى الأثرية، وإن كان ذلك يحتاج إلى المزيد من الدراسة[699].

ولكن المصريون لم يهملوا الآثار على نحو ما اعتقد شارم، ولين بول فقد توقف الجبرتى أمام تخريب الحملة الفرنسية لقلعة القاهرة، فسجل النتائج السلبية التى ترتبت على هدمهم لبعض مبانيها مثل قصر السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى وبعض الجوامع والزوايا، وتغييرهم لمعالم جامع الملك الناصر محمد بن قلاوون، واعتبر الجبرتى تصرفهم هذا تصرف أعداء الدين[700].

كان معظم المصريين يرتبطون دينياً بالمبانى الأثرية دون أن تعنيهم القيمة التاريخية أو الفنية لتلك المبانى، فالناس على اختلاف مراكزهم الاجتماعية يقدرون الأزهر، وجامع السيدة زينب، والإمام الشافعى، والسيد أحمد البدوى (بطنطا). فالإيمان بالقرآن ورسالته ،

---

[699] Comite 6, 1895, R 69, 121 – 28.

[700] الجبرتى، تاريخ مدة الفرنسيس فى مصر.

وبالنصوص الدينية الأخرى يكشف عن مدى الإرتباط بطراز معمارى معين أو زخرفة فى مبنى مجدد مهما كان قديماً أو جميلاً من وجهة نظر الغربيين. فمعظم المصريين يعتبرون المساجد مراكز للعبادة أو الدراسة، وشعروا بالإمتعاض من إتجاه الآثار إلى الإهتمام بإبراز جمالها وتاريخها أو حمايتها كأثر من أجل توفير المتعة للسياح والعلماء.

وقد شهدت المساجد – على مر القرون– أعمال هدم، وتوسيع، وإعادة بناء .. فلماذا يجمد وضع المبنى، بعدما تجاوز الزمن والغرض والطراز الذى كان يمثله فى الأصل ؟ فالقلل، والنسيج، والمشربيات، وأعمال الزخرفة، والحلى التى توضع اليوم فى متحف الفن العربى كانت تستخدم فى الحياة اليومية للأغنياء والفقراء، والآن بعدما إجتاح مصر الطراز الغربى فى العمارة، والأُثاث، واللباس، يأتى الأوروبيون بسطوتهم وبتأثرهم بالتطور الصناعى والسياسى فى بلادهم، ليتدخلوا للحفاظ على "الفن العربى" الذى اعتبروه جميلاً، وأصيلاً، و"تقليدياً". لعل "الحفاظ" – فى حد ذاته– يحتاج إلى إيضاح.

لقد وافق على مبارك على ما ذهب إليه المستشرقون من أن القاهرة قد تداعت فى العصر العثمانى، فأشار إلى الخرائب وأكوام النفايات الضارة بالصحة، "حتى أرسل الله محمد على باشا" ليصلح من شأنها[701]. ولكن مبارك عارض المستشرقين عندما أشاد بالمبانى ذات الطراز الغربى التى أقامتها أسرة محمد على، باعتبارها علامة على الحضارة والتقدم.

ففى "الخطط التوفيقية الجديدة"، لم يقم مبارك باستخدام "الإحداثات الدالة، أو ما كان يسمى بالذاكرة البصرية ... فالقاهرة عنده كانت مدينة مواقع، جرى فيها تواصل اجتماعى ، وكانت الذاكرة الجمعية فيها فاعلة، فهى ليست مجرد مدينة مواقع أو مناظر"[702].

وإذا أمعنا النظر فيما بين سطور مضابط اللجنة، نستشف نوعاً من المقاومة من جانب مبارك أولاً، ثم من جانب المصريين، فى مواجهة الهيمنة الأوروبية، ففى اجتماع ديسمبر 1882، إقترح مبارك إزالة السبيل القائم بالقرب من باب زويلة لإعاقته حركة مرور

---

[701] M. J. Reimer, "Contradiction and Consciousness in Ali Mubarak's Description of Al – Azhar", IJMES 29 (1997), 55.
[702] Bierman, "Medieval Cairo".

العربات ودواب الحمل، ورد الأوروبيون بأن عمل اللجنة هو المحافظة لا الهدم. وتشير المضابط إلى أن مبارك لم يحضر سوى اجتماع واحد أو إثنين بعد ذلك، ولا نجد بالمضابط ما يشير إلى تعليقات أخرى أبداها فى الاجتماع، ثم استقال من اللجنة بحجة تزايد أعباءه الوزارية. وبعد ذلك بسنوات عندما أصبح ناظراً للمعارف، رفض طلب اللجنة نقل متحف الفن العربى إلى الغرف الخالية بمبنى النظارة، وربما كان ذلك يشفى غليله[703].

كان على مبارك مستنيراً، مهتماً بالماضى الإسلامى لبلاده. فقد تناولت "الخطط التوفيقية الجديدة" تاريخ البلاد وآثارها بتفصيل مستفيض، فعبر مبارك عن الحنين إلى المجد الإسلامى الغابر، وتحسر على الفسطاط، وهو ينظر إليها من فوق مئذنة مسجد عمرو بن العاص[704].

ولا تدين "الخطط التوفيقية" للمصادر العربية وحدها، ولكنها تدين أيضاً لوصف مصر والعديد من الكتب الأوروبية فى القرن التاسع عشر. فقد تعلم مبارك فى باريس، وترجم كتاب "تاريخ العرب" لسيديلو عن الفرنسية، واتفق مع ما توصل إليه مؤلف الكتاب – المتخصص فى العصور الوسطى– من استنتاجات حول تدهور أحوال العرب تحت الحكم العثمانى، مشيداً بأسرة محمد على لإنخراطها فى عصر الحضارة والتقدم[705]. كذلك قدم على مبارك "المستشرق البريطانى"فى كتاب الروائى "علم الدين" بصورة إيجابية.

كان هناك – أو أصبح هناك– مصريون يهتمون بحفظ الآثار الخاصة بالفن الإسلامى ، ولكن كان عليهم أن يحاربوا على عدة جبهات فى وقت واحد. فإذا كانوا يريدون الإحتراف، فعليهم أن يتتلمذوا على أيدى المعلمين الأوروبيين، فعدم المراعاة الكافية للأوروبيين على الصعيد المهنى، والإذعان لهيمنتهم السياسية، بسبب النوازع الوطنية أو الإعتداد بالذات، قد يؤدى إلى تدمير الحياة العلمية للمصرى. كذلك لم يكن يسهل عليهم إقناع إخوانهم المصريين أن الحفاظ على ما صنفه الأوروبيون كتحفة من الفن والعمارة الإسلامية، يجب أن تكون له الأولوية على الحاجات الأخرى الملحة.

---

703 Comite 1, 1882 – 1883, PVS 2 (16 December 1882), 14 – 16.
704 Jacqes Berque, Egypt, Imperialism and Revolution, (New York, 1972), 72 – 73.
705 Reimer, "Contradiction", 57 – 66 n. 24.

وقد يصوغ الأوروبيون المدائح البليغة فى تحف الفن الإسلامى والعمارة الإسلامية، فى بلد خاضع لاستعمارهم، ولكن سيطرتهم على ذلك المجال تعود إلى ما يعانون من القبح الناجم عن الصناعة فى بلادهم الأصلية. فلا يعرف أحد كيف يمكن الحفاظ على القديم وتحقيق التحديث فى الوقت نفسه. فعندما اندفع الخديو إسماعيل ومبارك نحو التحديث على الطراز الأوروبى، رفضا السماح للحنين إلى الماضى أن يقف فى طريقهما. وانتصر المهندس على الآثارى فى شخصية مبارك ذات الجوانب المتعددة، عندما قال: "هل نحن بحاجة إلى كل هذه الآثار مجتمعة ؟ ألا يكفى الإحتفاظ بعينة منها ؟ " فقد كان باب زويلة يستخدم من قبل لشنق المجرمين، "ونحن لا نريد الحفاظ على هذه الذكريات، بل علينا تحطيمها كما حطم الفرنسيون سجن الباستيل"[706].

وتلتزم مضابط اللجنة الصمت بالنسبة لحسين فهمى وكيل نظارة الأوقاف. فلا ندرى ما كان يدور بخلده وهو يستمع إلى المشادة التى وقعت بين مبارك والأوروبيين. كان حسين فهمى زميلاً لعلى مبارك وإسماعيل فى باريس، حيث درس الإدارة المدنية والهندسية . وعند عودته إلى مصر أسندت إليه مهمة تصميم عمارة مسجد الرفاعى بتكليف من أم الخديو إسماعيل (الوالدة باشا)، فجاء التصميم خليطاً من الطرز الأوروبية والإسلامية . وقام أيضاً بتصميم المبانى الحكومية الأخرى، وعبر فهمى عن حبه للفن الإسلامى عام 1903، عندما أعادت الكتبخانة الخديوية تجليد المخطوطات القديمة، واستغنت عن الأغلفة القديمة، قام حسين فهمى بشرائها ليعرضها فى منزله "الذى كان أقرب ما يكون إلى متحف للفن العربى"[707].

التمثيل الوطنى الأوروبى فى اللجنة

جمعت بين أفراد تلك الحلقة الصغيرة من الأوروبيين بالقاهرة، الذين أحبوا الفن الإسلامى، رابطة كوزموبوليتانية، غير أنهم لم ينسوا جنسياتهم، ومكانة بلادهم بين غيرها من بلاد أوروبا فى مصر، من النواحى السياسية، والاجتماعية، والثقافية.

---

[706] Marcel Clerget, Le Caire, 2 vols. (Cairo, 1934), 1 : 337.
[707] Heyworth – Dunne, Education, 237.

كانت الفرنسية لغة العمل باللجنة، ومصلحة الآثار المصرية، والمتحف المصرى، والمحاكم المختلطة، والطبقة العليا فى المجتمع. ورغم ذلك كانت اليد العليا فى اللجنة والكتبخانة الخديوية للألمان حتى عام 1914، فالوجود النمساوى – المجرى، والألمانى بنظارة الأوقاف يعود إلى أيام إسماعيل، عندما قام نمساوى – مجرى بحشد الضغوط لتنفيذ الأمر الذى كان قد صدر عام 1869 لحماية الآثار العربية، وإقامة متحف للفن العربى. وعندما تأسست اللجنة بعد ذلك بإثنى عشر عاماً، كان فرانتز مازال موجوداً ليتولى مسئوليتها. وقد نجح هو وماكس هرتز فى توجيه اللجنة ومتحف الفن العربى لمدة 33 عاماً. وجاء الجمع بين الكتبخانة ومتحف الفن العربى فى مبنى واحد عام 1903 ليدعم المعقل الثقافى الألمانى فى مصر.

كان ماكس هرتز مجرياً يهودياً، جاء إلى مصر عام 1881 معلماً خاصاً لأبناء أحد أصحاب الفنادق الأوروبيين (كانت إمبراطورية النمسا والمجر قد بسطت حمايتها على بعض اليهود السكندريين قبل عدة عقود من السنين). وما لبث فرانتز أن ألحق هرتز بخدمة الأوقاف واللجنة، ليعمل معه كمساعد معمارى. وورث هرتز الوظيفتين بعد تقاعد فرانتز عام 1888. وظل متحف الفن العربى بعيداً عن اختصاصه لأربع سنوات حتى أضافه هرتز إلى مسئولياته بصفة رسمية عام 1892. وأدى انكباب فرانتز وهرتز على الإشتغال يومياً بالعمارة الإسلامية والفن الإسلامى والمتحف، إلى مساعدتهما على اكتساب خبرة، كان معظم أعضاء اللجنة يفتقرون إليها، ولما كانت اللجنة تجتمع خمس أو ست مرات سنوياً، فقد قبلت – عادة– بآرائهما المهنية[708].

وكان إثنان من بين المستشرقين الألمان الخمسة الذين تعاقبوا على إدارة الكتبخانة الخديوية فيما بين 1870 – 1914، عضوين باللجنة وهما: كارل فولورز، وبرنهارد موريتز. كذلك كان دى مول – ممثل ألمانيا بصندوق الدين العام– عضواً باللجنة، وضمت اللجنة – بالإضافة إلى هرتز– نمساوياً – مجرياً آخر، هو الكونت تشارلز الوسكى، الذى كان يقيم بإحدى فيلات بودرى ذات الطراز العربى.

[708] توفيق إسكاروس "ماكس هرتز باشا"، الهلال 10 (أول يوليو 1919)، 921 – 928.

وأدى تفوق الألمانية كلغة وسيطة فى حقل الاستشراق – بما فى ذلك الفن الإسلامى– إلى إضفاء أهمية ثقافية على الوجود الألمانى – النمساوى – المجرى باللجنة والكتبخانة الخديوية. ولكن كانت الأهمية السياسية لذلك الوجود محدودة، حتى عندما سعى الألمان للإحتفاظ بمواقعهم فى الكتبخانة والمتحف المصرى فى السنوات السابقة على الحرب العالمية الأولى، بعدما وافق الإنجليز – عام 1904 – على أن يكون مدير عام مصلحة الآثار فرنسياً، وعدوا الألمان بأن يكون مدير الكتبخانة ألمانياً، وقد أثارت تلك الإتفاقات غضب المصريين الذين لم يكن باستطاعتهم الإعتراض عليها، كما أنها تمت من وراء ظهورهم. وعندما انتهت مدة عمل بونهارد موريتز مدير الكتبخانة عام 1911، تدخل القيصر فيلهلم الثانى شخصياً للحفاظ على التمثيل الألمانى فى المؤسسات الثقافية المصرية. ولكن البريطانيين رفضوا المرشح الألمانى لخلافة مورتيز فى منصبه، وهو الدكتور كورت بروفر، الذى كان سكرتيراً شرقياً للقنصلية الألمانية بالقاهرة، وخشى البريطانيون أن يضعه هذا المنصب "فى إتصال يومى مباشر مع المثقفين من شباب المصريين". وفشلت جهود الحكومة المصرية لتعيين أحمد زكى – سكرتير مجلس النظار– مديراً للكتبخانة. وفى عام 1913، تولى المنصب مستشرق ألمانى هو الدكتور آرثر شاد، الذى تم إبعاده عن مصر عند قيام الحرب العالمية الأولى، وقام بروفر وشاد بالخدمة مع المخابرات الألمانية فى فلسطين، مستفيدين فى ذلك من قدراتهما اللغوية[709].

تعلم نفر قليل من المصريين اللغة الألمانية، على عكس الأتراك فى مركز الدولة العثمانية. وكان من بين القلة الذين تعلموا الألمانية على بهجت، وعباس الثانى، وأحمد كمال. فقد درس عباس بمدرسة تريزيانوم بفيينا، واختار أنطونيو لاسياك – الذى ولد نمساوياً مجرياً رغم كونه وطنياً إيطالياً– ليعمل مهندساً معمارياً بقصره. كان توسع النمسا والمجر على حساب الدولة العثمانية فى البلقان يجعلها موضع بغض المسلمين ، ولكن الروابط العسكرية والسياسية والثقافية الألمانية مع إستانبول والأناضول والهلال الخصيب، زودت بعضها البعض بعوامل القوة. وكان خط سكك حديد برلين – بغداد رمزاً لهذا التحالف، وعندما قام القيصر فيلهلم الثانى بزيارة السلطان عبد الحميد الثانى

[709] نجيب العفيفى، المستشرقون (القاهرة، 1980)، 2 : 398 – 399، 403 – 404. وانظر أيضاً: دار الوثائق القومية، مضابط مجلس الوزراء، نظارة المعارف، رقم 22، الكتبخانة والخديوية، 1912.

(1898) أخذ معه إلى برلين من إستانبول والقدس، كمية كبيرة من الآثار التى شغلت مساحة كبيرة من مبنى المتحف الإمبراطورى الجديد ببرلين[710].

وكان التنافس الأنجلو – فرنسى فى مصلحة الآثار والمعارف يطل برأسه – أحياناً– فى لجنة حفظ الآثار العربية. ففى سياق ترويجه لتأسيس اللجنة، ذكر شارم: "يحق لفرنسا أن تفخر لإكتشافها مصر الحديثة، واسترجاعها لمصر القديمة الذى يمهد الطريق لمصر المستقبل: فهل تترك للآخرين إبراز مصر العربية، وجعلها معروفة للعالم ؟ "[711].

ولم يتوان لين بول عن إبراز خشيته من الفرنسيين كتابة: "إن أصدقاءنا الفرنسيين الذين يعيروننا بعادة كتابة أسمائنا على الآثار (بينما معظم الأسماء الكبيرة البارزة أسماء فرنسية)، هم أكبر المخربين للقاهرة، فأين ذهبت الأبواب البرونزية المفقودة من المساجد، وغيرها من كنوز الفن العربى ... التى لم نعد نراها ؟ إنها فى باريس، وإذا سألنا عن ذلك الهمجى الذى إقتلع مربعاً كبيراً من الفسيفساء بجامع برسباى بالقرافة الشرقية، سيدهشنا البواب عندما يجيبنا: إنه ماريت المستنير، الذى ينحى باللائمة على السياح الإنجليز، والذى قام بتخريب الفسيفساء ليرسل شيئاً منها إلى معرض باريس"[712].

ويبدو أن كرومر لم يساوره القلق إزاء النفوذ الفرنسى فى اللجنة التى تعاقب على عضويتها مديرو مصلحة الآثار المصرية، وباحثو المعهد الفرنسى للآثار الشرقية. فلم يزد عدد البريطانيين باللجنة على عدد الفرنسيين إلا فى الثلاثينات من القرن العشرين ، عندما كان التمصير قد بدأ.

وقد أزاحت وفاة روجرز عام 1885، العضو البريطانى الوحيد باللجنة. ولكن ما لبث المستشار البريطانى لنظارة الأشغال العمومية (سكوت مونكريف، ثم وليم جارستن)، والمستشار البريطانى للمالية (إدجار فنسنت)، أن قاما بملء هذه الفجوة. ورغم أنهما لم يكونا على درجة من العناية بالفن الإسلامى مثل روجرز، فإن وجودهما باللجنة أقام جسراً متيناً بين اللجنة ودار المعتمد البريطانى. وكان انضمام المعمارى سومرز كلارك

---

710 Rogers, From Imperialism to Islamic Archaeology, (Cairo, 1974), 55 – 61.
711 Charmes, "L'Art arabe".
712 Lane – Poole, Cairo, 103.

إلى اللجنة، عندما اتسعت مسئولياتها لتشمل الآثار القبطية فى التسعينات، يمثل إضافة واضحة. وانضم كذلك (عام 1910) هارى فارنول من "صندوق الدين العام، وما لبث أن أصبح صاحب الصوت القيادى البريطانى فى اللجنة"[713].

ولم يكن لإيطاليا صوت باللجنة حتى إنضمام المعمارى ألفونسو ما نيشالو إليها عام 1897، وأصبح بوتى أمين المتحف اليونانى – الرومانى عضواً مراسلاً[714]. أما اليونان التى اتجهت إليها أنظار النخبة السياسية فى الغرب، فلم تكن ممثلة فى ميدانى المصريات، والدراسات الشرقية، على حد سواء.

متحف الفن العربى

إنتقل متحف الفن العربى – خلال عقدين من الزمان– من مكان لآخر، فأقيم بمسجد الحاكم بأمر الله، بالقرب من أحد أبواب القاهرة الفاطمية الشمالية. وكان المسجد خرباً فى مطلع الثمانينات، عندما قامت نظارة الأوقاف، ولجنة حفظ الآثار بإزالة الركام، وسوت أرض الصحن، ورمم القسم الأوسط من المصلى لإقامة المتحف وكان من المقرر إقامة مدرسة للفنون فى الصحن[715].

وقام فرانتز بحشد مجموعة من آثار التراث الفنى الإسلامى، وقدم روجرز ويعقوب أرتين المشورة حول كيفية ترتيبها. وفى العام 1883، أضافت اللجنة مبنى مؤقت فى صحن المسجد لاستيعاب الآثار التى تدفقت على المتحف، وإفتتح المتحف عام 1884، ولم يعين سوى حارس. وعندما تبين للجنة أنه "لا يرتدى زياً مناسباً، ولا يتسم بحسن السلوك ، وغير قادر على الشرح لزوار المتحف"، قررت اللجنة البحث عن "أفندى متعلم، تتوفر لديه القدرات المطلوبة، ويجيد التحدث بالفرنسية"[716]. وحتى عام 1895، لم يكن هناك سوى نسختان من مخطوطتين من كتالوج المتحف. ففى ذلك التاريخ قام هرتز بطبع دليل

---

[713] On Clarke, see Who Was Who 3 : 100 – 101; On Farnell, see, Dictionary of National Biography, 1929 – 1940, 431.

[714] بالنسبة للإيطاليين فى مصر، انظر:
Angelo Sammarco, Gli Italiani in Egypto (Alexandria 1937).

[715] Karl Baedeker, Egypt: Part First, Lower Egypt with the Fayum and the peninsula of Sinai, (Leipzig, 1885), 280.

[716] Comite 11, 1894, R 165 : 3 – 54.

فرنسى لمقتنيات المتحف، وقام ستانلى لين بول بترجمته إلى الإنجليزية[717]. وقد تم تنسيق المتحف على أساس المواد التى صنعت منها المعروضات: الزجاج، والمعادن، والخزف، والخشب، إلخ. وقد ملأت المعروضات ثمانى غرف، وممراً وملحقين.

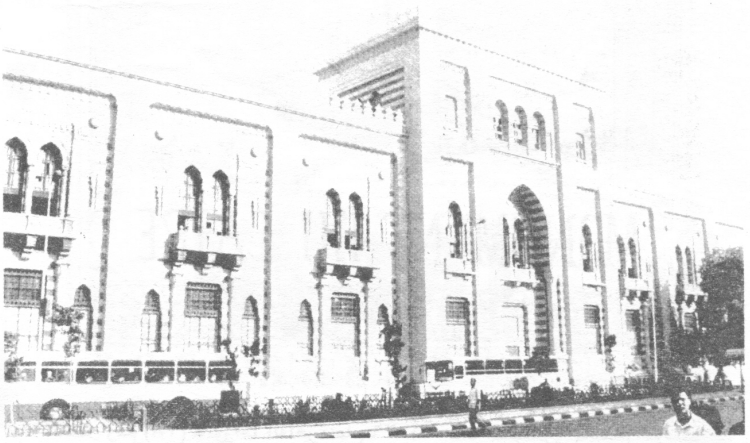
وكان هذا المتحف المؤقت لا تقع عليه عيون السياح تقريباً فى وقت كانت فيه المجموعات الإسلامية بمتاحف الغرب أفضل قليلاً. فعندما أسس متاحف بولاق، استطاع ماريت أن يستلهم الأفكار الخاصة بالتنسيق من متاحف باريس ولندن وبرلين وتورينو، ولكن مجموعات الفن الإسلامى كانت تتحسس طريقها فى أوروبا ومصر على السواء بعد جيل كامل.

فقد ذهبت الآثار الإسلامية التى عرضت بمعرض كرستال بالاس عام 1851، إلى متحف الفن الزخرفى، الذى أصبح – فيما بعد– متحف ساوث كنجستون، ثم متحف فيكتوريا وألبرت. كما أن الآثار الإسلامية التى عرضت بمتحف باريس 1867 – أيضاً– أثرت مقتنيات باريس من تلك الآثار. وفى أعقاب الإحتلال البريطانى، أوفد متحف ساوث كنجستون، ستانلى لين بول إلى مصر لشراء قطع أثرية مما كان معروضاً بالسوق عندئذ. وفى العام 1891، إحتوى المتحف السلطانى للآثار فى مبناه الجديد بحديقة قصر طوب قابى، على قسم للآثار الإسلامية[718]. وأقام فردريش سار قسماً إسلامياً بمتحف الدولة ببرلين عام 1904.

وبحلول عام 1898 بدأ العمل فى بناء المتحف المصرى الجديد، بعدما استطاع كرومر إقناع "صندوق الدين العام" بتخصيص 45 ألف جنيه مصرى لإقامة بناء يضم الكتبخانة الخديوية ومتحف الفن العربى معاً. ولما كانت واجهة المتحف اليونانى – الرومانى بالإسكندرية قد صممت على شكل معبد دورى، فلماذا لا تتخذ واجهة مبنى الكتبخانة ومتحف الفن العربى طابعاً إسلامياً جديداً، وخاصة أن الكتبخانة تضم مجموعات رائعة من أهم المخطوطات العربية والإسلامية فى العالم ؟

---

717 Baedeker, 1895, 73.
718 Crinson, Empire Building, 65; Lane – Poole, Cairo, 114 – 18.



الشكل رقم (٤٠) متحف الفن العربى والكتبخانة الخديوية

قام ألفونسو مانيشالو – المعمارى الإيطالى الذى إنضم للجنة عام 1897– بتصميم المبنى (انظر الشكل 40) الذى استلهم العمارة المماليكية مع بعض الملامح الأندلسية، ورغم هذا التصميم والزخارف الإسلامية، وكان المبنى يتفق مع الأفكار الغربية المتصلة بالمكتبات العامة والمتاحف، واحتل المتحف الدور الأرضى، بينما احتلت الكتبخانة – التى كان لها مدخلاً مستقلاً– الدور العلوى[719].

وكان موقع المبنى مناسباً أيضاً، بشارع محمد على بباب الخلق عند التقاء القاهرة القديمة بالقاهرة الحديثة (انظر الخريطة 2). وعلى بعد بضعة مربعات شرقاً يقع جامع المؤيد وباب زويلة. الذى يحرس مدخل القاهرة الفاطمية، وإلى الغرب وقف قصر عابدين والمدينة الحديثة. ويقع المبنى عند تقاطع شارع محمد على مع شارع الخليج متخذاً موقعاً وسطاً بينهما. وعلى نقيض المتحف المصرى الذى كتبت لوحة تأسيسه باللاتينية، لم تحمل لوحة تأسيس مبنى المتحف والكتبخانة سوى إسم عباس الثانى بالعربية وحدها.

وفى 28 ديسمبر 1903، قام الخديو عباس الثانى بإفتتاح "هذا المبنى البديع ذى الطراز العربى"، بحضور اللورد كرومر، وقناصل الدول، والنظار، والشيخ حسونة النواوى شيخ الأزهر السابق والشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية، وشيخا الطريقة البكرية والطريقة الساداتية[720]. وأصبح المتحف بحاجة إلى دليل جديد، طبعه هرتز عام 1906.

أصبح من الواضح بعد الإفتتاح أن محاولة تدبير ميزانية سنوية للمتحف من إيرادات أراضى الوقف المخصصة له قد باءت بالفشل. فقد كان من المتوقع أن تصل الإيرادات

---

719 Tarek M. R. Sakr, Early, Twentieth – Century Islamic Architecture in Cairo (Cairo, 1993), 22 – 23.

720 أحمد شفيق، مذكراتى فى نصف قرن، 2؛ وانظر أيضاً:

Baedeker, 1908, 88.

إلى 2093 جنيهاً سنوياً، ولكن كان متوسط إيراد أراضى الوقف فيما بين 1900 – 1904 لا يتجاوز 1160 جنيهاً سنوياً. وإضطرت الحكومة أن تخصص للمتحف ميزانية سنوية قدرها 2035 جنيهاً من الموازنة العامة، مع زيادتها مرة واحدة لتغطية العجز المتراكم[721].

وعندما كان المتحف لا يزال فى مكانه القديم فى التسعينات، أعرب لين بول عن تشككه من أن يكون واحداً من بين كل مائة سائح قد سمع بوجوده. وأولئك الذين عرفوا طريقهم إليه كانوا يظنونه المتحف الفرعونى[722]. ولكن متحف الفن العربى لم يستطع منافسة المتحف المصرى رغم موقعه المتميز – كعلامة ثقافية بارزة سواء فى عيون الغربيين أو المصريين، وتكلف بناء المتحف المصرى الجديد عام 1902 أربعة أضعاف ما تكلفه مبنى الكتبخانة ومتحف الفن العربى. ولا زال المتحف المصرى اليوم علامة ثقافية بارزة فى ميدان القاهرة المركزى، رغم تطاول فندق هيلتون ومبنى جامعة الدول العربية ومبنى المجمع عليه، بينما يقع متحف الفن العربى فى مكان لا يقطعه السياح إلا نادراً. وحدد دليل بايدكر السياحى للعام 1908 قيمة كل من المتحفين من وجهة نظر صناعة السياحة، فخصص الدليل 24 صفحة للمتحف المصرى وخريطة مطوية لطابقيه، ولم ينل متحف الفن العربى سوى صفحتين ونصف الصفحة[723]. وفى العام 1913 بلغ عدد زوار المتحف المصرى 29.879 زائراً، ويمثل هذا العدد ستة أضعاف زوار متحف الفن العربى البالغ عددهم 5166 زائراً[724].

العمارة الإسلامية الجديدة

وجاء تصميم مانيشالو لمبنى متحف الفن العربى والكتبخانة، والتصميم المعدل الذى وضعه هرتز لاستكمال مسجد الرفاعى، ولمبنى نظارة الأوقاف الجديد، جاء ليضع أعضاء اللجنة قرب مركز إحياء العمارة "العربية" أو الإسلامية بالقاهرة. وكلمة "إحياء " تفترض وجود تدهور سابق عليها، فعند منتصف القرن التاسع عشر، عزفت مصر عن اتباع الطرز المماليكية والعثمانية فى تشييد المبانى الرئيسية. وكان مسجد محمد على بالقلعة من حيث الطراز المعمارى نقلاً حرفياً للمساجد السلطانية بإستانبول، فى تحد

721 Comite 21, 1905, PVS (3 January 1905), 3 – 7' PVS (4 April 1905).
722 Lane – Poole, Cairo, 98.
723 Baedeker, 1908, 58 – 60, 75 – 99.
724 Annuair Statistique de l'Egypt, 1914 (Cairo, 1914), 104.

رمزى للسلطان الذى ناصبه محمد على العداء. ولكن حتى عندما كان بناء المسجد يسير على قدم وساق فى الثلاثينات، كان الطهطاوى يسبح بحمد العمارة الباريسية "المتحضرة " بإعتبارها نموذجاً يحتذى[725]. وعبر لين عن حزنه لما ترتب على إغارة العمارة الأوروبية على القاهرة من نتائج وخيمة. ففى عهد سعيد وإسماعيل، أقبل أثرياء المصريين والأجانب على إقامة المبانى أوروبية الطراز، واحتكر الإيطاليون صناعة البناء والزخرفة فى مصر[726].

ولم يكن إحياء العمارة الإسلامية سوى طراز أوروبى مستورد آخر، يمثل – بدرجة أقل– نهضة معمارية ذات طابع محلى. فقد كانت المنافسة فى الغرب – فى القرن التاسع عشر– قائمة على قدم وساق بين إحياء الطراز القوطى والرومانى واليونانى ، والكلاسيكية الجديدة التى تستلهم أفكارها من عصر النهضة، وأولئك الذين لم يقبلوا بأى من تلك الخيارت، إتجهوا نحو "الشرق العريق". فصمم جون ناش الجناح الملكى فى برايتون (1815 – 1823) متأثراً بالعمارة المغولية بشكل كان ملفتاً للنظر، ولكن أول مبنى بلندن استلهم العمارة الإسلامية كان البهو الملكى Royal Panopticon (عام 1853). وتأثر أوين جونز بدراسته لقصر الحمراء بالأندلس عند تصميمه الزخارف الداخلية للمعرض الكبير بكرستال بالاس (1815)، كما تأثر بالقصر الإسلامى الذى أعيد بناؤه فى سندام، وساعد كتابه "قواعد الزخرفة" (1856) على نشر التصاميم الإسلامية، وأصبحت الأجنحة ذات الطراز المعمارى الإسلامى الجديد شائعة بجميع المعارض الدولية، ومن بينها جناح "شوارع القاهرة" بمعرض كولومبيا – شيكاجو سالف الذكر[727].

وفى باريس، تمسكت "مدرسة الفنون الجميلة"، ومجلس المبانى الحكومية بالأفكار الكلاسيكية وأفكار عصر النهضة كمثال للجمال الكونى، فى مواجهة إتجاه إحياء الطراز القوطى الذى دعا إليه فيوليه لودوك "ولجنة الآثار التاريخية"[728]، وتنبأ شارم عام 1881

---

[725] Mona Zakarya, "L'Inscription du discours occidental l'urbanisme orientaux", D'un Orient l'autre, 2 vols. (Paris, 1991) 1 : 561.

[726] Sakr, Islamic Architecture.

[727] حول إحياء العمارة الإسلامية فى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، انظر:
Sweetman, Oriental Obsession.

[728] Gwen dolyn Wright, The Politics of Design in French Colonial Urbanism (Chicago, 1991), 200 – 201.

بأنه "سيأتى الوقت الذى يضيق فيه شباب المعماريين ذرعاً بالطرز اليونانية والرومانية التى كررها السابقون عليهم، وقتلوها بحثاً، وأصبحوا على علم بنتائجها قبل مغادرتهم باريس، ويأتون إلى مصر ليقفوا على إتجاه لا يزال غفلاً"[729].

وكان باسكال كوست قد مزج فى العشرينات الزخارف الإسلامية والفنون الجميلة فى المبانى ذات الطابع الإيطالى التى صممها لمحمد على. كما صمم كوست مسجداً مستلهماً الآثار المماليكية، ولكن تلك التصاميم لم تعرف طريقها إلى التنفيذ[730]. وكان جيمس وايلد – صهر أوين جونز– قد جاء إلى مصر ضمن بعثة الآثار المصرية التى قادها ليبسيوس، ثم بقى فى مصر لدراسة العمارة الإسلامية، وكلف بوضع تصميم لكنيسة القديس مرقص الإنجيلية بالإسكندرية. وقد مزج بين الزخارف البيزنطية والإسلامية لتأكيد التراث المسيحى العريق للمدينة، وليوحى للمسلمين بنزعة التسامح الدينى عند بريطانيا. وعندما عاد وايلد إلى لندن عمل مستشاراً لمتحف ساوث كنجستون فى الزخرفة الإسلامية[731].

وفى الستينات وضع يوليوس فرانتز تصميم قصر إسماعيل بالجزيرة بمساعدة كوريل دلروسو على طراز انتقائى إسلامى جديد. وقام ألمانى آخر هو كارل فون ديبتس باستكمال ملحق القصر وواجهته من الحديد الزهر التى إتخذت شكل الأقواس الأندلسية . وقام المعمارى النمساوى فرانتيسيك شمورانتز ببناء قصر بالإسماعيلية على عجل ليكون جاهزاً عند افتتاح قناة السويس. وعندما عاد إلى فيينا قام بتنسيق الأغراض التى جمعها من القاهرة للجناح المصرى الذى قام بتصميمه للمعرض الدولى عام 1873، وفيما يتعلق بالعمارة المحلية فى مصر، أشاد بالفيلا التى أقامها أمبرواز بودرى لنفسه بالقاهرة على الطراز "العربى" وعند انتهاء القرن بدأ آخرون يحذون حذوه فى العمارة المحلية[732].

بدأت ضاحية مصر الجديدة عام 1906، وكانت حلماً استعمارياً شرقياً للبارون البلجيكى إمبان. وقام جاسبى – المعمارى البلجيكى– بتصميم "شارع عباس"، وفندق "هليوبولس بالاس" الذى يعد علامة على الضاحية. وكما حدث فى الكثير من المبانى العامة التى

---

729 Charmes, "L'Art arabe".
730 Hill, "Pascal – Xavier Coste", esp. 30, 97, 144 – 46.
731 Crinson, Empire Building, 97, 190.
732 Sakr, Islamic Architecture, 9; Charmes, Cinq Mois, 59.

شيدت على الطراز الإسلامى الجديد، استخدمت العناصر الإسلامية فى الزخرفة، ولكن النوافذ والشرفات الخارجية، وقاعات الاجتماعات كانت جميعاً غريبة الطراز، واتسمت النزعة الإنتقائية فى مصر الجديدة بالتمرد، فالحدائق الخارجية اتخذت طابعاً أندلسياً بينما استلهمت البواكى والأعمدة العمارة الإيطالية أو الفرنسية[733].

وإذا كانت الأقواس الأندلسية تفتقر إلى الأصالة فى القاهرة، فما هى البدائل ذات الجذور المحلية التى يرتكز عليها إحياء العمارة الإسلامية ؟ كان الطراز العثمانى مستبعداً عند سعيد وإسماعيل اللذان تركا مسافة بينهما وإستانبول. ولم يكن هناك سوى جامع ابن طولون ممثلاً للطراز الإسلامى السابق على العصر الفاطمى، وكانت هناك بضعة آثار فاطمية لا تزال قائمة، ولكن المنشآت المماليكية المبهرة كانت ماثلة فى كل مكان. ورغم أن المماليك لم يكونوا فى الأصل عرباً أو مصريين، فإن إحياء العمارة المماليكية كان ملائماً تماماً للنهضة العربية – المصرية، بعد قرون قضتها مصر كمجرد ولاية من ولايات الدولة العثمانية. وكان الطراز المماليكى فى أوروبا واحداً من بين عدة نماذج استشراقية، ولكنه أصبح فى مصر بمثابة العودة للجذور المحلية، تماماً مثل إحياء الطراز القوطى فى العهد الفيكتورى بإنجلترا.

كلف عباس الثانى ماكس هرتز ليضع خطة جديدة (عام 1905) لاستكمال مسجد الرفاعى قبالة جامع السلطان حسن المماليكى الطراز. وكان حسين فهمى – كما ذكرنا من قبل – قد وضع التصميم الأصلى للمسجد، وبدأ بناءه عام 1869. وقد إنهارت القبة أثناء عملية البناء، ثم توقف العمل بسبب إفلاس إسماعيل. وقد ألقى رونيه باللوم على خليل أغا وعده مسئولاً عن سقوط القبة لعدم استجابته لتحذيرات المهندس المعمارى. وقد تعاون هرتز مع كارلو فرجيليو سيلفانى فى وضع تصميم مماليكى جديد لاستكمال بناء المسجد[734].

وعمل فى خدمة القصر بمصر، معماريون أوروبيون آخرون من المهتمين بالعمارة الإسلامية. وفى عام 1910، إنضم أنطونيو لاشياك – كبير المعماريين بالقصور الخديوية

---

[733] Liliane Karnouk, Modern Egyptian Art: The Emergence of a National Style (Cairo, 1899), 76 – 77.

[734] Rhone, Gazette, 1882, 64; Max Herz Bey, La Mosquee El – Rifai au Cairo (Milan, n. d.).

– إلى لجنة حفظ الآثار، وكان يعمل بالطراز الإسلامى الجديد، وغيره من الطرز المعمارية الأخرى.

وبعد قمع ثورة الهند عام 1857، فضل البريطانيون الطراز المعمارى "الهندو – عربى " ليعطوا انطباعاً بتوطيد أقدامهم فى البلاد مثلما فعل المغول الغزاة من قبل. أما فى مصر، فكان الإحتلال حديث العهد محاطاً بمنافسات شديدة من القوى الأوروبية الأخرى، ولا يجد متسعاً لمحاولة تقديم بيان مماثل من خلال العمارة. وكانت هناك سياسة معمارية أخرى فى الهند تفرض على الأمراء استخدام الطراز الهندو – إسلامى فى مبانيهم لأنهم كانوا يريدون تأكيد حداثتهم من خلال بناء قصور على الطراز الكلاسيكى الجديد[735]. أما فى مصر، فقد أقام إسماعيل قصر عابدين على الطراز الكلاسيكى الجديد، وعبر عباس الثانى عن حداثته ببناء قصر المنتزه بالإسكندرية على الطراز الفلورنسى الجديد. وعلى كل، أخذ الطراز الإسلامى الجديد يروج بين الطبقة العليا من المصريين فى العقد الأول من القرن العشرين. وعندما توفى على بهجت كان يعيش فى فيلا على الطراز "العربى " بالمطرية[736].

كان أحمد زكى – الموظف بالقصر الخديو وعضو لجنة حفظ الآثار– محباً للكتب وعالماً فى الأدب العربى، وقد اعتبر الطراز المعمارى الإسلامى الجديد الذى ابتدعه الأوروبيون فاشلاً من الناحية الفنية. واختلف أحمد زكى مع هرتز حول الجهود التى بذلتها اللجنة و"مدرسة الفنون الجميلة" – التى أقامها الأمير يوسف كمال– لإحياء الفن "العربى"[737] . وكانت المدرسة قد فتحت عام 1908، وتولى إدارتها المثال جيلوم لابلان، يعاونه بعض مدرسى الرسم والعمارة من الأوروبيين، واستهجن لابلان الإتجاه نحو استعارة الطرز المعمارية الأوروبية، وعمل على إحياء الفن العربى، الذى قضى عليه العثمانيون – على حد قوله– على مدى أربعة قرون مضت، وتولى الأمير يوسف كمال الإنفاق على المدرسة مدة عقدين من الزمان، وكانت الدراسة مجانية كما أوفد الأمير المثال محمود

---

[735] T. R. Metcalf, Imperial Vision, 56 – 58, 105 – 39.
[736] Abd El – Razeq, Bulletin de l'institut d'Egypt, 6, 103.
[737] Ahmed Zaki Pacha,: Le Passe et l'avenir de l'art muslman en Egypt", L'Egypt Contemporaine 4, Fasc. 13 (1913), 1 – 32.

مختار إلى باريس لإكمال دراسته، وقد انضم الأمير يوسف كمال إلى عضوية "لجنة حفظ الآثار" لفترة قصيرة[738].

وعند نهاية القرن برز المعماريون المصريون من خلف الظلال، وبدأوا يكلفون بأعمال كبرى. ترى، هل كان تركيزهم على الطراز المماليكى الجديد بحثاً عن الأصالة التى تضرب جذورها فى أعماق مصر ؟ ، أم كان نوعاً من الكلاسيكية الجديدة المصرية ؟ أم كانوا مجرد مقلدين للنماذج المعمارية التى أقامها الأوروبيون بالقاهرة والإسكندرية ؟ ربما كانوا يجمعون بين ذلك كله، فلم تتم دراستهم إلا قليلاً. وبعد الحرب العالمية الأولى، ستصبح العمارة الفرعونية الجديدة – التى كان للأوروبيين فضل ريادتها أيضاً– مشابهة فى غموضها.

مواقع المقاومة، موظفو الأوقاف والقصر

حضر كل من الأوروبيين الخمسة – بالقسم الفنى للجنة– الاجتماعات بمتوسط 19 مرة فيما بين 1894 – 1895، بينما لم يحضر كل من المصريين الأربعة بنفس القسم اجتماعات اللجنة إلا خمس مرات خلال نفس الفترة[739]، وربما كان ذلك نوعاً من المقاومة السلبية، أو خشية مواجهة الخبراء الأوروبيين، أو بسبب قلة الإهتمام، أو نتيجة ضغط العمل، كلها أسباب ربما أسهمت معاً فى الحد من مواظبة المصريين من الأعضاء على حضور اجتماعات اللجنة. لقد عبر المصريون الآخرون من أعضاء اللجنة – غالباً من موظفى الأوقاف وممن لهم صلات بالقصر– عن مقاومتهم الضمنية للهيمنة الأوروبية على اللجنة، وذلك فى السنوات التى أعقبت ترك على مبارك لها. ولما كانت مضابط الاجتماعات بيد الأوروبيين، يحتاج الباحث إلى قراءة ما بين السطور ليستشف تلك المعارضة المقنعة.

لقد قام محمد على بوضع يده على الكثير من الأوقاف المحسوبة على دور العبادة، مما أدى إلى الإسراع فى تداعى العديد من الأوقاف فى إختصاص إدارة حكومية، إرتقى بها إسماعيل إلى مستوى الوزارة (النظارة)، وفى العام 1884، هبط بها توفيق إلى مستوى

---

738 Guillaume Laplagne, "Des Aptitudes artistiques des Egyptiens…", L'Egypt Contemporaine 1, no. 3 (May 1910), 432 – 40.
739 Comite 13, 1896, PVS 69 (1896), 35 – 36.

"المصلحة" لينأى بها عن مجلس النظار (الذى كانت قبضة الإنجليز عليه قوية)، وليجعلها تابعة له مباشرة: وأتاح ذلك لتوفيق، وعباس الثانى – من بعده– موارد مالية بعيدة عن تدخل الإنجليز، استخدمت لأغراض الرعاية. وبذلك كان كبار موظفى الأوقاف من رجال القصر، وليس من قبيل الصدفة أن رؤساء الوزارة (فيما بعد): حسين رشدى، وعدلى يكن، وأحمد زيور، وإسماعيل صدقى، تولى كل منهم منصب مدير عام مصلحة الأوقاف، فلم يكن كرومر يتدخل فى شئون الأوقاف أو الأزهر خشية رد الفعل الدينى . وأعاد كتشنر الأوقاف إلى مستوى الوزارة عام 1913، ولكنه فشل فى مسعاه لكف يد القصر عن التحكم فى ميزانيتها[740].

وكانت رئاسة اللجنة لناظر الأوقاف، كما كان أربعة من بين الأحد عشر عضواً الأصليين موظفون بالأوقاف (هرتز وثلاثة من المصريين). وظهر نسق للتصويت باللجنة، استطاع من خلاله الأوروبيون، والعضوان الأرمينيان، وعضو مسلم واحد، التغلب على المقاومين، وتحقيق استقلالية اللجنة عن الأوقاف. وفى عام 1890 تجاوزت اللجنة إعترضات الخديو، وأنشأت مكتب فنى خاص لإصلاح الآثار. ولكن مهندس الأوقاف صابر صبرى، وإسماعيل الفلكى، وقفا إلى جانب ناظر الأوقاف على رضا فى التصويت على إلغاء المكتب الجديد، غير أن الأوروبيين الأربعة، ويعقوب أرتين، وحسين فخرى ناظر الأشغال العمومية هزموا إقتراح الإلغاء[741]. ولعب فخرى وأرتين نفس الدور – فى مناسبات عدة– لمناصرة التكتل الأوروبى باللجنة. ورغم أن فخرى وأرتين أحسا بالألفة فى الوسط الفرانكفونى باللجنة، والجمعية الجغرافية الخديوية، والمجمع العلمى المصرى، بشكل يفوق الدوائر الناطقة بالإنجليزية، فقد توصلا إلى تفاهم براجماتى مع المحتلين البريطانيين.

وإتبعت "معارضة الأوقاف" المهزومة أسلوب المباغتة، فعندما كان الأوروبيون يقضون إجازة الصيف ببلادهم عام 1893، دعا صبرى والفلكى إلى اجتماع عاجل للقسم الفنى ، وأضافوا إلى القسم أربعة من المهندسين المصريين بحجة متابعة الأعمال العادية خلال

---

740 Gabriel Baer, "Waqf Reform" in his Studies in the Social History of Modern Egypt (Chicago, 1969), 83 – 84.

741 Comite 10, 1893, PVS 58 (13 June 1893), 40, 44 – 45; PVS 59 (27 November 1893), 46. حول حسين فخرى، راجع: يوسف آصاف، دليل مصر (القاهرة 1890) 249 – 252.

الصيف. وفى العام 1897، إحتج صبرى وعضوان آخران على تنظيف الآثار الحجرية باستخدام محلول البوتاسيوم وإقترحوا بدلاً من ذلك إتباع أسلوب الحك الشديد (السنفرة) لتنظيف تلك الآثار، ولكن غالبية أعضاء اللجنة خذلتهم، وإتخذت قراراً بمنع "كشط أو حك أى حجر". وقام القسم الفنى – أيضاً– بتأنيب صبرى لقيامه بإدخال تعديلات على تقرير عن الإصلاحات بعدما وقع عليه الأعضاء[742].

وهزمت نفس الأقلية عندما أدخل فخرى والأوروبيون من أعضاء اللجنة الآثار القبطية تحت حماية اللجنة عام 1896، ووافق البطريرك على المساهمة فى إصلاح الآثار القبطية، وألا تذهب أى من أموال الأوقاف إلى الكنائس، وصوت الأوروبيون الخمسة والأرمينيان وحسين فخرى إلى جانب ضم إثنين من الأقباط إلى عضوية اللجنة، وتغلبوا بذلك على فيظى – رئيس اللجنة– وصابر صبرى، وإسماعيل الفلكى الذين رأوا ضم واحد فقط. ولكن لم تتم الموافقة على تغيير إسم اللجنة لتصبح "لجنة حفظ آثار الفن العربى والقبطى"[743]. وسيعود الفصل السابع من هذا الكتاب إلى تناول دور الأرمن والأقباط خاصة فى اللجنة والحياة الوطنية.

على بهجت، والوطنية، والمستشرقون

لولا إصطدام على بهجت بدوجلاس دانلوب – الإسكتلندى الصارم الذى أدار نظارة المعارف لحساب كرومر– لظل حتى تقاعده موظفاً مجهولاً بالمعارف. فقد حدث ذات مرة فى أواخر التسعينات أن أعد بهجت ووكيل النظارة أرتين يعقوب خطاباً لناظر المعارف حسين فخرى لتوقيعه، فتورط حسين فخرى فى الخطأ عندما وقع الخطاب دون الرجوع إلى دانلوب مستشار المعارف، فاضطره الأخير أن يسحب توقيعه – فيما بعد – فكتب على بهجت مقالاً بدون توقيع نشرته جريدة "المؤيد" المعارضة للإحتلال، هاجم فيه دانلوب ودافع عن فخرى وأرتين. وإكتشف دانلوب فعلة بهجت، وكاد يدمر مستقبله لولا تدارك فخرى وأرتين للأمر، فإتخذا – عن طريق لجنة حفظ الآثار– قراراً بنقل بهجت إلى مصلحة الآثار، بعيداً عن متناول دانلوب[744].

---

[742] Comite 10, 1893, R 153 (16 August 1893), 75; Comite 14, 1897, PVS 74 (a March 1897), 48; PVS 75 (6 April 1897), 73 – 75.
[743] Comite 13, 1896, PVS 69 (Spring 1896), 30 – 33 – 35.
[744] Abd El – Razeq, BIE 6 : 109.

وتعكس هذه الحادثة حقيقة وضع الوزير فى إطار جدلية الإمبريالية / الوطنية، فالوزراء لا يملكون رفض "نصيحة" المستشار البريطانى، كما كان الخديو عباس حلمى الثانى لا يملك تجاهل ممثل بريطانيا صاحب اللقب المتواضع "القنصل العام". وكان دانلوب وكرومر – ولا يزالان– عدوين لدودين فى نظر الوطنيين المصريين.

كانت "المؤيد" التى يصدرها الشيخ على يوسف بمثابة المتحدث غير الرسمى بلسان عباس الثانى، الذى شجع الطلبة والمهنيين على معارضة الإحتلال. وفى العام 1896، إنضم على بهجت، ولطفى السيد، وعبد العزيز فهمى، وطلعت حرب، وأربعة آخرين إلى جمعية سرية لتحرير مصر. وأصبح طلعت حرب مشهوراً باعتباره مؤسس بنك مصر وشركاته، وأصبح عبد العزيز فهمى قانونياً بارزاً، وأصبح لطفى السيد رئيس تحرير "الجريدة" مديراً للجامعة المصرية، ووزيراً، وموجهاً لجيل كامل من المصلحين. واشتم عباس وجود الجمعية فطلب من صفيه مصطفى كامل أن يحضر لطفى السيد إلى القصر، وكانت ثمرة هذا الاجتماع، أن أرسل عباس (فى 1897) لطفى السيد إلى سويسرا للإقامة لمدة عام ليتأهل للحصول على جنسيتها، عندئذ يعود إلى مصر لإصدار جريدة معادية للإحتلال تحت حماية الإمتيازات الأجنبية. وحمل لطفى السيد معه بعض الكتب من على بهجت لتوصيلها إلى عالمين فى سويسرا: المستشرق ماكس فان بيرشم، وعالم المصريات إدوارد نافيل. وحضر لطفى السيد بعض محاضرات جامعة جنيف، كما ساعد بيرشم فى أبحاثه[745]. ولكن مشروع عباس لم يقدر له النجاح، فقد وصل الشيخ محمد عبده – الذى كان على علاقة سيئة بالخديو – إلى جنيف وأصبح صديقاً حميماً للطفى السيد، فقطع الخديو معونته المالية للطفى السيد عندما بلغته أنباء تلك العلاقة. وعاد لطفى السيد إلى مصر تاركاً لمصطفى كامل مهمة بدء مرحلة من الصحافة المعارضة للإحتلال عام 1900 من خلال جريدة "اللواء".

كتب على بهجت مقالاًت نشرت بمجلة "الموسوعات" فيما بين 1898 – 1901، وقعها أحياناً باسمه، وأحياناً أخرى بالإسم المستعار "آثارى"[746]، ورشحه يعقوب أرتين للمعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة لمساعدة الباحثين فى اللغة العربية، والتقى على بهجت

[745] لطفى السيد، قصة حياتى، 34 – 36.

[746] Abd El – Razeq, BIE q, 109.

وماكس فان بيرشم فى ذلك المعهد، الذى شجعه على خوض غمار الدراسات الشرقية، وعلم المتاحف، والآثار الإسلامية.

واستطاع فخرى وأرتين أن ينقذا بهجت من دانلوب بفضل علاقتهما الوثيقة بالدوائر الفرانكفونية والمؤسسات الثقافية بمصر. فقد ولد حسين فخرى لأسرة من النخبة "التركية" التى خدمت محمد على، كان والده – جعفر صادق– قائداً عسكرياً شركسياً، وكان حسين فخرى أصغر من أرتين – وكيل الوزراء الأرمنى– بعام واحد. وقد درس القانون بفرنسا لمدة أحد عشر عاماً وعمل بالنيابة هناك، وعاد إلى مصر عام 1874 قبل أن يؤسس نوبار وإسماعيل المحاكم المختلطة بوقت قصير، وأعطى تأسيسها الأفضلية المطلقة لمن خبروا القانون الفرنسى، وأصبح حسين فخرى ناظراً للحقانية (وزيراً للعدل) وهو فى السادسة والثلاثين، ثم رئيساً للنظار فى سن الأربعين، رغم أن وزارته لم تدم سوى ثلاثة أيام، لأن عباس الثانى كلفه برئاستها دون استشارة كرومر. ولعل إجهاض وزارته أعطاه "شهرة لا يستحقها كوطنى"[747]. ولكنه عاد بعد عام واحد عضواً بوزارة مصطفى فهمى، فظل ناظراً للمعارف والأشغال العمومية لمدة 12 عاماً.

ولعب حسين فخرى دور الرئيس التركى لأرتين – المثقف والعالم والمترجم– فى لجنة حفظ الآثار، والمجمع العلمى المصرى، والجمعية الجغرافية. وخلال السنوات الطوال التى شغل فيها منصب نائب رئيس المجمع والفترة القصيرة التى تولى فيها رئاسته، لم يقم فخرى بإلقاء بحث واحد، بينما قدم أرتين فيضاً من التقارير، والترجمات، والأوراق البحثية[748].

وقد قام فخرى وأرتين بإلحاق على بهجت بلجنة حفظ الآثار فى بداية عام 1900، ولكنهما لم يتمكنا من إلحاقه بوظيفة بمصلحة الآثار إلا بعد عامين. وحاولا تعيينه أميناً لمتحف الفن العربى، ولكن هرتز حصل على هذه الوظيفة فى يناير 1902 (مع استمراره فى

---

747 A. Goldschmidt Jr., Historical Dictionary 107.

748 Jean Ellul, Indexdes Communications et memoires pblies par l'institut d'Egypte (1859 – 1952) Cairo 1852.

العمل كبيراً للمعماريين والأوقاف وباللجنة)، وحصل بهجت على وظيفة أمين مساعد للمتحف براتب قدره 25جنيهاً شهرياً، وقدر له أن يعمل 12 عاماً تحت رئاسة هرتز[749].

كان فخرى شركسياً، وأرتين أرمينياً، وبهجت تركى الأصل، وربما نظر الوطنيون إلى الأولين نظرتهم إلى المتعاونين مع الإحتلال، وإلى بهجت نظرتهم إلى المهنى البعيد عن السياسة. فمن كان مثله كأحمد كمال وإسماعيل الفلكى، وأحمد شفيق، وأحمد زكى ، خالطوا الأوروبيين فى المجمع العلمى المصرى والجمعية الجغرافية، والجامعة المصرية عندما كان الإحتلال فى عنفوانه والإمبريالية فى ذروة هيمنتها. فإذا كانوا لم يبلغوا من الوطنية ما بلغه مصطفى كامل، وما بلغه – فيما بعد– سعد زغلول، فإن أحمد كمال وعلى بهجت تحدوا ادعاء الأوروبيين بأنهم وحدهم أهل العلم والمعرفة والكفاءة فى الإدارة، وبذلك وضع أحمد كمال وعلى بهجت الأسس الثقافية التى بنى عليها الوطنيون فيما بعد. وقد خطا بهجت خطواته الأولى على طريق الآثار الإسلامية عام 1887، عندما ترجم الأعمال الأولى للجنة حفظ الآثار إلى اللغة العربية، ويبدو أن أرتين كان وراء تكليفه بهذا العمل، وفى عام 1894 ترجم إلى العربية تقريراً كتبه أرتين عن التعليم، ويبدو أن تزكية أرتين له لدى المعهد الفرنسى للآثار الشرقية كانت تهدف إلى إعطائه قدراً من "التدريب العلمى" لباحث واعد لم تتح له فرصة الدراسة بأوروبا[750].

كان ماكس فان بيرشم – الذى التقاه بهجت بالمعهد الفرنسى– مؤسس علم النقوش الإسلامية، ولد لأسرة كلفينية ثرية بجنيف، وحصل على الدكتوراه فى الاستشراق من جامعة ليبزج، وفى العام 1887 جاء إلى مصر فى رحلة سياحية مع والدته. وبعد خمس أعوام من تلك الزيارة دعا إلى تنظيم حملة دولية لكتابة موسوعة للنقوش العربية تضاهى ما فعله أوجست بوخ لليونان وتيودور مومسن للاتين. وحشد بيرشم كبار المستشرقين الذين عكفوا على النصوص الأدبية المتاحة بالمكتبات الأوروبية. ورد على مقولة إرنست رينان المثبطة. "النقش ليس نصاً"، بقوله: "إن دراسة الأثر دراسة جيدة أفضل من خير النصوص"، وأشاد به ماسبيرو:

---

[749] Comite 19, 1902, PVS 112 (23 January 1902), 3.

[750] يوسف إلياس سركيس، معجم المطبوعات العربية، 1360.

"كنت أظن حتى الآن مدرسة الاستعراب أخطأت الطريق برفضها أن ترى فى العربية ما هو أكثر من النحو والأدب، يدرسانهما داخل مقصورة (مغلقة). ولكن دراساتك بالقاهرة توضح ما يمكن عمله فى مجال الآثار، وما يمكن أن يترتب على ما لا يزال باقياً من تلك الآثار من تحديد لحقيقة الشرق الإسلامى"[751].

بدأ بيرشم عمله فى الآثار كمستعرب يعمل فى بعثات تركز على آثار ما قبل الإسلام[752] . وفى العام 1895 أصبح عضواً مراسلاً بلجنة حفظ الآثار، ودعمت أكاديمية النقوش والآداب بفرنسا مشروعه لإعداد موسوعة للنقوش العربية من خلال المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة. ونشر المجلد الأول من "أعمال جمع النقوش العربية" عام 1903. وبعد ذلك بأربع سنوات، جعلته لجنة حفظ الآثار عضواً فخرياً، ولم يكن صدر من مجموعة النقوش العربية سوى القليل عندما شب أوار الحرب العالمية الأولى، وتفرقت السبل بالفريق العلمى الدولى الذى جمعه بيرشم. وبعد وفاة بيرشم عام 1921، نشر جاستون فبيت ملحقاً بالمادة المصرية، وأسهم فى العمل الأقل طموحاً من مشروع بيرشم، والذى وقع فى 16 مجلداً "تقرير زمنى عن النقوش العربية" (القاهرة 1931 – 1954)، ويعمل برنارد أوكين مع مركز البحوث الأمريكى بالقاهرة الآن على نشر جميع النقوش العربية بالقاهرة السابقة على العام 1800.

كان فان بيرشم فخوراً بحياد جنيف ونزعتها الدولية، ولما كان أقل شبهة من زملائه البريطانيين والفرنسيين والألمان من حيث التورط فى أغراض إمبريالية، فقد اتسعت دائرة أصدقائه متجاوزة كل الإنقسامات والخلافات. كان صديقاً لخليل أدهم مدير عام متاحف إستانبول، وكانت علاقته بعلى بهجت حميمة، حتى أنه اعتبره مساوياً له: "إننى مدين بالكثير لصديقى الذى تعاون معى على أفندى بهجت، فقد قضى أياماً كثيرة فى الكشف عن نقوش القاهرة وقراءتها معى. ووجدت فى إخلاصه الدائم، ودقته وخبرته الأثرية، بالإضافة إلى امتلاكه المتميز لناصية لغته الوطنية، خير عون لى خلال قيامى بالبحث"[753].

---

751 Solagne Ory, "Max Van Berchem, Orientalist" D'un Orient l'autre, 2 : 11 – 24.
752 Rogers, From Antiquarianism, 60.
753 Max van Berchem, Materiaux pour un Corpus Inscrtionum Arabicurum vol. 19.

وفى عام 1898، ألقى على بهجت أول بحث له أمام المجمع العلمى المصرى، وكان فى الأربعين من عمره، بفضل مساعدة أرتين وفخرى له، للإرتقاء من مجال الترجمة إلى البحث، إلى عضوية لجنة الاستشراق. وجمعت ورقة البحث التى قدمها بهجت بين التراث النابليونى والماضى العربى الإسلامى فى تاريخ المجمع. فقد عثر فى أرشيف محكمة رشيد على عقد زواج الجنرال مينو الذى اعتنق الإسلام وتزوج من إمرأة مصرية. وبعد عامين من تقديم بهجت لبحثه إختاره المجمع عضواً. وفى الفترة من 1907 حتى 1922 كان عضواً بلجنة النشر إلى جانب ثلاثة من الأوروبيين. وعندما أصبح نائباً لرئيس المجمع عام 1923، وكان قد قدم عشرة بحوث هناك، وكان من بين موضوعاتها : الحسابات العربية الخاصة بالأهرام، وتراجم المكتشفين العرب، وتاريخ وجغرافية مصر فى عصر المماليك، وتقرير عن حفائره فى الفسطاط[754].

وشارك الأعضاء الآخرون بلجنة حفظ الآثار أرتين وعلى بهجت إهتمامهما بالفن الإسلامى، وكان من هؤلاء صابر صبرى، وأحمد زكى، وبوغوص نوبار. وربما كان فخرى وأرتين وراء انضمام بهجت إلى الجمعية الجغرافية التى احتكر الإيطاليون رئاستها لعدة سنوات قبل الحرب العالمية الأولى[755].

كان النشاط بإحدى تلك المؤسسات الثقافية يستدعى الإنضمام إلى غيرها، ففى عام 1908، إنضم على بهجت إلى مجلس الجامعة المصرية الأهلية التى كان كرومر قد عارض مشروعها حتى لا تصبح مركزاً لتفريخ الوطنيين، ولكن خلفه السير ألدون جورست كان قد توصل إلى تفاهم مع عباس الثانى الذى أسند إلى عمه أحمد فؤاد مهمة إقامة وإدارة الجامعة[756]، وكان من أعضاء مجلس الجامعة ماسبيرو، ويعقوب أرتين، وأحمد زكى ، والوزير حسين رشدى.

وحضر على بهجت اجتماعات مجلس الجامعة بـانتظام حتى العام 1922، عندما استقال لأسباب صحية، وعمل سكرتيراً للمجلس فيما 1919 – 1922، وكان المجلس يضم – فى

---

754 Ellul, Index, Passim.

755 Reid, "The Egyptian Geographical Society", 539 – 72.

756 كان مشروع الجامعة عملاً أهلياً وطنياً خالصاً، لم يكن الخديو عباس حلمى الثانى طرفاً فيه، وقد جاء إختيار الأمير أحمد فؤاد لرئاسة اللجنة بمبادرة من المؤسسين لدفع معارضة الخديو والإنجليز، وإجتذاب التبرعات من الأثرياء. (المترجم)

عام 1919– رئيس مجلس الوزراء حسين رشدى ، وأربعة ممن أصبحوا رؤساء مجلس وزراء فيما بعد (سعد زغلول، عبد الخالق ثروت، إسماعيل صدقى، محمد محمود)، وأحمد لطفى السيد، وعبد العزيز فهمى، ومحمود فهمى المهندس بالأوقاف، وفوكار مدير المعهد الفرنسى للآثار الشرقية. وقد حضر سعد زغلول – مراقب الجامعة– اجتماع المجلس المنعقد فى مارس 1919، قبل اعتقاله بثلاثة أيام ونفيه من البلاد، الذى أدى إلى إنطلاق الثورة فى جميع أنحاء البلاد ضد الوجود البريطانى. وتولى بهجت القيام بعمل "مراقب الجامعة" أثناء غياب سعد زغلول بالمنفى[757].

وأخيراً، إنضم على بهجت إلى جماعة "أصدقاء الفنون الجميلة"، وأصبح عضواً بمجلس الكتبخانة (دار الكتب المصرية)، وقام بترجمة تقرير الكتبخانة عن العام 1908، إلى اللغة العربية. فهل مارس الحديث بالألمانية مع مديرى الكتبخانة من الألمان، أو مع هرتز – رئيسه باللجنة ومتحف الفن العربى– ؟ . لقد أثبت بهجت قدرته على الحديث بالألمانية بطلاقة عندما قام بعرض بعض مقتنيات متحف الفن العربى فى أول معرض للفن الإسلامى، أقيم بمدينة ميونخ عام 1910[758].

تمثيل مصر فى المؤتمرات الدولية للمستشرقين

كان المجمع العلمى المصرى، عند على بهجت، بمثابة نقطة انطلاق إلى دوائر الإستشراق بالخارج، ففى العام 1899 قرأ ورقة بالمؤتمر الدولى الثانى عشر للمستشرقين المنعقد فى روما، كانت عن القلقشندى وكتابه: "صبح الأعشى فى صناعة الإنشا"، الذى نشر فى القاهرة – فيما بعد– (1914 – 1928). وعلق فان بيرشم على البحث – فى الجلسة– متحدثاً عن أهمية الموضوع، وعن الآمال المعلقة على صاحبه. وكان بهجت فى صحبة أقطاب الاستشراق بذلك المؤتمر: إجناتز جولد تزهر، وماكس مولر، وإدجار جرانفيل، وإذا عبر القاعة التى ألقى فيها بحثه، وجد نفسه فى صحبة علماء المصريات من أمثال: إرمان، ونافيل، وشيا باريللى، وبرستد، ولعله استمع إلى تقرير بوتى عن حفائر المتحف اليونانى – الرومانى بالإسكندرية[759].

---

[757] أحمد عبد الفتاح بدير، الأمير أحمد فؤاد ونشأة الجامعة المصرية (القاهرة، 1950)، 23 – 24؛ وانظر أيضاً، أرشيف جامعة القاهرة 3 ب / ف 135، مضابط مجلس الإدارة 20 مارس 1919.

[758] إسكاروس، "على بهجت بك"، 858، 860.

[759] International Cong. Of. Orientalists 12, Rone 1899, Actes 1.

كانت تلك أول مشاركة من جانب على بهجت فى القضية التى تبناها المستشرقون وعلماء عصر النهضة من العرب، وهى دراسة، وإحياء، ونشر المخطوطات العربية. وفيما بعد، إختار بهجت تاريخ البلاذرى، الذى يتناول الفتوح الإسلامية الأولى، لتتولى طباعته "جمعية نشر الكتب العربية"، وحقق المخطوط الفاطمى "ديوان قانون الرسايل"[760].

لقد تناول أنور لوقا، وتيموثى ميتشل، وكارتر فيندلى، المؤتمر الدولى للمستشرقين باعتباره مكاناً لتواصل المستشرقين والمسلمين[761]. فيذهب ميتشل إلى أن "الشرقيين " الذين شاركوا فى مؤتمرات المستشرقين، قضوا على الإنقسام بين الموضوعى والذاتى . فهل باستطاعة الشرقى أن يكون مستشرقاً ؟ ، وما مكان العالم "الشرقى" فى جمهورية العلم، العالمية نظرياً، التى يسيطر عليها الغرب من الناحية الفعلية ؟ .

لم يكن بهجت أول عربى يقدم بحثاً فى مؤتمر المستشرقين الدولى، فقد أرسل إيليا القدسى – الشامى المسيحى– بحثاً من دمشق إلى المؤتمر السادس للمستشرقين الذى عقد فى ليدن عام 1883، كانت عن "طوائف الحرف فى دمشق". ووصلت ورقته بعد انفضاض اجتماعات المؤتمر، ولكن المستشرق السويدى كارلو لاندبرج – القنصل العام السابق بالإسكندرية– إمتدح طريقة القدسى فى عرض مادته التى ليست فى متناول الباحثين الأوروبيين، ونشر الورقة بنصها العربى ضمن أعمال المؤتمر. وأراد لاندبرج بذلك أن يبين "للشرقيين من خلال نشر تلك الورقة رغبتنا فى أن نراهم يشغلون أنفسهم قليلاً بالعلم من أجل العلم". ولكنه ذكر العرب الذين ينوون المشاركة بأوراقهم فى المستقبل بضرورة الإهتمام التام بضبط النحو العربى[762].

أرسلت مصر – فى بداية الأمر– إلى المؤتمر السابع للمستشرقين الذى عقد فى فيينا عام 1886، المتخصصين فى اللغة العربية، بما فيهم الأزهريين الذين قاموا بالتدريس بدار العلوم. ونشرت الورقة التى قدمها حفنى ناصف عن اللهجات العربية ضمن أعمال المؤتمر[763].

---

760 Abe El – Razeq, BIE 6, 110 – 112.
761 Louca, Voyageurs, 181 – 237; Mitchell, Colonising Egypt, 1, 2, 6, 180 – 181.
762 ICO 12, 1899, Actes 2, Section 1 : 3 ff.
763 K. Vollers, "Le Ixme Congres …", BIE, ser, 3, 3 (Nov. 1892), 197.

وحضر الشيح حمزة فتح الله المؤتمر الثامن (عام 1889) الذى قسم جلساته بين ستوكهلم وكريستيانا، وتولى عبد الله فكرى باشا – ناظر المعارف السابق، ومعلم أبناء الخديو – رئاسة الوفد المصرى. وتولى ولده محمد أمين فكرى – الذى تعلم فى باريس– أعمال السكرتارية والترجمة. وامتدت مهمة الوفد إلى زيارة لندن والمعرض الدولى بباريس ، بعد انتهاء أعمال المؤتمر. وتوفى عبد الله فكرى – بعد عودته– دون أن يكمل تقريره عن المهمة، فلم يتجاوز ما كتبه 12 صفحة، أكملها ولده محمد أمين فكرى ليصل بصفحات التقرير إلى 800 صفحة[764].

وكان لاندبرج قد حث الخديو توفيق على إرسال الوفد، وبذل جهده – كمضيف– لجعل أعضاء الوفد يحسون بمعاملة الزملاء، وألقى عبد الله فكرى قصيدة عربية عند مقابلته لملك السويد، ورد عليه لاندبرج بالعربية مادحاً الخديو توفيق. وقام أمين فكرى بإهداء ملك السويد كتاباً عربياً عن جغرافية مصر يمثل مختصراً لخطط مبارك التى عاونه فى جمع مادتها[765]. والتقى الوفد من المستشرقين جولد تزهر – الذى درس بالأزهر– وكان يتحدث العربية بطلاقة. وترأس المندوب العثمانى أحمد مدحت أحد الاجتماعات، وترجم للمصريين، كذلك كان هناك وفد فارسى أيضاً. وكان الخدم فى حفل الاستقبال يرتدون الزى المصرى، وعزفت موسيقى أوبرا عايدة التى اعتبرها عبد الله فكرى إختياراً مناسباً للمؤتمر.

خصص أمين فكرى 25 صفحة من كتابه لدحض مذكرة المستشرقين التى تدعو إلى استخدام العامية فى الكتابة بدلاً من الفصحى. وقد قرأ المصريون أوراقهم بالعربية فى قسم اللغات الإسلامية والسامية بالمؤتمر، ولكنهم ظلوا يلتزمون الصمت فى الجلسات التى لم يحضرها أحد ممن يعرفون العربية من الأوروبيين للقيام بالترجمة. وكان أمين فكرى يرى أن تقدم جميع أوراق المؤتمر بلغة الشعوب التى يقوم المستشرقون بدراستها وليس باللغات الأوروبية[766].

---

764 أمين فكرى بك، إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا (القاهرة 1892).
765 محمد أمين فكرى، جغرافية مصر (القاهرة 1878).
766 فكرى، إرشاد، 674 – 701، 647.

وعلى كل، رأى البعض فى إلقاء الشرقيين لأوراقهم بلغتهم، خطأً كبيراً. وتململ أحد علماء أوكسفورد قائلاً: "لم أسمع شيئاً جديراً بأن يصدر عن رجل متزن، سوى ... التقعر فى نطق الكلمات على نحو ما يفعل طلاب الأزهر بالقاهرة، إن مثل هذه الاستعراضات فى المؤتمرات تنقص من قدرها"[767].

وألقى أحمد شوقى قصيدة أمام المؤتمر الدولى التاسع للمستشرقين المنعقد بلندن عام 1892، وكان سعد زغلول من بين الحضور، وكان فولرز يمثل الكتبخانة الخديوية فى المؤتمر، وقدم – بعد عودته– تقريراً عن أعمال المؤتمر للمجمع العلمى المصرى[768] ، ولكن أحمد زكى (1867 – 1934)، الذى كان فى الخامسة والعشرين من عمره، بز غيره من المصريين، وكان ذلك شأنه فى المؤتمرات القليلة التالية. تخرج أحمد زكى فى مدرسة الإدارة العليا بالقاهرة، وكان رجل القصر، عمل سكرتيراً لمجلس النظار لفترة طويلة، واكتسب لقب "شيخ العروبة" لتفقهه فى اللغة العربية، وآدابها.، وأغنت مكتبته الخاصة التى تركها دار الكتب المصرية، ولكن الكتابات الغربية لم تعطه الإهتمام الكافى. ففى مؤتمر لندن للمستشرقين تحدث عن العهد الذى أعطاه النبى محمد للمسيحيين فى سيناء، وقال بتزويره، وألقى تقريراً عن المخطوطات العربية بمكتبة الإسكوريال ، وترجم القصيدة التى ألقاها الشيخ حمزة فتح الله إلى الفرنسية. وقد اختير زكى، وزميل فارسى، وآخر هندى ضمن لجنة الستة عشر، التى أنيط بها تقرير مكان عقد المؤتمر التالى[769]، مما ينفى مقولة تهميش "الشرقيين" فى تلك المؤتمرات، وقد كتب أحمد زكى كتاباً عن المؤتمر وزيارته للندن، وحضر المؤتمر العاشر بجنيف (1894) والثالث عشر بهامبورج (1902)، والسادس عشر بأثينا (1912).

وفى العام 1905، عبر مؤتمر المستشرقين الدولى البحر المتوسط إلى الجزائر حيث عقد المؤتمر الرابع عشر، واختار المفتى الشيخ محمد عبده العلماء من المشايخ الذين مثلوا

---

[767] الإقتباس مذكور فى: Mitchell, Colonising Egypt, 2.

[768] Vollers, "Le IXme Congres…", 193 – 209.

[769] أحمد زكى، السفر إلى المؤتمر (القاهرة 1893)؛ أنور الجندى، أحمد زكى الملقب بشيخ العروبة (القاهرة – حوالى 1964).

مصر بالمؤتمر، كان أشهرهم الشيخ عبد العزيز جاويش الذى لم يلبث أن لمع نجمه فى الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل[770].

وعقد المؤتمر دورته السادسة عشر فى أثينا عام 1912، وبعد ذلك أدت الحرب العالمية الأولى إلى تعطيل اجتماعاته لمدة ستة عشر عاماً، وشارك يعقوب أرتين فى المؤتمر الذى عقد فى باريس 1873، كما كان ممن حضروا مؤتمر أثينا، وألقى أحمد شوقى قصيدة، مرة أخرى، وأشاد الأمير أحمد فؤاد – مدير الجامعة المصرية– بالمنافع التى عادت على البلاد العربية على يد المستشرقين[771]. وتحدث أحمد زكى عن تحمس المسلمين الأوائل لعلوم وفلسفة الإغريق، وامتدح الصحوة الثقافية القائمة فى اليونان ومصر، وتولى جولدتزهر وكريستيان سنوك هرجرونجى رئاسة الجلسات التى قدم فيها أحمد زكى ثلاثة ورقات، وكان من بين المستمعين إليه: لوى ماسنيون، وأوجست فيشر، ودافيد مرجليوث، وهنرى لامن. وألقى حفنى ناصف ورقة عن ماريا القبطية زوجة الرسول، وتحدث الشيخ أحمد الإسكندرانى عن الأدب الحديث المكتوب بالعامية المصرية[772].

وهكذا، على نقيض المصريات التى سيطر فيها الأوروبيون وحدهم على أعمال مؤتمر المستشرقين الدولى فى مجالها طوال الأربعين عاماً السابقة على الحرب العالمية الأولى ، كان لعلماء الدراسات العربية – الإسلامية من المصريين حضور إلى جانب المستشرقين من أمثال: ألفريد فون كريمر، وجولتزهر، وإجناسيو جيدى، ومايكل دى جوجيه، وسنوك هرجرونجى، وكارل بيكر، ولوى ماسنيون، وقدموا أوراقهم البحثية فى المؤتمرات الدولية للمستشرقين منذ الثمانينات حتى الحرب العالمية الأولى، وكان بعض المستشرقين إمبرياليين فاجرين، لم يرحبوا بمشاركة "الشرقيين" فى المؤتمرات التى كانت اجتماعاتها تحت سيطرة الغربيين، ولكن الأمور لم تسر فى إتجاه واحد، فلو شعر أحمد زكى بالإهمال والإقصاء لما داوم على حضور تلك المؤتمرات.

---

770 الوثائق الفرنسية، وزراء الخارجية، نانت C 170 / Dossier 1 / 24 May 1912.

771 قصيدة "أثينا" فى الأعمال الشعرية الكاملة لأحمد شوقى، 2 : 61.

772 ICO 16 Athens, 1912, 41, 115, 117, 119, 120, 121, 122.

تمثيل مصر، "شوارع القاهرة" فى المعارض الدولية

كان من بين الرسائل التى أراد معرض باريس الدولى (1889) توصيلها، هى انتصار الإمبريالية الغربية على باقى بلاد العالم. وبالنسبة لمصر، أغلق الإحتلال البريطانى الباب فى وجه تمثيل مصر بالمعرض، فقد أدى التضييق فى الإنفاق المالى الذى مارسه بيرنج إلى منع ماسبيرو من مواصلة التقليد الذى اتبعه ماريت من عرض الآثار المصرية بالمعارض الدولية. وكانت شركة قناة السويس قد تحملت نفقات معرض باريس عام 1878 بدلاً من إسماعيل، ولكن فى عام 1889 كانت شركة قناة بناما التى أقامها ديلسبس تعانى الإنهيار، والفضيحة.

وقام رجل أعمال فرنسى مقيم بمصر، هو البارون ديلور دى جليو بتنظيم جناح خاص بمعرض باريس (1889)[773]، بإسم "شارع القاهرة" وأقام به نموذجاً مصغراً لمئذنة جامع قايتباى، واستخدم فى إقامة الشارع الكثير من المواد الزخرفية التى انتزعت من البيوت القاهرية، وتضمن العرض التجار والحرفيين، وإثنتين من الراقصات، وخمسين حماراً أثاروا الصخب بدوابهم التى كانت أجرة ركوبها فرنك واحد: وتم إدخال تعديلات على "شارع القاهرة" على يد مستثمرين آخرين بمعرض شيكاجو عام 1893، ومعرض باريس عام 1900.

وكتب بعض المصريين ممن زاروا معرض باريس الدولى عام 1889 من أعضاء وفد عبد الله فكرى إلى المؤتمر الدولى للمستشرقين المنعقد فى ستوكهلم، فقدم أمين فكرى وصفاً تفصيلياً للمعرض. كانت شركة توماس كوك ممثلة هناك، وتولت ترتيب كل إجراءات سفر الوفد، ولذلك خصص أمين فكرى الشركة ومؤسسها بسرد سيرتهما بشئ من التفصيل[774].

ورأى فكرى أن "شارع القاهرة" واقعى من عدة جوانب. فرغم أن المسجد كان مجرد واجهة لمقهى به عدد من الراقصات المصريات والسودانيات، والمنشدين من أرباب الطرق الصوفية، وجه فكرى اللوم إلى الأوروبيين لإفراطهم فى الإعجاب بالراقصات

---

[773] الوثائق الفرنسية، وزارة الخارجية، نانت C 261, 24 Jan. 1897.

[774] فكرى، إرشاد؛ محمد عمر الباجورى، الدرر البهية فى الرحلة الأوروبية (القاهرة 1891)؛ ديمترى نعمة الله خلاط، سفر السفر إلى مرد الحضر (القاهرة 1891).

والإنشاد الصوفى فى مثل هذا الوسط، وأبدى إعجابه بالتاجر القاهرى مصطفى الديب ، الذى كان يبيع العطور وغيرها من المشغولات التى تباع بخان الخليلى[775]، فقد غامر ذلك التاجر بالمشاركة فى المعرض، وحقق أرباحاً مجزية. ورأى فكرى أن المعروضات المصرية "بقصر الصناعات المتنوعة" كانت بائسة، ونحى باللائمة على الحكومة ورجال الأعمال المصريين لتضييعهم تلك الفرصة الجيدة.

وفى معرض شيكاجو الدولى عام 1893، أقيمت بوابة معبد ضخمة ومسلة كمدخل لما يفترض أن يكون "شارع القاهرة" الإسلامية. وقد أخذ الفكرة الأساسية من معرض باريس الدولى 1889، رجل أعمال بلجيكى يونانى الأصل، استأجر عضو لجنة حفظ الآثار، ماكس هرتز ليعمل مستشاراً له فى انتزاع المشغولات الخشبية والمشربيات من بيوت القاهرة، وتصميم جناح المعرض، وفى شيكاجو، كان من المفروض أن يدخل الزوار إلى "البلاد العجيبة التى تسبق حضارتها التاريخ، التى تستولى أعمالها وعجائبها على مخيلاتنا ... هنا تجد أنواع البشر والحيوانات التى يراها الإنسان فى القاهرة الكبرى، هنا تجد المصريين، والعرب، والسودانيين، والأفارقة، والبرابرة، والجمال ، والحمير ... "[776].

وفى أوروبا، ترددت ألمانيا فى إقامة معرض دولى فى برلين عام 1896، أو عام 1900 ، ولكن الفرنسيين الذين فاقوهم خبرة سارعوا إلى الإعلان عن معرض باريس الدولى عام 1900، واستقر رأى ألمانيا على المشاركة فى معرض بجناح يلفت الأنظار، ويثير المخاوف معاً، واكتفت بمنافسة فرنسا فى الميادين الصناعية والعسكرية بمواقع أخرى، وألقت كوابيس قضية دريفوس، وانتصار بريطانيا فى فاشودة، وتعاظم قوة ألمانيا، بظلالها على المعرض الدولى بباريس، فغصت أجنحة المستعمرات الفرنسية فى الهند الصينية، وكمبوديا، والسنغال، وتونس، والجزائر بالمئات من الحرفيين من أبناء تلك البلاد الذي فاق عددهم ما قد يوجد فى البلاد المستقلة[777].

---

[775] فكرى، إرشاد، 129 – 131.

[776] Rangalo, "The Story of Some Old Friends".

[777] R. D. Mandell, Paris 1900, The Great World's Fair (Toronto, 1967).

ولما كان كرومر يقف ضد مشاركة الحكومة المصرية بالمعارض، قام رجل أعمال شامى متمصر هو فيليب بولاد بالاشتراك مع أبناء عمومته والتاجر المصرى مصطفى الديب، بإقامة جناح خاص بالمعرض بإسم مصر[778]، قام بتصميمه المعمارى مارسيل دورنو، مهندس المتحف المصرى الجديد الذى كان يبنى بالقاهرة، واشتمل التصميم على قسم بالطراز الفرعونى، ووكالة إسلامية، ملحق بها سبيل، ونموذج لمعبد دندرة بالخارج، ومسرح بالداخل للموسيقى والرقص.

ورأى أحمد زكى أن عمارة مصر وآثارها قد مثلت تمثيلاً مناسباً، ولكن المنتجات الزراعية والقطنية بالوكالة لم تكن تعكس تقدم مصر الصناعى والتجارى والعلمى ، وأبدى امتعاضه من الشيخ الذى ارتدى ملابس شيخ الأزهر وراح يكتب لزوار الجناح أسماءهم بالعربية. وأراد حذف الرقص الشرقى من "باليه عنتر" التى كانت تعرض بالجناح. كذلك انتقد أحمد زكى غياب الأصالة بالجناح العثمانى[779].

وزار محمد المويلحى المعرض ضمن حاشية عباس الثانى، وكتب عنه عام 1927 فى وصف ألحقه بالطبعات المتأخرة من "حديث عيسى بن هشام"، وإختار للفصل "الإفتراء على الوطن" عنواناً، قدم فيه آراء متناقضة تجعل تحديد رأيه الشخصى من الصعوبة بمكان، وأبدى استياءه من الراقصات، والشخص الذى يمثل الشيخ الأزهرى، وشيخ الكتاب الذى يضرب التلاميذ بجريد النخل، ومنظر الفتاة التى ليس لها ذراعان وتغزل بقدميها. ورأى أحمد زكى أن عجز مصر عن تمثيل نفسها فى المعارض، أتاح للمستشرقين الأوروبيين أن يشوهوا صورتها بالتعاون مع نكرات المصريين. حتى برج إيفل – الذى كان علامة بارزة للمعرض – إعتبره يحاكى فى خيلائه برج بابل، وقد زجت فضيحة قناة بناما بإيفل نفسه فى السجن.

إختلطت ردود أفعال أمين فكرى، وأحمد زكى، ومحمد المويلحى تجاه تمثيل مصر فى المعارض الدولية، فقد مال فكرى وزكى إلى الإعجاب بها على عكس المويلحى، ولكن

---

778 بالإضافة إلى المراجع سالفة الذكر عن المعرض، هناك ملف عن بولاد ومشروعه للمعرض فى وثائق الخارجية الفرنسية 14 ديسمبر 1896.

779 أحمد زكى بك، الدنيا فى باريس (القاهرة 1900)، 91 – 94. وانظر محمد المويلحى، حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن، 330 – 35. ومحمد لبيب البتانونى، رحلة الصيف فى أوروبا (القاهرة 1901)، 102 – 103. ويلوم الأخير الحكومة لتقصيرها فى تمثيل مصر بشكل لائق، ويبدى امتعاضه من انفراد الشوام بالجناح المصرى.

أحداً منهم لم يرض عن وقوع بلاده والقدرة على تمثيلها فى مثل تلك المعارض، فى أيد أجنبية، كما أن على بهجت شاركهم ذلك من منظور آخر، عندما اكتشف جانباً صغيراً يعبر عن استقلال مصر الثقافى عشية نشوب الحرب العالمية الأولى.

على بهجت وكشف الفسطاط ونشوب الحرب

"فتح عمرو بن العاص مصر، وأسس الفسطاط تحت راية الإسلام، واكتشف على بهجت الفسطاط تحت راية العلم".

Mustafa Abd El – Razeq, Ali Bey Bahgat 1854 – 1924", Bulletin de l'Institut egyptien.

كان على بهجت فى الرابعة والخمسين من عمره، عندما بدأ حفائره بالفسطاط عام 1912، تلك الحفائر التى جعلت منه رائد علم الآثار الإسلامية. فقد كان هرتز مشغولاً بالأعمال المعمارية، ولعله أطلق يد بهجت فى إدارة متحف الفن العربى. ولعب بهجت دور قناة الإتصال بين لجنة حفظ الآثار والمصريين الذين لا يعرفون لغة أوروبية، فترجم دليل هرتز لمتحف الفن العربى إلى اللغة العربية (عام 1909)، وفى العام 1912 وصل بما تم طبعه من أعمال اللجنة باللغة العربية إلى العام 1909، وللأسف ليس لدينا معلومات عن المصريين الذين استخدموا تلك الطبعات العربية المترجمة سواء بالنسبة لدليل المتحف أو أعمال "لجنة حفظ آثار الفن العربى".

وفى عام 1912 – أيضاً– حصل بهجت على إجازة لمدة شهرين لمصاحبة طالب إلى باريس لدراسة التاريخ وعلم الآثار، تمهيداً للعمل بالمتحف[780]. وكان قد زار أوروبا من قبل، ولكن الخبرة المباشرة بأوروبا كانت عنده – كما كانت عند أحمد كمال – محدودة، وجاءت فى مرحلة متأخرة نسبياً من العمر.

ويكشف التقرير الذى قدمه بهجت فى مايو 1910 عن رحلة قصيرة قام بها بالصعيد عن حدود فكرته – وكذلك اللجنة– عن علم الآثار فى ذلك الوقت، فقد ذهب بهجت إلى هناك ليشترى أغراضاً للعرض بالمتحف من تجار الآثار بالأقصر وسوهاج، فاكتشف أن الوقت لم يكن مناسباً، لأن الموسم السياحى قضى على ما كان عند التجار من قطع

[780] إسكاروس، "على بهجت بك" 858، 860.

أثرية، اشتراها السياح، وحملوها معهم إلى بلادهم، وأن التجار ينتظرون أن يزودهم الفلاحون الذين يحفرون من أجل "السباخ" بما يعثرون عليه من آثار، عندما يعودون إلى العمل. واقترح بهجت أن يعود إلى هناك – مرة أخرى– فى شهر نوفمبر بعدما ينتهى الفلاحون من جمع السباخ، وقبل وصول السياح إلى الصعيد[781].

وفى يوليو 1912، حانت فرصة مهمة حولت إنتباهه إلى أمور أخرى. فقد نقلت الحكومة إلى اللجنة مهمة الإشراف على الفسطاط – العاصمة العربية الإسلامية الأولى لولاية مصر – التى كان الأوروبيون يطلقون عليها "القاهرة القديمة"، وأحياناً يطلقون عليها "القاهرة القبطية" وإن افتقر المصطلح الأخير إلى الإرتياح. وربما كانت الحفائر الألمانية فى سامراء بالعراق التى بدأها فردريش سار، وتابعها إرنست هرتز فيلد لحساب متحف برلين (1911 – 1913)، قد دفعت إلى تحريك العمل بالفسطاط[782]. فالعمل المتوازى فى مشروع خط سكك حديد بغداد، والصلات العسكرية الألمانية بتركيا، والحفائر فى العراق، تم تجميعه فى سياق إمبريالى غربى. كما أن الحفائر التى جرت فى المواقع الإسلامية فى سمرقند على يد الروس (منذ 1885) وقلعة بنى حمد بالجزائر على يد الفرنسيين (1898)، وربما أيضاً مدينة الزهراء على يد الإسبان (1910)، كانت جميعاً تمثل نغمات حادة لمعزوفة التوسع الإمبريالى الأوروبى[783].

والشئ المميز فى الفسطاط هو أن من تولى حفائرها مصرى مسلم فقد أسندت اللجنة تلك المهمة إلى على بهجت.

وكانت الفسطاط قد هجرت منذ القرن الحادى عشر، وأدى قربها من القاهرة إلى تحويل موقعها – بمرور الزمن– إلى كومة من النفايات، تجلب منها الأحجار للبناء، ويصنع عندها الفخار وغيره من الصناعات، ومكاناً للنهب. وقام جامعو السباخ بتقليب الموقع خلال القرن التاسع عشر، ولكن خلوه من الخرائب الفرعونية تحت آكامه، أنقذه من الوقوع ضحية الإهتمام التدميرى للباحثين عن الآثار الفرعونية فى القرن التاسع عشر[784].

---

781 Comite 27, 1910, R 420 (15 June 1910) appendix, 94 – 95.
782 Rogers, From Antiquarianism, 58 – 60.
783 Vernoit, "Rise of Islamic Archaeology", Muqarnas 14 (1997), 3 – 4.
784 Vernoit, "Rise of Islamic…" 5.

وعلى كل، لم يزود بهجت على باعتماد مالى مناسب للحفائر التى كلف بها. وكل ما كان يستطيع عمله هو إحكام الرقابة على الأفراد والشركات الذين كانوا يحفرون فى الفسطاط منذ وقت طويل لجمع السباخ. وأشار بهجت إلى ما حققه هذا النظام من فوائد للجميع: فقد حصل متحف الفن العربى على قطع أثرية (معظمها قطع من الفخار المطلى أو غير المطلى)، والأحجار ذات النقوش الهيروغليفية ذهبت إلى المتحف المصرى، وحققت شركات السماد مكاسب، واستفاد الفلاحون بالسباخ، وغنمت الدولة تسوية الأرض التى يمكن استخدامها فى أغراض أخرى[785]. ويبين ذلك كيف أن مفهوم بهجت للآثار كان آخذاً فى الإتساع حتى بمعايير اليوم. فقد أصبح لا ينشد جمع القطع الأثرية وحدها، بل يبحث عن بقايا المبانى والشوارع التى تساعد على إعادة تركيب الشكل الطبوغرافى للمدينة القديمة. واستمر بهجت فى العمل بالفسطاط فى العشرينات، عندما ووجه بهجوم من الأجانب جعل لجنة حفظ الآثار تكلف عالمين فرنسيين بكتابة التقارير التى يتم نشرها عن النتائج التى توصلت إليها حفائره.

وفى الوقت الذى هزت فيه الحرب أوروبا، ترددت أصداؤها فى لجنة حفظ الآثار ومتحف الفن العربى. فقد فقد هرتز منصبه باللجنة والأوقاف والمتحف، لكونه من رعايا الأعداء، وغادر البلاد، وإحتفظ بحقه فى المعاش، وقدر هارى فارنول خدماته للجنة والأوقاف على مدى 33 عاماً، وأعلن أسفه لأن "ظروفاً خارجية حرمت اللجنة من خدمات هذا المعمارى والآثارى المتميز"، وتمنى مرقص سميكة أن يتمكن هرتز من استكمال الطبعة الثالثة من كتالوج المتحف، وقدم اقتراحاً – ربما كان سابقاً لأوانه– أن يصبح هرتز عضواً مراسلاً باللجنة. وقد لجأ هرتز إلى سويسرا وتوفى فى مدينة زيورخ عام 1919 عن عمر يناهز الثالثة والستين[786].

وكان من النتائج – غير المتوقعة– التى ترتبت على الحرب العالمية الأولى تولى المصريين إدارة متحف الفن العربى ودار الكتب المصرية (الكتبخانة)، فتولى على بهجت إدارة المتحف، وأحمد لطفى السيد إدارة دار الكتب خلفاً للمستشرق الألمانى آرثر شاد.

---

[785] Comite 30, 1913, 115 – 17.
[786] Comite 31, 1914, PVS 215 (4 January 1915), 134 – 36.

وقفت إيطاليا موقف المتفرج بعض الوقت، ثم انضمت عام 1915 إلى الحلفاء. وبذلك استطاع أخيل باتريكولو – مساعد هرتز الإيطالى الجنسية– أن يحتفظ بوظيفته. وكان باتريكولو يؤكد دائماً أن الجمع بين الحفاظ على عمارة الآثار وإدارة المتاحف غير معروف فى أوروبا، فالمحافظة على الآثار مهمة الخبير المعمارى، وإدارة المتاحف تقع فى إختصاص الآثارى[787]. وأصبح باتريكولو كبير المعماريين باللجنة خلفاً لهرتز (رغم أنه لم يحمل اللقب فى بداية الأمر، كما لم ينل مقعد هرتز باللجنة)، ولكنه لم يرغب فى إدارة المتحف. وأدى ذلك إلى إفساح الطريق أمام على بهجت ليصبح مديراً لمتحف الفن العربى بعد طول انتظار، وكان عندئذ – فى السادسة والخمسين من عمره– وكان نجاح على بهجت وأحمد كمال فى وقت علا فيه مد الإمبريالية، نجاحاً صعب المنال، تختلط فيه حلاوة النجاح بمرارة الكفاح من أجل تحقيقه. وعندما توفى على بهجت عام 1924 ، شارك الأوروبيون باللجنة نقاده فى الخارج إثارة الشكوك حول كفاءته ونزاهته. ولم يكن هناك بديل مصرى يستطيع أن يحل محله عند وفاته، فعاد متحف الفن العربى مرة أخرى إلى السيطرة الأوروبية؛ من خلال المستشرق الفرنسى جاستون فييت الذى تولى إدارته خلفاً لبهجت. وفى عام 1933 أدخل كريزويل فى مناهج الجامعة المصرية برنامجاً للدراسات العليا فى الآثار الإسلامية. وكان لفييت وكريزويل – اللذان قبل كل منهما الآخر على مضض– حضور فعال فى لجنة آثار الفن العربى حتى مطلع الخمسينات من القرن العشرين، رغم تناقص التمثيل الأوروبى باللجنة، وقدر لأمناء المتحف المساعدين من المصريين – الذين تدربوا على يد فييت والذين تخرجوا فى الجامعة من خلال برنامج كريزويل الخاص بالدراسات العليا فى الآثار الإسلامية– قدر لهم أن يقضوا معظم سنوات خدمتهم تحت رئاسة الأوروبيين، تماماً كما حدث لبهجت من قبل، وترك لعبد الناصر مهمة تحقيق الاستقلال السياسى الوطنى، والسيطرة الوطنية على المتاحف والآثار والمؤسسات التعليمية، فى نفس الوقت. ومع ذلك، ظلت القضايا القديمة متضمنة فى أطروحات جديدة – الاستعمار الجديد، والهيمنة الثقافية، وما بعد الحداثة، وما بعد الكولونيالية، وما بعد الاستشراق– برزت فى محاولة لإحكام القبضة من جديد[788].

---

[787] On Patricolo see FO 371 / 3202 / 137229 Herbert to Balfour, 14 July 1918.
[788] Reid, "Cultural Imperialism".

الفصل السابع
أحفاد الفراعنة
مرقص سميكة والتاريخ القبطى

يذكر مرقص سميكة (1864 – 1944) أنه زار الأنبا كيرلس الخامس – بطريرك الأقباط– ذات يوم من أيام شتاء عام 1908، فوجده يشرف بنفسه على صهر الآنية الفضية القديمة التى تملكها الكنيسة لإعادة تشغيلها، وكانت جميعها تحمل نقوشاً قبطية وعربية تعود إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر. كان سميكة – عندئذ– نائباً لرئيس المجلس الملى للأقباط، فعرض على البطريرك أن يدفع 180 جنيهاً هى قيمة الفضة بعد الصهر على أن يتم الحفاظ على تلك الآنية الفضية فى مخزن كبداية نحو إقامة متحف. فوافق البطريرك، وبذلك بدأت نواة المتحف القبطى[789].

هذا التحول الذى أصاب تلك الأوانى القديمة من كونها لا تساوى إلا قيمة وزنها من الفضة، فأصبحت قطعاً أثرية لا تقدر بثمن، يعكس تحولاً دراماياً فى الطريقة التى نظر بها الأقباط إلى ماضيهم، وحددوا هويتهم الحديثة. كان مرقص سميكة ومن على شاكلته من الأقباط، نتاجاً للإصلاح الاجتماعى، بقدر ما كانوا دعاة له، ولم ينشدوا الهروب من الحاضر إلى الماضى البائد، فقد سعى المعارضون للأكليروس القبطى من أبناء الطائفة إلى إصلاح أحوالها، والإعلاء من شأن الهوية القبطية والوطنية، فى وجه معارضة رجال الكنيسة، تماماً كما حدث فى فرنسا فى القرن الثامن عشر واليونان فى القرن التاسع عشر، وكان مرقص سميكة يتصدر الجهة المطالبة بالإصلاح حتى أدرك ضرورة الميل إلى المهادنة حتى يفوز بموافقة البطريرك على إقامة المتحف القبطى.

وكان شأن مرقص سميكة مع الآثار القبطية كشأن أحمد كمال مع الآثار الفرعونية، وعلى بهجت مع الآثار الإسلامية، رائداً يناضل من أجل إشعال الحماس لآثار وتاريخ فترة حيوية من التاريخ، ومظهر من مظاهر الماضى الوطنى. ورغم أنه كان يصغر كمال بخمسة عشر عاماً، وبهجت بست سنوات فقد شاركهما الوعى الذى تميز به ذلك الجيل، فقد تعلم ثلاثتهم فى المدارس التى أوجدها الإصلاح، كما تعلموا اللغات الأوروبية

789 هذه المعلومات، وغيرها مما سيرد بهذا الفصل عن مرقص سميكة مستقاة من مذكراته الشخصية المنسوخة على الآلة الكاتبة، والمودعة لدى أسرته، وسنشير إليها فى هذا الفصل "بمذكرات سميكة".

التى ساعدتهم على تنمية اهتمامهم بالآثار، وأكملوا تعليمهم قبل وقوع الإحتلال البريطانى، وعاشوا معظم حياتهم العملية خلال السنوات الأربعين التى شهدت عنفوان الإحتلال (1882 – 1922). وإذا كان كمال قد مات عام 1923، وبهجت عام 1924، فقد عمر مرقص سميكة حتى العام 1944.

ويلقى هذا الفصل الضوء على الحياة العملية لمرقص سميكة، لدوره الأساسى فى علم الآثار القبطية، ولأن مذكراته الشخصية غير المنشورة التى لم تستخدم من قبل تعد مصدراً غنياً لدراسة هذا الموضوع، أما المصادر الأخرى، فتشمل مجلتى "لجنة حفظ آثار الفن العربى"، و"جمعية الآثار القبطية"، وهما مجلتان معروفتان للمتخصصين فى الفن ، والعمارة، والدراسات الدينية، ولكنهما لم تستخدما من قبل لدراسة تاريخ مصر الحديث ، كذلك ساعدتنى المقابلات الشخصية على دراسة مرامى ومسيرة الدراسات القبطية قبل العام 1914[790].

الأقباط حتى العام 1854

يجل الأقباط القديس مرقص الذى جلب المسيحية إلى الإسكندرية فى القرن الأول ، ويعتبرونه المؤسس لكنيستهم، ومع انتشار المسيحية حول البحر المتوسط فى القرنين الرابع والخامس، أقيمت مجامع دورية للتفريق بين المعتقد الصحيح (الأرثوذكس) والهرطقة. وأدت الخلافات المسيحية فى مجمع مقدونيا عام 451 للميلاد إلى انفصال الكنيسة الأرثوذكسية فى القسطنطينية وروما عن الكنيسة القبطية. وأدى إضطهاد الإمبراطورية البيزنطية للأقباط إلى تمهيد الطريق للفتح الإسلامى لمصر خلال (640 – 642). وبعد بضعة قرون من الحكم الإسلامى، أصبح الإسلام دين الأغلبية، ورجحت كفة اللغة العربية على حساب القبطية كلغة للحديث والتعامل اليومى، وتراجع استخدام القبطية لغةً للحديث إلى مناطق منعزلة بالصعيد، ثم ما لبثت أن اختفت تماماً.

---

[790] أجريت مقابلات شخصية مع مديرى المتحف القبطى: جودت جبره عبد السيد (فبراير 1988، مارس 1999)، وفيكتور جرجس (مارس 1988)، وباهور لبيب (أكتوبر 1987)، كما قابلت مريت بطرس غالى (أبريل 1988)، وعالم المصريات لبيب حبشى (نوفمبر 1982)، وكمال الملاخ (أكتوبر 1987)، وأجريت مقابلة فى سولت ليك سيتى مع عزيز سوريال عطية (مارس 1986).

وفى العام 1800، كانت أغلبية الأقباط تسكن الصعيد، وخاصة فى مديريتى المنيا وأسيوط، وكان معظمهم من الفلاحين، شأنهم فى ذلك شأن مواطنيهم المسلمين. واشتغل أقباط الحواضر بالحرف اليدوية، والوظائف الكتابية فى المالية والضرائب، مع اشتغال القليل منهم بالأنشطة التجارية التى اجتذبت – أصلاً– اليونان الأرثوذكس والأرمن المسيحيين.

وكانت التجارب السلبية التى عاناها الأقباط مع اليونان الأرثوذكس أيام الحكم البيزنطى، والروم الكاثوليك القادمين من غرب أوروبا أيام الحروب الصليبية، حيث لقوا منهما الإحتقار والإتهام بالهرطقة، كانت وراء مشاعر الشك العميق فى إخوانهم المسيحيين القادمين من الشمال. فلم يؤيد الحملة الفرنسية إلا نفر قليل من الأقباط. ومن بين هؤلاء يعقوب حنا – أحد جباة الضرائب بالصعيد– الذى حول ولاءه من المماليك إلى الفرنسيين، وأصبح الجنرال ديزيه لا يستطيع الاستغناء عن خدماته فى حملة الصعيد. وبعد رحيل بونابرت إلى فرنسا، قام الجنرال كليبر بتزويد يعقوب حنا بحرس من الجنود الفرنسيين مكون من ثلاثين جندياً، وجعل منه قائداً لفيلق يضم ثمانمائة رجلاً من الأقباط. ولم يكن أمام يعقوب حنا مفر من الهرب عندما غادر الفرنسيون البلاد، ومات على ظهر سفينة بريطانية وهو فى طريقه إلى أوروبا[791].

وعندما تولى محمد على حكم مصر، لم يتمسك بالقيود التقليدية المفروضة على غير المسلمين من حيث الملبس، وركوب الخيل، غير أنه لم يحقق نجاحاً كبيراً فى التخفيف من اعتماد الحكومة على الأقباط ككتبة وجباة ضرائب.

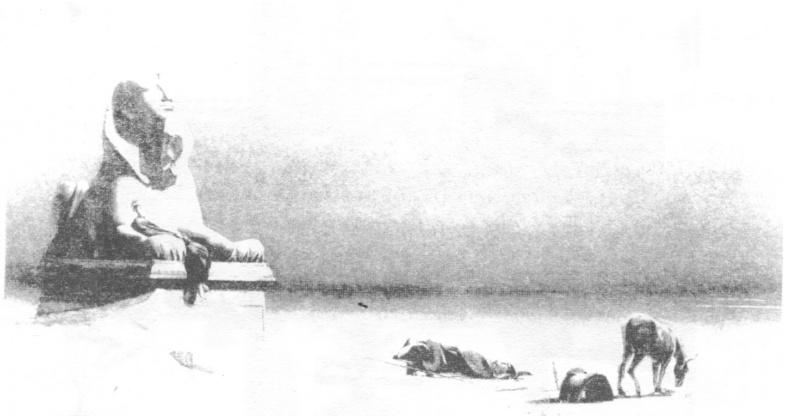
وغلبت على مسيحيى الغرب – فى القرن التاسع عشر– فكرتان عن الأقباط: فهم لا يرونهم إلا هراطقة أحياناً، وأحياناً أخرى يبدون قبولاً بهم كإخوان فى المسيحية. وأحس الغربيون – الذين التمسوا فى مصر أرض الإنجيل، ومهد الآباء الأول للكنيسة– بخيبة الأمل فى الأقباط من أهل مصر، تماماً كإحساس عشاق التراث الهللينى الذين التمسوا فى اليونان المحدثين، أبطال العصر القديم. فقد عكس دليل نلسون السياحى فى التسعينات

[791] Jean – Joel Bregeon, L'Egypte Francaise au jour le jour 1798 – 1801 (Paris, 1991), 318 – 20.

التعصب الأوروبى الدفين تجاه الأقباط: "الأقباط أكثر الرجال قبحاً، وهم أيضاً على درجة عالية من القذارة، وعاداتهم تثير بالغ الإشمئزاز"[792]. وكان إدوارد لين بول على نفس الدرجة من التطرف: "إن التعصب من أبرز سمات شخصية القبط، فهم يضمرون بعض الكراهية لجميع المسيحيين الآخرين، وهم حتى يتفوقون فى ذلك على كراهية المسلمين لغير المؤمنين بالإسلام ... وهم – بصورة عامة– يمتازون بحدة الطبع، وشدة البخل ، والنفاق البغيض، يتذللون أو يطغون حسب الظروف"[793]. وواصل ستانلى لين بول (قريب لين) تقاليد العائلة فى التحفظ تجاه الأقباط: "ينسب لمصر شرف اختراع الرهبنة والديرية، المثير للجدل"[794].

واعترف لين أنه كان له "حظ مصادفة شخصية كنت أشك فى وجودها، وهو قبطى يتمتع بعقلية متحررة ذكية" قدم له المعلومات التى استخدمها فى الملحق الخاص بالأقباط، فى كتاب "عادات وتقاليد المصريين المحدثين"[795].

ووجد ويلكنسون رهبان وادى النطرون "على درجة بالغة من الجهل"، وعبر عن الاستنكار البروتستانتى الشائع للرهبنة، ولكنه لاحظ أيضاً أن: "هناك روح من الوقار والطيبة، فى مشية كبار الرهبان، والآباء من كبار السن، تعد ميزة مسيحية خالصة، وتضع خطاً فاصلاً بين تواضعهم وغطرسة علماء الإسلام، تدخل السرور على الزوار المسيحيين الأجانب، وتذكرهم بإيمان أولئك القوم الذين – رغم جهلهم وتشددهم – يرتبطون بالرب برباط الوحدة، ولديهم مثل توجه حماسهم تجاه الرب وحده"[796].



الشكل رقم (٤١) مصر القديمة ترحب بالعائلة المقدسة – لوحة أوليفييه – ميرسون (١٨٧٩)

[792] Practical Guide to Alexandria, Cairo and Port – Said and Neighbourhood, (London, ca. 1896), by Nilson and Company.
[793] E. W. Lane, Manners and Customs.., 555.
[794] S. Lane – Poole, Cairo, 203.
[795] E. W. Lane, Manners and Customs.., 535.
[796] Wilknson 1843, 1 : 387 – 88.

ووجد بعض أهل الغرب المتأثرين بمصر القديمة – مثل ويلكنسون– من السبل فأتيح لهم المزج بين مصر القديمة وهذا الإيمان العميق بالمسيحية. فتبين اللوحة التى رسمها لوك أوليفييه ميرسون عام 1879، العائلة المقدسة تحت سماء تسطع فيها النجوم تتجه نحو أحضان أبى الهول المصرى الذى مد ذراعيه مرحباً بها (انظر الشكل 41).

النهضة والنكوص ـ البطريرك كيرلس الرابع وما بعده

يذكر الأقباط البطريرك كيرلس الرابع (تولى 1854 – 1861) بأنه كان "أبو الإصلاح ". لقد كان الأقباط يدفعون "الجزية" التى تفرض على غير المسلمين، مقابل عدم تجنيدهم فى الجيش. ولكن عباس الأول جندهم فى الجيش[797]، واستمر سعيد فى تجنيدهم، وألغى الجزية، جاعلاً بذلك الحواجز الطائفية الدينية عرضة للتآكل بمرور الزمن، غير أنه لم يسمح بقبول الأقباط بالمدارس الحكومية، وكان عليه الإنتظار حتى أصدر مبارك قراراً عام 1867، أباح الإلتحاق بالمدارس للجميع بغض النظر عن عقيدتهم الدينية. وفى عهد الخديو إسماعيل تم إيفاد بعض الأقباط للدراسة بالخارج على نفقة الدولة لأول مرة[798] . وأدخل إسماعيل – أيضاً – الأقباط فى "مجلس شورى النواب" وخلال نصف القرن التالى، أقبل الأقباط على الإلتحاق بمدارس الدولة ومدارس الأقباط، كما استفادوا كثيراً بمدارس الإرساليات التبشيرية[799].

وبدأ كيرلس الرابع موجة الإصلاح القبطى الحديث الأولى عام 1854، ومنذ ذلك التاريخ حتى ثورة يوليو 1852 ظهرت موجة جديدة من الإصلاح القبطى، توجت كل عقد من العقود. وقاد العلمانيون كل موجة من موجات الإصلاح التى قاومها الأكليروس، فيما عدا الدرجة الأولى التى قادها كيرلس الرابع. وكان للإصلاح القبطى آليات الحركة الداخلية الخاصة به، ولكنه اتفق مع نغمة وإيقاع الإصلاح الوطنى فى مصر والدولة العثمانية.

جاء كيرلس الرابع من بين صفوف الفقراء من الفلاحين بالصعيد، ودخل سلك الرهبنة، وهو بعد شاباً فى ريعان الشباب، فى دير القديس أنطونيوس بالصحراء الشرقية. ولعله

---

[797] Ehud Toledano, State and Society in Mid – Nineteenth Century Egypt (Cambridge, 1990), 187.

[798] Doris Behrens – Abouseif, Die Kopten in der agyptischen, 35.

[799] حول الإصلاح القبطى فى تلك الفترة ودورهم السياسى، راجع: طارق البشرى، المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية (القاهرة 1982).

تأثر بحلقة دينية قصيرة الأمد نظمها مبشر إنجيلى بالقاهرة فى الأربعينات[800]، ولكن إصلاحات محمد على كان لها بالغ الأثر عنده. فقد أدت تلك الإصلاحات إلى تعامل الدولة مع الأفراد المسيحيين واليهود مباشرة، دون أن تلجأ إلى رئاساتهم الدينية، مما أضعف دور بطريرك الأقباط وحاخام اليهود فى الوساطة بين طوائفهم الدينية والحكومة.

غير أن ضعف إيقاع عملية الإدماج تلك، يعنى أن الأقباط لم يكن لهم مكان فى الجيش الجديد، ولا فى المدارس العليا والبعثات التعليمية التى أوفدت إلى أوروبا، وقلم الترجمة، والمطبعة، والوقائع المصرية. وعندما نصب كيرلس الرابع بطريركاً، قرر أن تتولى الكنيسة مهمة جلب منافع الإصلاح للأقباط. فقام باستيراد مطبعة من بريطانيا، وشن حملة على فساد رجال الأكليروس وجهلهم، وفتح مدارس جديدة للأقباط، ومد الصلات المسكونية مع اليونان الأرثوذكس، والأرمن، وربما الإنجيليين. وقد شاع الإعتقاد أن اتصال كيرلس الرابع بالكنيسة اليونانية الأرثوذكسية جعل سعيد يتخوف من التدخل الروسى فى مصر، فدس السم للبطريرك عام 1861[801].

وكان من أعظم إنجازاته تأسيس "مدرسة الأقباط الكبرى"، فقد رفض سعيد طلبه السماح بقبول الأقباط بالمدارس الحكومية، لينضموا إلى مواطنيهم المسلمين الذين كانوا – عندئذ– يشغلون المراكز الدنيا فى الإدارة. وكان التعليم المتاح للأقباط – حينئذ– عند مستوى "الكتاب"، حيث كان الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة، والكتاب المقدس، وبعض الحساب. ولم تكن هناك مدرسة قبطية من مستوى الأزهر.

ولعبت "مدرسة الأقباط الكبرى" – التى تعلم فيها مرقص سميكة – دوراً فى تكوين جيل كامل من نخبة الأقباط العلمانيين قبل أن تجعل مدارس الإرساليات التبشيرية، والمدارس الحكومية، التعليم متاحاً – على نطاق واسع– للأقباط. ويذكر سميكة أن المدرسة خرجت ثلاثة ممن تولوا رئاسة الوزراء هم: بطرس غالى، ويوسف وهبة، ويحيى إبراهيم[802] ،

---

[800] عن سيرة كيرلس الرابع، انظر: جرجى زيدان، تراجم مشاهير السوق (القاهرة 1922) 1 : 271 – 280.

[801] Samir Seikaly, "Coptic Communal Reform 1860 – 1914", Middle Eastern Studies 6 (1970), 250.

[802] مذكرات مرقص سميكة، 11.

ومن بين الخريجين الآخرين: قلينى فهمى، والمؤرخ ميخائيل شاروبيم، والصحافى ميخائيل عبد السيد، وعالم القبطيات والمصريات كلوديوس لبيب.

كان موقف البطاركة: ديمتريوس الثانى (1862 – 1870)، وكيرلس الخامس (1874 – 1927)، ويوحنا التاسع عشر (1928 – 1942)، بالغ الحدة فى مواجهة المؤثرات الأجنبية التى قابلها كيرلس الرابع وسميكة، والكثير من الأقباط العلمانيين. فقد جاء المشيخون المتحدون التابعون "للإرسالية الأمريكية" "لإحتلال" مصر[803]، فى نفس السنة التى تولى فيها سعيد الحكم، ونصب فيها كيرلس الرابع بطريركاً. وهاجم ديمتريوس الثانى المشيخيين الدخلاء، الذين يعتبرون الكنيسة القبطية مهرطقة، وفاسدة، وجاهلة. وساند كل من سعيد وإسماعيل البطريرك القبطى فى مواجهة أولئك الأجانب الذين يثيرون المتاعب. وواجه إسماعيل المدارس التبشيرية بمنح الكنيسة القبطية 1500 فداناً من الأراضى الزراعية لتنفق من ريعها على مدارسها وتعمل على تطويرها[804]، وبفتح مدارس الحكومة أمام غير المسلمين فى 1867. (كانت الإرساليات الكاثوليكية تعمل بمصر قبل وصول المشيخين بوقت طويل، ولكنهم كانوا أقل إصطداماً بالكنيسة القبطية). ولكن إسماعيل كان بحاجة – أيضاً– لتحسين علاقته مع الولايات المتحدة التى أمدته بالخبراء العسكريين بعد الحرب الأهلية الأمريكية، وساعدت الحماية الدبلوماسية الإرسالية الأمريكية على توطيد مقرها الرئيسى بأسيوط وبناء المدارس والكنائس فى مختلف أنحاء البلاد. وما لبث الأقباط الكاثوليك والبروتستانت (الإنجيليين) أن إنفصلوا عن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية.

اشترك مرقص سميكة مع جوقة المرتلين عند تنصيب الأنبا كيرلس الخامس، الذى ما لبث أن استجاب لمطالب دعاة الإصلاح من العلمانيين بتأسيس كلية أكليركية، وانتخاب المجلس الملى للمساعدة فى إدارة أمور الأقباط. وقام بطرس غالى بصياغة القانون الذى تم بموجبه إنشاء المجلس الملى عام 1874، واختير نائباً للرئيس تحت رئاسة البطريرك[805]. وكانت تلك المجالس شائعة فى الدولة العثمانية، فقد سمحت بتأسيس مجالس

---

[803] Andrew Watson, The American Mission in Egypt 1854 – 1896 (Pittsburgh, 1898), 87.
[804] Heyworth – Dunne, Introduction, 422.
[805] مذكرات مرقص سميكة، 20.

ملية للأرمن، وبرلماناً عام 1874، وإن كان مجلس شورى النواب الذى أسسه إسماعيل (1866) أسبق وجوداً.

وما لبث كيرلس الخامس أن انقلب على المجلس الملى، وقام بحله فى حركة مماثلة لما فعله السلطان عبد الحميد الثانى بالبرلمان والدستور العثمانى عام 1878. وبذلك انتهت المحاولة الثانية للإصلاح القبطى، والتى كانت أول محاولة يقودها العلمانيون.

وعاد العلمانيون إلى الكفاح ضد البطريرك ورجال الأكليروس الرجعيين، بعد ذلك التاريخ بعقد من الزمان للحد من سلطتهم التقليدية على الطائفة، طالب الإصلاحيون بأن يظل المجلس الملى قائماً على الدوام ليدير أوقاف الكنيسة والأديرة، ومدارس الأقباط، وليتولى النظر فى قضايا الأحوال الشخصية المعلقة بالطلاق والميراث. وكان البطاركة والأساقفة – الذين جاءوا من أصول ريفية فقيرة، وعاشوا رهباناً فى أديرة الصحراء – ينالون احترام الأقباط وتقديرهم لورعهم وزهدهم فى أمور الدنيا، ولكن تنقصهم الثقافة وخبرة التعايش مع عالم أرحب نطاقاً من عالمهم المحدود.

كتب سميكة "إنه اعتراف مثير للخجل، ولكننا يجب أن نقر بأن القلة القليلة من الأساقفة الحاليين، جاءوا من عائلات محترمة"[806]. فقد انحدر معظم الرهبان من عائلات الفلاحين الفقراء فى الصعيد، ومن كان يتولى منهم منصباً كبيراً فى الكنيسة كان لا يستطيع مقاومة مطالب الأقارب الذين يسعون لتعويض حرمان الماضى. وتعكس انتقادات مرقص سميكة لرجال الأكليروس لكسلهم، واعتبارهم هاربين من عالم العمل الحقيقى إلى مجال الفساد والدعة، تعكس مقولات بروتستانتية مألوفة. فقد اتهم رجال الأكليروس بإهمال واجباتهم الدينية، وبيع العدالة، وإثراء الأقارب عن طريق نهب أموال الكنيسة[807]. أما كبار الملاك والمهنيين من أعيان الأقباط، الذين انتخبوا لعضوية المجلس الملى، فكانوا من الأثرياء ميسورى الحال، الذين تلقوا تعليماً أفضل، ويتطلعون إلى أن تكون لهم كلمة نافذة فى شئون الأقباط. ففى العام 1891، كان سبعة من بين أعضاء المجلس الملى الإثنى

[806] A Coptic Layman [Simaika], "The Awakening of Coptic Church "Contemporary Review 71 (1847), 737.
[807] "The Awakening", 737 – 38.

عشر يحملون رتبة البكوية وباشا واحد هو بطرس غالى[808]، ولكن البطريرك والأساقفة وغيرهم من رجال الأكليروس كانوا يتحصنون بالكنيسة، ولهم تأثير كبير على الجماهير القبطية، وتمسكوا بمواقفهم المعارضة لمحاولات الإصلاح التى يتبناها المجلس الملى . وكان لهذا الجمود ما يناظره فى السياسة الوطنية بين الوفد وأحزاب القصر بين عامى (1919 – 1952)، وكان له ما يوازيه فى الأزهر الذى جاء معظم طلابه – منذ 900 – من بين صفوف الفقراء، أو من أصول ريفية[809]. فقد عارض معظم العلماء محاولات إصلاح الأزهر، والمحاكم الشرعية، والأوقاف، خشية فقدان نفوذهم ومكانتهم. وكان الإصلاحيون من شيوخ الأزهر – من أمثال الشيخ محمد عبده– يمثلون حالات استثنائية، شأنهم فى ذلك شأن الإصلاحيين من أساقفة الأقباط، واستند كلاهما إلى تأييد نخبة العلمانيين، وكان باستطاعة دعاة الإصلاح من الأقباط أن يلجأوا إلى الدولة لترجيح كفتهم، ولكنهم تحسبوا لما قد يترتب على ذلك من فقدان الطائفة لاستقلالها.

تربية مرقص سميكة

نشأ مرقص سميكة فى بيت جده لأمه، بحارة الأقباط شمالى الأزبكية، فى زمان لم تعد الحارة فيه تغلق أبوابها مساءاً لحماية سكانها، وأصبح الأقباط يشعرون بدرجة كافية من الأمان تجعلهم يستطيعون الإقامة فى أى مكان يشاءون بالقاهرة. وكانت نشأة مرقص سميكة فى عائلة من عائلات أعيان القاهرة التى حققت ثراءً من خلال العمل فى خدمة الدولة والكنيسة. ولدت أمه بدمشق، عندما كان والدها يعمل كاتباً بمعية إبراهيم باشا بن محمد على فى الثلاثينات. ومن ناحية الأب، تبرع أجداده ببعض المخطوطات والأشياء الثمينة الأخرى للكنيسة المعلقة[810].

وعلى مسيرة مائتى متر بشارع الواسعة من بيت جده، كانت تقع البطريركية، وكاتدرائية القديس مرقص، ومدرسة الأقباط الكبرى. وكانت الدراسة مجانية بتلك المدرسة، التى كانت تقبل التلاميذ من مختلف الديانات، ولكن معظمهم جاءوا من عائلات الأعيان من

---

[808] Seikaly, "Coptic Communal Reform", 262.

[809] عن الأزهر والموقف من الإصلاح، انظر:
A.C. Eccel, Egypt, Islam and Social Change: Al – Azhar in Conflict and Accommodation (Berlin 1984) 290 – 92.

[810] مذكرات مرقص سميكة، 1 – 6، 15.

الأقباط مثل سميكة. ويذكر أنه تعلم فى تلك المدرسة اللغات العربية والقبطية، واليونانية، ولكن التركية لم تكن من بين تلك اللغات، فقد قل النفع منها فى عهد إسماعيل لأن النخبة الحاكمة كانت تميل نحو التعريب.

واختار مفتشو المدرسة إثنين من أشقاء مرقص سميكة للدراسة بمدرسة الحقوق تمهيداً للإلتحاق بخدمة الحكومة. وكما كانت العائلات المسلمة تخصص أحد أبنائها للإلتحاق بالأزهر، حاول والد مرقص سميكة أن يدفع به إلى الكنيسة، ولذلك منعه من حضور دروس اللغة الإنجليزية بمدرسة الأقباط. وكان عبد السيد يتولى تدريس الإنجليزية بالمدرسة، وكان محرراً لصحيفة "الوطنى" القبطية، ومن نفر قليل من الأقباط الذين تعلموا بنفس المدرسة، مدارس الإرسالية الأمريكية، وكذلك بالأزهر[811]. وخشى والد مرقص سميكة من أن يؤدى تعلمه الإنجليزية إلى اتجاهه إلى الحياة العلمانية، ولكن إصرار مرقص وإضرابه عن الطعام، جعل والده يعدل عن موقفه. فدرس الإنجليزية ثم اتجه إلى "مدرسة الفرير" لدراسة الفرنسية. وكانت مخاوف والده فى موضعها، فقد انصرف تماماً عن التفكير فى العمل الكنسى[812].

كانت مدرسة الأقباط الكبرى والكلية الإكليركية توفران فرصة دراسة اللغة القبطية بمستويات أعلى من تلك التى يوفرها "الكتاب" القبطى، ولذلك تعرف الأقباط على تراثهم من كتابات الأوروبيين. فقد استخدام فصل سميكة بالمدرسة نسخة تاتام من الإنجيل القبطى – العربى الذى أهداه المؤلف فى مقابل المخطوطات التى حصل عليها من أديرة وادى النطرون. وكتب برسوم الراهب – معلم سميكة– أول كتاب فى النحو القبطى باللغة العربية. وتعلم كلوديوس لبيب (1868 – 1918) – عالم المصريات والقبطيات– بنفس المدرسة. ويبدو أن رجال الكنيسة القبطية لم يكن يعنيهم أمر المصريات، على نقيض رجال الدين البروتستانت فى الغرب، الذين دعموا مجال الآثار لإثبات "صحة الإنجيل" فى مواجهة من ينتقدونه[813].

---

[811] عبد العزيز، روضة المدارس، (القاهرة 1985)، 381 – 382.

[812] مذكرات مرقص سميكة، 8 – 13. وجرجى زيدان، تراجم مشاهير الشرق، 1 : 277، ويذكر أن اللغة التركية كانت تدرس أيضاً.

[813] مذكرات سميكة، 9. وعن كلوديوس لبيب، راجع: رمزى تادرس، الأقباط فى القرن العشرين 5 أجزاء (القاهرة 1910 – 1911) 4 : 135 – 139.

وعلى كل، لم يعمل الإصلاح دائماً فى تناغم مع الآثار والمحافظة عليها، فقد اعترض المبشرون البروتستانت على وجود الأيقونات بالكنائس القبطية، تماماً كما فعل المسيحيون الأوائل عندما طمسوا بالملاط وجوه صور الآلهة بالمعابد الفرعونية. وعندما أعيد بناء كاتدرائية القديس مرقص، أمر البابا كيرلس الرابع بحرق الأيقونات القديمة، ومنع عمل غيرها. وفى العام 1869 قامت زمرة من الشباب الأقباط، الذين تأثروا بالمبشرين الأمريكان، بالإغارة على الكنائس القبطية بأسيوط لتحطيم أيقوناتها، فتم إلقاء القبض عليهم وإرغامهم على ردها إلى ما كانت عليه. ولكن لم يمض وقت طويل "حتى توقفت ورشة التصاوير عن العمل"، على حد قول سميكة[814].

الإصلاح القبطى والإحتلال البريطانى

كان مرقص سميكة فى الثامنة عشر من عمره عندما دخل الجيش البريطانى القاهرة، وسرعان ما استفاد بمعرفته للإنجليزية فعمل سكرتيراً لسيدة إنجليزية كانت تدير مستشفى تطوعى لعلاج الجرحى البريطانيين، وفى العام 1883 بدأ حياته العملية كاتباً بمصلحة السكك الحديدية، ولم يكن ذلك غريباً، فبعد ذلك بجيل (عام 1911) بلغت نسبة الأقباط العاملين فى السكك الحديدية والبرق (التلغراف) 48% من جملة العاملين بتلك المصلحة[815].

وأسهم الإحتلال البريطانى فى المحاولة الثالثة لإصلاح أحوال الطائفة القبطية، ففى مايو 1882، كان بطرس غالى أول قبطى يصل إلى رتبة الباشا يعمل وكيلاً لنظارة الحقانية، وتبنى – مرة أخرى– قضية الإصلاح القبطى. تعلم بطرس غالى بمدرسة الأمير فاضل (وكان والده يعمل مباشراً بدائرة الأمير)، ومدرسة الأقباط التى أنشأها كيرلس الرابع تجارة السقايين، ومدرسة الألسن. واستخدام معرفته بالعربية والتركية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية فى الوساطة بين الأقباط والدولة، والخديو عباس الثانى والمعتمد البريطانى، وبين المصريين والأوربيين. وكان عضواً بمجلس الوزراء منذ 1893 حتى تم

---

[814] (Samaika), "The Awakening", 737.

[815] مذكرات سميكة 71، 72 – 83.

اغتياله عندما كان رئيساً للوزراء عام 1910. وعلى طول هذا الطريق كون ثروة شخصية عن طريق شراء أراضى الدومين بأنشاص بالشرقية[816].

ساندت "جمعية نشر المسيحية بمصر" – وهى مؤسسة إنجيلية– الأقباط العلمانيين فى دعوتهم للإصلاح فى أوائل الثمانينات. وكانت تستند إلى أساس يثير التساؤل، جاء على لسان متحدث رئيسى بأحد الاجتماعات الأولى شن فيه الهجوم على "هرطقة الأقباط المدمرة للروح"[817]. كان كيرلس الخامس رئيساً للمجلس الملى بحكم القانون، ولكن رفضه الإعتراف بالمجلس حال دون انعقاده. وفى عام 1884 تم حل المجلس الملى مرة أخرى، وفى عام 1890 قامت "جمعية التوفيق القبطية" برابع محاولة للإصلاح. ورغم أن مرقص سميكة كان فى منتصف العشرينات من عمره، فقد فاز بعضوية المجلس الملى . وعندما رفض كيرلس الخامس – مرة أخرى– الإعتراف بالمجلس، حاول بيرنج (المعتمد البريطانى)، ومصطفى فهمى (رئيس الوزراء)، وبطرس غالى، إخضاع البطريرك بنفيه إلى أحد أديرة وادى النطرون. وكلفت هذه الغربة مصطفى فهمى منصبه، كما دمرت مكانة البريطانيين. وألغى رياض – الذى خلف مصطفى فهمى– قرار نفى البطريرك ، وعاد كيرلس الخامس إلى القاهرة ليلقى ترحيب المنتصر، وثارت ضجة – أيضاً– حول القس الإنجليكانى جورج هورنر، الذى كان يبحث فى مجموعة المخطوطات القديمة بالبطريركية، وكان بطرس غالى، وبيرنج، ومرقص سميكة، قد رتبوا له مهمة الإطلاع على تلك المخطوطات، ولكن سرت شائعات حول وجود مؤامرة إنجليكانية للاستيلاء على الكنيسة القبطية، وأن للقس هورنر يد فيها. وبعد عودة البطريرك كيرلس الخامس من المنفى شكل لجنة استشارية من أربعة من المشايعين له لتحل محل المجلس الملى ، و"لم يجرؤ أحد أن يتحدث عن الإصلاح"[818]. وأعاد البطريرك إفتتاح الكلية الإكليركية، ولكن هيئة التدريس كانت ضعيفة وكذلك كانت حال طلابها.

وثمة ما يوازى إجهاض محاولة الإصلاح هذه، بالنسبة للأزهر، فبعد تشدق الخديو عباس بالحديث عن الإصلاح، إذا به يعين شيخاً للأزهر من المحافظين. ويئس محمد عبده من

---

[816] رمزى تادرس، الزقباط، 2 : 62 – 142.

[817] E. L. Butcher, The Story of the Church of Egypt, 2 vols. (London, 1897), 2 : 410.

[818] مذكرات مرقص سميكة، 82 – 88.

إمكانية إصلاح الأزهر فاستقال من مجلسه. وكذلك تشبه محاولة الدولة إنتزاع السيطرة على الأوقاف من علماء الأزهر، صراع المجلس الملى مع البطريرك للسيطرة على الأوقاف القبطية[819].

وأعاد دعاة الإصلاح القبطى تنظيم صفوفهم ببطء من أجل القيام بمحاولة خامسة للإصلاح. وفى عام 1895 أنشأوا جريدة لمواجهة صحيفة بتشجيع تادرس شنودة المنقبادى – عضو جمعية التوفيق المؤيد للمجلس الملى– على إصدار صحيفة "مصر " التى جمعت بين الدعوة للإصلاح القبطى، وتأييد سياسة الإحتلال البريطانى[820].

إعادة تقييم الماضى القبطى من منظور أوروبى

لم تكن اللغة القبطية بحاجة إلى من يقوم – مثل شامبليون– بحل رموزها، لأنها بقيت – إلى جانب العربية– لغة النصوص الدينية والتراتيل الكنسية للكنيسة القبطية. وبدأت الدراسات الجادة للغة القبطية فى الغرب فى القرن التاسع عشر على المخطوطات التى جلبها الرحالة معهم. وشجع الفاتيكان هذا العمل لأسباب تبشيرية، ورعى نشاط الفرنسيسكان وغيرهم من المبشرين العاملين بين صفوف الأقباط. وقام إثناسيوس كيرشر (1602 – 1680) – اليسوعى الألمانى الذى أقام بروما لمدة طويلة– بدراسات مستفيضة لكل من الهيروغليفية والقبطية. وكان اشتغاله بالهيروغليفية متواضعاً (فقد اعتقد أنها طريقة رمزية خالصة للكتابة)، ولكن عمله فى القبطية أصبح أساساً لجميع الدراسات الأوروبية القبطية[821].

وهكذا ترعرعت الدراسات القبطية فى أوروبا فى حجر دراسات الكتاب المقدس ، والدراسات اللاهوتية، وربيبها: الاستشراق. وقام المتخصصون فى "المصريات" – منذ أيام شامبليون– باستخدام القبطية كأداة لفهم الهيروغليفية. وتحدث جومار قليلاً عن الأقباط فى "وصف مصر"، وتناولهم وليم لين فى ملحق بكتابه الشهير "عادات وتقاليد المصريين المحدثين"، وفى الثلاثينات من القرن التاسع عشر قام كل من روبرت كيرزون، وهنرى

---

[819] Eccel, Egypt, 169 – 71, 175 – 78.

[820] مصطفى الفقى، الأقباط فى السياسة المصرية (القاهرة 1985)، 33؛ فيليب الطرازى، تاريخ الصحافة العربية، 4 مجلدات (بيروت 1911 – 1933)، 3 : 9 – 12.

[821] Martin Krause, "Coptological Studies", Coptic Ency., 2 : 613 – 61.

تاتام (انظر الجدول 5) بتهريب المخطوطات القبطية وغيرها التى اكتشفت بالأديرة المصرية إلى بريطانيا. وكما رأينا من قبل، كان قدوم مارييت إلى مصر عام 1850 لشراء مخطوطات قبطية وغيرها من المخطوطات لحساب اللوفر[822].

ورسم سومرز كلارك صورة قاتمة لحال الآثار القبطية بمصلحة الآثار قبل عودة ماسبيرو إلى إدارة المصلحة عام 1899:

"كان الموقف الفكرى للمتخصص فى المصريات تجاه أى دراسة للآثار المصرية لا تتم على طريقته – فى ذلك الوقت– أبعد ما يكون عن الصفة العلمية، كما كان مسبباً للإحباط. ولم يكن مدير عام الآثار يتحدث سوى بإشمئزاز عن (الأقباط التافهين). كان فى منتهى القسوة والبربرية التى لا داعى لها فى مدينة حابو، فقد تم تحويل أحد إيوانات ذلك البناء الضخم الأخاذ إلى كنيسة فى عهد متأخر، فأقيمت الأعمدة، وبناء حجرى نصف دائرى للمذبح ... فلم تعجب تلك الصفحة من التاريخ جناب المدير العام، وما قد تشير إليه من أدلة، فقام بانتزاع الأعمدة بمشقة وكلفة كبيرة. ولم يفعل ذلك وحسب، بل لم يعن بنشر تصميمها ورسوماتها، والمعلومات الوصفية لها، وعلينا الآن أن نبحث عن الكيفية التى حاول بها أولئك المسيحيين إعادة تنظيم الإيوان لاستخدامهم الخاص، بالرجوع إلى الرسم الوارد بكتاب وصف مصر"[823].

ولازالت هناك بعض الصور الفوتوغرافية لبقايا الكنيسة القبطية قبل أن تتم إزالتها من الموقع (انظر الشكل 42).



الشكل رقم (٤٢) بقايا كنيسة قبطية داخل معبد رمسيس الثانى – مدينة حابو

[822] Robert Curzon, A Visit to the Monasteries of the Levant (New York, 1849), 1 – 105.
[823] Somers Clarke, Christian Antiqutties in the Nile Valley (Oxford, 1912), 189 – 90.

جدول رقم (5) علماء القبطية وقيادات الأقباط

علماء أوروبيون	علماء	علمانيون	البطاركة – مدة الخدمة
تاتام 1788 – 1868			
كيرزون 1810 – 1873			
كلارك 1841 – 1926			
		بطرس غالى	
		1846 – 1910	
أميلينو 1850 – 1915			
بتلر 1850 – 1936		ميخائيل شاروبيم	
		1853 – 1920	
شتا يندورف 1861 – 1951	مرقص سميكة	قلينى فهمى	كيرلس الرابع
	1864 – 1944	1860 – 1954	1854 – 1861
كروم 1865 – 1949	كلوديوس لبيب	ميخائيل عبد السيد	ديمتريوس الثانى
	1868 – 1918	1860 – 1914	1862 – 1870
كليدا 1871 – 1943		مرقص حنا	
ماسبيرو 1885 – 1915		1872 – 1934	
		ويصا واصف	كيرلس الخامس
		1873 – 1931	1874 – 1927

وأخذت الدراسات القبطية – فى الدوائر الأوروبية الأخرى– تحظى بالإهتمام فى الثمانينات والتسعينات، فإشتغل كل من أميلينو، وأوسكار فون وليم، وولتر كروم باللغة والأدب، ونشر شتا يندورف كتاباً مهماً فى قواعد اللغة القبطية عام 1894. وبدأ الفن والعمارة القبطية يدخلان دائرة الإهتمام عام 1880 عندما قدم إلى مصر الفرد بتلر ليعمل معلماً لأبناء الخديو توفيق، فخلبت لبه الكنائس القبطية. وفى عام 1884 نشر كتابه "الكنائس القديمة فى مصر"، الذى ذكر فيه أن "الآثار القبطية فى طريقها للفناء يوماً بعد يوم، فلا يعرفها السياح الأوروبيون، ولم يهتم بها الأقباط أنفسهم إلا نادراً، ولم يتم عمل أى شئ مطلقاً لإنقاذها من الدمار"[824]. وفى العام 1902، نشر بتلر كتابه "الفتح العربى لمصر".

[824] A. J. Butler, Ancient Churches of Egypt, 2 vols. (London, 1884) 1 : 371.

بدأ حقل الآثار القبطية يجتذب الإهتمام بعد العام 1900، فبعدما ترك سومرز كلارك العمل فى مجال العمارة بإنجلترا عام 1902، استقر فى مصر، وتفرغ للبحث وكان ماسبيرو – على نقيض ماريت– مهتماً بالآثار القبطية، وبدأ يعمل منذ عام 1900 على تعويضها عما أصابها من إهمال. وخصص قاعة بالمتحف المصرى للآثار القبطية، هى التى نقلت فيما بعد إلى المتحف القبطى[825]. وأصبح إبنه جان – الذى مات فى الثلاثين من عمره على الجبهة الغربية للحرب– قد أصبح متخصصاً بالبيزنطيات وأعد كتالوجاً للبردى اليونانى بمتحف القاهرة. واشتملت الحفائر التى أجراها جان كليدا (1871 – 1943) قبل الحرب الأولى، على مواقع قبطية فى بويط، ودير أبو حنس، ودير القديس سمعان بأسيوط، وأسيوط، وأخميم، وأديرة سوهاج، وقد رعى تلك الحفائر المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، ومصلحة الآثار المصرية، ولجنة حفظ الآثار، وشركة قناة السويس[826]. وأسس بتلر، وكلارك، ومورتز (مدير الكتبخانة الخديوية)، وماكس هرتز، "جمعية تاريخ الآثار القبطية فى مصر" عام 1903، ولكن يبدو أنها لم تعمر طويلاً[827].

إعادة تقييم الماضى القبطى – سميكة ولجنة حفظ الآثار

كان المصريون الذين قدر لهم أن يلبوا دعوة بتلر إلى إنقاذ الكنائس القديمة يطورون إهتماماتهم، وينمون قدراتهم للقيام بهذا العمل، وكان مرقص سميكة – فى صباه– يحب زيارة المتحف المصرى، وأهرام الجيزة وسقارة، ومساجد القاهرة وكنائسها. وبعد ما إنقشع غبار الإحتلال البريطانى، رافق سميكة مخدومته الكونتيسة سترانجفورد عند زيارتها لتلك الأماكن. واعترف فى مذكراته بأنه تعرف على آثار بلاده من كتب موراى وبايديكر لدليل مصر السياحى، وفى ذلك يقول: "رغم أن ذلك يمس مشاعرى الوطنية، لابد أن أعترف بأننا ندين للأوروبيين – وخاصة الفرنسيين– بإكتشاف هذه الآثار، ودراستها علمياً، وترميمها"[828].

---

[825] Christian Cannuyer, Les Coptes (Belgium, 1990), 193.
[826] Who Was Who 3 : 101.
[827] توفيق إسكاروس، "ماكس باشا"، الهلال 27 (أول يوليو 1919)، 925.
[828] مذكرات سميكة، 29، 71 – 72.

وساعد الشقيق الأكبر لمرقص سميكة بتلر فى بحثه عن الكنائس القبطية، وفى 1890 زار مرقص الباحث البريطانى بأكسفورد[829]. وعرفه بتلر على سومرز كلارك، المعمارى البريطانى المتخصص فى ترميم الكاتدرئيات. وقد بدأ كلارك اهتمامه بالمصريات والعمارة القبطية كهواية، ثم انكب على دراستها بعد تقاعده فى بيته الذى بناه فى الكاب ، ونشر كتابه "الآثار القبطية فى وادى النيل" عام 1912[830].

ونبه سميكة كلارك إلى أن أعيان القبط يستبدلون بالكنائس القديمة، عمائر على الطراز "اليونانى الحديث" المغطى بالرخام الإيطالى. وأن ذلك يتم بحسن نية، ولا يلقى معارضة من جانب البطريرك، وكبار العلمانيين، بما فيهم بطرس غالى. فقام كلارك بنشر مقالة احتجاجية نارية بجريدة التايمز اللندنية. وفى العام 1891، رافق مرقص سميكة بيرنج فى جولة لزيارة كنائس القاهرة، وحثه على وضع تلك الكنائس تحت رعاية "لجنة حفظ آثار الفن العربى"[831]. وبعد ذلك بسنوات، عبر سميكة عن تقديره لعمل بتلر بإهداء الدليل الذى أعده للمتحف القبطى إلى ذكراه، وذكر أن كتاب بتلر "الكنائس القديمة فى مصر" ألهمه الدعوة إلى وضع الآثار القبطية تحت رعاية "لجنة حفظ الآثار" وتأسيس المتحف القبطى[832].

وكما رأينا فى الفصل السادس، أسس توفيق لجنة حفظ الآثار عام 1881، وفى 1894 إقترحت اللجنة أن تتولى مسئولية الحفاظ على الكنائس والأديرة القبطية الأثرية، فخشى البطريرك كيرلس الخامس أن يؤثر ذلك على صلاحيته، وبعد عامين من ذلك التاريخ ، عرضت اللجنة تخصيص 2000 جنيه مصرى لإصلاح الآثار القبطية إذا شاركت الكنيسة بدورها فى تحمل جانب من التكلفة، فوافق البطريرك بعد تردد. وتم ضم عضوين من الأقباط إلى اللجنة على نحو ما رأينا[833].

---

[829] Butler, Ancient Churches, I : xiv.

[830] Michael Hoffman, Egypt Before The Pharaohs, 352.

[831] مذكرات سميكة، 29، 32.

[832] Marcus H. Simaika Pacha, Guide sommaire du Musee Copte et des, principles eglises du Caire (Cairo, 1937) preface.

[833] Comite 11, 1894, PVS 63 (1894), 64.

ويذكر سميكة أن البطريرك كيرلس الخامس "لامه" على ذلك التدبير، وكان "عزاؤه الوحيد" أنه لم يدخل اللجنة. واتهم سميكة أحد العضوين القبطيين باللجنة – نخلة البراتى– لهدمه برجاً رومانياً فى حصن بابليون لتوسيع مدخل الكنيسة المعلقة، وإزاحة الستائر والأيقونات عند إعادة تأثيثه لكنيسة مارجرجس، فمنذ عام 1879، أنفق نخلة البراتى 6000 جنيهاً من ماله الخاص فى إعادة تأثيث الكنيسة المعلقة، ولكن الآثاريين البريطانيين ساءهم فقد البرج الرومانى، وطالبوا كرومر بالتدخل لإنقاذ البرج الآخر[834] . وفى عام 1898، كتب كرومر إلى ستانلى لين – بول:

"إننى أكافح ضد البطريرك القبطى، وأسعى لإيجاد نوع من السيطرة الأوروبية على الكنائس القبطية من الناحية الأثرية ... ويؤسفنى أن أحداً لم ينبهنى قبل ذلك لما حدث بقصر الشمع. وبمجرد قراءتى لخطاب سومرز عن الكنائس قمت بزيارة الموقع. لقد حدث ضرر كبير بالمكان تم بحسن نية، ومن حسن الحظ أننى وصلت فى الوقت المناسب لإنقاذ البرج الرومانى الآخر من الدمار، فالآثار القبطية على نفس درجة الآثار الرومانية من حيث الأهمية. ولابد أن أسعى لوضعها تحت إشراف هرتز بصورة أو بأخرى، لأننى على ثقة من قدرته على ذلك العمل"[835].

وفى نفس الوقت، بدأ مرقص سميكة يجد نفسه – تدريجياً– أمام اختيار صعب: أن يستمر فى السعى للإصلاح القبطى، أو يخفف من ذلك، ويرمم الصدع الذى أصاب علاقته بالبطريرك كيرلس الخامس، ويحاول الحصول على مساعدته لدخول لجنة حفظ الآثار، ولإقامة المتحف القبطى. كان مرقص سميكة – عام 1893– واحداً من بين المتشددين من أعضاء المجلس الملى الذين رفضوا التوقيع على التماس أعده بطرس غالى للمطالبة بعودة البطريرك من منفاه بوادى النطرون[836]. والآن غير سميكة رأيه، ونحى فكرة الإصلاح جانباً، وبدأ يتودد لكيرلس الخامس. وفى عام 1905، أصبح عضواً بلجنة حفظ الآثار، وبعد ذلك بثلاث سنوات أسس المتحف القبطى.

---

[834] مذكرات سميكة، 31 – 33.

[835] FO 633 / 8 Cromer to Lane – Poole, 2 January 1898, 15.

[836] مذكرات سميكة، 86 – 87.

من الأرمن إلى الأقباط

إنتقل تمثيل المسيحيين فى قمة النخبة السياسية فى مصر من الأرمن إلى الأقباط خلال سنوات الحكم البريطانى (1882 – 1922)، وانعكس ذلك التغير على عضويته لجنة حفظ الآثار. لقد لعب الأرمن والأقباط دور الوساطة بين المصريين المسلمين والأوروبيين ، ولكن ظروف هاتين الطائفتين المسيحيتين فى مصر كانت مختلفة تماماً. فالكثير من أفراد الطائفة الأرمنية الصغيرة الحجم قدموا إلى مصر فى القرن التاسع عشر، ولم تكن لهم جذور قوية بها، واعتمدوا على حماية الأسرة الحاكمة أو الدول الأوروبية، ولم يتورطوا فى الحركة الوطنية المصرية. أما الأقباط فكانوا على نقيضهم تماماً، يدعون أنهم أعمق المصريين جذوراً فى البلاد، ويتخذون من العربية لغة لهم، ونفروا من التعاون مع الإحتلال البريطانى، وتضامنوا فى العمل الوطنى مع المسلمين فى النضال من أجل الاستقلال.

وفى التسعينات، كان الأرمن الذين رجحوا كفة الأوروبيين فى لجنة حفظ الآثار هما : تيجران (صهر نوبار رئيس الوزراء، ووزير الخارجية من 1891 حتى 1894)، ويعقوب أرتين وكيل المعارف، وفيما يتعلق بمجلس الوزراء، شكا كرومر من مقاومة تيجران الضمنية للإحتلال، وعزا ذلك إلى عقليته "الفرانكو – بيزنطية"[837].

أما يعقوب أرتين (1842 – 1919)، فقد تواترت الإشارة إليه فى الفصول السابقة من هذا الكتاب، قضى نصف حياته بلجنة حفظ الآثار، ولذلك كان أهم من تيجران الذى كان عابر سبيل. وكان أرتين حفيداً لمهاجر أرمنى من سيواس (بآسيا الصغرى) جاء إلى مصر للعمل فى خدمة محمد على نحو عام 1808، وهو إبن أرتين بك شراكيان المترجم وناظر التجارة والأمور الأفرنجية فى الأربعينات، وكان أيضاً قريباً ليوسف حككيان، وتربى يعقوب أرتين فى فرنسا تربية كاثوليكية، وجاء إلى مصر كرعية فرنسية ولم يتعلم التركية والعربية إلا فى العشرين من عمره، ولذلك كان تصنيفه كمصرى إشكالياً فى حد ذاته. وكما كانت الحال بالنسبة لنوبار وتيجران، شق يعقوب أرتين طريقه نحو القمة بإتقانه الفرنسية واستعداده للعمل مع الأوروبيين. فكان معلماً خاصاً لأبناء إسماعيل، كما

[837] Cromer, Modern Egypt, 633.

اشتغل سكرتيراً خاصاً له. وكان يعمل فى خدمة المصالح الأوروبية تماماً من خلال عمله فى "لجنة التحقيق فى الديون".

وبعد الإحتلال البريطانى، تولى يعقوب أرتين رئاسة اللجنة التى نظرت دعاوى التعويضات عن الأضرار الناجمة عن الثورة العرابية. وفيما بين 1884 – 1888 كان وكيلاً للمعارف، ولكنه اصطدم بناظر المعارف على مبارك، فـانتقل إلى مصلحة السكك الحديدية حيث النفوذ الأقوى للبريطانيين حتى خرج على مبارك من الوزارة (1891)، فعاد وكيلاً للمعارف، وكان يقيم فى بناية واحدة بجوار تيجران ونوبار فيما بين الأزبكية وباب الحديد[838].

وانضم يعقوب أرتين إلى لجنة حفظ الآثار فى نوفمبر 1882 – عقب الإحتلال مباشرة – وكانت خطوته الأولى لفتح أبواب المقدسات الإسلامية عنوة بإسم الفن أو العلم. أخذ يشكو من أن "أعضاء بعينهم" (يقصد المسيحيين) لا يسمح لهم بدخول المساجد أحياناً، واستجابت اللجنة لذلك فزودت الأعضاء بميدالية برونزية تتيح لهم دخول أى مسجد[839].

وقد عمر أرتين لما بعد ذروة النفوذ الأرمنى فى مصر ولجنة حفظ الآثار: فتقاعد تيجران بعد خروجه من نظارة الخارجية عام 1894، وفى السنة التالية أنهى سقوط وزارة نوبار مشاركة الأرمن فى مجلس الوزراء، وتقاعد أرتين من منصب وكيل المعارف عام 1906 حتى لا يعمل تحت رئاسة ناظر المعارف سعد زغلول. وظل نشطاً فى لجنة حفظ الآثار، والجامعة المصرية، والمجمع العلى المصرى حتى وفاته فى يناير 1919، قبل شهرين من اندلاع الثورة التى دشنت عصراً جديداً لم يترك للأرمن سوى مساحة سياسية ضئيلة.

وملأ الأقباط الفراغ السياسى الذى تركه الأرمن، ففى عام 1893، أصبح بطرس غالى أول قبطى يصل إلى الوزارة، وظل بها حتى إغتياله عام 1910 عندما كان رئيساً للوزراء. وقد اتبع سنة الأرمن فى شغله لمنصب ناظر الخارجية، وفى رئاسته لمجلس النظار، وقد تعاون بطرس غالى مع الإنجليز، ودفع حياته ثمناً لذلك على يد أحد الوطنيين. ومنذئذ أصبح وجود وزير قبطى بمجلس الوزراء حقيقة واقعة ثابتة. وامتص

---

[838] أرشيف متحف جامعة بنسلفانيا، أوراق سارة ستيفنسون، رسالة من أرتين فى 10 أغسطس 1897.
[839] Comite 1, 1882 – 1883, PVS 7 (23 November 1883), 113.

حكماء الأعيان الأقباط صدمة اغتيال بطرس غالى، ووجهوا طائفتهم إلى التضامن مع المسلمين فى العمل الوطنى من أجل تحقيق الاستقلال.

وجاء التمثيل المسيحى بلجنة حفظ الآثار، فى التسعينات. ولكن طال أمده فى اللجنة عنه فى الوزارة بسبب استمرارية وجود يعقوب أرتين. وبدأ الوجود القبطى باللجنة بعضوين اثنين عام 1896 بعد وضع الآثار القبطية تحت إشراف اللجنة، فكان ذلك خطوة باتجاه الوحدة الوطنية.

وعند عام 1906، كانت الكنيسة قد أسهمت بمبلغ 500 جنيه فى أعمال اللجنة فى مقابل 166 ألفاً من الجنيهات قدمتها فيما بين 1881 – 1906، و39 ألفاً قدمتها غيرها من النظارات[840]. وكان التحاق مرقص سميكة باللجنة عام 1906 علامة فارقة فى النشاط القبطى فى مجال حفظ الآثار القبطية، وفى العشرينات كان صوت سميكة من أعلى الأصوات باللجنة.

تأسيس المتحف القبطى

ويبدو أن البطريرك كيرلس الخامس وافق على المتحف القبطى فى مقابل قيام سميكة بكبح جماح الإصلاحيين بالمجلس الملى، فبدون موافقة البطريرك لا يمكن إقامة متحف لأن مكانه ومقتنياته من ممتلكات الكنيسة. وقد ملأ المتحف الفجوة التاريخية بين المتحف المصرى والمتحف اليونانى الرومانى من ناحية، ومتحف الفن العربى من ناحية أخرى . وكانت جميع المتاحف تحت إدارة الحكومة فيما عدا المتحف القبطى، الذى كان تابعاً للكنيسة، وكان مؤسسه مصرياً.

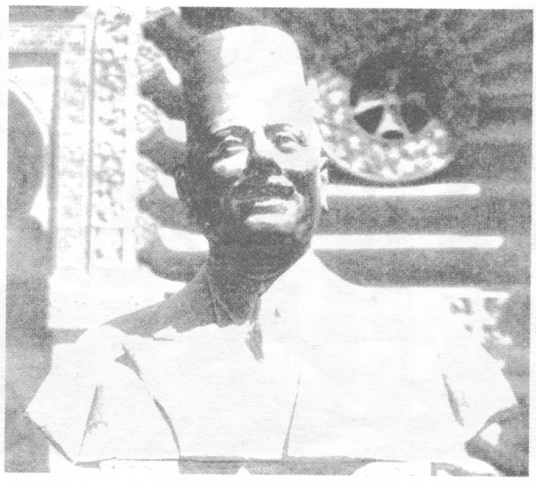
والمتحف القبطى يبرز ظاهرة فى التاريخ المصرى أكثر من عرضه لعصر معين، فمن حيث السيادة السياسية لم يكن هناك حكم قبطى، لأن مصر انتقلت من الحكم البيزنطى إلى الحكم الإسلامى، ولم يعرف تاريخها دولة قبطية، كذلك ليست هناك عملة قبطية . وكان عرض الآثار القبطية المبكرة فى المتحف اليونانى – الرومانى، يضفى نوعاً من الغموض على الفترة الفاصلة بين ما يعرف بروما القديمة، وما يطلق عليه الآثار

[840] Comite 23, 1906, PVS 147 (27 November 1906), 113.


الشكل رقم (٤٣) المتحف القبطى

المتأخرة، وكانت إقامة متحف بيزنطى غير واردة فى بلد تشكلت هويته من خلال مقاومته للقسطنطينية والأرثوذكسية اليونانية. وكان عرض الآثار القبطية التالية للعام 640 بمتحف الفن العربى سواء مختلطة مع غيرها، أو كمجموعة قائمة بذاتها فى قسم خاص بها إشكالية أيضاً، ورغم تداخله الزمنى مع المتاحف الأخرى، وصعوبة تحديد "العصر القبطى"، سد "المتحف القبطى" ثغرة مهمة، فى وقت كان المصريون فيه يناضلون من أجل تحديد هويتهم الوطنية الحديثة.

كان ماكس هرتز أول من طرح فكرة إقامة "متحف قبطى" على لجنة حفظ الآثار عام 1897، واقترح استئذان البطريرك فى جمع رؤوس الأعمدة الحجرية المحفورة وغيرها من الآثار المهملة من الكنائس، لتشكيل نواة المتحف[841]. وكان البطريرك متقبلاً للأمر فى البداية، واقترح أن يتولى نخلة البراتى – عضو اللجنة– الإشراف على تخزين الآثار التى تتجه إلى هرتز بمبنى ملحق بالكنيسة المعلقة[842]، ولكن المدى الذى بلغته تلك الترتيبات قبل أن يتولى سميكة هذه المهمة، ليس واضحاً، ويبدو أن سميكة قد أغفل (فى مذكراته) أى دور لهرتز ونخلة البراتى فى فكرة إقامة المتحف.


الشكل رقم (٤٤) مرقص سميكة مؤسس المتحف القبطى

[841] Comite 15, 1898, PVS 80 (4 January 1898), 4, 6.
[842] Comite 15, 1898, PVS 81 (1898), 16.

وقد أسس المتحف القبطى فى حوالى نفس الوقت الذى أسس فيه المتحف البيزنطى بأثينا، الذى إفتتح عام 1914، وذلك بعد تأسيس المتحف الوطنى للآثار بأثينا بنحو ثمانين عاماً، مسجلاً الإعتراف الرسمى بعصر وتراث كان اليونانيون المعاصرون على استعداد تام للإنتساب إليه[843].

ولم يكن ثمة مكان أفضل للمتحف القبطى من ذلك الموقع التاريخى الذى أقيم فيه بجوار الكنيسة المعلقة بحصن بابليون بمصر القديمة (الفسطاط، انظر الخريطة 2)، وهناك بالجوار كنيسة القديس سرجيوس (التى يعتقد أن موقعها مكان إقامة العائلة المقدسة)، وغيرها من الكنائس التاريخية الأخرى، وسوف يتم توسيع المتحف، وصممت واجهته على الطراز الفاطمى البديع المرصع برموز مسيحية، وذلك فى فترة ما بين الحربين العالميتين. وأعاد الملك فاروق إفتتاح المتحف عام 1946، وأقيم فى فنائه نصب يحمل تمثالاً نصفياً لمرقص سميكة (انظر الشكلان 43، 44).

طوف مرقص سميكة بالكنائس والأديرة "من رشيد إلى الخرطوم"[844] عام 1908، مزوداً ببركات البطريرك، وكان يدفع للكنيسة ثمناً رمزياً لما يختاره من أشياء، ولم تسهم الكنيسة – مالياً– فى إقامة المتحف، وجاءت التبرعات التى أقيم بها المتحف من العلمانيين من الأقباط، وبعض رجال الدين، والأمير حسين كامل (السلطان فيما بعد)، وأعضاء مجلس الوزراء، والمستشارين الإنجليز، وزملاء سميكة من أعضاء مجلس شورى القوانين. وقدمت الحكومة إعانة سنوية قدرها مائتى جنيه، زيدت إلى 300 جنيه عام 1918، وألف جنيه عام 1925، و1500 جنيه عام 1930[845].

وما لبث المتحف المتواضع أن أصبح مفخرة الأقباط، وموقع احتفالى يعرض فيه حكام مصر المسلمين إهتمامهم برعاياهم من المسيحيين. وفى عام 1910 ألقى الرئيس الأمريكى تيودور روزفلت كلمة فى الجامعة المصرية، استنكر فيها اغتيال بطرس غالى، وهاجم الوطنيين، وأشاد بالحكم البريطانى لمصر. وعبر أعيان الأقباط عن شكرهم له

---

[843] Kaplan, ed., Museums and the Making of Ourselves, 256 – 58.

[844] مذكرات مرقص سميكة، 42.

[845] مذكرات سميكة، 46.

بدعوته لزيارة المتحف القبطى، واقترح قلينى فهمى إهداء أهم مخطوط قبطى لروزفلت ، ولكن سميكة رفض الإقتراح.

ولم يدخل المتحف أفق السياحة الغربية إلا بعد الحرب العالمية الأولى، فلا يرد ذكره بدليل بايديكر (1914)، ولا ما كميلان (1916). وساعدت زيارة السلطان فؤاد للمتحف عام 1920 على معرفة الجمهورية، وبعد ذلك بثلاث سنوات. إصطحب فؤاد الملك فيكتور إيمانويل الثالث ملك إيطاليا والملكة فى زيارة للمتحف[846].

الأقباط بين الملة والأمة

لا يرد ذكر الإصلاح القبطى، والمتحف القبطى فى الكتب التى تتناول تاريخ تلك الفترة الحافلة بالإضطراب السياسى، السابقة على الحرب العالمية الأولى، كان الأقباط يمرون بالمحاولة الرابعة للإصلاح بقيادة العلمانيين، بعدما أصبحت سوء إدارة المدارس والأوقاف القبطية على يد اللجنة الاستشارية الرباعية التى أقامها البطريرك، واضحة عام 1905، حتى أن جريدتى "الوطن" و"مصر" إتحدتا فى المطالبة بإعادة إقامة المجلس الملى، واستجاب البطريرك كيرلس الخامس وتم انتخاب مرقص سميكة عضواً بالمجلس الملى الجديد، الذى تغيرت أفكاره، فأصبح يرجع الصدام الذى حدث عام 1892 – 1893 بين البطريرك والمجلس الملى، إلى إشتطاط أعضاء المجلس (وكان واحداً منهم)، فى سياستهم[847].

ولاحظ أحد الكتاب البريطانيين أنه "كان من الممكن جذب البطريرك قليلاً نحو الإصلاح ببعض اللطف والحيلة التى عرف بها رجل مثل مرقص سميكة باشا"[848]، وبين سميكة على صفحات مذكراته كيف تخلص من التوتر الذى شاب علاقته بكيرلس الخامس الذى كان متسامحاً مع رجال الإكليروس الفاسدين، يغدق من أموال الكنيسة على أقاربه، يسعى لتحويل المعادن إلى ذهب ليستخدمه فى بناء الكنائس، ويجبر سميكة على الحفر تحت مذبح إحدى كنائس القاهرة ليستخرج "كنزاً" من تحتها[849].

---

[846] مذكرات مرقص سميكة، 52.

[847] A. Dowling, The Egyptian Church (London, 1909), Appendix 3.

[848] Leeder, Modern Sons of the Pharaohs: A Study of the Manners and Customs of Copts of Egypt (London, 1918), 263.

[849] مذكرات سميكة، 21 – 24.

استقال كرومر عام 1907، وحل بطرس غالى – بعد ذلك بعام– محل مصطفى فهمى رئيساً للنظار، فكان أول قبطى يتولى هذا المنصب، ولكن الوطنيين المعارضين إعتبروه مسئولاً عن توقيع اتفاقية الحكم الثنائى المصرى – الإنجليزى فى السودان عام 1899 ، وعلى رئاسته لمحكمة دنشواى التى قضت بإعدام الفلاحين (1906)، وإصدار قانون المطبوعات الذى كمم المصحف، والسعى لمد امتياز شركة قناة السويس. ولم يكن بطرس غالى فريداً فى تعاونه مع الإنجليز، فلم يختلف فى ذلك عن غيره من الأعيان المسلمين والأقباط فى تلك الأيام. فمن الأقباط كانت جريدتا "مصر" و"الوطن" وأخنوخ فانوس من أعيان أسيوط، يدافعون صراحة عن الإحتلال، وزين البطريرك كيرلس الخامس قاعة الاستقبال بصورتى إدوارد السابع وجورج الخامس[850]. وأسس أخنوخ فانوس – البروتستانتى، خريج الكلية السورية البرونسنينية – "جمعية الإصلاح القبطى " و"حزب المصريين المستقلين" الذى طالب الحكومة والإنجليز بتقديم إمتيازات للأقباط.

أما الحكماء من قادة الأقباط الآخرين فـاختاروا العمل فى إطار التيار الوطنى، فـانضم ويصا واصف حنا إلى الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل الذى كان يطالب بالاستقلال الفورى. واختار فخرى عبد النور وسينوت حنا الإنضمام لحزب الأمة الذى كان لطفى السيد وراء تأسيسه، ضم كبار الملاك والمثقفين الذين رأوا فى الإصلاح الاجتماعى تقدماً تدريجياً نحو الاستقلال، وأكد كل من مصطفى كامل، ولطفى السيد أن المسلمين والأقباط يكونون أمة مصرية واحدة. ولكن تدهورت علاقة الأقباط بالحزب الوطنى بعد وفاة مصطفى كامل عام 1908، وخاصة عندما قام أحد المنتمين إلى الحزب الوطنى بإغتيال بطرس غالى عام 1910. وبالغ المؤتمر القبطى – الذى نظمه فانوس وآخرون بأسيوط– فى تصعيد الخلاف وشق الصف الوطنى، واستدعاء عقد مؤتمر إسلامى رداً عليه[851].

كان سميكة يناور سياسياً بين صفوف البريطانيين، ومع البطريرك، ودعاة الإصلاح العلمانيين بالمجلس الملى. ولا يكاد يخلو كتاب إنجليزى عن الأقباط فى مطلع العشرين ،

---

[850] Leeder, Modern Sons, 246.

[851] حول أخنوخ فانوس، راجع: يوسف آصاف، دليل مصر، 353 – 355. وحول دور الأقباط فى حزبى الوطنى والأمة، أبو سيف يوسف، الأقباط والقومية العربية، 111.

من الإشارة إلى جهود مرقص سميكة. ويذكر سميكة أنه استطاع إقناع كرومر بتخصيص إعانة للمدارس القبطية الخاضعة لتفتيش المعارف، وأنه أقنع مستشار المعارف دوجلاس دانلوب باستبدال أحد الإصلاحيين المتعلمين بفرنسا بناظر الكلية الأكليريكية صنيعة البطريرك[852].

وعلى صعيد العمل الوطنى، عين سميكة عضواً بمجلس شورى القوانين (1906 – 1913)، وبالجمعية التشريعية (1914)، ويبدو أن علاقته بلطفى السيد وحزب الأمة كانت سطحية[853]. وكان الأقباط الآخرون من أعضاء مجلس شورى القوانين: قلينى فهمى ، وسينوت حنا، وكامل صدقى، وفى غضون تلك الأيام، حصل سميكة على الباشوية[854].

شعر الأقباط بالحاجة إلى جمع الصفوف بعد إغتيال بطرس غالى، وفى العام 1912، عمل اللورد كتشنر من خلال قلينى فهمى للوصول إلى حل وسط، ضم بموجبه أربعة من الأكليروس بطريق التعيين إلى جانب ثمانية من العلمانيين المنتخبين أعضاء بالمجلس الملى، وأعاق قيام الحرب العالمية الأولى وإشتعال ثورة 1919 دون ظهور محاولة جديدة للإصلاح القبطى[855].

يروى هذا الفصل قصة صراع دام أربعين عاماً بين البطريرك كيرلس الخامس ، والعلمانيين من دعاة الإصلاح بالمجلس الملى، غير أن ذلك لا يحجب ما حققه الأقباط من إنجازات فى التعليم، والثروة، والسياسة الوطنية عند قيام الحرب العالمية الأولى. وتعد الإحصائيات الخاصة بتلك المحاولات موضع الشك بسبب تباين الدوافع عند الأطراف التى طرحتها فى خضم الصراع الطائفى (الفتنة الطائفية). ولعل "الهلال" لم تتجاوز الحدود عندما ذكرت عام 1911 – استناداً إلى إحصاء 1907– وعائدات الضرائب أن الأقباط يمثلون 7% من سكان مصر، ولكنهم يملكون 16% من العقارات والأراضى الزراعية، و25% من الثروة الوطنية[856].

---

[852] مذكرات سميكة، 13 – 14، 89 – 91.
[853] أحمد شفيق، مذكراتى فى نصف قرن، 2 حـ 2 : 236 – 237.
[854] محمد خليل صبحى، تاريخ الحياة البرلمانية فى مصر، 6 : 52، 81 – 82.
[855] Seikaly, "Coptic Communal Reform", 265 – 66.
[856] Seikaly, "Coptic Communal Reform", 268.

أبناء الكنيسة القبطية أم أبناء الفراعنة

كان باستطاعة الأقباط إرساء هويتهم الحديثة على بر آباء المسيحية الأوائل فى العصر الرومانى – البيزنطى (الذى كان عصر اضطهاد)، أو على شاطئ مصر القديمة. وكانت الرؤية المتمركزة حول الكنيسة أكثر قبولاً عند رجال الدين وعامة الناس من الأقباط، بينما شعر العلمانيون الذين تأثروا بالأفكار الغربية بإغراء الرجوع إلى الفراعنة.

لم يحكم الأقباط مصر فى يوم من الأيام، وليس لديهم سوى الشهداء أو النساك من أمثال القديس أنطونيوس والقديس باخوميوس موضع فخار واعتزاز. فالتقويم القبطى لا يبدأ بمولد المسيح أو قدوم القديس مرقص إلى مصر، بل يبدأ بعصر "الشهداء" فى عهد دقلديانوس. بينما التاريخ الفرعونى – على نقيض ذلك– حافل بمظاهر الإعتزاز بمجد الأجداد والعظمة التى يتوقون للإفتخار بها.

وسواء كان التأكيد على العصر الفرعونى أو على العصر المسيحى – كما ذهب سميكة و"جمعية الآثار القبطية" التى أسسها مريت غالى فى الثلاثينات– فقد كان العلمانيون هم الذين قادوا حركة الحفاظ على الآثار التاريخية القبطية وتأسيس المتحف القبطى بينما كان البطريرك ورجال الأكليروس يستمدون شرعيتهم من خلافتهم للقديس مرقص، ومن الإشتهار بالتقى والزهد، غير أنهم كانوا لا يدرون ما يعود به الإصلاح التعليمى من منفعة، ولا يقدرون قيمة الآثار القبطية[857].

كان تادرس شنودة المنقبادى (1857 – 1932) علمانياً من جيل سميكة، متعمقاً فى الإهتمام بالماضى القبطى. استفاد مرتين من تحدى المبشرين الأمريكان للكنيسة القبطية، فتعلم بالمدرسة الأمريكية الإبتدائية بأسيوط، ثم إنتقل إلى المدرسة التى أقامها البطريرك ديمتريوس هناك لمواجهة البروتستانت. وما لبثت المدرسة القبطية أن أغلقت بعد وفاة البطريرك، عندما كان تادرس فى الثالثة عشر من عمره، فساعد والده فى تجارته حيناً من الزمن وشغل بعض الوظائف الحكومية بمديرية أسيوط. واشتغل بالتجارة واستصلاح الأراضى، وساعد فى تأسيس "الجمعية الخيرية القبطية" بأسيوط. وانتخب عام 1892 عضواً بالمجلس الملى الإصلاحى. وفى عام 1895 أسس جريدة "مصر" لسان حال

[857] Leeder, Modern Sons, 173.

الإصلاحيين، كما أسس "جمعية حفظ التاريخ القبطى" بأسيوط عام 1883 أو 1884 ، وترجم كتاب بوتشر "تاريخ الكنيسة فى مصر" إلى اللغة العربية[858].

كان الإهتمام بالماضى القبطى والماضى الفرعونى من قبيل التباهى – غالباً– وليس من قبيل الإرتباط القصرى. وكلاهما كان سهل التوافق مع الوطنية المصرية، فمعرفة اللغة القبطية لا تؤهل المرء للدراسات القبطية فحسب، بل ودراسة مصر القديمة أيضاً. ولم ير سميكة فارقاً كبيراً بين ديانة مصر القديمة والمسيحية. وذهب إلى أن معظم المصريين المسلمين انحدروا من صلب الأقباط، وأن جميع المسلمين المستنيرين يعرفون ذلك، فكل المصريين أقباط: بعضهم مسلمون أقباط، والبعض الآخر مسيحيون أقباط[859].

وفى ربيع عام 1882، إعترف ناظر الأشغال العمومية بالصلة بين الأقباط ومصر الفرعونية عندما اقترح إضافة عشرة تلاميذ إلى الخمسة الذين ضمتهم مدرسة أحمد كمال للآثار بالمتحف، على أن يكون من بين العشرة أربعة من الأقباط[860]. وجاء تأكيد بعض العلماء من أمثال ماسبيرو وبترى، وسايس، على انتساب الأقباط إلى الفراعنة ليضاعف من شعور الأقباط بالفخر. ففى حديثه أمام "نادى رمسيس" (وهو تجمع قبطى) ذكر ماسبيرو أن الأقباط يمثلون سلالة فرعونية خالصة. وأن المسلمين المصريين ينتسبون إلى نفس السلالة، ولكن التزاوج مع العناصر الوافدة جعلهم أقل نقاء، من الناحية العرقية، من الأقباط. ونقل كل من سايس وبترى هذه الرسالة العنصرية إلى مستوى بالغ الخطورة[861]. فكتب بترى: "القرية القبطية نظيفة طرقاتها جيدة الكنس، يجلس النسوة فى مداخل الدور يعلمن أو يتحدثن معاً على مستوى بلاد البحر المتوسط المتحضرة، وليست بالغة القذارة والفوضى كقرية المسلمين ... ولن تصبح مصر أبداً بلداً متحضراً إلا إذا حكمها الأقباط – إذا قدر لهم ذلك"[862].

---

[858] إلياس زاخورا، مرآة العصر، 1 : 414 – 417.

[859] (Simaka), "Awakening", 734.

[860] دار الوثائق القومية، مضابط مجلس الوزراء، وزارة الأشغال ومصلحة الآثار، 1 / 4 متاحف، رقم 99، 17 أبريل 1882.

[861] Seikaly, "Coptic Communal Reform", 269 – 70.

[862] Petrie, Seventy Years, 223 – 24.

وطرقت ملكة سعد – محررة المجلة النسوية "الجنس اللطيف"– هذا الطريق الخطر عام 1908، عندما كتبت: "النساء المصريات درجن على دراسة العلوم، والخطابة فوق المنابر، وحكم الإمبراطورية[863]. عندما كانت نساء البلاد الأخرى تعشن حياة العبودية والبؤس، واستمرت حرية النساء مع قدوم المسيحية، غير أنها تلاشت بعد الغزو العربى ، وفرض الخدر والحجاب على النساء.

وتكشف العناوين التى اختارها الأقباط لصحفهم عن تزايد انجذابهم نحو مصر القديمة . فقد إختار تقلا – المسيحى الشامى– "الأهرام" عنواناً لجريدته، أما الأقباط فـاختاروا "الوطن" و"مصر" التى عكست قومية إقليمية مليئة بالإعتزاز بمصر القديمة. وحملت الصحف القبطية الأخرى عناوين فرعونية صريحة: رمسيس (1893)، و"فرعون " (1900)، و"عين شمس" (1900)، و"الآثار المصرية" (1909)، و"رمسيس" أخرى (1911)[864].

وإكتشف سلامة موسى – الكاتب القبطى– مصر القديمة عندما سافر إلى أوروبا. واهتم مكرم عبيد – السياسى الوفدى– بمصر القديمة عندما كان يدرس بفرنسا[865]. فإكتشاف الوطن من خارجه ظاهرة شائعة فى القومية الحديثة.

ومزج كلوديوس لبيب (1868 – 1918) بين "المصريات" و"القبطيات" مثلما فعل بعض علماء الغرب. درس القبطية بمدرسة الأقباط الكبرى وتعلم الهيروغليفية أثناء عمله بمصلحة الآثار، وتركها عام 1892 ليقوم بتدريس اللغة القبطية بالكلية الإكليريكية، وأدار مطبعة البطريركية التى كانت تنشر كتباً دينية، وبدأ يعد قاموساً للغة القبطية، وفى عام 1900 أصدر مجلة عربية – قبطية هى "عين شمس". وبدأ الأقباط يطلقون على أولادهم أسماء فرعونية، ولكن كلوديوس لبيب أصر على أن يتخذ أولاده الستة من القبطية لغةً للحديث فى المنزل[866].

---

[863] Beth Baron, The Women's Awaking in Egypt, 109 – 10.

[864] فيليب طرازى، تاريخ، 4 : 279، 281، 289، 301، 303، 305.

[865] مصطفى الفقى، الأقباط، 46؛ Louca, Voyageurs, 70.

[866] تادرس، الأقباط، 4 : 135 – 139.

ويعكس كتاب ميخائيل شاروبيم "الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث" – الذى يقع فى أربعة مجلدات– وطبع فيما بين (1898 – 1900)، إهتماماً قبطياً عميقاً بتاريخ مصر كله، وليس بالعصر الفرعونى، أو البيزنطى – القبطى وحدهما[867]. ويغطى تاريخ مصر من أيام مصرائيم بن حام بن نوح حتى الخديو توفيق.

ورغم أن شاروبيم أدخل الأقباط فى إطار معالجته لتاريخ مصر الإسلامى والحديث، فقد قدم تاريخاً قومياً، وليس طائفياً، وإطار تناوله لما قبل الإسلام يشبه تناول الطهطاوى لنفس العصر فى "أنوار توفيق"، وربما كان معتمداً عليه. ونادراً ما أشار الطهطاوى إلى أسماء البطاركة الأوائل، ولكن شاروبيم فعل ذلك منذ النصف الثانى من القرن الثانى ، عندما بدأوا يظهرون من بين ضباب الأساطير. ولخص الإضطهاد الرومانى – البيزنطى.ولم يفترض استمرارية التاريخ القومى المصرى منذ أقدم العصور فحسب، بل وضع الأقباط فى مكانهم من ذلك التاريخ على مر العصور.

وعند الحرب العالمية الأولى، كان المتحف القبطى المتواضع، والكنائس التى قامت لجنة حفظ الآثار بإصلاحها ترمز لرؤية الأقباط للماضى والحاضر التى اختلفت عما كانت عليه قبل ذلك بنصف القرن. كان الأقباط أفضل تعليماً، وأكثر ثراء، واتصالاً بالعالم الخارجى من ذى قبل. وعكست الصراعات بين الأكليروس والمجلس الملى تصميم العلمانيين المتعلمين الأثرياء، وتشدد الأكليروس. وكان التحول من وضع الأقلية التى تحظى بالتسامح إلى المواطنين المتساويين فى حقوق المواطنة يسير فى طريقه. وأحس الأقباط بالإعتزاز الشخصى بتراثهم الفرعونى، ولكن كان عليهم أن يحذروا ما قد يجرهم إليه ذلك من القول بتميزهم على مواطنيهم من المسلمين.

[867] J. A. Crabbs, Jr., The Writing of History, 133 – 36.

الخاتمة

على مر الرحلة التى قطعها هذا الكتاب من 1798 حتى 1914، قام بربط تاريخ علم الآثار المصرية – كما يكتب فى الغرب– بتاريخ دخول المصريين المحدثين فى ذلك المجال ، فوضع بذلك تاريخ الآثار والمتاحف فى سياقات أرحب أبعاداً لكل من الإمبريالية الغربية، وتاريخ مصر القومى، وجمع بين تخصصات أربعة فى علم الآثار، غالباً ما يدرس تاريخ كل منها على حدة. وتناول هذا الكتاب التوتر الذى اتسم به الإلتزام الأيديولوجى بالإمبريالية والقومية من ناحية، والمثل الخاصة بالمعرفة العالمية الموضوعية، من ناحية أخرى، آخذاً فى الإعتبار الإهتمامات البحثية والشعبية بالآثار فى كل من مصر والغرب ، ويوضح هذا الكتاب كيف أثر علم الآثار فى عملية بناء الهوية المصرية الوطنية.

ففى الغرب، ألقى الإفتتان العلمى والشعبى بالعصر الفرعونى، بظلاله على الإهتمام بالعصور الأخرى من تاريخ مصر، ويعكس دليل بايديكر السياحى فى تغطيته للمتاحف المصرية عام 1914، الأهمية النسبية للعصور المختلفة من منظور صناعة السياحة، فقد خصص للمتحف المصرى 42 صفحة، وللمتحف اليونانى – الرومانى أربعة صفحات ، وصفحتين ونصف الصفحة لمتحف الفن العربى، ولم يكن المتحف القبطى قد دخل دائرة اهتمام دليل بايديكر بعد، وإن كان قد أشار إلى المجموعة القبطية بالمتحف المصرى فى بضعة أسطر، وفى طبعة 1929، أضاف ذلك الدليل صفحة واحدة عن المتحف القبطى ، ولكن نسب التغطية للمتاحف الأخرى ظلت تميل إلى جانب مصر القديمة.

وكانت المسافة التى قطعها علم المصريات الغربى فيما بين 1798 – 1914، بالغة الطول. ففى أيام بونابرت، قدم العلماء رؤية مضطربة لظلال مصر القديمة استناداً إلى المصادر الكلاسيكية، والكتاب المقدس، والآثار التى اختفى نصفها تحت الرمال. وعند العام 1914 كان العلماء يقرأون منذ وقت طويل كلمات المصريين القدماء أنفسهم. فقد قام علماء المصريات بنسخ ودراسة آلاف النقوش، وملأوا متاحف الغرب والقاهرة بمجموعات بالغة الثراء من الآثار الفرعونية. كما قاموا بالتنقيب على نطاق واسع، وتحسنت الطرق الفنية للحفائر تدريجياً، ودخلت آثار ما قبل التاريخ مجال الإهتمام.

ومن الصعوبة بمكان رصد التغير فى أفكار المصريين عن الآثار والتاريخ طوال القرن التاسع عشر. فلا يزال إدراك معظم المتعلمين المصريين لمصر القديمة محجوباً وراء ظلال الدراسات الإسلامية والعربية التقليدية، ولا زالت "فرعون" و"فرعونى" كلمتين بغيضتين عند الكثير من المتدينين المحافظين حتى يومنا هذا. ولكن الطهطاوى، وعلى مبارك، وأحمد كمال، وكلوديوس لبيب، تكونت عندهم رؤى مختلفة لمصر القديمة باعتبارها تمثل ماضى مجيد يحسد العالم المصريين عليه. ورغم الصعاب التى واجهت أحمد كمال فى زمن علا فيه مد الإمبريالية، كون نفسه فى مجال المصريات، وساعد على إقناع أحمد لطفى السيد وغيره بأن الإعتزاز بمصر القديمة ضرورى للصحوة الوطنية.

وعلى ضفاف السين، بدأ رفاعة الطهطاوى يراجع فكره عن هوية مصر، وساغ فلسفة سياسية ربطت الوطنية المصرية (التى تضمنت مكوناً فرعونياً)، بالولاء للأمة الإسلامية، والإخلاص لأسرة محمد على. ولعب الطهطاوى دوراً فى الجهود التى بذلها محمد على للحد من نهب الآثار، وألف – بعد ذلك بثلاثة وثلاثين عاماً– أول كتاب فى تاريخ مصر القديمة، ينشر باللغة العربية.

وفى الجيل التالى، كان لعلى مبارك، ومحمود الفلكى، إهتمامات موسوعية تجمع بين تاريخ مصر القديم والإسلامى معاً. ولعبا دوراً فى وضع أسس التعليم الحديث فى مصر.

واستطاع الفرنسيون الإحتفاظ لأنفسهم بالسيطرة على الآثار المصرية منذ إنشاء المصلحة الخاصة بها، بفضل جهود ماريت ودبلوماسية ماسبيرو. وسجلت واجهة المتحف الذى افتتح عام 1902 "الغلو الاستشراقى الإمبريالى" عندما خلدت علماء المصريات الغربيين ، وأهملت المصريين. وفى العام التالى تم افتتاح مبنى الكتبخانة الخديوية ومتحف الفن العربى، ذى الطراز المماليكى، وكان المستشرقون الأوروبيون قد أقنعوا الخديو توفيق عام 1881 بتأسيس لجنة حفظ آثار الفن العربى، وجاء متحف الفن العربى ثمرة لجهود تلك اللجنة، من باب الإفتتان "بالآخر الشرقى"، وقامت اللجنة بالمحافظة على بعض المبانى الأثرية الإسلامية، وترميم بعضها، وإعادة بناء البعض الآخر.

وفى عام 1892 أقامت الجاليات الأجنبية بالإسكندرية المتحف اليونانى – الرومانى، الذى دخل تحت الإشراف "العلمى" لمصلحة الآثار المصرية، وقامت نخبة الجاليات الأجنبية السكندرية بدعم المتحف من خلال "الجمعية الآثارية السكندرية".

وفى إطار تلك المؤسسات التى تطلع المصريون المعنيون بالمصريات إليها، تكون ثلاثة من الرواد المصريين الذين قضوا معظم حياتهم العملية تحت ظلال الإحتلال: عالم المصريات أحمد كمال، وعالم الآثار الإسلامية على بهجت، ومرقص سميكة مؤسس المتحف القبطى، هؤلاء الرواد الذين انتموا إلى جيل الثمانينات، عزفوا عن الإتجاه الموسوعى للجيل السابق عليهم، وسايروا التوسع الهائل فى المعرفة بالإتجاه نحو التخصص، شأنهم فى ذلك شأن أبناء الغرب فى القرن التاسع عشر.

وإذا استرجعنا ظروف علم الآثار عند نهاية العام 1914، نجد أن الوطنيين المصريين لم يجدوا ما يبعث السرور عندهم. فقد فتحت بداية الحرب الطريق أمام على بهجت ليتولى إدارة متحف الفن العربى، وتولى أحمد لطفى السيد إدارة (دار الكتب)، ولكن تلك كانت حالات استثنائية. فقد كان حماس المصريين أن ينالوا موقعاً فى مصلحة الآثار، ولجنة حفظ الآثار، والمجمع العلمى المصرى والمتاحف فى العقود السابقة على الحرب، مرهوناً ببقائهم تحت الهيمنة الأجنبية. فقد حالت معارضة الأوروبيين دون تكوين جيل ثالث من المصريين المتخصصين فى المصريات، وتقاعد كل من أحمد كمال، وعلى بهجت دون أن يخلفهم مصريون فى مواقفهم.

وإذا نظرنا إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، نجد أن السياسات الإمبريالية والوطنية حددت إتجاه العمل فى مجال علم الآثار، ولكن المجال ذاته كان له إيقاعاته الداخلية الخاصة به. وجاء اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون صدفة فى نفس السنة التى أعلنت فيها بريطانيا – من جانب واحد– استقلال مصر (28 فبراير 1922)، ليربط علم الآثار بالسياسة برباط لم يستطع منه فكاكاً. وأتاح هذا "الاستقلال" المحدود لمصر فرصة الإحتفاظ بكل محتويات مقبرة توت عنخ آمون، ووضع قيود أكثر حزماً على تصدير الآثار، والبدء فى تمصير العمل بالمتاحف ومصلحة الآثار، وتدريس التاريخ الفرعونى

بالمدارس، وإقامة جامعة حكومية، وفتح برامج جامعية لتدريب المصريين فى مجالات المصريات، والكلاسيكيات والآثار والفنون الإسلامية.

ولكن التراجع الإمبريالى كان مخادعاً، فمع وجود دريتون على رأس مصلحة الآثار – وكريزويل على رأس قسم الآثار الإسلامية بمعهد الآثار التابع للجامعة، وجاستون فييت على رأس متحف الفن العربى، وأدريانى على رأس المتحف اليونانى – الرومانى، أحكم الأجانب سيطرتهم على تلك المؤسسات لجيل كامل آخر. لقد كانوا جميعاً علماء بارزين ، بذلوا القليل من الجهد لإخضاع الوطنيين.

وعرف الإنتساب إلى مصر القديمة طريقة للبروز من خلال التيارات الوطنية الرئيسية، ومن خلال وسائل الإعلام، وتمثال نهضة مصر لمحمود مختار، وضريح سعد زغلول ، وجدارية محمود سعيد بمبنى البرلمان، وعلى طوابع البريد، وأوراق البنكنوت، ورواية "عودة الروح" لتوفيق الحكيم، وثلاثية نجيب محفوظ.

وحصلت مصر على استقلالها التام، وأحكمت قبضتها على الآثار والمتاحف فى مطلع الخمسينات من القرن العشرين. فقد تعرض فييت للضغوط حتى اضطر لترك منصبه فى ربيع 1951 وغادر البلاد. وفى ديسمبر من نفس السنة أنهت آخر حكومة وفدية عمل كريزويل وغيره من الموظفين الإنجليز بالحكومة المصرية. وبعد ستة شهور أرسل "الضباط الأحرار" دريتون إلى بلاده، عشية قيامهم بالثورة. وهكذا أصبح مصطفى عامر أول مدير مصرى لمصلحة الآثار، بينما جاء تعيين محمد مصطفى مديراً لمتحف الفن الإسلامى ليسد فراغاً تركه على بهجت من قبل.



الشكل رقم (٤٥) تمثال نصفى لأحمد كمال – النصب التذكارى لماريت

والآن إنضمت تماثيل نصفية لأحمد كمال وبعض علماء المصريات الآخرين إلى النصب التذكارى للعلماء الذى كان قاصراً على الأوروبيين تخليداً لمارييت فى فناء

المتحف المصرى (انظر الشكلين 3 و45)، وأطلق إسم كل من أحمد كمال وعلى بهجت على شارعين من شوارع القاهرة الفرعية، ووازنت أوراق البنكنوت بين الآثار الفرعونية والإسلامية، فخصصت وجهاً لكل منها فى سياق تحديد رسمى قوى للهوية الوطنية المصرية، ولا نكاد نرى فى الأفق نهاية للإختلاف حول دور تراث مصر القديمة فى تحديد هوية مصر الحديثة.

وفى عام 1913، أصدرت سارة الميهية مجلة نسائية لم تعمر طويلاً حملت عنوان "فتاة النيل"، ولم تكن سارة متعلمة تعليماً غربياً كما لم تسافر إلى أوروبا، بل كانت مسلمة محافظة تعارض الدعوة إلى رفع الحجاب، ولكنها وجدت وضع الأهرام إلى جوار النيل، والشمس والهلال، والنخيل، وبيوت الريف على غلاف المجلة (انظر الشكل 46)، وسيلة طبيعية للتعبير عن هويتها، فالأهرام ترافق النيل الخالد واهب الحياة لأرض مصر، فجاء شعار المجلة رمزاً للإعتزاز بالماضى المجيد وللوطنية. ولكن الإسلام والتراث العربى لا زال أكثر عمقاً عند المصريين من تراث مصر القديمة، وخبت جذوة "الفرعونية" كمكون من مكونات القومية المصرية.



الشكل رقم (٤٦) الأهرام والنيل رمزا لمصر – صفحة العنوان من مجلة «فتاة النيل» عام ١٩١٣

ملحق بالجداول الإيضاحية

جدول (6) كتب الدليل السياحى المصرى حسب اللغات

التواريخ	الإنجليزية	الفرنسية	الألمانية	لغات أخرى
الثلاثينات	1	1	-	-
الأربعينات	3	1	1	-
الخمسينات	4	1	1	-
الستينات	4	8	-	1(بالإيطالية)
1882 - 1870	5	2	3	-
1889 - 1883	2	-	2	-
1899 - 1890	19	4	3	-
1914 - 1900	31	15	9	1 (بالروسية)

المصدر: قمنا بعمل الجدول استناداً إلى كتاب:

Oleg V. Volkoff, Comment ou visitait la Vallee du Nil: Les Guides de l'Egypte (Cairo, 1967), 103 – 19.

وقد أسقطنا من الحصر الوارد به كتب الدليل الخاصة بالمدن، أو الأقاليم، أو المتاحف.

جدول (7) جنسيات مؤلفى كتب الدليل السياحى الخاصة بمصر

التواريخ	بريطانيون	فرنسيون	أمريكان	ألمان	نمساويون مجريون	إيطاليون	روس	آخرون
1799 – 1790	3	6	-	1	-	-	-	-
1809 – 1800	17	7	-	-	-	1	1	-
1819 – 1810	7	4	-	2	-	-	-	1
1829 – 1820	20	7	2	4	-	-	-	4
1839 – 1830	24	18	4	2	-	2	-	2
1849 – 1840	45	13	10	6	1	1	-	2
1859 – 1850	35	12	25	8	1	3	-	2
1869 – 1860	27	15	15	6	2	-	2	4
1879 – 1870	37	17	36	11	2	-	6	6
1889 – 1880	35	13	47	4	2	3	8	8
1899 – 1890	24	8	48	3	-	-	2	5
1914 - 1900	27	9	97	11	1	-	5	8

المصدر: قمنا بعمل الجداول استناداً إلى كتاب:

M. R. Kalfatovic, Nile Notes of the Howadji, A Bibliography of Travelers' Tales From Egypt, From Earliest Times to 1918 (Metuchen, N. J., 1992).

جدول (8)

المقيمون الأجانب فى مصر (والتابعون لحمايتهم) حسب الجنسية
(الأرقام بالألف)

التواريخ	يونان	طليان	بريطانيون	فرنسيون	نمساويون مجريون	روس	ألمان	مجموع الأجانب	تعداد سكان مصر
1871	؟	14	؟	؟	؟	؟	؟	80	5250
1882	؟	19	؟	؟	؟	؟	؟	91	6804
1897	38	24	20	14	7	3	1.3	113	9715
1907	63	35	21	15	8	2.4	1.8	؟	11.28

المصدر: تعداد سكان مصر عام 1907، المنشورة بالقاهرة (1909)، ص 130، وكتاب:

A.E. Crouchley, The Economic Development of Modern Egypt (London, 1938), .256

ملاحظة: كل الجنسيات الأوروبية التى لا تظهر بالجدول والولايات المتحدة الأمريكية، كان لكل منها حوالى أقل من الألف مقيم بمصر.

جدول (9) حجم الجاليات الأجنبية فى مصر ومؤشرات السياحة (مرتبة حسب الأعداد)

الدهبيات بالأقصر 1873	لغة طبعات كتب الدليل السياحى 1830 - 1914	عدد الرحالة المؤلفين 1880 - 1914	حجم الجالية فى مصر فى 1897 و1907
1 – بريطانيا	1 – الإنجليزية	1 – الولايات المتحدة	1 – اليونان
2 – الولايات المتحدة	2 – الفرنسية	2 – بريطانيا	2 – الطليان
3 – ألمانيا	3 – الألمانية	3 – فرنسا	3 – البريطانيون
4 – فرنسا وبلجيكا	4 – الإيطالية والروسية	4 – ألمانيا	4 – الفرنسيون
		5 – روسيا	5 – النمساويون – المجريون
		6 – إيطاليا	6 – الروس
		7 – النمسا والمجر	7 - الألمان

ملاحظة: هذا الجدول يقدم تلخيصاً للجداول من 6 – 8.

جدول (10) عضوية "المجمع العلمى المصرى" و"الجمعية الجغرافية الخديوية"

فرنسيون	بريطانيون	ألمان	طليان	نمساويون ومجريون	روس	سويديون	بلجيك	هولنديون	يونان	مصريون	أمريكان	آخرون	المجموع
المجمع العلمى المصرى 1859													
أعضاء فخريون													
38	8	4	3	3	2	1	1	-	1	1	-	1	63
أعضاء مقيمون													
21	3	2	9	-	1	-	-	-	3	7	-	4	49
أعضاء مراسلون													
16	2	2	8	1	1	1	-	-	-	9	-	23	63
الجمعية الجغرافية الخديوية (جميع مستويات العضوية) 1881													
27	15	5	37	8	2	-	3	2	6	25	6	4	140

ملاحظة: الأربعة (الآخرون) من أعضاء الجمعية الجغرافية كانوا من سويسرا، والمراسلون من أعضاء المجمع العلمى (الآخرون) جاءوا من بلاد الشرق الأوسط خارج مصر، وبينهم مصرى واحد.

جدول (11) المعارض الدولية، والمؤتمرات الدولية 1851 – 1882

التاريخ	المعارض الدولية	المؤتمرات الجغرافية	المؤتمرات الاستشراقية	مؤتمرات أخرى
1851	لندن			1 – صحي، باريس
1853				2 – إحصائي، بروكسل
1855	باريس			
1862	لندن			
1863				الصليب الأحمر، جنيف
1865				1 – إتحاد التلغراف(باريس)
1866				1 – الأنثروبولوجيا وما قبل التاريخ والآثار(نيوشاتل)
1867	باريس			2 – صحي، إستانبول
1870				
1871		1 – أنتورب		
1872				
1873	فيينا		1 – باريس	1 – إتحاد البريد، برن
1874			2 – لندن	
1875		2 – باريس		
1876	فيلادلفيا		3 - سان بطرسبرج	
1877				
1878	باريس		4 – فلورنسا	
1881		3 - فينسيا	5 - برلين	
1882				

جدول (12)

مديرو مصلحة الآثار المصرية (الأنتيكات، والأنتكخانة)
1858 – 1952

أوجست مارييت	1858 – 1881
جاستون ماسبيرو	1881 – 1886
أوجين جريبو	1886 – 1892
جاك دى مورجان	1892 – 1897
فيكتور لوريه	1897 – 1899
جاستون ماسبيرو	1899 – 1914
بيير لاكاو	1914 – 1936
إيتيان دريوتون	1936 – 1952

جدول (13) المعارض الدولية، والمؤتمرات الدولية 1883 – 1914

التاريخ	المعارض الكبرى	المؤتمرات الاستشراقية	المؤتمرات الجغرافية	مناسبات ومؤتمرات دولية أخرى
1883		6 – ليدن		
1886		7 – فيينا		
1888		8 – ستوكهلم وكريستيانا		
1889	باريس		4 – باريس (4)	
1891			5 – برن (2)	
1892		9 – لندن (إنقسام)		
1893	شيكاجو	9 – لندن (إنقسام)		
1895		10 – لشبونة جنوا (إنقسام)	6- لندن (6)	
1896				1 – الألعاب الأوليمبية – أثينا
1899		11 – باريس 12 – روما	7 – برلين (1)	
1900	باريس			
1902				1 – أثينا – الآثار الكلاسيكية
1903		13 – هامبورج		
1904	سانت لويس	14 – الجزائر	8 – الولايات المتحدة (1)	
1908			9 – جنيف (3)	
1909				2 – القاهرة – الآثار الكلاسيكية
1911		15 – كوبنهاجن		
1912				3 – روما – الآثار الكلاسيكية
1913		16 - أثينا	10 – روما (3)	

جدول (14) تاريخ تأسيس معاهد الآثار الغربية فى بلاد البحر المتوسط

المكان	فرنسا	ألمانيا	الولايات المتحدة	بريطانيا	النمسا والمجر	إيطاليا
أثينا	1846	1874	1882	1886	1897	
روما	1873	1829	1895	1899		1909
القاهرة	1880	1907	1948			
القدس	1890	1902	1900	1920		
إستانبول	1930	1929	1974			

المؤلف فى سطور

دونالد مالكولم ريد

أستاذ التاريخ بجامعة ولاية جورجيا بالولايات المتحدة الأمريكية، الذى تخصص – منذ ما يزيد عن ربع القرن– فى تاريخ الثقافة العربية الحديثة، وبدأه بكتاب عن فرح أنطون وريادته للعلمانية (نشر 1975)، وثَنّى بكتاب عن "المحامين والسياسة فى العالم العربى 1880-1960" (نشر عام 1981)، وكان كتابه الثالث عن "جامعة القاهرة وصناعة مصر الحديثة" (نشر عام 1990).

المترجم فى سطور

رءوف عباس حامد

أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب – جامعة القاهرة، له مؤلفات عديدة فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر.